



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي



كلية الآداب واللفات

قسم اللغة والأدب العربي

التشكيل السردى للمتشابه اللفظي في القصة القرآنية في ضوء نظرية السرد الحديثة

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب قديم

إشراف الأستاذ الدكتور:

صالح خديش

إعداد الطالب:

• سمير بعزیز

أعضاء لجنة المناقشة:

| الاسم و اللقب | الرتبة | الجامعة | الصفة |
|-------------------|--------|------------|--------------|
| بلقاسم دكدوك | أستاذ | أم البواقي | رئيسا |
| صالح خديش | أستاذ | خنشلة | مشرفا ومقررا |
| سكينة قدور | أستاذ | أم البواقي | عضوا مناقشا |
| رزيقة طاوواطو | أستاذ | أم البواقي | عضوا مناقشا |
| السعيد بن إبراهيم | أستاذ | باتنة | عضوا مناقشا |
| عمار شلواوي | أستاذ | بسكرة | عضوا مناقشا |

السنة الجامعية: 1442 - 1443 هـ / 2021 - 2022 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٣٨

مُقَدِّمَةٌ

مُقَدِّمَةٌ:

أعجز الله خلقه بإنزال كتابه الكريم على رسوله الأمين، وتحدى الإنس والجن على أن يأتوا بحديث مثله فما استطاعوا لذلك سبيلا، وقد أودع فيه أسرار الجمال التي تنكشف أمام الباحثين عن الحق فيه، والمؤمنين به، فيزدادون به إيمانا مع إيمانهم، وتقوى به عقائدهم، فتترسخ أقدامهم على طريق الحق والرشاد، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمَرُ: 23].

ذكر الله عز وجل قصص الأولين ليجعلها عبرة للمعتبرين، وجعلها أحسن القصص، وقد نقلت لنا نصوص الآيات تلك الأحداث الواقعة في الأزمنة الغابرة بكل تفاصيلها وكأن المستمع يراها تتحرك أمامه رأي العين، كل ذلك بأسلوب معجز لم تعهده العرب من قبل في كلامها، ويبقى إعجازه مستمرا في الزمن، فهو كتاب الله فيه « نَبَأٌ مَّا قَبْلَكُمْ، وَخَبْرٌ مَّا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمٌ مَّا بَيْنَكُمْ، لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ ».

يتكرر ذكر القصة الواحدة في مواضع متعددة من القرآن الكريم بألفاظ متقاربة في كثير من النصوص، وتكاد أن تتطابق أحيانا، مما يدفع القارئ إلى التثبت ومراجعة ما مر عليه منها، فيجد كل نص قد ذكر في محله الذي جعل فيه، لا يقوم فيه غيره بما جاء لأجله، وهذا ما يعرف عند العلماء بالمتشابه اللفظي في القصص القرآني، حيث يتكرر ذكر القصة الواحدة في مواضع شتى من سور القرآن الكريم، مع تغيرات تطرأ على ألفاظ وتراكيب الآيات بحسب السياقات الواردة فيها.

وقد بذل المفسرون جهدا عظيما في تبیین المراد من كلام الله عز وجل، كُلُّ بِمَا وَفَقَهُ اللَّهُ فِيهِ، وَمَا يَسْرُهُ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ زَمَرَهُ مِنْهُمْ قَدْ خَصَّهُمُ اللَّهُ بِفَضْلِهِ وَزَادَهُمْ مِنْهُ، فَانْبَرُوا لِدِرَاسَةِ مَا اسْتَشْكَلَ مِنْ مُتَشَابِهِ الْآيَاتِ فِيهِ، فَبَذَلُوا وَسَعَهُمْ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كَثِيرًا مِنَ الْأَسْرَارِ الَّتِي أودَعَهَا فِي كِتَابِهِ، وَكَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ نَصِيبٌ مِنَ الْفَضْلِ فِي تَبْيِينِ مَرَادِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ، وَكَادَ مِنْهَجُهُمْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدًا فِي تَعَامُلِهِمْ مَعَ نِصُوصِ مَا

تشابه منه, حيث اتفقوا جميعا في تخريج تكرار الآي المتشابه وفق نظرية السياق العام الذي وردت فيه.

ومع كل ذلك الجهد المبذول منهم في تبين مراد الله عز وجل في كتابه, إلا أن كثيرا من النصوص ما زالت تحتاج إلى كشف أسرارها, والغوص فيها من أجل استخراج دررها, فإن الله عز وجل لم يخص بعلمه أقواما دون آخرين, فكتابه معين لا ينضب, وبحر لا ساحل له ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: 29], فوجب على الدارس أن يقف وقفة تدبر وتأمل بين يدي كل لفظ ورد في كتاب الله عز وجل بغية فهمه, وتعلمه, لا سيما تلك المواضع التي تستوقفك في قصص السابقين, فيبقى العقل مندهشا أمامها, وهو يحاول الوصول إلى كنهها, وفهم ما استشكل عليه منها من خلال ما ذكره العلماء في تفسيرها.

وجدت نفسي في كثير من المرات أقف متحيرا أمام متشابه القصص القرآني, كلما حاولت الوصول إلى جمع تصور شامل لأحداث القصة في نص واحد, فيتشتت ويتبعثر ذاك التصور بين يدي حينما أقف أمام نص آخر للقصة نفسها, وكلما رجعت فراجعت أقوال علماء المتشابه في ذلك لا أكاد أروي غليلي مما أردت, ولا أصل إلى ما قصدت, فعزمت أمري على إقحام نفسي في غمار البحث والدراسة علني أحظى منها بما يثلج صدري, ويحل ما استشكل من أمري.

وكانت بدايتي مع البحث متعثرة, حين تعسر علي إيجاد المنهج المناسب للدراسة, فحاولت مقارنة نصوص الآيات من جهات متعددة وبطرق مختلفة, فلم أكل ولم أمل مع صعوبة المسالك ووعورة الطريق, فكننت في كل مرة أحاول فيها فهم أسرار تكرار الآيات في القصة الواحدة إلا أنني أجد نفسي غير راض بما حققت, ولا مقتنع بما أنجزت, حتى أرشدني الله إلى طريقة تصوير وتشكيل الأحداث والمواقف في القصة, ومتابعتها بدقة من خلال وظائف الألفاظ ومعانيها المستعملة في النص, ففتح الله علي بها كثير مما استغلق, وانحلت عقدة فهمي لعدد من المشاهد التي بقيت غامضة في تصوراتي مدة من الزمن.

وعرفت بعدها حكمة الله في حين منحني موهبة الرسم, وممارسة الفنون التشكيلية, فقد فتحت عيني على بعض ما كنت أبحث عنه, فانطلقت من مبدأ التشكيل

والتصوير بمفهوميهما الشامل والواسع، المعتمد على لغة النص القرآني الدقيقة والمعجزة، أحاول من خلالها بناء الفضاءات الزمانية والمكانية التي كانت تتحرك فيها الشخصيات وتدور حولها الأحداث، وأبذل قصارى جهدي حتى أعيشها لحظة بلحظة وحدثًا بحدث، فكانت الصور ترتسم بين يدي مرة صورة ثابتة بأبعادها البسيطة، ومرة تتشكل أشكالًا بظلالها ثلاثية الأبعاد، ومرة أخرى تؤدي ألفاظ النص دور كاميرات المسح الشامل للمشهد، فأراه من كل زواياه الممكنة.

بدأت رحلة بحثي بجمع كل ما وقع بين يدي من كتب المتشابه اللفظي، فحصلت على كثير منها، وأهمها أربعة: (**دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَغَرَّةُ التَّأْوِيلِ**) للخطيب الإسكافي، و(**مَلَاكُ التَّأْوِيلِ الْقَاطِعِ بِدَوِي الْأَلْحَادِ وَالتَّعْطِيلِ فِي تَوْجِيهِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِ مِنْ آيِ التَّنْزِيلِ**) لابن الزبير نغزناطي، و(**أَسْرَارُ التَّكْرَارِ فِي الْقُرْآنِ**) لأبي القاسم ابن نصر الكرماني، و(**كَشْفُ الْمَعَانِي فِي الْمُتَشَابِهِ مِنَ الْمَثَانِي**) لبدر الدين ابن جماعة، وقد استفدت منها كثيرا مع أصول مصادر التفسير، وما كتب حديثًا في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، إلا أنني كما ذكرت آنفاً قد أعجز في أحيان كثيرة عن إيجاد المخرج لما أردت، مع مروري على كل ما وقع بين يدي من الكتب التي ذكرت تلك المباحث.

ولما قرأت ما كتب علماء المتشابه في ذلك أيقنت أنه لا سبيل إلى الوصول إلى العيش مع قصص السابقين إلا إذا استكملت جمع كل شاردة وواردة مما ورد في القصة الواحدة من نصوص الآيات الكريمة، وبدأت جمع ذلك انطلاقاً من قصة أبي البشر آدم عليه السلام، إلى أن وصلت إلى آخر قصة عيسى عليه السلام، وكنت قد مررت على كل ما يمكن أن يتحقق فيه شرط المتشابه اللفظي، فجعلته من مادة البحث المراد دراسته، فاجتمعت بين يدي مادة بحثية مهولة من نصوص القصص القرآني، وكادت أن تحول بيني وبين ما أردت، ولكنني لم أستسلم وعزمت على إكمال الطريق، فقامت بتقسيم السرد القصصي إلى مشاهد حسب ما يقتضيه المقام، وقد أضطر إلى تقسيم المشهد إلى مفاصل حسب ما تمليه الضرورة البحثية، ولما اكتملت المدونة المراد درسها رأيت من المفيد لي أن أضم إليها أقوال علماء المتشابه فيها،

وذلك حسب كل مشهد أو مفصل لكي يتحقق المراد، وفي الأخير اجتمع بين يدي ما يقارب الأربعمئة (400) صفحة من مادة سردية خام تحتاج إلى البحث والدراسة. أردت ابتداءً أن أدرس أثر المتشابه اللفظي في بناء القصص القرآني، إلا أن لجنة قبول البحث في الكلية عدلت من طريقة البحث، وأرادت تغيير منهج الدراسة، فأبدلت منهج التشكيل السردى بمنهج دراسة أثر المتشابه في بنية القصة، ونعم الرأي كان، واتفقنا على تسمية البحث بـ (التَّشْكِيلُ السَّرْدِيُّ لِلْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ فِي الْقِصَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي ضَوْءِ نَظَرِيَّةِ السَّرْدِ الْحَدِيثَةِ).

كان الدافع الأساس والسبب الرئيس في إنشاء هذا البحث هو محاولة الوصول إلى فهم بعض أسرار المتشابه اللفظي في القصص القرآني، وتذوق جمال التعبير المعجز فيه، وكان يلفت انتباهي كثيرا تتكرر الآيات في القصة الواحدة، فكنت أتساءل عن سر ذلك، فلماذا تعاد وتتكرر أحيانا بالذكر والحذف ؟ وأحيانا بالتقديم والتأخير ؟ وأحيانا أخرى بنسبة نفس القول إلى قائل آخر غير الأول ؟ إلى غير ذلك من الوجوه المذكورة في مواطنها، وكنت أبحث هل أجاب علماء المتشابه أجوبة تروي غليل الباحث وتشفي علته ؟ وهل حقا كان توجيه الإجابات حسب سياق الآيات يفك عقدة فهم أسرارها ؟ أم هل لي أن أنهج نهجا آخر يُمَكِّنِي من الوصول إلى مبتغاي من غير طريق التفسير السياقي والمعجمي لنصوص الآيات ؟

ومهما بين علماء التفسير مراد الله عز وجل في كتابه إلا أنني بقيت عالقا في تصوير كثير من المشاهد في القصص بسبب الغموض الذي يبقى مرتبطا بحقائق الألفاظ المعبر بها في نصوص السرد القرآني، فإن تفسيرهم - مثلا - لكلمة (**مَغْرَلٍ**) الذي كان فيه ابن نوح عليه السلام لم تزد المشهد إلا غموضا، فهم لم يبينوا مكانه، مع أن تصور مشهد الغرق كله كان منوطا بشرط تحديده، ولا يكتمل التصوير اللفظي له إلا بتعيينه، فهل بينوا مراد الله من ذلك بما يزيل الغموض عن هذا المشهد ؟ وكذلك مثله تفسيرهم لقوله عز وجل: ﴿ **فَأَسْأَلُكَ فِيهَا** ﴾، فقالوا أن المعنى: (**أَدْخُلْ فِيهَا**)، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا عبر مرة بقوله: ﴿ **فَأَسْأَلُكَ فِيهَا** ﴾، ومرة أخرى عبر بقوله: ﴿ **أَحْمِلْ فِيهَا** ﴾، وهل المعنيان واحد ؟ وأيضا تفسيرهم لقوله تعالى له عليه السلام: ﴿ **اهْبِطْ بِسَلَامٍ** ﴾، أي: (**انزِلْ**)، فهل الهبوط هو النزول ؟ وإذا كان

الأمر كذلك فلماذا لم يعبر عن إنزال الماء من السماء, أو إنزال الكتب من السماء بلفظ الهبوط ؟ إلى غير ذلك من الآيات التي ووردت في هذا البحث, وقد ثبت فيها تباين واضح بين معانيها, فهل إذا عاملنا النص انطلاقاً من كاميرات المسح الشامل – وأقصد ألفاظ النص وتراكيبه – هل سيتبين المراد من ذلك ؟ وهل مستويات التشكيل والتصوير وآليته قادرة على كشف أسرار التعابير القرآنية المتكررة في القصة الواحدة ؟ وهل ستضيف إلى معانيها المعجمية معان أخرى تشكيلية وتصويرية ؟ وإلى أي مدى قد تبلغ فيه ألفاظ النص وتعابيره في نقل الأحداث بين يدي المتلقي ؟ وكيف يمكن للمتلقي أن يتتبع سرد الأحداث وفق جمع النصوص حسب زمان حركية الأحداث ليستكمل صورة المشاهد بين يديه ؟

كانت معاملتي للنصوص القرآنية وفق ما يتناسب معها من نظريات السرد الحديثة مفيدة جداً في البحث, لكنني ضيقت كثيراً من مباحثي فيها احتياطاً في تعاملي مع كلام الله عز وجل من جهة, وخوفي من الوقوع في الزلل كَبَحِّ جماح البحث في غير ما موطن من جهة ثانية, لذلك لم أتوسع في الإفادة من تلك الت نظريات التي أَلْفَهَا الباحثون في تعاملهم مع نصوص القصص البشري, ورغبتي في التعامل مع النص مباشرة مع تقليل الوسائط التي قد تحول بيني وبين ما أردت من جهة ثالثة, ومع ذلك فلا أنكر أنني قد أفدت منها كثيراً والله الحمد.

افتتحت البحث بفصل نظري بينت فيه أهم المفاهيم المفتاحية المتعلقة به, وقد كانت بمثابة هيكل نظري للعمل التطبيقي الذي تسعى الدراسة لتحقيقها, فذكرت مصطلح التشكيل السردى وما يتعلق به من خصوصية تفردته في ساحات الدراسات الحديثة, ثم بينت أهم المفاهيم المتعلقة بمصطلح المتشابهات في القرآن الكريم عموماً, وذكر متشابهات القصص على وجه الخصوص, وبينت أثر التصوير اللغوي في تشكيل المشاهد السردية, كما حاولت تبين الفرق بين تأويل المتشابهات اللفظية حسب نظرية السياق ونظرية السرد .

ثم جعلت لب البحث وروح موضوعه في قصتين من القصص القرآني, الأولى قصة آدم عليه السلام باعتبار قصته تروي بداية الحياة البشرية, والأخرى قصة نوح عليه السلام باعتباره أول رسول أرسل إلى أهل الأرض, وأرجأت ما تبقى من المادة الخام من

القصص القرآني لوقت لاحق، لعل الله أن يبسر لي درسها، وبحثها في ما يستقبل من العمر إن شاء الله.

ثم شرعت في المقصود من البحث، فجعلت الجانب التطبيقي من البحث لدراسة قصة آدم عليه السلام، فشملت القصة ثلاثة فصول مترابطة فيما بينها، فكان الفصل الأول منها - وهو الفصل الثاني من الدراسة - يشمل مجمل القصة ومشهدين بمفاصلهما، فبدأت بذكر ما ورد منها في كتاب الله عز وجل، ثم عرضت المشهدين التفصيليين الأولين منها، فكان المشهد الأول يصور مراحل خلق الإنسان الأول (آدم عليه السلام) وفيه ثلاثة مفاصل، المفصل الأول: مرحلة الخلق، والمفصل الثاني: مرحلة التصوير والتسوية، والمفصل الثالث: مرحلة نفخ الروح.

ثم اقتضى المقام الحديث عن الفضاءات التي دارت فيها أحداث القصة، فذكرت الفضاء المكاني بأوصافه التي تُجَلِّي صور المشاهد، وكذلك الفضاء الزماني، باعتباره وعاءً زمنيًا يختلف عن الوعاء الزمني المعهود في باقي القصص.

وبعدها انتقلت إلى المشهد الثاني وهو ما يتعلق بأحداث سجود الملائكة وعصيان إبليس، وفيه ثلاثة مفاصل أيضًا، المفصل الأول: وفيه لحظة تلقي الخبر، والمفصل الثاني: وفيه لحظة وقوع السجود، والمفصل الثالث: وفيه عصيان إبليس.

ثم بدأت الفصل الثالث من البحث، فذكرت فيه حوار الله عز وجل مع إبليس المتمرد، وقد جمع أربعة مفاصل، ذكرت المفصل الأول: وفيه كفر إبليس واستكباره، ثم المفصل الثاني: وفيه طمعه في الخلود، والمفصل الثالث: وفيه سفاهته في التحدي، والمفصل الرابع: تعلق بطرده من الجنة وإبعاده عنها.

وختمت الفصل بمشهد يتعلق بسكنى الجنة وقصة الهبوط إلى الأرض، وفيه ثلاثة مفاصل، المفصل الأول: وفيه سكنى الجنة والأكل منها، ثم المفصل الثاني: وفيه وسوسة إبليس لآدم عليه السلام، وفي الأخير ذكرت المفصل الثالث: وفيه عصيان آدم عليه السلام وتوبة الله عز وجل عليه.

وبعد إكمال قصة نبي الله آدم عليه السلام، وفق منهجية التحليل التي اعتمدها في البحث، خصصت فصلاً رابعاً مستقلاً عن الفصول السابقة، أوردت فيه القصة نفسها

مع كل التعليقات التي دونها علماء المتشابه اللفظي في الكتب التي ذكرتها سابقا، دون التدخل في ذلك بالتعليق والشرح، وغاية هذا الفصل شيئان:

الأول: حتى يتبين لقارئ البحث الفرق بين ما قمت به من دراسة وتحليل، وبين ما قام به غيري، فيدرك من خلالها مدى صحة ما ذهبت إليه في الكشف عن بعض أسرار ما تشابه من الآيات وفق قراءتها في سياق نظرية السرد.

والآخر: من أجل عموم الفائدة من البحث، فقد وضعت بين يد القراء مادة علمية معتبرة، بذلت فيها ما وسعني من جهد، جمعت فيها آيات القصة كاملة حسب ترتيبها في المصحف الشريف، مقسمة حسب المشاهد والفصول، وضممت إليها كلام أشهر علماء المتشابه اللفظي، حسب موقعها من الآيات، فيجدها الباحث مادة جاهزة بين يديه، تصلح لدرسها من جوانب عديدة، ووفرت عليه فيها من الجهد والوقت، بغية الاستفادة منها، ورغبت من ذلك تسهيل طريق البحث على غيري من جهة، وطمعي في نيل ثواب ذلك من عند الله عز وجل.

ثم بعد ذلك بدأت الفصل الخامس بذكر قصة نبي الله نوح عليه السلام، وهو أبو البشر الثاني بعد أبيه آدم عليه السلام، فاتبعت الطريقة نفسها في ذكر مجمل القصة، ثم تبين المشاهد التفصيلية فيها.

فجعلت الأول منها في نقل مشهد رسالة نوح عليه السلام وبداية دعوته. ثم المشهد الثاني وفيه مجالس الدعوة التي قام بها نبي الله عليه السلام، وذكرت فيه عنصر الحوار الذي كان سائدا في معظم نصوص القصة التي نقلت لنا ثلاثة مجالس دارت فيها أحداث هذا المشهد.

وبعد ذلك بينت في المشهد الثالث رد فعل نبي الله نوح عليه السلام حين تيقن من كفر قومه ودعائه عليهم.

ثم انتقلت إلى الفصل السادس الذي درست فيه صورة تسارع الأحداث، واستجابة الله عز وجل لدعاء نبيه عليه السلام، واقتراب نهاية الظالمين المكذبين، وذكرت فيه مفصلين، الأول: في صنع السفينة، والآخر: في بداية نهاية القوم الكافرين.

وخاتمة المشاهد في هذا الفصل كانت أخيرا في نجاة المؤمنين وهلاك المكذبين، وقد تضمن المشهد أربعة مفاصل، كان الأول في ركوب المؤمنين سفينة

النجاة، وكان الثاني في ذكر الطوفان وغرق الابن أمام عيني والده، والثالث فيه بداية الحياة الجديدة، والرابع فيه تحققت نجاة المؤمنين.

ثم ذكرت في الفصل الأخير كلام علماء المتشابه على القصة، كما ذكرت في سابقتها.

لقد قصدت استعمال مصطلح المفاصل مع المشاهد لأنني كنت أشعر بحركية الأحداث داخل النصوص، وكأنها أعضاء مرتبطة فيما بينها بمفاصل قوية ومتينة، تتميز في الوقت ذاته بمرونة تجعل الأحداث تتحرك فيها بكل سلاسة وليونة، وتجعلها تتجه في الاتجاه المحدد الذي يخضع لدلالات الألفاظ والعبارات المعبر بها في النص.

وجعلت آخر ما توصلت إليه في دراستي من نتائج مجموعا في خاتمة البحث، حيث أجملت فيها خلاصة ما توصلت إليه، وزبدة ما حصلته من هذه الرحلة الممتعة والشاقة في آن واحد.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على أربعة أنواع من مصادر البحث ومراجعته:
النوع الأول: كتب المتشابه اللفظي وما تعلق بها من بحوث فرعية، وقد ذكرت أهمها آنفا.

النوع الثاني: كتب التفسير، حيث أنني لا أحرك البحث قيد أنملة إلا بعد مراجعة كلام أهل العلم في ذلك، وهذا بعد استقراء كلام علماء المتشابه، فإن لم أجد فيه ما يحل مشكل البحث، أعرج على كلام المفسرين، وقد حصل لي من تفاسيرهم الكثير، وكان اعتمادي في ذلك على ما تقدم منها، كتفسير الطبري، وابن عطية وأبي حيان الأندلسيين، والزمخشري، والبغوي، والشوكاني، والتفسير الكبير للفخر الرازي، وابن كثير، والقرطبي، وغيرها، وأما من المتأخرين فروح المعاني للآلوسي، وتفسير المنار لرشيد رضا، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وأضواء البيان للشنقيطي، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وغيرها.

النوع الثالث: كتب اللغة ومعاجمها وقواميسها، وقد كنت أستعين بها في تبين معاني الألفاظ في أصل الاستعمال العربي، لأن الله عز وجل أنزل كتابه بكلام العرب وخطبهم بلسانهم، فوجب فهم كلامه تعالى على أصول وضعهم للغة، فاعتمدت على

مصادر عدة في ذلك، منها: كتاب الفروق لأبي هلال العسكري، وكتاب الكليات لأبي البقاء الكفومي، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، والمحكم والمحيط الأعظم والمخصص لأبي الحسن ابن سيده، والصاح في اللغة للجوهري، واللسان لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي، والمحيط في اللغة للصاحب ابن عباد، وغيرها.

النوع الرابع: بعض المراجع في الدراسات الحديثة، التي عنيت بمصطلحات البحث، مثل كتاب التشكيل السردى المصطلح والإجراء لمحمد صابر عبيد، وكتاب مدخل إلى دراسة النص الأدبي المعاصر لسامي سليمان أحمد، وغيرها.

وقد كنت أستعين في تفسير وشرح كثير من الآيات على نصوص الحديث النبوي الشريف، باعتباره النص المبين لكتاب الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:44]، فأورد نص الحديث من مصادر السنة التي بين يدي، كالصاح والسنة والمسائيد والمعاجم، وأبين درجة الحديث من الصحة والضعف بالاعتماد على أقوال نقاد الحديث من مصادرها الأصلية، وقد أحتاج إلى شرح غريب ألفاظه فأرجع إلى كتب شروح الحديث.

وقد أستأنس بأقوال الصحابة والتابعين بشرط ثبوت صحة السند إليهم، كما أنني أبعد ما يروى من الإسرائيليات المنقولة في كتب التفسير لعدة الانقطاع الحاصل بين ناقلها وقائلها، فالاعتماد على نقل الأقوال مرهون بصحة سندها، وهذا ما اشترطته في دراستي، فأنا لا أعتد في الاستشهاد بالأقوال إلا على ما تحقق فيه شرط صحة السند إلى قائله، وقامت الحجة العقلية على قبوله.

ولكي تكتمل الفائدة المرجوة من البحث، فقد بذلت الوسع قدر الإمكان في ضبط كل النصوص التي اعتمدت عليها في النقل بشكلها وفق قواعد النحو، سواء كانت نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، أم النصوص المستشهد بها من كلام أهل العلم.

وقد واجهتني خلال رحلتي في البحث مصاعب شتى ولعل أهمها ما كان يتعلق بروح البحث ولبه، فقد كان يتطلب مني التعامل معها بشيين أساسيين، الأول: صفاء

الروح, والثاني: صفاء الذهن, أما الأول فيتعلق بمادة البحث, فالتعامل مع نصوص الوحي هو تعامل مع مادة أنزلت من السماء لتصفوا بها الأرواح, وتزكوا بها النفوس, وتحيا بها القلوب, وقلما يتحقق العيش بهذه الروح لشخص يعيش في دنيا الناس ويختلط بحياتهم, ولا يتأتى هذا لإنسان إلا إذا عزل نفسه عن مخالطة الناس والدنيا, وأما الآخر: فهو ما يتعلق بدراسة هذه المادة وطريقة معالجتها, فمنهج الدراسة يرغمني على ركوب الصعب, فأجد نفسي دائما بين أقوال متعددة, وآراء قد تكون متضاربة, وأحيانا لا أجد القول في المسألة التي أبحثها البتة, فأقف مرة مرغما في مقام الرد على جهابذة العلماء والمفسرين, ومرة أخرى يتوجب علي تحرير المسألة من العدم, ولا شك أن هذا يتطلب مني جهدا جبارا من صفاء الذهن, وقوة الحجّة, وإقامة الدليل والبرهان على كل ما أذهب إليه في الرأي.

أعترف في الأخير بفضل أستاذي المشرف, الأستاذ الدكتور: صالح خديش, الذي لم يأل جهدا, ولم يبخل بنصيحة, ولم يشح علي بتوجيهه وتشجيعه, منذ الوهلة الأولى التي ظهرت فيها باكورة هذا البحث, فجزاه الله عني كل خير, وجعل ذلك في موازين أعماله يوم القيامة.

والشكر موصول لكل من ساهم في إخراج هذا العمل على الوجه المطلوب, وفي مقدمتهم أعضاء لجنة المناقشة, والله عز وجل أسأل أن يسدد خطانا ويفتح علينا أبواب العلم والفهم, إنه بكل جميل كفيّل, وهو حسبنا ونعم الوكيل, ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الْمَدْحَلُ

تَأْصِيلُ الْمَفَاهِيمِ

التَّشْكِيلُ وَالْمُتَشَابَهُ

المدخل

تأصيل المفاهيم التشكيل والمتشابه

1 – التشكيل السردى

توطئة:

تتنوع إبداعات القراء والمتلقين أثناء تواصلهم بالمنتجات الأدبية لكثير من المتألقين في مجال الإبداع النثري أو الشعري، ولكل قراءته ورؤيته حينما تقع النصوص بين يديه، ويبقى النص القرآني متميزا عن غيره بوجوه الإعجاز اللامتناهية، وتزداد علاقة المتلقين به بناء على الرغبة الملحة في كشف الغطاء عن خبايا الجمال، ومواطن الحسن، المتعلقة بأسرار الآيات التي تأسر العقول والقلوب في آن واحد، وتبقى القصة القرآنية النص السردى المعجز الذي ينقل لنا حقائق أحداث وقعت بين شخصيات مختلفة في أماكن وأزمنة محددة، بلسان عربي أعجز العرب في لغتهم من كل الوجوه، وعلى مر كل العصور، فأدت فيه لغة النص كل الوظائف الكاملة التي جاءت من أجل تحقيقها، وعلى رأس ذلك نقل الحدث كما هو للمستمع وكأنه يعيشه لحظة بلحظة، ويراه متمثلا أمامه، متجسدا، تتحرك فيه الأحداث، وترتسم معالم أشخاصه، ويتشكل زمانه ومكانه بألفاظ، وعبارات، وتراكيب دقيقة تصور لك المشاهد وكأنها تبعث فيها الروح من جديد، فتراها تتحرك أمامك رأي العين.

مفهوم التشكيل السردى:

يعتبر هذا المصطلح مركب من شقين، صفة وموصوف، الأول: الموصوف: وهو التشكيل، والآخر: الصفة: وهي السردى، ولا بد من تبين ما يتعلق بالمصطلحين مستقلين عن بعضهما في الاستعمال اللغوي والاصطلاحي، ثم تبين المعنى المركب معا.

أَوَّلًا: (التَّشْكِيلُ)**أ - الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةُ:**

يرجع البناء الصرفي لهذا المصطلح إلى الجذر (شكل)، الذي يدور معناه حول المماثلة والتصوير والمثابة.

قال ابن فارس: " الشَّيْنُ وَالْكَافُ وَاللَّامُ مُعْظَمُ بَابِهِ الْمُمَاتَلَةُ. تَقُولُ: هَذَا شَكْلٌ هَذَا، أَي: مِثْلُهُ. وَمِنْ ذَلِكَ يُقَالُ: أَمْرٌ مُشْكِلٌ، كَمَا يُقَالُ: أَمْرٌ مُشْتَبِهٌ، أَي: هَذَا شَابَهَ هَذَا، وَهَذَا دَخَلَ فِي شَكْلِ هَذَا "1.

وقال ابن منظور: " الشَّكْلُ بِالْفَتْحِ: الشَّبِيهُ وَالْمِثْلُ، وَالْجَمْعُ أَشْكَالٌ، وَشُكُولٌ ... وَقَدْ تَشَاكَلَ الشَّيْنَانِ، وَشَاكَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ... وَالشَّكْلُ: الْمِثْلُ، تَقُولُ: هَذَا عَلَى شَكْلِ هَذَا، أَي: عَلَى مِثَالِهِ، وَفُلَانٌ شَكْلٌ فُلَانٍ، أَي: مِثْلُهُ فِي حَالَاتِهِ، وَيُقَالُ: هَذَا مِنْ شَكْلِ هَذَا، أَي: مِنْ ضَرْبِهِ وَنَحْوِهِ، وَهَذَا أَشْكَلُ بِهَذَا، أَي: أَشْبَهُ، وَالْمُشَاكَلَةُ: الْمَوْافَقَةُ، وَالتَّشَاكُلُ مِثْلُهُ " وقد أضاف معنى آخر على أصل ما ذكر فقال: " وَشَكْلٌ الشَّيْءِ: صُورَتُهُ الْمَحْسُوسَةُ وَالْمَتَوَهَّمَةُ، وَالْجَمْعُ كَالْجَمْعِ، وَتَشَكَّلَ الشَّيْءُ: تَصَوَّرَ، وَشَكَّلَهُ: صَوَّرَهُ "2.

وقال الراغب: " (شكل) : الْمُشَاكَلَةُ فِي الْهَيْئَةِ وَالصُّورَةِ، وَالنِّدْبُ فِي الْجَنَسِيَّةِ، وَالشَّبَهُ فِي الْكَيْفِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: 58]، أَي: مِثْلُهُ فِي الْهَيْئَةِ "3.

يتبين من خلال ما مر ذكره أن التشكل هو تحول الشيء من صورة إلى أخرى بطريقة ما، مع المحافظة في الاشتراك بين الصورتين على أصل المشابة والمماثلة، وقد تبين أن معنى (شكَّله) أي (صَوَّرَهُ)، ويطلق (التصوير) على تحويل الشيء من صور الحقيقة إلى أشكال أخر كرسماها أو نحتها، ومن ذلك ما ورد في الحديث " عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنِ عَائِشَةَ، أَنَّهَا اشْتَرَتْ نَمْرَقَةً فِيهَا

1- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، سنة الطبع: 1399 هـ / 1979 م، (206/3).

2- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1426 هـ / 2005 م، مادة (شكل).

3- المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار العلم، الدار الشامية، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1412 هـ، ص (436).

تَصَاوِيرُ، فَلَمَّا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَامَ عَلَى الْبَابِ، فَلَمْ يَدْخُلْ، فَعَرَفَتْ أَوْ فَعْرِفَتْ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَّةَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى رَسُولِهِ، فَمَاذَا أَذْنَبْتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرِقَةِ »؟ فَقَالَتْ: اشْتَرَيْتُهَا لَكَ، تَقَعُدُ عَلَيْهَا، وَتَوَسَّدُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّورِ يُعَذَّبُونَ، وَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ ». ثُمَّ قَالَ: « إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّورُ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ »¹.

جاء معنى التصوير في هذا الحديث مقتصرًا على نقل صورة محسوسة من الواقع ورسم شكلها على النمرقة، وقد أطلق في هذا الحديث لفظ الخلق على التصوير، كما قال البدر العيني في قوله « مَا خَلَقْتُمْ »: " أَي: صَوَّرْتُمْ، كَصُورَةِ الْحَيَوَانِ " ². وقال: " وَمَعْنَى (خَلَقْتُمْ): قَدَّرْتُمْ، وَصَوَّرْتُمْ " ³.

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ أَيُّ أَخْلَقُ لَكُمْ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 49]: " أَي: أَسْوَراً، وَأَقْدِرُ لَكُمْ " ⁴، وفي هذه الآية معنى آخر للفظ (التصوير)، وهو تشكيل مادة الطين وجعلها على هيئة الطير، قال ابن كثير: " وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ، يُصَوِّرُ مِنَ الطِّينِ شَكْلَ طَيْرٍ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ، فَيَطِيرُ عَيَانًا بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " ⁵. وقال أبو حيان: " وَمَعْنَى ﴿ أَخْلَقُ ﴾: أَقْدِرُ وَأُهَيِّءُ، وَالْأَخْلَقُ يَكُونُ بِمَعْنَى الْإِنْشَاءِ، وَإِبْرَازِ الْعَيْنِ مِنَ الْعَدَمِ الصِّرْفِ إِلَى الْوُجُودِ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى، وَيَكُونُ بِمَعْنَى التَّقْدِيرِ وَالتَّصْوِيرِ، وَلِذَلِكَ يُسَمُّونَ صَانِعَ الْأَدِيمِ وَنَحْوَهُ: الْخَالِقَ، لِأَنَّهُ يُقَدِّرُ " ⁶.

¹ - حديث صحيح، متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، رواه البخاري، حديث رقم (3224)، الجامع الصحيح المسند المختصر، المسمى صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار الشعب، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1407هـ / 1987م. ورواه مسلم واللفظ له، حديث رقم (5655)، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1422هـ / 2001م.

² - عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني الحنفي، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، سنة الطبع: 1421هـ / 2001م، (17 / 375).

³ - المصدر نفسه، (32 / 114).

⁴ - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1384هـ / 1964م، (4 / 93).

⁵ - تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1420هـ / 1999م، (2 / 44).

⁶ - البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، سنة الطبع: 1420هـ، (3 / 163).

ويجب أن نفرق بين صفة (أَلْخَلْقِ) المضافة إلى الخالق عز وجل، وبين صفة (خَلْقِ) المضافة إلى المخلوق القاصر، قال ابن عاشور: " وَأُطْلِقَ الْخَلْقُ فِي الْقُرْآنِ وَكَلَامِ الشَّرِيعَةِ عَلَى إِجَادِ الْأَشْيَاءِ الْمَعْدُومَةِ، فَهُوَ إِخْرَاجُ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ إِخْرَاجًا لَا صَنْعَةً فِيهِ لِلْبَشَرِ، فَإِنَّ إِجَادَ الْبَشَرَ بِصَنْعَتِهِمْ أَشْيَاءٌ إِنَّمَا هُوَ تَصْوِيرُهَا بِتَرْكِيبِ مُتَفَرِّقِ أَجْزَائِهَا، وَتَقْدِيرِ مَقَادِيرَ مَطْلُوبَةٍ مِنْهَا، كَصَانِعِ الْخَرْفِ ¹ ".
 كما أن لفظ (التَّصْوِيرِ) يشمل أيضا صناعة التماثيل ونحتها، وقد ورد ذلك في السنة، " عَنْ مُسْلِمٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ مَسْرُوقٍ فِي دَارِ يَسَارِ بْنِ نُمَيْرٍ، فَرَأَى فِي صُفْتِهِ تَمَاثِيلَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ » ² .

من خلال ما مر ذكره، يتبين أن لفظ (شَكَّلَ) يحمل معاني عدة في أصل وضعه، ويشمل ما جاء في معنى (صَوَّرَ)، ويمكننا حمل لفظ (التَّشْكِيلِ) على معنى لفظ (التَّصْوِيرِ)، ومهما تطور استعمال هذا اللفظ (التَّشْكِيلِ) إلا أنه يبقى مرتبطا بفنون الرسم والتصوير، وهو اليوم يطلق على مجموعة من الممارسات الإبداعية تعرف بـ(الفنون التشكيلية)، وفيها يقوم الفنانون بأخذ أشياء من الواقع الطبيعي لها جاذبيتها في أنفسهم ثم يعيدون صياغتها بطرق مختلفة، فيشكلونها تشكيلا جديدا مختلفا عما كانت عليه في الطبيعة حسب أذواقهم وأخيلتهم، فتتشكل بين أيديهم وفق أساليبهم وطرقهم ومناهجهم في التعبير والتشكيل.
 ومما يلاحظ في ممارسات الفنان التشكيلي أنه يعتمد على استعمال تقنيات التصوير، سواء كان بالاعتماد على تقنية التصوير ثنائي الأبعاد كالرسم والزخرفة والتخطيط وغيرها، أو تقنية التصوير ثلاثي الأبعاد، كالنحت، والخزف، ونفخ الزجاج وتشكيله، والأعمال الخشبية، وغيرها.

ب - الْمَعْنَى الْإِصْطِلَاحِيَّةُ:

يرى النقاد أن المعنى الاصطلاحي لـ(التَّشْكِيلِ) يتعلق بما كشفت عنه نظريات القراءة والتلقي في تحليل العلاقة بين القارئ والنص، إذ يعتبرون مصطلح (

¹ - التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1420 هـ / 2000 م، (1 / 322).

² - حديث صحيح، رواه مسلم، وغيره، واللفظ له، حديث رقم (5950).

التشكيل (المستعار من ميادين الفنون التشكيلية إلى ميدان الدراسات الأدبية واللغوية، هو المنطقة الواقعة بين ما ينتجه المؤلف من نصوص وما يحققه القارئ من منجزات جمالية، " فِيمَكُنْ أَنْ يَكُونَ التَّشْكِيلُ هُوَ الْمَنْطِقَةُ الْوَاقِعَةُ بَيْنَهُمَا، حَيْثُ يَجْمَعُ بَيْنَ (التَّشْكِيلِ) وَ(التَّحْقُقِ)، وَيَفَاعِلُ بَيْنَ الْقُطْبِ الْفَنِيِّ وَالْقُطْبِ الْجَمَالِيِّ، وَيَجْعَلُ الْإِجْرَائِيَّ بَيْنَ النَّصِّ وَالْقَارِئِ مُمَكِّنًا فِي أَفْضَلِ حَالَاتِهِ " ¹.

يتحرك مصطلح (التشكيل) في ميدان الواقع الملموس كالفنون التشكيلية، كما أصبح يمثل محورا مهما يتمركز في عمق العملية الإبداعية في الفنون الأدبية، وهو مصطلح استعير من مجال إلى مجال آخر، وحين يرحل إلى فضاء النص الأدبي " فَإِنَّهُ يُسْنَهُمْ أَوْلَا فِي تَحْرِيرِ النَّصِّ الْمَكْتُوبِ وَالْمُقَيَّدِ مِنْ حَظِيَّتِهِ، وَنَقْلِهِ إِلَى مَوْقِعِ التَّنَاوُلِ الْبَصْرِيِّ الْمَتَبَلُّورِ - الَّذِي يَضُمُّ بِحَسَبِ الْأَطْرُوحَةِ السِّيْمِيَانِيَّةِ (الشَّكْلُ وَالْجَوْهَرُ) - بِوَصْفِهِ مُسْتَوَى جَدِيدًا مُرَشَّحًا لِلْقِرَاءَةِ يُضَافُ إِلَى الْمُسْتَوَى التَّامَلِيِّ الذِّهْنِيِّ الْمَتَدَاوِلِ، وَيَحْرَضُ مُجْتَمَعَ التَّلْقِي عَلَى السَّعْيِ لِاسْتِكْشَافِ وَتَمَثُّلِ وَقِرَاءَةِ الْبُعْدِ الْبَصْرِيِّ فِي النَّصِّ الْمَكْتُوبِ، عَلَى النَّحْوِ الَّذِي يُحِيلُ عَلَى فُضَاءِ التَّشْكِيلِ فِي مَرْجِعِيَّتِهِ الْفَنِّيَّةِ (الرَّسْمِ) " ².

وعلى هذا الأساس يرى النقاد أن كثيرا من المصطلحات والمفاهيم والتعريفات قد انتقلت من منطقة إدراك تقليدية إلى منطقة إدراك جديدة تبنى على ما توصلت إليه المدونة النقدية العربية الحديثة التي أسست لنظريات القراءة والتلقي، ومما يسجل في هذا المقام هو ذلك الانتقال النوعي في النص الأدبي لثنائية (الشكل والمضمون) إلى ثنائية (التشكيل والرويا)، " إِذْ تَحَوَّلَ (الشَّكْلُ) بِمَعْنَاهُ الْمَجْرَدِ وَالْبَسِيطِ وَالْأَحَادِي إِلَى (التَّشْكِيلِ) بِمَعْنَاهُ الْمُرَكَّبِ وَالْمُعَقَّدِ وَالْمُتَعَدِّدِ، وَتَحَوَّلَ (الْمَضْمُونُ) بِمَعْنَاهُ الْمُبَاشِرِ وَالْكَمِّيِّ وَالْقَصْدِيِّ إِلَى (الرَّوْيَا) بِمَعْنَاهَا الْحُلْمِيِّ وَالنَّوْعِيِّ وَالْأَقْصَدِيِّ " ³.

¹ - التشكيل السردى المصطلح والإجراء، محمد صابر عبيد، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، دمشق، سنة الطبع: 1431هـ/2011م، (ص: 16)-

² - التشكيل السردى، محمد صابر عبيد، (ص: 17)-

³ - المرجع نفسه، (ص: 18)-

ثانياً: (السردِي)

أ - المعنى اللغوي:

استعملت هذه اللفظة كوصف للتشكيل, وأصلها (سرد), و (السردُ) في اللغة: " تَقْدِمَةُ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ تَأْتِي بِهِ مُتَسِقًا بَعْضُهُ فِي أَثَرِ بَعْضٍ مُتَتَابِعًا " ¹. وتذكر العرب (السردَ) وتقصد به: " ضَمُّكَ الشَّيْءِ، بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، نَحْوَ النَّظْمِ وَمَا أَشْبَهَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: سَرَدَ الدِّرْعَ، أَي: ضَمَّ حَدِيدَ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ " ²، وكذلك يقولون: " سَرَدَ الدِّرْعَ إِذَا شَكَّ طَرْفِي كُلِّ حَلَقَتَيْنِ وَسَمَرَهُمَا، وَدِرْعٌ مَسْرُودَةٌ، وَلِبُوسٌ مُسَرَّدٌ ... وَنُجُومٌ سُرْدٌ: مُتَتَابِعَةٌ ... وَتَسَرَّدَ الدَّرُّ: تَتَابَعٌ فِي النِّظَامِ، وَلَوْلُوٌ مُتَسَرَّدٌ ... وَتَسَرَّدَ دَمْعُهُ كَمَا يَتَسَرَّدُ اللَّوْلُؤُ، وَسَرَدَ الْحَدِيثَ وَالْقِرَاءَةَ: جَاءَ بِهِمَا عَلَى وَلاَةٍ ... وَمَاشٍ مُسَرَّدٌ: يَتَابَعُ خُطَاهُ فِي مَشْيِهِ " ³.

ونقل الزبيدي عن الزجاج في معنى (السردِ) قوله: " (السردُ) : السمرُ وهو غيرُ خارجٍ من اللُّغَةِ، لِأَنَّ (السردَ) تَقْدِيرُكَ طَرْفِ الْحَلَقَةِ إِلَى طَرْفِهَا الْآخَرَ " ⁴. ثم انتقل إلى ما يجاوز المعنى الظاهر للكلمة إلى معناها المجازي فقال العلماء: " وَمِنَ الْمَجَازِ: (السردُ) : جَوْدَةُ سِيَاقِ الْحَدِيثِ، سَرَدَ الْحَدِيثَ وَنَحْوَهُ يَسْرُدُهُ سَرْدًا، إِذَا تَابَعَهُ، وَفُلَانٌ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ سَرْدًا وَتَسَرَّدَهُ، إِذَا كَانَ جَيِّدَ السِّيَاقِ، وَسَرَدَ الْقُرْآنَ: تَابَعَ قِرَاءَتَهُ فِي حَدَرٍ مِنْهُ، وَالسردُ: مُتَابَعَةُ الصَّوْمِ وَمُؤَالَاتُهُ، وَسَرَدَ فُلَانٌ، كَفَرِحَ: صَارَ يَسْرُدُ صَوْمَهُ وَيُؤَالِيهِ وَيَتَابَعُهُ " ⁵.

وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ [سبأ:11]، ومعنى (قَدِّر) : أي " اجْعَلِ الْحَلْقَ وَالْمَسَامِيرَ فِي نَسْجِكَ الدِّرْعَ بِأَقْدَارٍ مُتَنَاسِبَةٍ، فَلَا تَجْعَلَ الْمِسْمَارَ دَقِيقًا

¹ - لسان العرب, ابن منظور, مادة (سرد).

² - الاشتقاق, أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد, تحقيق: عبد السلام محمد هارون, مكتبة الخانجي, القاهرة, مصر, الطبعة الثالثة, ص (461).

³ - أساس البلاغة, أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد جار الله الزمخشري, دار الفكر, بيروت, لبنان, سنة الطبع: 1399هـ/1979م, مادة (سرد).

⁴ - تاج العروس من جواهر القاموس, مرتضى الزبيدي, اعتنى به ووضح حواشيه: عبد المنعم خليل إبراهيم وكريم سيد محمد, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, الطبعة الأولى, سنة الطبع: 2007م, مادة (سرد).

⁵ - تاج العروس من جواهر القاموس, مرتضى الزبيدي.

لئَلَّا يَنْكَسِرَ، وَلَا يُشَدَّ بَعْضَ الْحَلْقِ بِبَعْضٍ، وَلَا تَجْعَلُهُ غَلِيظًا غَلِيظًا زَانِدًا فَيُفْصِمَ الْحَلْقَةَ
1.

وجاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، " أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ
يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ "2، وفي رواية عنها: " كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَسْرُدُ الْكَلَامَ
كَسَرْدِكُمْ هَذَا، كَانَ كَلَامُهُ فَصْلًا يُبَيِّنُهُ، يَحْفَظُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ "3. والمعنى المقصود
أن النبي ﷺ لم يكن يسرد الحديث " كَسَرْدِكُمْ الْمُتَعَارَفِ بَيْنَكُمْ مِنْ كَمَالِ اتِّصَالِ
الْفَافِظِكُمْ، بَلْ كَانَ كَلَامُهُ فَصْلًا بَيِّنًا وَاضِحًا، لِكُونِهِ مَأْمُورًا بِالْبَلَاغِ الْمُبِينِ. قَالَ الطَّبِيُّ:
يُقَالُ فَلَانٌ سَرَدَ الْحَدِيثَ إِذَا تَابَعَ الْحَدِيثَ بِالْحَدِيثِ اسْتِعْجَالًا ... يَعْنِي لَمْ يَكُنْ حَدِيثُ
النَّبِيِّ ﷺ مُتَتَابِعًا بِحَيْثُ يَأْتِي بَعْضُهُ إِثْرَ بَعْضٍ، فَيَلْتَمِسُ عَلَى الْمُسْتَمْعِ، بَلْ كَانَ يُفْصِلُ
كَلَامَهُ، لَوْ أَرَادَ الْمُسْتَمْعُ عَدَّهُ أَمَكْنَهُ، فَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ وَاضِحٍ مَفْهُومٍ، فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ
وَالْبَيَانِ "4.

وفي حديث آخر، عن عائشة رضي الله عنها أيضا " أَنْ حَمْرَةَ بِنَ عَمْرِو
الْأَسْمِيِّ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي رَجُلٌ أَسْرُدُ الصَّوْمَ، أَفَأَصُومُ فِي
السَّفَرِ؟ قَالَ: « صُمْ إِنْ شِئْتَ، وَأَفْطِرْ إِنْ شِئْتَ »5.

قال القرطبي: " وَيُقَالُ: قَدْ سَرَدَ الْحَدِيثَ وَالصَّوْمَ، فَالَسْرَدُ فِيهِمَا أَنْ يَجِيءَ بِهِمَا
وَلَاءٌ، فِي نَسَقٍ وَاحِدٍ، وَمِنْهُ سَرْدُ الْكَلَامِ ... قَالَ سَبِيوَيْهِ: وَمِنْهُ رَجُلٌ سَرْدِيٌّ، أَي:
جَرِيءٌ، قَالَ: لِأَنَّهُ يَمْضِي قُدَمَا، وَأَصْلُ ذَلِكَ فِي سَرْدِ الدَّرْعِ، وَهُوَ أَنْ يُحْكِمَهَا، وَيَجْعَلَ
نِظَامَ حَلْقِهَا وَلَاءً غَيْرَ مُخْتَلَفٍ "6.

1- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، عام النشر: 1415 هـ / 1995 م، (233/4).

2- حديث صحيح، متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، رواه البخاري، حديث رقم (3568)، ورواه مسلم، حديث رقم (6554).

3- حديث صحيح، رواه النسائي وغيره، حديث رقم (10173)، سنن النسائي الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1411 هـ / 1991 م.

4- عون المعبود شرح سنن أبي داود، أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، السعودية، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1388 هـ / 1968 م، (544/9).

5- حديث صحيح، رواه مسلم، حديث رقم (2682).

6- تفسير القرطبي، (268/14).

ومما سبق يتبين أن (السرد) في اللغة يقصد به أن تأتي الأشياء متسقة بعضها مربوطا ببعض، ومتتابعة يلي بعضها بعضا دون انقطاع.

ب - المعنى الاصطلاحي:

يرتبط مصطلح (السرد) بموضوع القصة والرواية، وبات معروفا لدى النقاد منذ زمن الشكلايين الروس وعلى رأسهم (فلاديمير بروب)، ومرورا بـ (تودوروف)، و (بارت)، و (غريماس)، و (جينيت)، وغيرهم، الذين أسسوا لعلم السرد أو السردية، على أنه الحقل النقدي الجديد الذي يدرس هذه المادة، حيث أصبح " مادة لكثير من الطروحات خارج حقل الدراسات الأدبية، إذ بدأ العلماء ينظرون لوظيفة السرد في كتابة التاريخ، والدين، والصحافة، والممارسة القانونية، والتربية، والسياسة، إلى آخره " ¹.

وانطلاقا من فكرة تبسيط المعلومة نحدد المعنى الاصطلاحي لـ (السرد) بأنه " الكيفية التي تُروى بها القصة عن طريق قناة الراوي والمروي له، وما تخضع له من مؤثرات، بعضها متعلق بالراوي والمروي له، والبعض الآخر متعلق بالقصة ذاتها " ².

ويعرفه (يان مانفريد) بأنه " وسيلة اتصال، تعرض تتابع أحداث، تسببت فيها أو جرتبها الشخصيات " ³.

ثالثا: التشكيل السردى

لا يزال الغموض يكتسح ساحات هذا المصطلح المغلق، على الرغم من وجود الكثير من الدراسات التي اشتغلت على تطبيقه في النصوص الشعرية والنثرية، ومع ذلك لم أجد من توسع في تأصيل مفاهيمه النظرية، إلا ما كتبه محمد صابر عبيد في كتابه (التشكيل السردى المصطلح والإجراء)، فبين أن مفهومه يتجلى في أنه " استخدَامَ مجموعة من التقنيات السردية الجمالية في صياغة جدلية، تتأسس على أنماط من العلاقات التي تنتج الشكل، بوصفه حصيلا للتفاعل بين هذه التقنيات،

¹ - علم السرد (مدخل إلى نظرية السرد)، يان مانفريد، ترجمة: أماني أبو رحمة، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1431هـ / 2011م، (ص:7).

² - بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي، حميد لحميداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: 2003م، (ص: 45).

³ - علم السرد، يان مانفريد، (ص:12).

وطرائق التعامل مع المصادر التي اعتمدها الكاتب أساساً لعمله من ناحية، وطرائق التلقي من ناحية ثانية، ثم بينهما وبين الرؤية التاريخية التي تجسد موقف المؤلف من مجموعة من القضايا التي يطرحها في نصه، من ناحية ثالثة¹.

ومع ما توصل إليه الدارسون من خلال ممارستهم النقدية في التعامل مع هذا الإجراء في النصوص الشعرية، إلا أن مفهوم (التشكيل السردى) يبقى منوطاً بتمظهره عبر نصي القصة والرواية، ويبقى مفهومه يتحرك في دائرة مفهوم باقي المصطلحات الأخرى كـ (التشكيل اللغوي)، و (التشكيل الصوتي)، و (التشكيل الشعري)، و (التشكيل الدرامي)، وغيرها.

ارتبط في هذا المصطلح مفهومان كبيران، وامتزجا مع بعضهما لآداء وظيفة مهمة وصعبة في آن واحد، فاتحد مفهوم التشكيل مع ما يحمله السرد من وظائف التعبير، فيتحرر بموجبها النص من خطيته ليكتسب حرية الحركة على مستوى التصورات البصرية، فيتشكل النص في ذهن القارئ صوراً تتحرك بموجب مكتسباته التخيلية، ولكي تتضح معالم هذا المصطلح حري بنا تسليط الضوء على العلاقة الموجودة بين التشكيل السردى ولغة التصوير في النص المسرود، باعتبارها كاميرات نقل لأحداث وقعت في أزمنة وأمكنة محددة، وبين شخصيات عاشت على أرض واقع الأحداث.

يتحرك مصطلح (التشكيل السردى) في النصوص حركة مرنة، وذلك من خلال ظهوره على مستويات عدة²:

مستوى البنية السردية للنص، وما يتعلق به (الراوي، المروي له، الأحداث، والشخصيات)، فينتج لدينا حسبها تشكيلات متعددة نجملها في الآتي:

- (تشكيل الراوي).
- (تشكيل المروي له).
- (تشكيل الشخصية).
- (تشكيل الحدث السردى).

¹ - مدخل إلى دراسة النص الأدبي المعاصر، سامي سليمان أحمد، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية، 2006، (ص: 11).

² - ينظر: التشكيل السردى، محمد صابر عبيد، (ص: 23 - 24).

وأما ما يختص بالعناصر الأساسية لعملية القص، فيتميز فيها كل تشكيل بخصوصيته على صعيد بناء النص السردى، حيث يمكننا في:

- (تشكيل السرد).
- (تشكيل الوصف).
- (تشكيل الحوار).

ولكي يصل (التشكيل السردى) إلى أعلى المراحل الممكنة من التكامل لا بد من الاهتمام بأهم قطبين فيه، وهما:

- (تشكيل اللغة السردية).
- (تشكيل الصنعة النصية).

وفي الأخير يجب أن يتضمن (التشكيل السردى) عنصر (تشكيل الفضاء) الذي يعتبر الوعاء الذي تسري فيه الأحداث وتتحرك فيه الشخصيات، وهو بدوره يتوزع على:

- (تشكيل الزمان).
- (تشكيل المكان).
- (تشكيل الرؤية).

التشكيل السردى ولغة التصوير:

يختلف النص القرآني عن باقي النصوص، كما يختلف قصصه عن باقي القصص، ذلك أن الله عز وجل هو من تكفل بقصه على خلقه، وإطلاعهم على أحداث الأمم السابقة، وذلك لحكمة بينها سبحانه في قوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:111]، وتميز نص القصة القرآنية باعتباره كلام الله تعالى ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:42]، وقد كانت كل وقائع قصصه حقا، لا دخل للخيال والمبالغة فيها، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف:13]، وقد بلغت القصة القرآنية كمال الحسن والجمال من كل الوجوه، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف:3].

تميز النص القرآني بلغته المعجزة, وقد ظهر إعجازه على مر العصور, وانقطع الخلق عن مجارة كلام الله عز وجل, والإتيان بحديث مثله, وسنفرده في هذا المبحث وجهاً آخر من إعجاز لغة النص القرآني وما يتعلق بوظيفة التصوير في ألفاظ القصة القرآنية.

ونحن إذ نعرض بحث هذه الجزئية الدقيقة والمهمة وجب علينا أن نفرق بين دراسة لغة التصوير التي يقصد من ورائها العلماء تبيين أساليب التعبير في صوره البلاغية, وما تفيضه على المعاني من صور بيانية, وتشبيهات بديعة, واستعارات جذابة, ومجازات تزيد المعنى رونقا وجمالا, وبين لغة التصوير التي نقصد بها استعمال اللفظ لمعناه المقصود والمباشر, دون صرفه عن ظاهره, والذي تؤدي فيه اللغة المستعملة وظيفة نقل المعاني من خطية النصوص إلى تشكيل المشاهد والأحداث, وتصوير الشخصيات والفضاءات الزمانية والمكانية.

إن المتتبع لوظيفة التعبير في النص القرآني يجد أن اللغة المعجزة فيه لم تقف عند تشكيل المشاهد ونقلها من خطية النص إلى تشكلها في الواقع المشاهد, بناء على الاشتراك بين وظائف التصوير والفن التشكيلي في طريقة سرد الأحداث والحقائق, بل تعدت ذلك إلى وظيفة النقل الحي لها عبر اللفظ الذي وصل بدوره إلى درجة نقل الحدث القصصي, وهو يتبعه بكل تفاصيله وجزئياته, وكأنه كاميرات مسح شامل لكل ما يتحرك في مسرح أحداث القصة, وهو بهذه الديناميكية والمرونة والقدرة في قيامه بتلك الوظائف المتعددة يكون قد تجاوز وظيفة تشكيل المشاهد, والخروج من دائرة استعماله ضمن مجال الفنون التشكيلية والاستفادة منها والدخول إلى مساحات أوسع تطورت فيها تقنيات التصوير التقليدية حتى وصلت إلى ما نعرفه الآن مجالات التصوير الفتوغرافي بكل تكنولوجيات الاتصالات الحديثة.

وقد بلغ اللفظ القرآني في التعبير عن الأحداث ونقل تفاصيل المشاهد مبلغاً يصل بالمتأمل والمتدبر فيه إلى رؤيتها وكأنها تحدث أمامه فيراها رأي العين, وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى, وبين أن التعبير القرآني قد يؤدي وظيفة نقل الحدث كما هو, حتى يرى المتابع له ما يقصه عليه النص القرآني رأي العين, فقد روى

الترمذي وغيره، " عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظَرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: 1]، وَ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ [الأنفطار: 1]، وَ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق: 1] »¹، ومعنى قوله عليه السلام: (كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ): أي: " تَقُولُ جَعَلْتَ الشَّيْءَ رَأْيِي عَيْنِكَ وَبِمَرَأَى مِنْكَ، أَي: حِذَاءَكَ وَمُقَابِلَكَ، بِحَيْثُ تَرَاهُ، وَهُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، أَي: كَأَنَّهُ يَرَاهُ رَأْيِي الْعَيْنِ " ².

يعتبر هذا الحديث بوابة الدخول إلى هذا المجال الفسيح المتعلق بلغة التصوير في النصوص القرآنية، وإن المتأمل فيه يدرك أن لألفاظ النصوص قوة معجزة في تشكيل المشاهد أمام المستمع، حتى إنه يراها تتحرك بين يديه رأي العين، ولا يستطيع الجزم في حكمه عليها، فهي حملته وشقت به صدر الزمان، وسافرت به إليها حال وقوعها، فجعلته يشاهد أحداثها؟ أم أنها تنقلت إليه، فتمثلت بين يديه، ومكنته من رؤية تفاصيلها، كأنها تتجدد لقارئها كلما حرك لسانه بتلاوتها؟

لا شك أن انتقال الشيء المذكور من معناه المعجمي المجرد إلى الصورة المرئية يبني أساساً على الفهم الصحيح للمعنى المتضمن فيه، وهذا لا يتحقق إلا بعد الإحاطة بمعانيه المتعارف عليها في الاستعمال العربي، لذلك لا يصل المتلقي إلى تصور أحداث وأحوال يوم القيامة التي ذكرت في الحديث السابق إلا بعد معرفته واطلاعه على معاني ألفاظ النصوص القرآنية التي وردت في السور الثلاث المذكورة في نص الحديث.

سيكون تركيزنا في هذا المبحث على وظيفة الألفاظ ودورها في تشكيل المشاهد، دون إهمال الجانب الآخر من التصويرات البلاغية في نصوص الآيات، وقد استعنت ببعض ما توصلت إليه تكنولوجيا التصوير حسب ما تقتضيه الحاجة، لتبيين مستويات اشتغال اللفظ في تشكيل المعاني الواردة في النص، ويمكن أن نمثل

¹ - حديث صحيح، رواه الترمذي، وغيره، واللفظ له، حديث رقم (3333)، الجامع المختصر من السنن، المعروف بـ(سنن الترمذي)، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1995م.

² - تحفة الأحوذني بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، اعتنى به: يوسف الحاج أحمد، دار الفيحاء، دمشق، سوريا، وشركة ابن باديس للكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 2011/هـ، (210/8).

لذلك بثلاث تقنيات لتصوير المعاني في نصوص القصص القرآني حتى يتبين القصد من الكلام، فيمكننا أن نجمل تلك التقنيات في الآتي:

أولاً: تقنية تشكيل الصور المسطحة (صور ثنائية الأبعاد: 2D): تؤدي ألفاظ النص القرآني وظيفية تشكيل صور دون ظلال، تعرف عند أصحاب فن التصوير الفوتوغرافي بالصور ثنائية البعد، ويرمز لها بـ (2D)، والتي هي اختصار للجملية: (Deux dimensions)، وهي صور تفتقر إلى العمق الجسدي، يعتمد المصور فيها على بعدي الطول والعرض، دون إبراز ظلالها التي تجسد البعد الثالث فيها، ويكثر استعمال هذه التقنية في رسم الخرائط الصماء التي تبين حدود الأماكن الجغرافية، وعادة ما تكون وضعية التصوير فيها من ارتفاع يمكن المصور من التقاط الأبعاد التي يريدها، وقد تطورت تكنولوجيا التصوير فأصبحت تستعمل وسائل متطورة جدا لحمل كاميرات التصوير حسب مسافات ارتفاع محددة، كاستعمال الطائرات المسييرة مثلا، أو ربما يقتضي الأمر إلى أن تلتقط الصور عبر الأقمار الاصطناعية، حسب ما تقتضيه الحاجة، مثل ما يستعمل الآن في تحديد المواقع عبر تقنية (Google Earth).

ويمكن أن نمثل لهذه التقنية ببعض نصوص القصص القرآني، التي جاءت تصور أماكن خاصة عاش فيها أقوام في أزمنة غابرة، كقوله تعالى في قصة صاحب الجنيتين في سورة الكهف:

1 - ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (32) كَلِمَاتٍ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴿ [الكهف: 32 - 34].**

في هذا النص تنقل لنا ألفاظ الآيات صورة بستانين من أعناب، أخرجت ثمارها، تامة غير ناقصة، وقد أحاط بهما النخل من كل جانب، وبينهما زرع، وقد أجرى الله عز وجل فيهما مجرى نهر يشقهما، وهذا نقل لصورة منظر أعطيت فيه حدود الموصوف بدقة وجمال، وكأنه قد تم مسح أبعاده بكاميرات تصوير دقيقة، التقطت من مستوى عال مرتفع عن الأرض بمقدار ما يمكن المصور من الإحاطة به، وأخذ أبعاد مساحاته المراد وصفها بدقة وصف معجز، وكأنه صور من علو.

2 - وقوله تعالى في وصف حضارة سبأ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِيٍّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بِأَعْدٍ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ: 15 - 19].

قال العلماء: " قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَابْنُ عَامِرٍ، وَأَبُو بَكْرِ عَنْ عَاصِمٍ: ﴿ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾. وَقَرَأَ حَمْزَةً، وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ: ﴿ مَسْكِنِهِمْ ﴾ بِفَتْحِ الْكَافِ مِنْ غَيْرِ أَلْفٍ ¹.

وأما هذه الآيات فهي في غاية الدقة من نقل تفاصيل هذه البلدة التي جعل الله منها آية لخلقه، وقد صورت لنا ألفاظ النص القرآني جغرافيا المكان بحدوده وأبعاده، وكأنها خريطة صماء تظهر فيها كل التفاصيل المتعلقة بالبلدة وما يجاورها، وما يتصل بها مع باقي القرى المتاخمة لها.

ثانياً: تشكيلُ الصُّورِ المُجَسَّدةِ (صُورٌ ثَلَاثِيَّةُ الأَبْعَادِ: 3D): أو الصور ذات الظل، ويرمز لها بـ(3D)، والتي هي اختصار للجملة: (Trois dimensions)، حيث يمكن لنا تحديد نطاقها المكاني بقياس جميع أبعادها، مثل الطول والعرض والارتفاع والعمق والسمك، وغيرها.

وتعتبر هذه التقنية وسيلة دقيقة في نقل الصور المجسمة أو المجسدة التي تمكن المتلقي من مشاهدتها وكأنه يراها عياناً، وقد اعتمدت نصوص القرآن الكريم في ذلك على الوصف الدقيق المعجز الذي يتيح للقارئ العيش معها بكل تفاصيلها، فيستطيع من خلال فهمه للتعبير المستعمل فيها أن يصل إلى تشكيل الصور المبنوثة فيها.

¹ - زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين ابن الجوزي، المكتب الإسلامي ودار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1423هـ / 2002م، تفسير سورة سبأ، الآية: 15.

ويكثر استعمال هذه التقنية في القرآن الكريم في تقريب وصف قيام الساعة والجزاء المترتب عن الأعمال يوم القيامة، ومنها ما جاء في وصف أرض المحشر وأحداثها، ومنها ما كان في وصف نعيم الجنان، أو عذاب النيران، ومثال ذلك:

1 - تصوير قيام الساعة: وقد تقدم قوله عليه السلام: « مَن سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾، و﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾، و﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾». والمقصود من قوله ﷺ سورة التكوير، قوله تعالى: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ [التَّكْوِيرُ: 1-13]، ومن سورة الانفطار قوله تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الْإِنْفِطَارُ: 1 - 4]، ومن سورة الانشقاق قوله تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (1) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ﴾ [الْإِنْشِقَاقُ: 1 - 5].

2 - تصوير أرض المحشر وأحداثها: قوله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21) احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24) مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ (25) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصَّافَّاتِ: 21 - 26].

3 - تصوير عذاب أهل النار: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ (43) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ (46) خَذُوهُ فَاَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدَّخَانِ: 43 - 49].

4 - تصوير نعيم الجنة: قوله تعالى: ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12) مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا (13) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَاتِهِ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ

قَوَارِيرًا (15) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوا أَسْوَرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿ [الْإِنْسَانِ: 12 - 21].

ومن النصوص التي أجملت تلك المشاهد كلها ما جاء في أواخر سورة الزمر في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (72) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الزُّمَرِ: 67 - 75].

لا شك أن المتلقي لا يستطيع إدراك هذه المشاهد والإحاطة بها كأنه يراها رأي العين إلا إذا عرف معاني تلك الألفاظ المستعملة في النصوص معرفة دقيقة تمكنه من تشكيل الصور الموصوفة في النص، وعليه أيضا أن يتوقف عند كل لفظ ورد في هذه النصوص ويفهمه على القصد الذي جاء من أجل تحقيقه، فكل لفظ قد وضع في محله، لتأدية وظيفة خاصة، لا يمكن لغيره القيام بها في محله.

وقد وردت هذه التقنية بالاعتماد على أسلوب الوصف في القصص القرآني كثيرا، حين تصف الآيات أحوالا بعينها، فتتشكل الصور بأبعادها التي تجسدها بين

يدي القارئ فيراها رأي العين، كقوله تعالى في وصف نهايات الظالمين، حين قال في ثمود قوم صالح عليه السلام بعد نزول العذاب عليهم، ونهاية أمرهم: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: 78]، وقال في عاد قوم هود عليه السلام: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: 24 - 25].

وقال في نهاية فرعون وجنوده بعد خروجه من قصره محاولاً اللحاق بموسى عليه السلام ومن معه: ﴿ كَمْ تَرَكَوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: 25 - 31].

ومما يلاحظ في أسلوب الوصف الوارد في مثل هذه المواقف هو أن ألفاظ نصوص القصص القرآني تؤدي وظيفة نقل الأحداث الماضية بطريقة تصوير تتشكل فيها المشاهد وكأنها تُنقلُ بعين كاميرا تصوير ثابتة، وكأنك ترى المشهد أمامك من زاوية واحدة ثابتة، ولا شك أن هذا لم يكن ليهمل باقي الزوايا والجوانب، وإنما ورد في محله لقصد وحكمة ربانية معجزة.

ومن الأمثلة التي تبين ذلك أيضا ما ورد في قصة سليمان عليه السلام، وكيف نقلت لنا الآيات صورا مهيبية عن عظيم ملكه الذي وهبه الله إياه، وخصه به دون سائر خلقه، فقال تعالى: ﴿ وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل: 17]، وقال في وصف ملك داود عليه السلام: ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ [ص: 17 - 20].

ومن أبداع الصور المنقولة وأروعها في القصص القرآني ما ورد في وصف أصحاب الكهف وحال الفتية الذين فروا بدينهم خوفا من قومهم، فقال تعالى في شأنهم: ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ

الْيَمِينِ وَذَاتِ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بِأَسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿ [الْكَهْفِ: 17 - 18].

ومن أجمل الصور تلك التي ذكرت في قصة نبي الله يوسف عليه السلام, فقال الله تعالى واصفا حال إخوة يوسف وهم يتناقشون أمرهم بينهم في شأن أخيهم الثاني, فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يُوسُفَ: 80].

وفي القرآن الكريم كثير من صور المشاهد الثابتة, أدت فيها ألفاظ النصوص المعجزة وظيفية نقل الصورة بدقة يعجز اللسان عن وصفها, ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النِّسَاءِ: 82].

ثالثاً: تَشْكِيلُ صُورِ الْمَشَاهِدِ الْمُتَحَرِّكَةِ (تَعَدُّدُ جِهَاتِ وَزَوَايَا التَّصْوِيرِ): وفي هذا تؤدي الألفاظ القرآنية وظيفية كاميرات متعددة تتحرك في كل اتجاه لتحيط بالمشهد من كل جانب, وتقوم بمسح شامل لساحة الأحداث, فتنقل ما ينبغي نقله إلى المتلقي بأسلوب معجز, تتشكل فيه الفضاءات حسب ما يقتضيه المقام, وترسم معالم شخصيات القصة في ذهن المستمع حسب ما تخلفه ألفاظ النص وعباراته, وتتحرك الأحداث وفق نص الآية, وتقوم كلماتها بإزالة ستار الغيب فيراها المتتبع لها رأي العين, بل وكأنه يشق صدر الزمن, فيسافر بعيدا, ليعيش الحدث مع أصحابه حال وقوعه في حينه.

إن تكرر ورود القصة القرآنية الواحدة في مواطن عدة من القرآن الكريم, له مقاصده وغاياته, ولعل من أبرزها استكمال صورة مشاهد القصة بأكملها, فإن سرد القصة في موضع بصيغة تختلف عن صياغتها في موضع آخر يجعل المتلقي يتساءل عن سر ذلك, ولكنه بعد البحث, وجمع نصوص الآيات المتكررة في المشهد, أو الحادثة الواحدة, تجعله يدرك بعدها أن هذا التكرار له أسراره التي يطمع كل باحث وعاشق للقرآن في استكشافها, ومعرفة كنهها.

يُعرف هذا الضرب من المتكرر اللفظي في نصوص القرآن الكريم بالمتشابه اللفظي, وهذا سيفرد له مبحث خاص للتعريف به في ما سيأتي, ولكن الذي يهمنا في هذا المقام هو الإشارة إلى دوره في تشكيل صور المشاهد المتحركة في القصة, ونقلها من خلال تنوع استعمالها في المواطن التي وردت فيها, وسنمثل لذلك بعدة

أمثلة، ونرجئ الكلام عن الباقي إلى حين بثه في طيات هذا البحث، فهو لب موضوعه.

1 - المثال الأول: ما ورد في قصة موسى عليه السلام، حين حَاجَّ فرعون فَحَاجَّهُ، وقد ورد نقل هذا المشهد في ثلاثة مواطن من القرآن الكريم، سأوردها حسب ترتيب سور القرآن الكريم:

• قال الله تعالى: ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَادَا تَأْمُرُونَ (110) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف: 107 - 112].

• وقال تعالى: ﴿ فَتَنَّا زَعْوًا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ [طه: 62 - 63].

• وقال تعالى: ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَادَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: 32 - 37].

هذه ثلاثة نصوص نقلت لنا مشهد مناظرة موسى عليه السلام لفرعون وتحديه أمام ملاه، فكرر اللفظ نفسه في سورة الأعراف وسورة الشعراء، إلا في جزئيتين:

الأولى: ما ورد في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾، فأسند فعل القول إلى الملا، ولم يذكر شبه الجملة ﴿ بِسِحْرِهِ ﴾ التي وردت في سورة الشعراء من قولهم.

الثانية: ما ورد في سورة الشعراء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾، فأسند هنا فعل القول إلى فرعون، بزيادة ذكر شبه الجملة ﴿ بِسِحْرِهِ ﴾ وقد جعلها من مقوله، فأثبتت هنا ولم تثبت في سورة الأعراف.

ثم جاءت حكاية القول في سورة طه من قول السحرة، ولا شك أن سرد هذا المشهد الواحد في ثلاث سور مختلفة من القرآن الكريم له أثره الواضح في نقل أدق التفاصيل الواردة في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، حيث أن كل ما حكي من قول في موضعه جاء ليبين مجلس المحاورة والمناظرة بينهما من زاوية تصوير تختلف عن الأخرى، فالذي ورد في سورة الشعراء يكون في ترتيب الأحداث قد حصل أولاً، فكان أصل القول من فرعون للملأ من حوله، بينما هذه الجملة **﴿لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ﴾** تشكل في ذهنية المتلقي مشهد المجلس الخاص الذي يتخذه فرعون لنفسه، فهي بمثابة كاميرا تصوير وضعت لنقل هذا الجانب من محاورة فرعون لمن حوله من خاصته بعد وقوع الحق أمامهم، وانقطاعهم عن مناظرة نبي الله موسى عليه السلام، ومن أجل هذا وردت زيادة قوله **﴿بِسِحْرِهِ﴾**، التي لم ترد في قول الملأ من سورة الأعراف، وأن زيادة: **﴿بِسِحْرِهِ﴾** في الشعراء فهي " مِنْ قَوْلِ فِرْعَوْنَ طَائِعِيَّةِ مُوسَى عليه السلام، وَهُوَ أَحْنَقُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَلَأِ بِجَمْعِهِمْ، وَأَعْظَمُهُمْ بَعْضًا لَهُ، وَكَرَاهَةً لِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى، فَأَكَّدَ بِقَوْلِهِ: **﴿بِسِدِّ □﴾** طَمَعًا فِي صَعْوِهِمْ لِقَوْلِهِ، وَالثَّبَاتِ عَلَى مَذْهَبِهِ الشَّنِيعِ، وَمُرْتَكِبِهِ، وَرَجَاءِ أَنْ يَعْتَقِدَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ أَنَّ آيَةَ مُوسَى عليه السلام سِحْرٌ لَا تَوَقَّفَ فِيهَا، فَلَمْ يَفْتَعْ بِقَوْلِهِ لِمَلَاهُ: **﴿إِنَّهُ لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾**، وَأَنَّهُ يُرِيدُ إِخْرَاجَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ، حَتَّى سَجَّلَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَكَّدَهُ طَمَعًا فِي قَبُولِ بَاطِلِهِ بِقَوْلِهِ: **﴿بِسِحْرِهِ﴾**، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ حَالُ الْمَلَأِ مِنْ قَوْمِهِ كَحَالِهِ فِيمَا ذَكَرَ ائْتَفَقُوا بِقَوْلِهِمْ لِرَسُولِهِمْ وَبَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ □ **﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِ □﴾** [الشعراء: 34 - 35]، فَهَذَا قَوْلُ الْمَلَأِ، وَالَّذِي ثَبَّتَ فِي الشُّعْرَاءِ قَوْلُ فِرْعَوْنَ، وَزِيَادَةُ **﴿بِسِحْرِهِ﴾** لِنُبْيَانِ حَالِ الْمَلَأِ مِنْ حَالِ فِرْعَوْنَ الْمُتَوَلِّي كَبِيرِ الْأُمُورِ 1".

ثم جاء قول الملأ ثانيا بعد قول فرعون، فكانوا هم من نقل كلام فرعون إلى باقي من حضر، فقال تعالى في سورة الأعراف: **﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110)﴾** وحكاية

¹ - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الخامسة، سنة الطبع: 2013م، الآية السابعة عشرة من سورة الأعراف (560 - 567).

هذا القول في هذه الصورة بمثابة جانب آخر من تصوير نفس الحدث, ولكن من زاوية تواصل بين الملا الذين خاطبهم فرعون ابتداء, وبين باقي من حضر مجلس المناظرة, إلا أن ورودها في هذا النص يشعر المتلقي بتغير طفيف في زمن الحدث, وانتقال حركة الأحداث وفق فضاء زمني مغاير, جاء بعد الأول مباشرة.

وجاء النص الثالث ليثبت ويقرر تبعية كل الناس لهذا الطاغية المعاند للحق, فكرر السحرة نفس القول الحادث من فرعون والمتكرر على السنة الملا, ليتبينه السحرة في آخر المطاف, ولكن الذي نجزم به أن النص السردى في سورة طه نقل لنا صورة حدث آخر في مجلس منفصل عن المجلس الأول, فقد اجتمع السحرة بعد مغادرة موسى عليه السلام مجلس المناظرة, وكان ذلك استجابة منهم لطلب فرعون وملاه حينما قالوا: ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشُّعْرَاءِ: 36 - 37], وهو نفس قولهم في سورة الأعراف: ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾.

كان تكرر ورود هذا المشهد الواحد في هذه الآيات بمثابة كاميرات تصوير تنقل لنا الأحداث من زوايا متعددة وجوانب مختلفة, مع حكاية نفس القول الذي تكرر إirاده على ألسنتهم, ليتم في الأخير تشكيل كل تفاصيل القصة أمام عين من يتأمل في إعجاز لغة السرد القرآني.

2 - المثال الثاني: ما ورد من تفاصيل في خلق جسد آدم عليه السلام, فقد نقلت لنا نصوص الآيات في سور متعددة مراحل خلق جسده عليه السلام, وبعد جمعها وضمها لبعضها يكتمل مشهد الخلق الأول:

- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 59].
- وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ [ص: 71].
- وقال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ [الصَّافَّاتِ: 11].
- وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الْحَجَرِ: 28].

• وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرَّحْمَنُ: 14].

بين المفسرون سبب اختلاف التعبير بين نصوص الآيات، وتكلم علماء المتشابه عن ذلك، فقالوا: " أَمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْ تَرَابٍ ﴾، وَ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾، وَ﴿ مِنْ طِينٍ ﴾، فَالْمُرَادُ: أَصْلُهُمْ وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّ أَصْلَهُ مِنْ تَرَابٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ طِينًا، ثُمَّ جَعَلَهُ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ مِنْ نُطْ □ ﴾، أَيُّ أَوْلَادِ آدَمَ، وَدُرَيْتُهُ، كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ¹. وقال القرطبي: " وَقَالَ هُنَا: ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾، وَقَالَ هُنَاكَ: ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمًا مَسْنُونٍ ﴾، وَقَالَ: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾، وَقَالَ: ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ﴾، وَذَلِكَ مُتَّفِقٌ الْمَعْنَى، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَخَذَ مِنْ تَرَابِ الْأَرْضِ فَعَجَنَهُ، فَصَارَ طِينًا، ثُمَّ انْتَقَلَ فَصَارَ كَالْحَمِّ الْمَسْنُونِ، ثُمَّ انْتَقَلَ، فَصَارَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ².

وسياتي تفصيل هذا المفصل من مشهد خلق الإنسان الأول في قصة آدم عليه السلام في طيات هذا البحث.

3 - المثال الثالث: وفي هذا المثال قوة إعجاز تبهر العقول وتأخذ القلوب، حيث أدت طريقة سرد الحدث في قصة يوسف عليه السلام وظيفته خارقة في تصوير موقفين متباينين، بينهما مسافات بعيدة، ذلك ما قصه علينا ربنا عز وجل وهو ينقل لنا تفاصيل خروج القافلة من مصر وهي تحمل قميص الابن متجهة نحو فلسطين، نحو أب احترق قلبه حزنا على ابنه، وذهب بصره جراء فراقه، وقد جاءت البشرية مع أنسام الصبا تحمل له خبر ما كان ينتظره منذ سنين، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفَنِّدُونَ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يُوسُفَ: 94 - 96]. وغاية الإعجاز حين يستوقفك قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾، فإن العير قد انطلق مسيرها من مصر، بينما كان يعقوب عليه السلام في بيته في فلسطين، فانظر كيف جمعت

¹ - كشف المعاني في المتشابه من المثالي، بدر الدين ابن جماعة، تحقيق: عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى، عام النشر: 1410هـ / 1990م، (307/1).

² - تفسير القرطبي، (1 / 151).

الآية بين مكانين بينهما مسافات بعيدة بجملة واحدة تجعل المستمع كأنه يراها مجتمعين.

ومما يزيد في قوة التعبير عن هذا الموقف المؤثر، وقوة تصويره التي تجعل تفكير المستمع يتوقف هنيهة ثم ينطلق بعدها في استيعاب ما يجري من الأحداث، حين يقرأ قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾، فتستوقفه لفظة (أَنْ) " الَّتِي يُظَنُّ أَنَّهَا زَائِدَةٌ فِي الْقُرْآنِ كَمَا يَقُولُ النَّحَّاءُ ... مَعَ أَنْ هَذِهِ الزِّيَادَةُ لَوْنٌ مِنَ التَّصْوِيرِ لَوْ هُوَ حُذِفَ مِنَ الْكَلَامِ لَدَهَبَ بِكَثِيرٍ مِنْ حُسْنِهِ وَرَوْعَتِهِ ¹ ". ثم إن المراد من هذا التعبير هو " تَصْوِيرُ الْفَصْلِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ قِيَامِ الْبَشِيرِ بِقَمِيصِ يُوسُفَ وَبَيْنَ مَجِيئِهِ، لِبُعْدِ مَا كَانَ بَيْنَ يُوسُفَ وَأَبِيهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَأَنَّهُ كَانَ مُنْتَظَرًا بِقَلْبِي وَاضْطِرَابٍ، تَوَكَّدُهُمَا وَتَصِفُ الطَّرَبَ لِمَقْدَمِهِ وَاسْتِقْرَارِهِ عَنَّهُ هَذِهِ النُّونُ فِي الْكَلِمَةِ الْفَاصِلَةِ، وَهِيَ (أَنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿ أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾، وَعَلَى هَذَا يَجْرِي كُلُّ مَا ظُنُّ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ مَزِيدٌ، فَإِنَّ اعْتِبَارَ الزِّيَادَةِ فِيهِ وَإِقْرَارَهَا بِمَعْنَاهَا، إِنَّمَا هُوَ نَقْصٌ يُجَلُّ الْقُرْآنُ عَنَّهُ ² ".

ومن بين أهم النصوص التي تجلى فيها تصوير المشاهد بكلمات وألفاظ كأنها كاميرات مسح شامل لساحات الأحداث، تلك التي وردت في وصف مشهد غرق ابن نوح عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَأُوبِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هُود: 42 - 43].

فلا يستطيع المتلقي أن يحيط بروية هذا المشهد العظيم رأي العين إلا إذا استطاع أن يحدد معنى كلمة (الْمَعْزِلِ) الذي كان فيه الابن، وكلما أراد الخيال تحديده إلا ووجد ألفاظ النص تقيده، وتسيره إلى تصور محدد ودقيق لمعنى الكلمة المعبر بها، فإن الماء قد طغى على كل شيء، وأمواجه كالجبال، ونداء نوح عليه السلام لابنه دليل على سماعهما لبعضهما البعض، مع صعوبة بلوغ الصوت إلى المستمع، لذلك ناداه، ثم إنه طلب منه الركوب معه، وما كان له أن يطلب منه القيام بفعل شيء

¹ - رسائل الرافعي، محمود أبو رية، الدار العميرية، (ص: 233).

² - المرجع نفسه.

لا يستطيعه, وكان رد الابن على أبيه بأنه سيأوي إلى جبل يقيه الغرق, وهذا ينبئ بأن الابن كان يعتقد أن لديه إمكانية اللجوء إلى ذاك الجبل, وكل هذه التصورات تتحكم فيها ألفاظ النص التي استعملت في محلها لتقوم بوظيفتها التي جاءت من أجلها, وسيتبين خلال البحث وجه استعمالها وتحديد معنى كلمة (**مَعْرَلٍ**) التي كان فيه الابن قبل غرقه.

هذه بعض الأمثلة أوردتها لأبين بها ما قصدته من لغة التصوير وعلاقتها بتشكيل المشاهد في القصص القرآني, وأن الرابط بين اللغة المعبر بها والأحداث التي حصلت في واقع الحال هو تقريبها إلى المتلقي, حسب رصيده المعرفي بلغة العرب من جهة, وصحة خياله ودقة تصوره من جهة أخرى.

2 - الْمُتَشَابِهُ اللَّفْظِيُّ

تَوْطِئَةٌ:

جعل الله عز وجل كتابه معجزا لخلقه, وبث فيه من العلوم ما لا يستطيعون الإحاطة به, وبيّن لهم أنما أنزله إليهم بعلمه الذي أحاط بكل شيء, وشهد على ذلك, وأشهد ملائكته سبحانه, فقال: ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 166], وقد تحداهم على مر العصور أن يأتوا بمثله فما استطاعوا لذلك سبيلا, قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَآنَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هُودٍ: 13 - 14].

تعددت المعارف المبنوثة في القرآن الكريم, وتشعبت العلوم التي اختصت بدراسة كتاب الله تعالى, وقد صنف العلماء كتبا لا تحصى في ذلك, ويبقى كتاب الله عز وجل النعيم الذي لا ينبض, والكنز الذي لا تنقضي عجائبه, ﴿ وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الْقَمَانَ: 27], وعلم المتشابه من العلوم الدقيقة في كتاب الله عز وجل, أفرد له العلماء مصنفات خاصة, بينوا فيها كثيرا من الأسرار المتعلقة به, فهو علم له أصوله وفروعه, وعلماؤه ومؤلفاته، وفوائده ومزاياه, ومتعلقاته بعلوم أخرى ترتبط به من قريب أو بعيد.

مَفْهُومُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

مصطلح المتشابه اللفظي هو من أخص أبواب علم المتشابه الوارد في كتاب الله عز وجل, وقبل الحديث عن أهم التفاصيل المتعلقة به, كان لزاما علينا الحديث عن المتشابه عموما أولا.

وللحديث عن قضايا علم المتشابه في كتاب الله عز وجل, نؤسس لذلك انطلاقا من نصوص القرآن الكريم, فقد وردت فيه بعض الآيات التي وصفته بذلك:

1 - قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 7]. قال ابن كثير: " يُخْبِرُ تَعَالَى أَنْ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، أَيُّ: بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتِ الدَّلَالَةِ، لَا التَّبَاسَ فِيهَا عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَمِنْهُ آيَاتٌ أُخْرُ فِيهَا اشْتِبَاهٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعْضِهِمْ، فَمَنْ رَدَّ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى الْوَاضِحِ مِنْهُ، وَحَكَّمَ مُحْكَمَهُ عَلَى مُتَشَابِهِهِ عِنْدَهُ، فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ عَكَسَ انْعَكَسَ "1.

2 - وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزُّمَرِ: 23].

3 - وقال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هُود: 1].

هذه ثلاثة نصوص تصف كلام الله عز وجل بوصفين متلازمين، الأول: أنه محكم، والآخر: أنه متشابه، ونتج عن فهم هذه الآيات ثلاثة مذاهب، قال الزركشي: " حَكَى الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ حَبِيبِ النَّيْسَابُورِيِّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مُحْكَمٌ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾. وَالثَّانِي: كُلُّهُ مُتَشَابِهٌ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾. وَالثَّلَاثُ: - وَهُوَ الصَّحِيحُ - أَنَّ مِنْهُ مُحْكَمًا، وَمِنْهُ مُتَشَابِهًا، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ "2.

وقد أجمل القرطبي معنى المحكم والمتشابه فقال: " اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُحْكَمَاتِ وَالْمُتَشَابِهَاتِ عَلَى أَقْوَالٍ عَدِيدَةٍ، فَقَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَهُوَ مُقْتَضَى قَوْلِ الشَّعْبِيِّ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَغَيْرِهِمَا: الْمُحْكَمَاتُ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ: مَا عُرِفَ تَأْوِيلُهُ، وَفَهُمُ

1 - تفسير ابن كثير، (6/2).

2 - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1376 هـ / 1957م، (68/2).

مَعْنَاهُ وَتَفْسِيرُهُ. وَالْمُتَشَابِهُ: مَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ إِلَى عِلْمِهِ سَبِيلٌ، مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ دُونَ خَلْقِهِ، قَالَ بَعْضُهُمْ: وَذَلِكَ مِثْلُ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَخُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَالدَّجَالِ، وَعَيْسَى، وَنَحْوِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ. قُلْتُ: هَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي الْمُتَشَابِهِ "1.

ولكي تتضح الصورة وجب تبين معنى المحكم والمتشابه في لغة العرب واصطلاح العلماء.

الْمُحَكَّمُ وَالْمُتَشَابِهُ:

أَوَّلًا: الْمُحَكَّمُ

أ - الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةُ:

وهو من أحكم الشيء، بمعنى: " وَثَقَهُ وَاتَّقَنَهُ، وَالْمَعْنَى الْعَامُّ لِهَذِهِ الْمَادَّةِ الْمَنْعُ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَكَّمٍ يَمْنَعُ بِأَحْكَامِهِ تَطَرُّقَ الْخَلَلِ إِلَى نَفْسِهِ أَوْ غَيْرِهِ، وَمِنْهُ الْحُكْمُ وَالْحِكْمَةُ وَحَكَمَةُ الْفَرَسِ، قِيلَ وَهِيَ أَصْلُ الْمَادَّةِ "2.

والمحكم أيضا: " الْمُتَقَنَّ، يُقَالُ: بِنَاءٌ مُحَكَّمٌ، أَيُّ: مُتَقَنَّ، لَا وَهْنَ فِيهِ، وَلَا خَلَلَ "3.

والمحكم مأخوذ من قولهم: " بِنَاءٌ مُحَكَّمٌ، أَيُّ: مُتَقَنَّ، مَأْمُونٌ الْإِنْقَاضِ "4.

ب - الْمَعْنَى الْأِصْطِلَاحِيَّةُ:

وأما في الاصطلاح فهو: " مَا أَحْكَمَ، الْمُرَادُ بِهِ: عَنِ التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ، أَيُّ: التَّخْصِيسِ وَالتَّأْوِيلِ وَالنَّسْخِ. ثُمَّ انْقِطَاعُ احْتِمَالِ النَّسْخِ قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى فِي ذَاتِهِ، بَأَنَّ لَا يَحْتَمِلُ التَّبْدِيلَ عَقْلًا، كَالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ وَصِفَاتِهِ، وَخُدُوثِ الْعَالَمِ وَالْإِخْبَارَاتِ، وَيُسَمَّى مُحَكَّمًا لِعَيْنِهِ. وَقَدْ يَكُونُ بِانْقِطَاعِ الْوَحْيِ بِوَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ "5.

1 - تفسير القرطبي، (10/4).

2 - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، سنة الطبع: 1990م، (135/3).

3 - كتاب الكليات، أبو البقاء الكفومي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1419هـ / 1998م، (1361).

4 - التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1405هـ، (ص: 263).

5 - دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1421هـ / 2000م، (160/3).

وقد جعل العلماء صفة الأحكام متعلقة باللفظ، " فَإِنَّ اللَّفْظَ إِذَا ظَهَرَ مِنْهُ الْمُرَادُ، فَإِنَّ لَمْ يَحْتَمِلِ النَّسْخَ فَهُوَ مُحْكَمٌ، وَإِلَّا فَإِنَّ لَمْ يَحْتَمِلِ التَّأْوِيلَ فَمُفَسَّرٌ، وَإِلَّا فَإِنَّ سِيْقَ الْكَلَامِ لِأَجْلِ ذَلِكَ الْمُرَادِ فَنَصٌّ، وَإِلَّا فَظَاهِرٌ، وَإِذَا خَفِيَ لِعَارِضٍ، أَيْ: لِعَبْرِ الصِّيغَةِ فَخَفِيٌّ، وَإِنْ خَفِيَ لِنَفْسِهِ، أَيْ: لِنَفْسِ الصِّيغَةِ وَأَدْرِكَ عَقْلًا فَمُشْكِلٌ، أَوْ نَقْلًا فَمُجْمَلٌ، أَوْ لَمْ يُدْرِكْ أَصْلًا فَمُتَشَابِهٌ "1.

وقال الشاطبي: " الْمُحْكَمُ يُطْلَقُ بِإِطْلَاقَيْنِ: عَامٌّ، وَخَاصٌّ، فَأَمَّا الْخَاصُّ؛ فَالَّذِي يُرَادُ بِهِ خِلَافَ الْمَنْسُوحِ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عُلَمَاءِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوحِ، سَوَاءً عَلَيْنَا أَكَانَ ذَلِكَ الْحُكْمَ نَاسِخًا أَمْ لَا؛ فَيَقُولُونَ: هَذِهِ الْآيَةُ مُحْكَمَةٌ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوحَةٌ، وَأَمَّا الْعَامُّ؛ فَالَّذِي يَعْنِي بِهِ: الْبَيِّنُ، الْوَاضِحُ، الَّذِي لَا يَفْتَقِرُ فِي بَيَانِ مَعْنَاهُ إِلَى غَيْرِهِ "2.

وقد وصف الله عز وجل القرآن الكريم " بِالْإِحْكَامِ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ هُودٍ بِقَوْلِهِ: ﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ﴾ [هُود: 1]، وَهُوَ مِنْ إِحْكَامِ النَّظْمِ وَإِتْقَانِهِ، أَوْ مِنْ الْحِكْمَةِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ آيَاتُهُ عَلَيْهَا "3. وقال العلماء: " الْهَمْزَةُ فِي ﴿ أَحْكَمْتُ ﴾، يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلنَّقْلِ، مِنْ (حَكَمَ) بِضَمِّ الْكَافِ، أَيْ: صَارَ حَكِيمًا، بِمَعْنَى: جُعِلَتْ حَكِيمَةً، كَقَوْلِهِ: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [لُقْمَانَ: 2]. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ: (أَحْكَمْتُ الدَّابَّةَ)، إِذَا وَضَعْتُ عَلَيْهَا الْحِكْمَةَ لِمَنْعِهَا مِنَ الْجَمَاحِ ... وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِعَبْرِ النَّقْلِ، مِنْ الْإِحْكَامِ، وَهُوَ الْإِتْقَانُ، كَالْبِنَاءِ الْمُحْكَمِ الْمُرْصَفِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهَا نُظِمَتْ نَظْمًا رَاصِنًا مُتَقَنًا. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿ أَحْكَمْتُ ﴾، أَيْ: لَمْ تُنْسَخْ بِكِتَابٍ كَمَا نُسِخَتْ الْكُتُبُ وَالشَّرَائِعُ بِهَا "4. والمحكم عند العلماء علم يقابله علم المتشابه.

1 - التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، لبنان، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1410هـ، (ص: 642).

2 - الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1417هـ/ 1997م، (3 / 305).

3 - تفسير المنار، (3 / 135).

4 - اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1419هـ / 1998م، (3 / 153).

ثانياً: الْمُتَشَابِهُ

أ - الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةُ:

يطلق المتشابه في اللغة على " مَا لَهُ أَفْرَادٌ أَوْ أَجْزَاءٌ يُشْبِهُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَعَلَى مَا يَشْتَبِهُ مِنَ الْأَمْرِ، أَي: يَلْتَبَسُ " ¹, وقال ابن سيده: " الشَّبَهُ، والشَّبَهُ، والشَّبِيهَةُ: الْمِثْلُ، وَالْجَمْعُ: أَشْبَاهٌ. وَأَشْبَهَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ: مَاتَلَهُ، وَفِي الْمِثْلِ: (مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ). وَأَشْبَهَ الرَّجُلُ أُمَّهُ، وَذَلِكَ إِذَا عَجَزَ وَضَعَفَ ... وَتَشَابَهَ الشَّيْئَانِ، وَاشْتَبَهَا: أَشْبَهَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ [الأنعام: 99] ... وَشَبَّهَهُ إِيَّاهُ، وَشَبَّهَهُ بِهِ: مَاتَلَهُ. وَأُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ، وَمُشَبَّهَةٌ: مُشْكَلَةٌ، يُشْبِهُ بَعْضُهَا بَعْضًا ... وَبَيْنَهُمْ أَشْبَاهٌ، أَي: أَشْيَاءٌ يَتَشَابَهُونَ فِيهَا، وَشَبَّهَ عَلَيْهِ: خَلَطَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ حَتَّى اشْتَبَهَ بغيره " ².

وصف الله سبحانه كتابه كله بالمتشابه في سورة الزمر، فقال تعالى: ﴿ اللهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: 23]، ومعنى قوله: ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾، أي: " يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فِي هِدَايَتِهِ، وَبِلَاغَتِهِ، وَسَلَامَتِهِ مِنَ التَّنَاقُضِ، وَالتَّفَاوُتِ، وَالِاخْتِلَافِ، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82] " ³. وأما ما جاء في قوله تعالى: ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران: 7]، فإن معناه: " مُتَشَابِهَاتٌ فِي التَّلَاوَةِ، مُخْتَلِفَاتٌ فِي الْمَعْنَى، كَمَا قَالَ جَلَّ تَنَاوُهُ: ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ [البقرة: 25]، يَعْنِي فِي الْمُنْظَرِ، مُخْتَلِفًا فِي الْمَطْعَمِ، وَكَمَا قَالَ مُخْبِرًا عَمَّنْ أَخْبَرَ عَنْهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة: 70]، يَعْنُونَ بِذَلِكَ: تَشَابَهَ عَلَيْنَا فِي الصِّفَةِ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَنْوَاعُهُ " ⁴.

¹ - تفسير المنار، (3 / 135).

² - المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 2000م، مادة (ش ب ه).

³ - تفسير المنار، (3 / 135).

⁴ - جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1420 هـ / 2000 م، (6 / 173 - 174).

وقد بين العلماء أن أصل ورود المتشابه الذي هو بمعنى الملتبس والمشكل " أن يكون الالتباس فيه بسبب شبهه لغيره، ثم أطلق على كل ملتبس مجازاً وإن كان ظاهراً الأساس أن المعنيين حقيقتان فيه، ولا شك أن القرآن يصح أن يوصف كله بالمحكم وبالمتشابه، من حيث هو متقن ويشبه بعضه بعضاً فيما ذكر¹."

ب - المعنى الاصطلاحي:

تعددت أقوال العلماء في تبين المراد من علم المتشابه، وتنوعت بحسب اختصاص كل فريق، فتكلم المفسرون على بعضها، وتحدث الأصوليون على كثير من فروعها، ومجمل القول فيها أن المتشابه هو " الذي لا يتبين المراد به من لفظه، كان مما يدرك مثله بالبحث والنظر أم لا، وعلى هذا الثاني مدار كلام المُفسرين في بيان معنى قول الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران: 7]²، وقال الكفومي: " المتشابه: ما اشتبه منه مراد المتكلم على السامع لإحتماله وجوهاً مختلفة³." وقال الزركشي: " أما المتشابه فأصله أن يشته اللفظ في الظاهر مع اختلاف المعاني، كما قال تعالى في وصف ثمر الجنة: ﴿ وَأَنْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ [البقرة: 25]، أي: متفق المناظر، مختلف الطعوم، ويقال للغامض: متشابه⁴."

ويمكن أن نخلص بعد عرض هذه الأقوال إلى أن المتشابه ثلاثة أنواع:

الأول: الذي لا يعلم تأويله إلا الله تعالى، كمعاني الحروف المقطعة في أوائل السور.

الثاني: وهو الذي خفي العلم بمعناه على بعض الناس دون بعض، وهذا لا يدرك إلا بالبحث والنظر.

الثالث: ما تشابه لفظه وتكرر ورود بصيغ وعبارات مختلفة ومتقاربة في آن واحد، وهو ما يعرف عند العلماء بالمتشابه اللفظي، وهو قسمان:

• أ - قسم خاص بالقصص القرآني.

¹ - تفسير المنار، (3 / 135).

² - الموافقات، الشاطبي، (3 / 305).

³ - الكليات، الكفومي، (ص: 1361).

⁴ - البرهان في علوم القرآن، الزركشي، (69/2).

• ب - قسم عام ورد في غير القصص القرآني.

وقد صنف جماعة من العلماء في هذا النوع من العلوم كتباً عنيت بما تشابه من الآيات، مثل كتاب (الإكليل في المتشابه والتأويل) لشيخ الإسلام ابن تيمية، ونظم فيه السخاوي نظماً سماه: (هداية المُرْتَابِ وَغَايَةُ الْحُفَاطِ وَالطُّلَابِ فِي تَبْيِينِ مُتَشَابِهِ الْكِتَابِ)، وغيرها من الكتب، ومن أشهر ما كتب في توجيه ما تشابه من آيات الكتاب العزيز: كتاب (درة التنزيل وعرّة التأويل) للخطيب الإسكافي، و(ملاك التأويل القاطع بذوي الأحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل) لابن الزبير لغرناطي، و(أسرار التكرار في القرآن) لأبي القاسم ابن نصر الكرماني، و(كشف المعاني في المتشابه من المثاني) لبدر الدين ابن جماعة. و(بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز) لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي.

علم المتشابه في القصص القرآني:

جعل الزركشي النوع الخامس من أنواع علوم القرآن في كتابه البرهان مفرداً لعلم المتشابه، وعرفه بأنه "إيراد القصة الواحدة في سور شتى، وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء، وحكمته: التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك مبتدأ به ومتكرراً"¹. وقال الكفومي: "ومن المتشابه: إيراد القصة الواحدة في سور شتى، وفواصل مختلفة، في التقديم والتأخير، والزيادة والتترك، والتعريف والتكثير، والجمع والأفراد، والإدغام واللفك، وتبديل حرف بحرف آخر"². وجعل السيوطي الوجه السادس من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم: مشتبهات آياته، في كتابه (معتزك الأقران في إعجاز القرآن)، وذلك: "أن القصة الواحدة ترد في سور شتى، وفواصل مختلفة، بأن يأتي في موضع واحد مقدماً، وفي آخر مؤخراً... وفي موضع بزيادة، وفي موضع بدونها... وفي موضع معرّفاً، وفي آخر منكرراً، أو مفرداً، وفي آخر جمعاً، أو بحرف، وفي آخر

¹ - البرهان في علوم القرآن، الزركشي، (112/1 - 154).

² - الكليات، الكفومي، (ص: 1361).

بِحَرْفٍ آخَرَ، أَوْ مُدْعَمًا، أَوْ مُفَكَّكًا، وَهَذَا النَّوْعُ يَتَدَاخَلُ مَعَ نَوْعِ الْمُنَاسَبَاتِ، وَقَدْ أَفْرَدَهُ بِالتَّصْنِيفِ جَمَاعَةٌ¹.

يمكن أن نجعل المتشابه اللفظي في القرآن الكريم ضربين، الأول: ما جاء في عموم الآيات، وما تكرر منها، مع وجود فوارق التعبير في نص الآيات، والآخر ما جاء في إيراد القصة الواحدة في سور مختلفة من القرآن الكريم، مع تنوع صياغتها، واختلاف عباراتها.

أنواع المتشابه اللفظي في القرآن الكريم:

قسم العلماء المتشابه اللفظي في القرآن الكريم إلى أقسام عديدة باعتبار ما يطرأ على عبارات النص القرآني من تنوع في صياغته، وبينوا أنواع ما ورد منها في كتاب الله تعالى، وكان ممن سبق في هذا التقسيم الزركشي في كتابه البرهان²، وقد جعل من هذا العلم نوعاً من أنواع العلوم التي بحثها في كتابه، وقد اعتمد على تقسيمه كل من جاء بعده³. وقد جعل الزركشي أنواع المتشابه ثمانية أقسام، ولكل قسم فروع مختلفة، بين في بحثه مواطن المتشابهات الواردة في كتاب الله عز وجل، وحاول توجيهاً ورودها فيه، وأنا عرضها ملخصة في ما يأتي على غير ترتيبه في كتابه، وأزيد عليها:

1 - النوع الأول: المتشابه اللفظي باعتبار التعريف والتكثير:

• كقوله تعالى: في سورة البقرة: ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [البقرة: 61]، وما ورد في سورة آل عمران: ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران: 21]، وقوله في سورة البقرة أيضاً في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ [البقرة: 126]، وفي سورة إبراهيم: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ [إبراهيم: 35].

2 - النوع الثاني: المتشابه اللفظي باعتبار التذكير والتأنيث:

¹ - معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ضبطه وصححه وكتبه فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1408هـ/1988م، (66/1).

² - ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، (112/1).

³ - ينظر من المعاصرين: دراسة المتشابه اللفظي من أي التنزيل في كتاب ملاك التأويل، محمد فاضل السامرائي.

• كقوله تعالى في سورة هود: ﴿ **وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ [هُود: 64], وما ورد في نفس السورة: ﴿ **وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ [هُود: 94].

3 - النَّوعُ الثَّلَاثُ: المتشابه اللفظي باعتبار الجمع والإفراد:

• كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ **لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً** ﴾ [البقرة: 80], وما ورد في سورة آل عمران: ﴿ **لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ** ﴾ [آل عمران: 24].

4 - النَّوعُ الرَّابِعُ: المتشابه اللفظي باعتبار الإجمال والتفصيل:

• كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ **وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** ﴾ [البقرة: 51], وما ورد في سورة الأعراف: ﴿ **وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ** ﴾ [الأعراف: 142].

5 - النَّوعُ الْخَامِسُ: المتشابه اللفظي باعتبار الإظهار والإضمار: ويأتي على

ضربين:

• الأوَّلُ: وضع أحدهما مكان الآخر: ومثاله: قوله تعالى في سورة الأعراف في قصة موسى عليه السلام وفرعون: ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ أَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ** ﴾ [الأعراف: 123], ثم أضمر في سورتَي طه والشعراء, فقال تعالى: ﴿ **قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ** ﴾ [طه: 71], و[الشعراء: 49].

• الثَّانِي: الاختلاف في استعمال الضمانر، كقوله تعالى في تعذيبه لبني إسرائيل: ﴿ **فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ** ﴾ [البقرة: 55], وقال فيهم في سورة النساء: ﴿ **فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ** ﴾ [النساء: 153], ومثله قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ **بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ** ﴾ [الأنبياء: 44], وقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿ **بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ** ﴾ [الزخرف: 29].

6 - النَّوْعُ السَّادِسُ: المتشابه اللفظي باعتبار التقديم والتأخير: ويقع على

ثلاثة أضرب:

• الأَوَّلُ: تقديم كلمة وتأخيرها, وهذا في القرآن كثير, كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ **وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ** ﴾ [البقرة: 62], وقوله تعالى في سورة الحج: ﴿ **وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى** ﴾ [الحج: 17].

• الثَّانِي: تقديم شبه الجملة وتأخيرها, كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ **وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: 173], وما ورد في باقي القرآن: ﴿ **لغيرِ اللَّهِ بِهِ** ﴾ [المائدة: 3], ﴿ **لغيرِ اللَّهِ بِهِ** ﴾ [الأنعام: 145], ﴿ **لغيرِ اللَّهِ بِهِ** ﴾ [النحل: 115].

• الثَّالِثُ: تقديم جملة وتأخيرها: كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ **ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: 102], وكقوله تعالى في سورة غافر: ﴿ **ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ [المائدة: 62],

7 - النَّوْعُ السَّابِعُ: المتشابه اللفظي باعتبار الإثبات والحذف: وفيه ثلاثة

أضرب:

• الأَوَّلُ: إثبات بعض الحروف في آيات وحذفها من أخرى, كقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام في سورة النمل: ﴿ **وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا** ﴾ [النمل: 10], وما ورد في سورة القصص: ﴿ **وَأَنْ أَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا** ﴾ [القصص: 31], وفي قصة لوط عليه السلام, قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا** ﴾ [هود: 77], وقال في سورة العنكبوت: ﴿ **وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا** ﴾ [العنكبوت: 33], ويكثر في هذا الضرب تنويع استعمال حروف الجر في مواضع وحذفها من أخرى, كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿ **فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا** ﴾ [يونس: 38], وما ورد في سورة البقرة: ﴿ **فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا** ﴾ [البقرة: 23].

- الثَّانِي: إثبات شبه الجملة في موضع وحذفها من آخر, كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [الْحَجِّ: 22], وما ورد في سورة السجدة: ﴿ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [السَّجْدَةِ: 20], وفي القرآن من هذا الضرب كثير.
- الثَّالِثُ: إثبات جملة أو أكثر في موضع وحذفها من آخر, كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ وَبِاللَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الْمَائِدَةِ: 17], وما ورد في سورة آل عمران: ﴿ وَبِاللَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 189].

8 - النَّوْعُ الثَّامِنُ: المتشابه اللفظي باعتبار الإبدال: وفيه ثلاثة أضرب:

- الْأَوَّلُ: إبدال حرف بآخر, كقوله تعالى في قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة: ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا ﴾ [البَّقَرَةِ: 35], وقال في سورة الأعراف: ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا ﴾ [الأَعْرَافِ: 19], وكقوله تعالى في سورة الرعد, وسورة فاطر, وسورة الزمر: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [الرَّعْدِ: 2], [فَاطِرِ: 13], [الزُّمَرِ: 5], وما ورد في سورة لقمان, في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [لُقْمَانَ: 10].
- الثَّانِي: إبدال كلمة بكلمة مكانها, كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [البَّقَرَةِ: 60], وما ورد في سورة الأعراف: ﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [الأَعْرَافِ: 160], وكقوله تعالى في قصة نوح عليه السلام في رده على قومه: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأَعْرَافِ: 61], وما ورد في قصة هود عليه السلام في نفس السورة: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي

رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الأعراف: 67], وفي القرآن من هذا الضرب كثير.

• الثالث: إبدال جملة بجملة غيرها, كقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: 34], وما ورد في سورة النحل: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: 18].

9 - النوع التاسع: المتشابه اللفظي باعتبار الاختلاف في بناء الكلمات وصيغها الصرفية, وفيه خمسة أضرب:

• الأول: صيغة الجمع السالم وجمع التكسير, كقوله تعالى في بني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ﴾ [البقرة: 58], وقال فيهم في سورة الأعراف: ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ﴾ [الأعراف: 161], وكقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة: 61], وما ورد فيهم في سورة آل عمران: ﴿ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ ﴾ [آل عمران: 112].

• الثاني: صيغة الفعل الماضي والفعل الحاضر, كقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿ كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الحجر: 12], وما ورد في سورة الشعراء: ﴿ كَذَلِكَ سَأَلْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الشعراء: 200].

• الثالث: صيغة المبالغة, كقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام في سورة الأعراف: ﴿ يَا تُؤُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف: 112], وما ورد في سورة الشعراء: ﴿ يَا تُؤُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: 37].

• الرابع: صيغ التضعيف في بنية الفعل, كقوله تعالى في بني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة: 49], وقال فيهم في سورة الأعراف: ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: 141], ومثله قوله تعالى

في سورة البقرة: ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى ﴾ [البقرة: 57], وما ورد في سورة طه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى ﴾ [طه: 80].
 • الْأَخْمِسُ: صيغة الفعل المجرد والفعل المزيد، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ﴾ [البقرة: 38], وقال في سورة طه: ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ [طه: 123].

10 - النَّوْعُ الْعَاشِرُ: المتشابه اللفظي باعتبار الإدغام وتركه:

• كقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ ﴾ [الأنفال: 13], وقال في سورة الحشر: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ ﴾ [الحشر: 4], وكقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [الأنعام: 42], وما ورد في سورة الأعراف: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴾ [الأعراف: 94].

الْمُتَشَابِهُ اللَّفْظِيُّ وَنَظْرِيَّةُ السِّيَاقِ:

اعتمد العلماء في توجيه ما تشابه من آيات الذكر الحكيم على منهجية تأويله وفق قواعد التفسير المعروفة، وكان منهجهم واضحا حين أرادوا فك ما استشكل عندهم منه، فكانوا ينطلقون من مدلولات الألفاظ ومعانيها المعروفة عند العرب، ثم قراءتها وفق السياق العام للسورة التي وردت فيها الآيات، وقد أشار إلى ذلك الزركشي في البرهان¹، ومثله السيوطي في الإتقان، فقال: " وَطَرِيقُ التَّوَصُّلِ إِلَى فَهْمِهِ النَّظْرُ إِلَى مُفْرَدَاتِ الْأَلْفَافِ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ وَمَدْلُولَاتِهَا، وَاسْتِعْمَالِهَا بِحَسَبِ السِّيَاقِ، وَهَذَا يَعْتَنِي بِهِ الرَّاعِبُ كَثِيرًا فِي كِتَابِ الْمُفْرَدَاتِ، فَيَذْكَرُ قِيْدًا زَائِدًا عَلَى أَهْلِ اللَّغَةِ فِي تَفْسِيرِ مَدْلُولِ اللَّفْظِ، لِأَنَّهُ افْتَنَصَهُ مِنَ السِّيَاقِ "².

وقد أفرد بعض الباحثين دراسات خاصة اعتنوا فيها بتبيين مناهج العلماء في توجيه المتشابه اللفظي حسب السياق العام للسور التي وردت فيها النصوص المتشابهة، وقد طبق كثير من العلماء هذا المنهج في كتبهم، واعتمده كسبيل نافع لفك المتشابهات في النصوص القرآنية، ومن الأمثلة على ذلك:

¹ - البرهان، الزركشي، (172/2).

² - تهذيب وترتيب الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بقلم: محمد بن عمر بازمول، دار الاستقامة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1430هـ/2010م، (193/2).

1 - توجيهه الغرناطي للآيات التي وردت في قصة آدم عليه السلام, وما ورد من زيادة (الْفَاءِ) في قوله تعالى: ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾, وفي قوله: ﴿فَأَنْكَ﴾, وزيادة قوله ﴿رَبِّ﴾ في سورة الحجر ولم يرد ذلك في الأعراف, فبين أن السر فيها يرجع إلى " أَنْ مُنَاسِبَةٌ مَا تَقَدَّمَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْآيِ الثَّلَاثِ: مِنَ الْإِسْهَابِ, وَالتَّأْكِيدِ, أَوْ الْإِجَازِ, أَلَّا تَرَى أَنَّ مَجْمُوعَ الْكَلِمِ الْوَاقِعَةِ مِنْ لَدُنْ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾, وَهُوَ ابْتِدَاءُ الْقِصَّةِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾, بِضَعِّ وَرَبْعُونَ كَلِمَةً, وَالْوَارِدِ فِي الْحَجْرِ مِنْ لَدُنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾, إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ بِضَعِّ وَسَبْعُونَ كَلِمَةً, وَفِي سُورَةِ ص مِنْ لَدُنْ قَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ إِلَى الْآيَةِ بِضَعِّ وَسِتُونَ كَلِمَةً, فَقَدْ وَضَحَ مَا قَصَدَ فِي الْأَعْرَافِ مِنْ إِجَازِ الْإِخْبَارِ فِي الْقِصَّةِ, وَمَا فِي السُّورَتَيْنِ بَعْدَ مِنَ الْإِطْنَابِ "1.

2 - توجيهه للفرق بين قوله تعالى مخبرا عن قول إبليس في سورة الأعراف: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَا تَجِدُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 16 - 17], وقوله في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: 39 - 40], فبين أن التعبير اختلف " بِحَسَبِ مَا تَقَدَّمَ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ السُّورَتَيْنِ, وَمَا اسْتَدْعَاهُ مِنَ الْمُنَاسِبَةِ, وَلَمَّا تَقَدَّمَ فِي الْأَعْرَافِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 3], وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْقُرْآنِ, لِأَنَّهُ يُوضِّحُ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ, وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ, قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: 153], وَالْإِشَارَةُ بِهَذَا إِلَى الْمُنَزَّلِ قُرْآنًا, لِأَنَّهُ مُبَيِّنٌ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي طَمَعَ اللَّعِينُ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَيْهِ, وَقَطَعَ سَالِكِهِ, فَقِيلَ عِبَارَةً عَنْ مَرَامِهِ مِنْ ذَلِكَ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إِلَى آخِرِ الْمَخَيِّ مِنْ كَلَامِهِ "2.

3 - توجيهه للفرق في قصة نوح عليه السلام بين قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ [الأعراف: 60], وقوله في سورة هود: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ [هود: 27], وَأَنَّ " تَخْصِيصَ الْوَاقِعِ مِنَ الْمَلَأِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام جَوَابًا لَهُ عِنْدَ دُعَائِهِمْ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ إِلَى عِبَادَةِ

1 - ملاك التأويل, الغرناطي, (252/1).

2 - المصدر نفسه.

الله، مناسب لما تقدم فيها من قول مكذبي الرسل حين تتوفاهم الملائكة، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ [الأعراف: 37]، وقول أخراهم لأولاهم عند دخولهم النار، وتداركهم فيها جميعاً: ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ [الأعراف: 38]، فصار هذا مألوفاً من كلامهم، وجواباً متكرراً منهم، ثم قد جرى على هذا إخبار الله سبحانه عنهم عند تمنيتهم الشفعاء، أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف: 53]، ولم يتقدم في السورتين بعد مثل هذا، فناسب هذا ما تقدم¹.

هذه بعض الأمثلة التي تبين منهج التأويل حسب السياق العام الذي وردت فيه النصوص المتشابهة، وسيتبين ذلك بوجه جلي أكثر أثناء دراسة وتحليل أقوالهم في طيات هذا البحث.

ولا يستطيع أحد أن يجزم بأنهم لم يعتمدوا على غير هذا المنهج، بل كانت مشاربهم متعددة، ومصادر تأويلهم متنوعة، كلٌ بحسب ما يقتضيه مقام الدراسة والبحث، فقد يلجأون إلى مناهج أخرى، وطرق مغايرة يحققون بها المطلوب، كاستعانتهم بما يروى عن النبي ﷺ في أسباب نزول تلك النصوص، أو ما دونه العلماء من أسرار في ترتيب الآيات والسور²، وغيرها.

المتشابه اللفظي ونظريته السردية:

اعتمد علماء المتشابه في فك ما أشكل من النصوص على نظرية السياق، انطلاقاً من مدلولات الألفاظ ومعانيها في الاستعمال العربي، وقد يحقق هذا المنهج كثيراً من النتائج الصحيحة التي تكشف أسرار الإعجاز في ما تكرر من النصوص في القصة الواحدة، إلا أن هذا المنهج قد يقصر دون بلوغ المراد في كثير من مشاهد القصص التي نقلها النص القرآني إلينا، ذلك أن الاعتماد على تفسير كثير من الألفاظ بتبيين معناها وفق شرحها شرحاً سطحياً دون الولوج في أعماق دلالتها يصرفنا عن إدراك حقيقتها التي جاءت تنقلها إلى المتلقي، لأن لغة القصص القرآني المستعملة في سرد الأحداث لها وظيفتها الخاصة التي تجاوزت بها المعاني

¹ - ملك التأويل، الغرناطي، الآية الثامنة من سورة الأعراف.

² - مكتاب (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي.

المعجمية إلى تصوير وتشكيل الأحداث في مشاهد القصة وفصولها، حيث ينتقل النص بها من خطيته إلى مستوى الرؤية البصرية التي تمكن المتلقي من الانتقال من دور المستمع أو القارئ إلى دور المشاهد الذي يراها رأي العين، ولكي يتبين المراد من هذا الكلام سنمثل لذلك بقوله تعالى في قصة نوح عليه السلام:

1 - قال تعالى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ [هُود: 48]، وقد اتفق العلماء على أن لفظة (اهْبِطْ) بمعنى (انزل)، والعرب تقول: " هَبَطَ هُبُوطًا: نَزَلَ " ¹، و" هَبَطَ يَهْبِطُ، وَيَهْبُطُ هُبُوطًا: نَزَلَ " ²، و" هَبَطَ أَرْضَ كَذَا: نَزَلَهَا " ³، ولا شك أن هذا لا يتوافق مع ما أمره الله أن يدعوه به حين يستوي على الفلك فيقول: ﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 29]، لأن التعبير القرآني يأبى أن يعبر بالهبوط في مقام التعبير بالنزول، فإننا لا نجد في كتاب الله عز وجل آية ذكر فيها (هبوط) الكتاب، بل كل ما ورد في ذلك يعبر عنه بالإنزال، وما يتعلق به من صيغه الصرفية، ومثله إنزال الماء من السماء، وهذا ما يجعل الباحث يترى في الحكم على أن معنى ومدلول كلمة (اهْبِطْ) بمعنى (انزل)، ذلك أن ما ورد في آية المؤمنين ﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾، بمعنى أن يتخذ مكانا محددًا من الأرض يستقر فيه هو وقومه، يكون مباركا من عند الله عز وجل، بينما ذكر الهبوط في موضعه ليدل على أن السفينة رست على الجبل المذكور، فقيل له اهبط منها أولا، ثم من الجبل ثانيا، فيستقيم التعبير في هذا المقام بالهبوط، ولا يستقيم التعبير بالنزول، لأن النزول استقرار في النهاية، بينما الهبوط هو طريق عبور إلى اتخاذ المنزل، فما كان له أن يتخذ الجبل منزلا بعد هبوطه من السفينة، فافتضى سياق سرد القصة وتشكل مشهدها أن يحقق في مدلول الكلمة، ووجب تفسيرها حسب سياق المشهد.

2 - قوله تعالى: ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ فَئِنَّا أَحْمِلُ فِيهَا ﴾ [هُود: 40]، وقوله تعالى: ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْأَلْكَ فِيهَا ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 27]، تكلم المفسرون وعلماء المتشابه على مدلول كلمة (اسألك)، واتفقوا على أن معنى ﴿ فَاسْأَلْكَ فِيهَا ﴾: أي: " أَدْخَلَ فِيهَا،

¹ - لسان العرب، ابن منظور، مادة (هبط).
² - القاموس المحيط، الفيروزآبادي، (فصل الهاء).
³ - المخصص، ابن سيده، (312/3).

وَأَجْعَلْ فِيهَا، يُقَالُ: سَلَكْتُهُ فِي كَذَا وَأَسَلَكْتُهُ فِيهِ إِذَا أَدَخَلْتَهُ¹، ولم يتكلموا عن معنى قوله (**أَحْمَلُ**)، لوضوح معناها، وقد حاول الغرناطي مقاربة الفارق في استعمال كل لفظ في محله، ولكنه بقي يحوم حوله ولم يُبْنِ عن سر استعماله، وقد أرجع السبب إلى ورودها في سورة هود إلى طول الآيات في سياق القصة، فقال: " فَوَجَّهَ وَرُودَهَا فِي سُورَةِ هُودٍ مُنَاسِبَتَهَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، مِنْ حَيْثُ مَا افْتَرَنَ بِهَا مِنْ لَفْظٍ: **﴿ قُلْنَا ﴾**، فَطَالَ الْكَلَامُ لَفْظًا مَعَ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنْ سِعَةِ الْمَحَامِلِ، وَإِنْ لَمْ يَرِدْ جَمِيعُهَا هُنَا، لَكِنْ نَاسَبَ مَجْمُوعُ هَذِهِ الْعِبَارَةِ مَا وَرَدَ فِي سُورَةِ هُودٍ مِنْ اسْتِيفَاءِ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَطُولِ الْكَلَامِ بِذَلِكَ²، وأما ورودها في سورة المؤمنون فناسب الإيجاز في القصة، قال: " وَأَمَّا آيَةُ الْمُؤْمِنُونَ فَفِي قِصَّةِ نُوحٍ فِيهَا إِيْجَازٌ وَإِجْمَالٌ، أَلَا تَرَى أَنَّهَا فِي كَلِمَتِهَا وَعَدَدِ حُرُوفِهَا - أَعْنِي آيَةَ هُودٍ - عَلَى الضَّعْفِ، أَوْ أَطْوَلَ مِمَّا فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ، فَذَلِكَ وَرَدَ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ لَفْظٌ **﴿ اسئَلُكَ ﴾**، لِإِيْجَازِهِ مِنْ حَيْثُ مَعْنَاهُ³."

بينما نجد الطاهر بن عاشور في تفسيره كشف عن بعض السر في استعمال كل لفظ في محله، ذلك أنه جعل سبب توظيف كل كلمة في موضعها يرجع إلى زمن سير الأحداث، فإن " آيَةُ سُورَةِ هُودٍ حَكَتْ مَا خَاطَبَهُ اللهُ بِهِ عِنْدَ حُدُوثِ الطُّوفَانِ، وَذَلِكَ وَقْتُ ضَيْقٍ، فَأَمَرَ أَنْ يَحْمَلَ فِي السَّفِينَةِ مَنْ أَرَادَ اللهُ إِبْقَاءَهُمْ، فَأَسْنَدَ الْحَمْلَ إِلَى نُوحٍ، تَمَثِيلًا لِلْإِسْرَاعِ بِإِرْكَابِ مَا عَيْنَ لَهُ فِي السَّفِينَةِ، حَتَّى كَانَتْ حَالَهُ فِي إِدْخَالِهِ إِيَّاهُمْ حَالًا مَنْ يَحْمِلُ شَيْئًا لِيَضَعَهُ فِي مَوْضِعٍ، وَآيَةُ هَذِهِ السُّورَةِ حَكَتْ مَا خَاطَبَهُ اللهُ بِهِ مِنْ قَبْلِ حُدُوثِ الطُّوفَانِ إِنْبَاءً بِمَا يَفْعَلُهُ عِنْدَ حُدُوثِ الطُّوفَانِ فَأَمَرَهُ بِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يُدْخَلُ فِي السَّفِينَةِ مَنْ عَيْنَ اللهُ إِدْخَالَهُمْ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّقْنُنِ فِي حِكَايَةِ الْقِصَّةِ⁴."

استعمل النص القرآني لفظة (**اسئَلُكَ**)، في سورة المؤمنون قبل بداية صنع السفينة، بل حين أوحى ربه إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فدعا على قومه، قال تعالى: **﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَدَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ**

¹ - ينظر: تفسير القرطبي، (119/12)، وغيره.

² - تفسير القرطبي، (654/2 - 656).

³ - المصدر نفسه.

⁴ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (38/18).

بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْأَلْكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِفُونَ ﴿ [المؤمنون: 26 - 27]. فقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾، يبين زمن وقوع الفعل (اسئلك)، وأن الأمر يتعلق بما سيحصل مستقبلاً، فهو لا يمتلك صورة عن الأحداث التي ستكون فيما بعد، بل أوحى الله إليه أمرين، الأول: عدم إيمان قومه إلا من قد آمن من قبل، والآخر: صنع السفينة التي لا يملك عن تفاصيلها أي فكرة من قبل، فكان مما أوحى الله إليه في بنائها أن تكون لها مداخل يتخذها لمن سيكون معه فيها، كلٌّ بحسب نوعه ومكانه، فلا بد أن تتكون في ذهنه صورة مخطط لما سيصنع، لذلك استعمل لفظ (اسئلك)، وبعد أن اكتمل صنع السفينة على الصورة التي أوحاها الله عز وجل إليه، وتبينت مسالكها أمره بركوبها، وحمل من كان معه فيها، فأدخل كل نوع من المخلوقات التي كانت معه عبر المسالك التي تليق بها.

ولما كان ظرف زمان الركوب محددًا جاء التعبير بلفظ (احمِل)، الذي يدل على أن عملية الركوب ليست متاحة للجميع، فانقسم فعل الركوب بحسب نوع المخلوقات التي ستكون معه فيها، فأما للعاقليين فقد قال الله تعالى لهم: ﴿ اركبوا فيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود: 41]، فقيامهم بفعل الركوب متحقق فيهم، وأما لغير العاقليين فقد قال الله تعالى له: ﴿ احمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [هود: 40]، وهذا الحمل والركوب مرتبط بظرف زمن وقوع الأمر، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [هود: 40].

وبهذا يتبين الفارق في استعمال كل لفظ في موضعه، وتتحدد معاني ودلالات الألفاظ حسب سياق أحداث القصة، وأن أسلوب سردها له دوره في كشف أسرار ما تشابه من نصوصها، والله تعالى أعلم بمراده.

قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

مُجْمَلُ الْقِصَّةِ

مُجْمَلُ الْقِصَّةِ:

1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 34 - 38].

2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: 11 - 25].

3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خُلُقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الْحَجَرِ: 26 - 42].

4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكِنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْتِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الْإِسْرَاءِ: 61 - 65].

5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الْكَهْفِ: 50].

6 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ

اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا
يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿ [طه: 115 - 123].

7 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا
سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ
(73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا
خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ
الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80)
إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
الْمُخْلِصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿ [ص: 71 - 85].

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

قِصَّةُ نَبِيِّ

اللَّهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

الفصل الأول

قصة نبي الله آدم عليه السلام
الجزء الأول

المشاهد التفصيلية لقصة آدم عليه السلام الجزء الأول

1 - المشهد الأول

خلق آدم عليه السلام - خلق الإنسان -

قبل الحديث عن هذا المشهد، وتبيين تفاصيله، لا بد من ذكر مقدمة مهمة سببها عليها توضيح المسألة فيما بعد، ذلك أن الأمر يتعلق بالخلق من حيث هو صفة من صفات الله عز وجل، دل عليها اسمه الخالق سبحانه، وهو الخالق لكل شيء، لا خالق سواه، والخالق هو: " الْمُقَدِّرُ وَالْمُقَلِّبُ لِلشَّيْءِ بِالتَّدْبِيرِ إِلَى غَيْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ [الزمر: 6] ... فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْخَالِقُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ لَهُ، مَرْبُوبٌ لَهُ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، فَجَمِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَحَرَكَاتِ أَهْلِهَا، وَسَكَنَاتِهِمْ، وَأَرْزَاقِهِمْ، وَأَجَالِهِمْ، وَأَقْوَالِهِمْ، وَأَعْمَالِهِمْ، كُلُّهَا مَخْلُوقَاتٌ لَهُ، مُخَدَّثَةٌ، كَائِنَةٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ، وَهُوَ خَالِقُ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَمُوجِدُهُ، وَمُبْدئُهُ، وَمُعِيدُهُ، فَمِنْهُ مَبْدَأُهَا، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَاهَا ¹ .

وجاء مشهد خلق آدم عليه السلام مقرونا بصفات أخرى لله عز وجل يقتضيها مقام إيجاده، جاءت بعد ذكر خلقه، وذلك مبين في قوله عز وجل:

1 - ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59] .

2 - وقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف: 11] .

3 - وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: 29] .

4 - وقوله: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: 7 - 9] .

¹ - معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد الحكي، تحقيق: عمر بن محمود، دار ابن القيم - الدمام، الطبعة الأولى، 1410 هـ - 1990 م، (131/1).

5 – وقول □ **﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازٍ ﴾** [الصافات: 11].

6 – وقوله: **﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾** [الرحمن: 14].

يتبين من ذكر هذه الآيات أن وجود آدم بحياته كاملاً تم عبر ثلاث مراحل في ثلاثة مفاصل من القصة.

المفصل الأول: مرحلة الخلق

وقد ورد تفصيل ذلك في قوله تعالى: **﴿ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ ﴾** [آل عمران]، وقوله: **﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ﴾** [الأعراف]، وقوله: **﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا ﴾** [الحجر]. وقوله: **﴿ وَبَدَأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾** [السجدة].

وفي أصل **(الخلق)** وجهان كما قال القرطبي¹: أحدهما: التّفدير، يُقال: خَلَفْتُ الأديمَ للسّقاء، إذا قَدَرْتَهُ قَبْلَ الْقَطْعِ. والثّاني: الإنشاء، والأختراع، والإبداع، قال الله تعالى: **﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكَاً ﴾** [العنكبوت: 17]. قال أبو حيان: " قال فَطْرُبُ: **(الخلق)** : هو الأيجاد على تّفديرٍ وتّرتيبٍ، و**(الخلق)** والخليفة، تنطبق على المخلوق، ومعنى **(الخلق)** والأيجاد والإحداث والإبداع والإنشاء متقارب² .

وقال الزبيدي: " **(الخلق)** في كلام العرب على وجهين: الإنشاء على مثال أبداعه، والآخر: التّفدير ... وأصل **(الخلق)**: التّفدير ... ويسمّون صانع الأديم ونحوه: الخالق، لأنه يُقدّر أولاً، ثم يفري ... وخلق الشيء خلقاً: مأسه ولينه ... وخلق النّطع والأديم خلقاً، وخلقاً، بفتحهما: إذا قدره وحرّره، أو قدره لما يريد قبل أن يقطع، وقاسه ليقطع منه مزادة، أو قرّبة، أو حقاً، فإذا قطعه قيل: فراه. قال زهير يمدح هرم بن سنان:

ولأنت تفرى ما خلقت وبعء *** ض القوم يخلق ثم لا يفري

أي: أنت إذا قدرت أمراً قطعته وأمضيته، وغيرك يقدر ما لا يقطع، لأنه ليس بماضي العزم، وأنت مضاء على ما عزمته عليه³.

وعلى هذا يتبين أن أول أمر آدم عليه السلام كان تقديراً قدره الله عز وجل، كما قدر خلق باقي الكائنات، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، لا يطلع عليه مخلوق، وقد بين النبي ﷺ ذلك في قوله: **« إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ**

¹ - انظر: تفسير القرطبي، (226/1).

² - البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (161/17).

³ - تاج العروس، الزبيدي، مادة: (خلق)، (251/25 - 252).

وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: أَكْتُبُ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ¹، وقد حدد النبي ﷺ زمان ذلك في قوله: « كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ »².

ثم بعد ذلك أوجد الله عز وجل آدم عليه السلام على الصورة التي قدره عليها، كما قال ﷺ: « وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ »³.

المفصل الثاني: مَرَحَلَةُ التَّصْوِيرِ وَالتَّسْوِيَةِ

1 - قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ [الأعراف: 11].

3 - وقال أيضا: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ [السجدة: 9].

التصوير صفة من صفات الله عز وجل، وقد صور الإنسان في أحسن صورة، فقال تعالى في ذلك: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [التغابن: 3]، والمصور اسمه سبحانه، ورد مقترنا مع اسميه الخالق والبارئ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: 24].

قال أهل العلم: " التَّصْوِيرُ مُرْتَبٌّ عَلَى الْخَلْقِ وَالْبَرَايَةِ وَتَابِعٌ لَهُمَا "4، والبارئ: " الْمُنْشِئُ، الْمُخْتَرِعُ لِلْأَعْيَانِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ "5، والمصور: " الْمَمْتَلِلُ لِلْمَخْلُوقَاتِ بِالْعَلَامَاتِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِعَظْمَا عَنْ بَعْضٍ، يُقَالُ: هَذِهِ صُورَةُ الْأَمْرِ، أَيْ: مِثَالُهُ، فَأَوَّلًا يَكُونُ خَلْقًا، ثُمَّ بَرَاءً ثُمَّ تَصْوِيرًا "6، والمصور أيضا: " الَّذِي يُنْقِذُ مَا يُرِيدُ إِيجَادَهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا "7.

فبعد أن قدر الله عز وجل خلق آدم ﷺ، أنشأ وجوده من العدم، فبرأه، ثم صوره على الهيئة والشكل الذي أراده، ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: 4].

¹ - حديث صحيح، رواه أبو داود، حديث رقم: (4700)، وغيره، وصححه الألباني، سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان.

² - حديث صحيح، رواه مسلم، وغيره، حديث رقم: (6919).

³ - حديث صحيح، رواه مسلم، وغيره، حديث رقم: (7687).

⁴ - تفسير القرطبي، (48/18).

⁵ - تفسير القرطبي، (48/18)، ومعالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الرابعة، سنة الطبع: 1417 هـ / 1997 م، (88/8).

⁶ - معالم التنزيل، البغوي، (88/8).

⁷ - تفسير ابن كثير، (80/8).

وفي هذا المقام جاءت الآيات متنوعة تصف المادة التي خلق وصور منها آدم عليه السلام، تعطي لنا المشاهد التفصيلية الدقيقة لذلك، من بداية إيجاده من العدم إلى نهاية استوائه قائما.

1 - قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ [آل عمران: 59].

2 - وقال تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ** ﴾ [ص: 17 - 72].

3 - وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ** ﴾ [الصافات: 11].

4 - وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** ﴾ [الحجر: 28].

5 - وقال تعالى: ﴿ **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ** ﴾ [الرحمن: 14].

بين المفسرون سبب اختلاف التعبير بين نصوص الآيات، وتكلم علماء المتشابه عن ذلك، فقالوا: " أما قوله تعالى: ﴿ **مِنْ تُرَابٍ** ﴾، و﴿ **مِنْ صَلْصَالٍ** ﴾، و﴿ **مِنْ طِينٍ** ﴾، فالمراد: أصلهم وهو آدم عليه السلام لأن أصله من تراب، ثم جعله طينا، ثم جعله صلصالا كالْفَخَّارِ، ثم نفخ فيه الروح. وقوله تعالى ﴿ **مِنْ نُطٍ** ﴾، أي أولاد آدم، وذريته، كما هو المشاهد¹.

وقال القرطبي: " وَقَالَ هُنَا: ﴿ **مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ** ﴾، وَقَالَ هُنَاكَ: ﴿ **مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** ﴾، وَقَالَ: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ** ﴾، وَقَالَ: ﴿ **كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ** ﴾، وَذَلِكَ مُتَّفِقٌ الْمَعْنَى، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَخَذَ مِنْ تُرَابِ الْأَرْضِ فَعَجَنَهُ، فَصَارَ طِينًا، ثُمَّ انْتَقَلَ فَصَارَ كَالْحَمَإِ الْمَسْنُونِ، ثُمَّ انْتَقَلَ، فَصَارَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ "2.

يصور مجموع الآيات مراحل خلق آدم عليه السلام، ويشكل في ذهن المتلقي المشهد كاملا، من قبل تكوين مادة جسده، إلى نهاية استوائه قائما، ولولا نصوص الوحي ما كان يخطر على قلب بشر معرفة شيء من ذلك البتة، فقد كشف الله عز وجل لنا ستار الغيب، فرأينا ذلك من خلال ما قصه علينا، وشكلته معاني الألفاظ التي أدت وظيفة التصوير الدقيق لتفاصيل هذا المشهد العظيم.

¹ - كشف المعاني، ابن جماعة، (307/1).

² - تفسير القرطبي، (151/1).

وقد جاءت السنة النبوية مبينة لهذه المشاهد بدقة، قال عليه السلام: « **إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ طِينًا، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ حَمًا مَسْنُونًا، خَلَقَهُ وَصَوْرَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ ...** »¹ الحديث.

بدأ الله عز وجل خلق آدم عليه السلام من تراب، وهو تراب الأرض التي سيعيش فيها هو وذريته، والتي منها خلق، وإليها يهبط، وفيها يدفن، ومنها يخرج ويبعث، قال تعالى: « **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى** » [طه: 55]. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُوهُ عَلَى قَدَرِ ذَلِكَ، مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ، وَالْأَحْمَرُ، وَالْأَسْوَدُ، وَالسَّهْلُ، وَالْحَزَنُ، وَالْخَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ، وَبَيَّنَ ذَلِكَ** »².

وفي هذا المقام مشهد دقيق على المتلقي أن يقف عنده، ولكن بالضوابط التي تحفظ عليه صحة اعتقاده، فيثبت ما أثبت الله لنفسه وأثبتته له رسوله ﷺ، ذلك أن النبي ﷺ أخبر بأن الله عز وجل خلق آدم بيده، كما في قوله تعالى: « **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِيٍّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ** » [ص: 75].

وجاء في حديث الشفاعة وغيره قوله ﷺ: « **فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ...** »³. الحديث. فوجب على أهل الإسلام عقد قلوبهم على الإيمان بما أخبروا به، ويثبتوا ما أثبتته الله عز وجل لنفسه، دون تشبيهه ولا تمثيل، فسبحانه « **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** » [الشورى: 11].

ثم بعد ذلك أضيف لهذا التراب من الماء فصار طينا، و" الطِّينُ بِالْكَسْرِ: مَعْرُوفٌ، يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ، وَأَجْوَدُهُ الْحَرُّ النَّقِيُّ الْخَالِصُ بَعْدَ رُسُوبِ

¹ - رواه أبو يعلى في مسنده، حديث رقم: (6580)، مسند أبي يعلى، أحمد بن علي أبو يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1404 هـ / 1984 م، (453/11)، وقال الهيثمي: " رواه أبو يعلى، وفيه إسماعيل بن رافع قال البخاري: ثقة مقارب الحديث، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله رجال الصحيح "، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1412 هـ / 1992 م، (363/8).

² - حديث صحيح، رواه أحمد، حديث رقم: (19811)، مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1421 هـ / 2001 م، وأبو داود، حديث رقم: (4693)، والترمذي، حديث رقم: (2955).

³ - حديث صحيح، رواه مسلم وغيره، حديث رقم: (2013).

الماء¹. فإذا خالطه الماء كان " كالعجين، وقد خلق الله آدم أبا البشر من الطين، كما خلق أصول سائر الأحياء في هذه الأرض².

وقد بين الله عز وجل صفة هذا الطين، فقال: **﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾** [الصافات: 11]، وفي كلام العرب (لَازِبٌ)، أي: " لاصق، كما قال ابن عباس، وقال قتادة وابن زيد: لَازِقٌ. وقال الماوردي: وَالْفَرْقُ بَيْنَ اللَّاصِقِ وَاللَّازِقِ، أَنَّ اللَّاصِقَ: هُوَ الَّذِي قَدْ لَصِقَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَاللَّازِقُ: هُوَ الَّذِي يَلْتَرِقُ بِمَا أَصَابَهُ. وقال عكرمة: (لَازِبٌ) لَزَجٌ. وقال سعيد بن جبير: أَي: جَيِّدٌ، حُرٌّ، يَلْصِقُ بِأَيْدِيهِ"³.

ويبقى آدم عليه السلام في تحول خلقي يمر من مرحلة إلى أخرى، مستغرقا فضاء زمنيا مغايرا لتلك الفضاءات التي عهداها البشر في حياتهم، فالمعايير التي تحكم أزمنتنا تختلف بطبيعة الحال عن تلك التي تمضي فيها أحداث قصة بدء الخلق، فأفعال الله عز وجل لا تحكمها تلك المعايير الزمنية، ولا المكانية، التي تحكم حياة البشر، فهو خالقها وخالق كل شيء، **﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾** [مریم: 35]. ثم إن زمن القصة البشرية خلق من خلق الله عز وجل قدره تقديرا دقيقا، يخضع لإرادته سبحانه، يسيره كيف يشاء، ويوقفه متى شاء، ويخضعه لمن شاء من أوليائه من خلقه، فيجعله تحت تصرفهم من بعد مشيئته سبحانه وتعالى.

بعد برهنة من زمن لا يعلمها إلا الله عز وجل، تحول الطين اللازب إلى حما مسنون، " وَالْحَمَاءُ: الطِّينُ الْأَسْوَدُ الْمَتَغَيَّرُ"⁴، أو " الطِّينُ الْأَسْوَدُ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِالْمَتَغَيَّرِ"⁵، وقد جاء وصف هذا الطين الأسود بأنه (مسنون)، وقد حام الشراح والمفسرون في تبين المراد من هذا الوصف على محورين، الأول منهما: بمعنى المتغير المنتن، والآخر: بمعنى المصبوب المصور، قال الجوهري: " وَالْحَمَاءُ الْمَسْنُونُ: الْمَتَغَيَّرُ الْمُنْتِنُ. وَسَنَّهُ الْوَجْهُ: صَوْرَتُهُ. وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

تُرِيكَ سَنَّةَ وَجْهِ غَيْرِ مَقْرَفَةٍ ... مَلْسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نَدَبٌ

¹ - تاج العروس، مرتضى الزبيدي، مادة (طين)، (360/35).

² - تفسير المنار، رشيد رضا، (247/7).

³ - تفسير القرطبي، (69/15).

⁴ - أضواء البيان، الشنقيطي، (274/2).

⁵ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار ابن كثير (دمشق، سورية)، ودار الكلم الطيب (بيروت، لبنان)، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1414 هـ، (156/3).

وَالْمَسْنُونُ: الْمَصَوَّرُ. وَقَدْ سَنَنْتُهُ أَسْنُهُ سَنًّا، إِذَا صَوَّرْتُهُ. وَالْمَسْنُونُ: الْمَمْلَسُ¹.

وقال أبو بكر الأنباري: " قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر: 26], فيقال: الْمَسْنُونُ: الْمَحْكُوكُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الرَّطْبُ، وَيُقَالُ: الْمَسْنُونُ الْمُنْتِنُ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْمَسْنُونُ: الْمَصْبُوبُ، يُقَالُ: سَنَنْتُ الْمَاءَ عَلَى وَجْهِهِ إِذَا صَبَبْتُهُ عَلَى وَجْهِهِ ... وَيُقَالُ: الْمَسْنُونُ: الْمَصْبُوبُ عَلَى صُورَةٍ وَمِثَالٍ، مِنْ قَوْلِهِمْ: رَأَيْتُ سَنَّةَ وَجْهِهِ، أَي: صُورَةَ وَجْهِهِ، وَيُقَالُ: الْوَجْهُ الْمَسْنُونُ، إِنَّمَا سُمِّيَ مَسْنُونًا لِأَنَّهُ كَالْمَخْرُوطِ². وقال الشنقيطي: " عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ لَمَّا سَأَلَهُ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ عَنْ مَعْنَى الْمَسْنُونِ، وَأَجَابَهُ بِأَنَّ مَعْنَاهُ: الْمَصَوَّرُ، قَالَ لَهُ: وَهَلْ تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَعَمْ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ حَمْرَةَ بِنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ وَهُوَ يَمْدَحُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ:

أَعَزُّ كَانَ الْبَدْرَ سَنَّةً وَجْهِهِ ... جَلَا الْعَيْمُ عَنْهُ ضَوْءُهُ فَتَبَدَّدَا

وَقِيلَ الْمَسْنُونُ: الْمَصْبُوبُ الْمُفْرَعُ، أَي أْفْرَعُ صُورَةَ إِنْسَانٍ، كَمَا تُفْرَعُ الصُّورُ مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمَذُوبَةِ فِي أَمْتَلَتِهَا، وَقِيلَ: الْمَسْنُونُ الْمُنْتِنُ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْمَسْنُونُ الْأَمْلَسُ³.

وعلى كل ما ورد يحمل معنى قوله ﴿ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ ليعطي الصورة متكاملة، دون تعارض بين إثبات المعاني المندرجة تحتها، فالطين اللازب الأسود ما زال رطبا، له رائحة متغيرة بتغيره، كَوْنٍ عَلَى صُورَةٍ مَرَكَبَةٍ، مَقْدَرَةٌ بِدَقَّةٍ مَتْنَاهِيَّةٍ شَكْلًا وَهِيَاةً، كَمَا أَرَادَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَكْتَمَلَ مِنْهَا خَلْقُ جَسَدِ آدَمَ ﷺ.

إن الذي جعلني أرجح أن تصوير آدم ﷺ كان في هذه المرحلة هو أن الله عز وجل جعله بعد هذا الوقت بالذات صلصالا يابسا كالفخار، قال الأزهرى: " الصَّلْصَالُ: الطِّينُ الْيَابِسُ الَّذِي يَصِلُّ مِنْ يَبْسِهِ، أَي: يُصَوِّتُ⁴، وهذا ما يناسب اكتمال التصوير الذي بعده يكون النفخ فيه بالروح، فبعد اكتمال تشكل الصورة

¹ - الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1407هـ / 1987م، مادة (سنن).

² - الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى. سنة الطبع: 1412هـ / 1992م، (422/1).

³ - أضواء البيان، الشنقيطي، (274/2).

⁴ - تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 2001م، (باب الصاد واللام)، (79/12).

والهيئة، يجف الطين دون تأثير النار عليه، على عادة صنع الخزف والفخار المعروف عند البشر، لذلك جاء التشبيه الدقيق في الآية ليقرب إلى المتلقي صورة جفاف الطين إلى منتهاه، وكأنه تم تجفيفه تحت تأثير النار الذي لا يزيده إلا قوة وصلابة، فأخبر الله تعالى بأنه: **﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾** [الرَّحْمَنِ: 14]. قال الشوكاني: " الصَّلْصَالُ: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هُوَ الطِّينُ الْمَخْلُوطُ بِالرَّمْلِ الَّذِي يَتَّصِلُ إِذَا حَرِّكَ، فَإِذَا طُبِّخَ فِي النَّارِ فَهُوَ الْفَخَّارُ، وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ "1.

بعد ذلك ترك آدم على صورته التي اكتملت كما أرادها الله عز وجل في وقت مبهم لم يحدد، فقد أخبر النبي ﷺ عن ذلك بقوله: **« لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ، تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَأَهُ أَجُوفًا، عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتِمَّالِكُ »**2. إضافة إلى ذلك، فقد زادتنا السنة تفصيلا مهما يكشف لنا وجه حقيقة أخرى، تزيد في أذهاننا تشكيل الصورة وضوحا، وترسم في مخيلتنا الخطوط العريضة لجسد هذا المخلوق وهيأته، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **« خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ... »**3 الحديث.

وهذا الطول توارثته ذريته من بعده، ثم تناقص بعد ذلك حتى صار على الهيئة التي هو عليها الآن، قال ﷺ: **« فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخُلُقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ »**4.

وبهذه التفاصيل الدقيقة يكتمل مشهد خلق آدم عليه السلام، تركيبيا، وتصويرا، ولم يكن تشابه الآيات في ذلك إلا بقصد تبين وجه من وجوه المعاني بحسب السياق الواردة فيه، وما كان تنوع التعبيرات في كل موضع إلا ليبرز وجوه جمال القصص القرآني المعجز، الذي بجمعه تكتمل رؤية مشاهد القصة من كل زواياها المتعددة والمتنوعة.

الْمِفْصَلُ الثَّلَاثُ: مَرْحَلَةُ تَفْخِ الرُّوحِ

1 – قال الله تعالى: **﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾** [الْحَجَرِ: 29].

2 – وقال أيضا: **﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾** [السَّجْدَةِ: 9].

1- فتح القدير، الشوكاني، (3/ 155).

2- حديث صحيح، رواه مسلم، وغيره، حديث رقم (6815).

3- حديث صحيح متفق عليه، رواه البخاري، حديث رقم (3326). ومسلم، حديث رقم (7342).

4- المصدر نفسه.

3 - وقال أيضا: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي** ﴾ [ص: 72].

وتعد هذه المرحلة هي الفيصل الفارق بين جمود المادة وحركة الحياة، منها سيعرف الكون تغيرا لم يألفه من قبل، إنها الحياة بكل معانيها، ستبدأ رحلة البشرية التي أرادها الله عز وجل أن تكون في هذا العالم المترامي الأطراف، سيبدأ صراع الخير والشر، ويتقابل الحق مع الباطل وجها لوجه، وستعمر الأرض التي خلقها الله عز وجل وجعلها قرارا لمن سيخلفه فيها، إنه هذا الكيان الذي خلقه الله بيده، إنه آدم عليه السلام، خلقه مما وصف لنا، ﴿ **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ** ﴾ [السجدة: 9]، وكان معنى قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ** ﴾، " أي: شكنته بالصورة الإنسانية، والخلقة البشرية. وقيل: سويت أجزاء بدنه باعتدال الطبائع، وتناسب الأمشاج، نفخت فيه من رُوحِي؛ فصار بشرا حيا "1، وقد " ميزت تعالى بين البشرية وبين نفخ الروح، فالنسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء، وتعديل المزاج والأشباح، فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الأعضاء، ثم أضاف الروح إلى نفسه بقوله: ﴿ **مِنْ رُوحِي** ﴾، دل ذلك على أن جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد "2. وبينت لنا السنة النبوية لحظة دخول الروح إلى جسد آدم عليه السلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ طِينًا، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ حَمًا مَسْنُونًا، خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ صَلْصَالًا كَأَفْحَارٍ. قَالَ: فَكَانَ إِبْلِيسُ يَمُرُّ بِهِ، فَيَقُولُ: لَقَدْ خُلِقْتَ لِأَمْرِ عَظِيمٍ، ثُمَّ نَفَخَ اللَّهُ فِيهِ رُوحَهُ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ جَرَى فِيهِ الرُّوحُ بَصْرَهُ وَخِيَاشِيمَهُ، فَعَطَسَ، فَلَقَّاهُ اللَّهُ حَمْدَ رَبِّهِ، فَقَالَ الرَّبُّ: يَرْحَمُكَ رَبُّكَ...** »³ الحديث.

وأما الروح فقد كثرت أقوال العلماء في تحديد ماهيته، وكلٌ يدلي من دلو اتجاهه الفكري في محاولة تفسير ذلك، والمشهور عندهم أنها: " **جِسْمٌ لَطِيفٌ، أَجْرَى اللَّهُ الْعَادَةَ بَأَن يَخْلُقَ الْحَيَاةَ فِي الْبَدَنِ مَعَ ذَلِكَ الْجِسْمِ** "4. و" **هَذِهِ الرُّوحُ هِيَ الَّتِي يَحْيَا بِهَا الْإِنْسَانُ، وَلَا تُعْلَمُ مَا هِيَئُهَا** "5، وتصديق ذلك قوله تعالى جوابا لمن سأل عنه: ﴿ **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [الإسراء: 85].

¹ - تفسير اللباب، ابن عادل الدمشقي، (455/1).

² - مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: 1420هـ، (404/21).

³ - رواه أبو يعلى في مسنده، وتقدم ذكره.

⁴ - تفسير القرطبي، (24/10).

⁵ - زاد المسير، ابن الجوزي، (534/2).

وقد أضاف الله عز وجل الروح إلى نفسه في قوله: **﴿ مِنْ رُوحِي ﴾** [الحجر: 29]. وقوله: **﴿ مِنْ رُوحِهِ ﴾**، " إِنَّمَا أَضَافَهَا إِلَيْهِ تَشْرِيفًا لِأَدَمَ، وَهَذِهِ إِضَافَةٌ مَلِكٌ " ¹. " وَحَقِيقَتُهُ إِضَافَةٌ خَلْقٍ إِلَى خَالِقٍ، فَالرُّوحُ خُلِقَ مِنْ خَلْقِهِ، أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا، كَقَوْلِهِ (أَرْضِي، وَسَمَائِي، وَبَيْتِي، وَنَافَةَ اللَّهِ، وَشَهْرُ اللَّهِ) " ².
 أما فعل النفخ فلأنها " جَرَتْ فِي بَدَنِهِ عَلَى مِثْلِ جَرِي الرِّيحِ فِيهِ " ³. والنفخ: " إِجْرَاءُ الرِّيحِ فِي تَجَاوِيفِ جِسْمٍ آخَرَ. فَمَنْ قَالَ: إِنَّ الرُّوحَ جِسْمٌ لَطِيفٌ كَالهَوَاءِ فَمَعْنَاهُ ظَاهِرٌ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ جَوْهَرٌ مُجَرَّدٌ غَيْرٌ مُتَحَيِّزٍ، وَلَا حَالٌ فِي مُتَحَيِّزٍ. فَمَعْنَى النِّفْخِ عِنْدَهُ: تَهْيِئَةُ أَلْبَدَنِ لِتَعَلُّقِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ بِهِ " ⁴.

تم في هذا المشهد تصوير اللحظات الأولى لبداية قصة البشرية، قصة أبي البشر آدم عليه السلام، وكانت هذه هي الأحداث الأولى من القصة، التي ستضح أكثر، وستجلى بوضوح عند الكلام على تشكيل فضاءاتها الزمنية والمكانية.

الْفَضَاءُ الْمَكَانِيُّ:

لا شك أن الأمكنة المذكورة في بداية قصة آدم عليه السلام هي من قبيل الغيب الذي لا يمكن تحديده إلا بالاعتماد على مصادر الوحي – من كتاب وسنة صحيحة –، وقد ورد ذكر ذلك في كليهما.

دارت تلك الأحداث أصالة في السماء، مع عدم إهمال ذكر الأرض، فإن كانت السماء هي مكان الحدث الأول، وفيها ستستمر، فإن الأرض هي أصل خلق آدم عليه السلام، وإليها سيكون مهبطه، لتستمر فيها حياته، وحياته أبنائه من بعده، وقد أخبر الله تعالى ملائكته بذلك قبل خلقه عليه السلام.

أولاً: الأرض باعتبارها الفضاء المكاني الأول:

وذلك ما ورد في قوله تعالى: **﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾** [البقرة: 30]. وقد بينت السنة النبوية أن هذا الخليفة كان أصل خلقته من هذه الأرض التي سيعمرها ويخلف فيها، قال رسول الله ﷺ: **« إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ »** ⁵.

¹ - زاد المسير، ابن الجوزي ، (534/2).

² - تفسير القرطبي، (24/10).

³ - زاد المسير، المصدر نفسه.

⁴ - فتح القدير، الشوكاني، (156/3).

⁵ - حديث صحيح، تقدم ذكره.

ولكن نصوص القرآن الكريم التي سردت لنا قصته ﷺ لم تذكر أحداثا بعينها وقعت على هذه الأرض، بينما كل الأحداث التي ذكرت في القصة قد وقعت في السماء.

ثانيا: السماء مكان الأحداث الأولى:

قال ابن منظور: " وَ (سَمَاءٌ) كُلُّ شَيْءٍ أَعْلَاهُ، مُذَكَّرٌ، وَ (السَّمَاءُ) : سَقْفُ كُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ بَيْتٍ، وَالسَّمَوَاتُ السَّبْعُ (سَمَاءٌ)، وَالسَّمَوَاتُ السَّبْعُ أَطْبَاقُ الْأَرْضِينَ، وَتُجْمَعُ: سَمَاءً، وَسَمَوَاتٍ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: (السَّمَاءُ) فِي اللَّغَةِ: يُقَالُ لِكُلِّ مَا ارْتَفَعَ وَعَلَا: قَدْ سَمَا، يَسْمُو، وَكُلُّ سَقْفٍ فَهُوَ: (سَمَاءٌ)، وَمِنْ هَذَا قِيلَ لِلسَّحَابِ: (السَّمَاءُ)، لِأَنَّهَا عَالِيَةٌ، وَ (السَّمَاءُ) : كُلُّ مَا عَلَاكَ فَأَظْلَكَ، وَمِنْهُ قِيلَ لِسَقْفِ الْبَيْتِ: (سَمَاءٌ)"¹.

إن أول ما يتبادر إلى الأذهان في تحديد مكان هذه القصة هو السماء، وهذا مما عهدته الناس وتوارثوه، ولو أنهم أرادوا إقامة دليل على هذا المعتقد لصعب عليهم ذلك، لأن طبيعة البحث العلمي تحتم على الباحث إقامة الأدلة على كل جزئية يريد تقريرها في بحثه، من هذا المنطلق يتحتم علينا بناء كل فكرة على أساس متين من الأدلة والبراهين التي يتم من خلالها التصور الصحيح للأحداث التي نحن بصدد دراستها، ولإثبات أن السماء هي الفضاء المكاني الذي دارت فيه تلك الأحداث لا بد من اتباع ما يأتي:

دارت أحداث قصة خلق آدم ﷺ في الجنة، واختلف العلماء في تحديد أي جنة هي؟ أجنة الخلد التي وعد المتقون، أم هي جنة في الأرض غير التي ذكرت لنا؟ والذي عليه جمهور أهل السنة، ودلت عليه الأدلة أنها جنة الخلد التي أعدها الله للمتقين، " وَلَا التِّفَاتِ لِمَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْقَدْرِيَّةُ، مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ، وَإِنَّمَا كَانَ فِي جَنَّةِ بَارِضِ عَدْنٍ "².

والدليل على أن خلقه كان في الجنة ما ثبت من قوله ﷺ: « لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسَ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَأَهُ أَجُوفٌ، عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خُلُقًا لَا يَتَمَالِكُ »³.

¹ - لسان العرب، مادة (سما).

² - تفسير القرطبي، (302/1).

³ - حديث صحيح، رواه مسلم، حديث رقم (6815).

فجاء اللفظ صريحا أنه صور خلقه في الجنة, فلا يلتفت إلى قول غيره دون دليل صريح بلفظه ومعناه. ولكن قد يعترض قائل على هذا بتأويل عقلي, يعتمد فيه على بعض الاستنتاجات, يزعم فيها أن المقصود بالجنة جنة بأرض كذا, انطلاقا من حجة أن جنة المأوى والخلد التي أعدها الله لعباده المؤمنين يتعذر أن يعصى فيها الله سبحانه, إلى غير ذلك من المزاعم الواهية, فيجاب عنه بقوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة: 36]. ففيها صريح أمره تعالى لهم جميعا بالهبوط والاستقرار في الأرض, فلو كانت جنة في الأرض فكيف يأمره بالهبوط إليها والاستقرار فيها؟ وهو موجود فيها ابتداء؟ فلا شك أن هذا اعتراض معاند مكابر للحق, يلوي عنق النصوص لمجرد أوهام دارت في عقله, هو يخالف صريح أدلة الوحي.

ومما يزيد المسألة وضوحا وحجة ما ثبت في حديث النبي ﷺ, الذي ينقل لنا جانبا من مناظرة حدثت بين آدم وموسى عليهما السلام, فعن أبي هريرة رضي الله عنه, عن النبي ﷺ قال: « حَاجَّ مُوسَى آدَمَ, فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ, وَأَشَقَيْتَهُمْ؟ قَالَ: قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى, أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ, وَبِكَلَامِهِ, أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرِ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟ أَوْ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى »¹, فكيف لموسى رضي الله عنه أن يعترض على أبيه آدم رضي الله عنه بأنه أخرج الناس من جنة في الأرض, فهذا كلام لا يقوله عاقل.

فإذا تقرر هذا جزمنا أن الأحداث بدأت في السماء التي هي مكان جنة الخلد, والتي خلق فيها آدم رضي الله عنه, والدليل على أن الجنة في السماء هو ما ثبت عنه رضي الله عنه ليلة أخرج به إلى السماء رفقة جبريل رضي الله عنه, حيث التقى في كل سماء مجموعة من الأنبياء, قال رضي الله عنه: « فَرَجَّ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ رضي الله عنه ... ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ, فَلَمَّا جِئْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا, قَالَ جِبْرِيلُ رضي الله عنه لِخَازِنِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا: افْتَحْ ... ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى, وَعَشِيهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ, ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ, فَأَذَا فِيهَا حَبَائِلُ اللَّوْلُؤِ, وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ »².

¹ - حديث صحيح، رواه البخاري حديث رقم (4738)، وغيره.

² - حديث صحيح، متفق عليه، رواه البخاري حديث رقم (349)، ورواه مسلم، حديث رقم (433).

فقد بين النبي ﷺ في الحديث الأول أن الله عز وجل خلق آدم عليه السلام في الجنة، باعتبارها الموطن الأصلي الذي سارت فيه أحداث قصة الخلق والتصوير، وهي الجنة التي وعدّها الله عباده الصالحين، ومقرها في السماء كما بيّنت في الحديث الثاني.

صفة السماء:

جاء وصف السماء في القرآن الكريم والسنة المطهرة بأوصاف عديدة يمكن إجمالها ما يأتي:

- أنها سقف مبني أشد ما يكون قال تعالى: ﴿ **أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا** ﴾ [النّازعات: 27 – 28]. قال القرطبي: " **بَنَاهَا، أَي: رَفَعَهَا فَوْقَكُمْ كَالْبِنَاءِ. ﴿ رَفَعَ سَمَكَهَا ﴾، أَي: أَعْلَى سَقْفَهَا فِي الْهَوَاءِ، يُقَالُ: سَمَكْتُ الشَّيْءَ، أَي: رَفَعْتُهُ فِي الْهَوَاءِ** ¹."
- خلقها بغير عمد، قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** ﴾ [الرعد: 2]. قال ابن كثير: " **وَقَوْلُهُ: ﴿ بَغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ: أَنَّهُمْ قَالُوا: لَهَا عَمَدٌ، وَلَكِنْ لَا تَرَى. وَقَالَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ: السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُ الْقُبَّةِ، يَعْنِي بِلَا عَمَدٍ. وَكَذَا رُوِيَ عَنِ قَتَادَةَ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِالسِّيَاقِ، وَالظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ** ﴾ [الحج: 65]. فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ: (**تَرَوْنَهَا**) تَأْكِيدًا لِنَفْيِ ذَلِكَ، أَي: هِيَ مَرْفُوعَةٌ بِغَيْرِ عَمَدٍ كَمَا تَرَوْنَهَا، هَذَا هُوَ الْأَكْمَلُ فِي الْقُدْرَةِ ²."**
- اتساعها: قال تعالى: ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ [البقرة: 255]. قال ابن كثير في تفسيره لآية الرعد السابقة: " **يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، أَنَّهُ الَّذِي بِإِذْنِهِ وَأَمْرِهِ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، بَلْ بِإِذْنِهِ وَأَمْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ رَفَعَهَا عَنِ الْأَرْضِ بُعْدًا، لَا تَنَالُ وَلَا يُدْرِكُ مَدَاهَا،**

¹ - تفسير القرطبي، (203/19).

² - تفسير ابن كثير، (429/4).

فَالسَّمَاءُ الدُّنْيَا مُحِيطَةٌ بِجَمِيعِ الْأَرْضِ، وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ،
 مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهَا وَجِهَاتِهَا وَأَرْجَائِهَا، مُرْتَفَعَةٌ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
 عَلَى السَّوَاءِ، وَبَعْدُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ مَسِيرَةُ
 خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَسُمُّهَا فِي نَفْسِهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، ثُمَّ السَّمَاءُ
 الثَّانِيَةُ مُحِيطَةٌ بِالسَّمَاءِ الدُّنْيَا وَمَا حَوْتِ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَهَا مِنَ الْبُعْدِ
 مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَسُمُّهَا خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، ثُمَّ السَّمَاءُ الثَّلَاثَةُ
 مُحِيطَةٌ بِالثَّانِيَةِ ... وَكَذَا الرَّابِعَةُ وَالْخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ وَالسَّابِعَةُ ...
 وَفِي الْحَدِيثِ: « مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الْكُرْسِيِّ
 إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُنْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَالْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ كَتَلِكِ الْحَلْقَةِ فِي تَلِكِ
 الْفَلَاةِ »¹، وَفِي رِوَايَةٍ: « وَالْعَرْشُ لَا يَقْدَرُ قَدْرُهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ »²
 3».

صفة الجنة:

جاء وصف الجنة في القرآن الكريم والسنة النبوية كفضاء لأحداث قصة آدم عليه السلام بشكل من أشكال الجمال الذي يجعل المتلقي في حالة ذهول أمام أنواع النعيم المختلفة الموصوفة في تلك النصوص، وكان قارئها يتذوقها بكل أحاسيسه، ويعايشها بمشاعره، يرى ألوانها وأشكالها وأنواعها، ويشم ريح عبيرها ورياحينها، ويستعذب أصواتها، ويتلذذ مآكلها ومشاربها، يعيش كل ذلك مع كلمات النصوص الواردة في وصفها، ويتصور تلك اللحظات الأولى التي كلن يعايشها والداه من قبل.

وليس القصد من الحديث على صفة الجنة هو استقراء النصوص وجمع ما ورد في بابها، ولكن القصد من ذلك هو الحديث عنها باعتبارها الفضاء المكاني الذي دارت فيه أحداث القصة.

¹ - حديث صحيح، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث رقم: (109)، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: (1995م - 2002م).

² - قال الألباني: " صحيح موقوف، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾، انظر: شرح العقيدة الطحاوية، علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1414هـ، حديث رقم (311).

³ - تفسير ابن كثير، (429/4).

وأول ما يجب على المتلقي أن يراعيه قبل أن يلج هذا الباب، ويستحضره مع كل نص ورد في وصف الجنة، أنه: « **لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ مِمَّا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْأَسْمَاءُ** »¹. فكل ما ورد من النصوص التي تصف الجنة، إنما جاء ليقرب الصورة للمتلقي بالقدر الذي يرسخ في ذهنه تصورا صحيحا للمقصود، وقد أخفى الله حقيقة ما أعده لعباده الصالحين في دار كرامته ليرغبهم فيها، ويحفزهم في طلبها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. مِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** [السَّجْدَةِ: 17] »².

فإذا ورد على سبيل المثال ذكر شجر الجنة، فإن العرب تدرك معنى الشجر وتدرك حقيقة دلالة اللفظ على المعنى المقصود من ذلك، ولكن الذي لا يدرك هو حقيقة هذا الشجر الموجود في الجنة، ولا سيما إذا استحضر المتلقي قوله صلى الله عليه وسلم: « **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجْرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَأَقْرَبُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴾** [الْوَاقِعَةِ: 30] »³، وفي رواية لمسلم: « **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجْرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ الْجَوَادُ الْمَضْمَرُ السَّرِيعُ مِئَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا** »⁴. فكيف للمتلقي أن يقف على حقيقة هذه الشجرة وهو لم يكن له سابق معرفة بها. وعلى مثل هذا المثال يقاس باقي النصوص.

ثم بعد ذلك يجب إبقاء ذكر الأوصاف على حقيقة ما تعرفه العرب في كلامها، ولا ينبغي تأويل النصوص إلا إذا قامت الأدلة التي تصرفها عن ظواهرها بالمقتضى الصحيح، وعلى هذا فإن:

- (**الْجَنَّةُ**) في كلام العرب: " **الْحَدِيقَةُ ذَاتُ النَّخْلِ وَالشَّجَرِ** . قَالَ أَبُو عَلِيٍّ فِي التَّذَكُّرَةِ: لَا تَكُونُ فِي كَلَامِهِمْ (**جَنَّةٌ**) إِلَّا وَفِيهَا نَخْلٌ وَعَنْبٌ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا فِيهَا وَكَانَتْ ذَاتَ شَجَرٍ فَحَدِيقَةٌ لَا جَنَّةَ . وَفِي الصِّحَاحِ: (**الْجَنَّةُ**) : **الْبُسْتَانُ، وَمِنْهُ (الْجَنَّاتُ)، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي النَّخِيلَ (جَنَّةً) ... وَفِي الْمَفْرَدَاتِ لِلرَّاعِبِ: (الْجَنَّةُ) كُلُّ بُسْتَانٍ ذِي شَجَرٍ تَسْتَبْرُ بِأَشْجَارِهِ**

¹ - حديث صحيح موقوف عن ابن عباس رضي الله عنهما، انظر: السلسلة الصحيحة، حديث رقم (2188).

² - حديث صحيح، متفق عليه، رواه البخاري حديث رقم: (3244)، ورواه مسلم، حديث رقم (7310).

³ - حديث صحيح رواه البخاري، حديث رقم (4881).

⁴ - حديث صحيح رواه مسلم، حديث رقم (7317).

الأرض، قيل: وقد تسمى الأشجار الساترة: (جنة) ... وسميت
بـ (الجنة)، وإما تشبيهاً بـ (الجنة) التي في الأرض وإن كان بينهما
بؤن، وإما لستره عنا نعمة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ
مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17]. (ج) جنان كتاب،
وجنات، ويقال: أجنة أيضاً، نقله شيخنا من النواير، وقال: هو غريب
1».

وقال ابن منظور: " وقد ورد ذكر (الجنة) في القرآن العزيز والحديث
الكريم في غير موضع، و (الجنة): هي دار النعيم في الدار الآخرة،
من الاجتنان، وهو الستر، لتكاثف أشجارها، وتظليلها بالتفاف
أغصانها، قال: وسميت بـ (الجنة) وهي المرة الواحدة من مصدر جنه
جناً: إذا ستره، فكأنها ستره واحدة لشدة التفافها وإظلالها 2».

• **اتساعها:** جاء في سعة الجنة قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ﴾ [السجدة: 17]. قال ابن كثير: " وقد قيل: إن معنى قوله:
﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، تشبيهاً على اتساع
طولها، كما قال في صفة فرش الجنة: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾
[الرحمن: 54]، أي: فما ظنك بالظواهر؟ وقيل: بل عرضها كطولها؛
لأنها قبة تحت العرش، والشئ المقيبب والمستدير عرضه كطوله. وقد
دل على ذلك ما ثبت في الصحيح: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ
الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ،
وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ» 3 4».

• **بناؤها:** عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله مم خلق الخلق؟
قال: «من الماء». قلت: الجنة ما بناؤها؟ قال: «لينة من فضة ولينة
من ذهب، وملاطها المسك الأذفر، وحصبأؤها اللؤلؤ والياقوت،
وتربثها الزعفران» 5.

1- تاج العروس، مرتضى الزبيدي، مادة (جنن).

2- لسان العرب، ابن منظور، مادة (جنن).

3- حديث صحيح رواه البخاري، حديث رقم (2790).

4- لسان العرب، ابن منظور، مادة (جنن).

5- تفسير ابن كثير، (217/2).

• **أبوابها:** قال تعالى: ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد: 23]. وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: « فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةٌ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ »¹.

• **أشجارها:** قال تعالى: ﴿ وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ فُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان: 14]. قال القرطبي: " وَيُقَالُ: إِنَّ ارْتِفَاعَ الْأَشْجَارِ فِي الْجَنَّةِ مِقْدَارُ مِائَةِ عَامٍ، فَإِذَا اشْتَهَى وَلِيُّ اللَّهِ ثَمَرَتَهَا دَانَتْ حَتَّى يَتَنَاوَلَهَا ... (وَذُلَّتْ)، أَي: سُخِرَتْ لَهُمْ (فُطُوفُهَا)، أَي: ثَمَارُهَا، (تَذْلِيلًا)، أَي: تَسْخِيرًا، فَيَتَنَاوَلُهَا الْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ وَالْمُضْطَجِعُ، لَا يَرُدُّ أَيْدِيَهُمْ عَنْهَا بَعْدُ وَلَا شَوْكٌ، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّ قَامَ أَحَدٌ ارْتَفَعَتْ لَهُ، وَإِنْ جَلَسَ تَذَلَّتْ عَلَيْهِ، وَإِنْ اضْطَجَعَ دَنَتْ مِنْهُ فَأَكَلَ مِنْهَا " ².

• **أنهارها وثمارها:** قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [محمّد: 15]. قال ابن كثير: " عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: لَعَلَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَجْرِي فِي أُخْدُودٍ فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ إِنَّهَا لَتَجْرِي سَائِحَةً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، حَافَاتُهَا قِبَابُ اللَّوْلُؤِ، وَطِينُهَا الْمَسْكُ الْأَذْفَرُ " ³.

هذه بعض الأوصاف التقريبية للمكان الذي بدأت فيه قصة آدم عليه السلام، ولا يمكن إيراد كل النصوص التي جاءت في ذلك، لأنها ليست مقصود البحث.

الفضاء الزماني:

يرجع زمن هذه القصة إلى تاريخ بعيد، إلى بداية الخلق، إلى حقبة من الزمن لا يمكن لأحد أن يخوض غمارها ليحدد معالمها إلا إذا كان متمسكا بنصوص الوحي، من قرآن وسنة صحيحة يستند عليهما، في بناء تصور صحيح للأحداث التي نسجت من وراء أستار الغيب.

¹ - حديث صحيح رواه البخاري، حديث رقم (3257).

² - تفسير القرطبي، (139/19).

³ - تفسير ابن كثير، (314/7).

ذلك أن الزمن المذكور في كلام رب العالمين جاء على غير عادة الحساب المعروف عند البشر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الحيز الزماني الذي يكون فضاء لتلك الأحداث لا يصلح أن ينطبق على أفعال الله عز وجل، لأنه سبحانه هو خالق الزمن، وخالق ما يقع فيه من حدث، وسأحاول جمع ما استطعت من أدلة تفسر ما ذهبت إليه في إثبات هذا الرأي.

أخبرنا رسول الله ﷺ عن تحديد اليوم والساعة التي خلق الله فيها آدم عليه السلام، وذلك ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: « خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخُلُقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ »¹.

وعنه أيضاً، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا »².

وفي رواية أبي داود: « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تَبِبَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ ... »³ الحديث.

ورد في كتاب الله عز وجل ذكر الأيام والشهور والسنين، باعتبارها مصطلحات لفترات زمنية محددة تقع فيها أعمال العباد وأفعالهم، فذكر خمسين ألف سنة، وألف سنة، وسبع سنين، واثنان عشر شهراً، منها أربعة حرم، وثمانية أيام، وستة، وثلاثة، كل عدد بحسب السياق والحكمة المقصودة منه. لكن الذي يجب التوقف عنده والإشارة إليه، هو أن المدد الزمنية المذكورة هي تلك التي يعرفها المخاطب في حياته، فتبقى الألفاظ على حقيقتها المتعارف عليها إلا تلك التي جاء اللفظ صريحاً في تحديدها، وهي أربعة مواطن في كتاب الله عز وجل:

1 – قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الْحَجَّ: 47].

2 – وقال: ﴿ يَعْزُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السَّجْدَةِ: 5].

3 – وقال: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [الْمَعَارِجِ: 4].

¹ - حديث صحيح، رواه مسلم، حديث رقم (4997).

² - حديث صحيح، رواه مسلم، حديث رقم (2013).

³ - حديث صحيح، رواه أبو داود، حديث رقم (1048).

4 - وقال أيضا: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف: 54]. وقد فصل توقيت هذا الستة أيام في سورة فصلت فقال: ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِلْسَّانِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: 9 - 11].

في النصوص الثلاثة الأولى، جاء اللفظ صريحا في تحديد معنى اليوم، وهو غير أيام البشر التي يعرفونها في حياتهم، وهناك فرق بين الآية الأولى التي جاءت في سياق الترهيب، والآيتين بعدها، لأنهما وردتا في سياق تحديد المسافة الزمنية المقدره بين السماء والأرض، فجاءت بلفظ: ﴿ مِقْدَارُهُ ﴾، ليبين مقصود الكلام.

فاية الترهيب، كان المقصود منها كما قال المفسرون: " ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾، فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أَنَّ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَأَلْفِ سَنَةٍ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. الثَّانِي: أَنَّ طُولَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ كَطُولِ أَلْفِ سَنَةٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا فِي الْمُدَّةِ. الثَّلَاثُ: أَنَّ أَلَمَ الْعَذَابِ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا فِي الشَّدَّةِ، وَكَذَلِكَ يَوْمُ النَّعِيمِ "1.

ومما يؤكد أن ذلك في اليوم الآخر قوله عليه السلام: ﴿ يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِنِصْفِ يَوْمٍ، وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ﴾².

وأما الآية الثانية: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: 5]، فهي تقدير زمني لتدبير الأمر في مرحلته أولى، وقت نزوله من السماء إلى الأرض، ثم تقدير زمني ثانٍ في مرحلة أخرى، حين يعرج به من الأرض إلى السماء، ومعنى ذلك أنه: " فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَقَدْرُهُ مَسِيرَةُ أَلْفِ سَنَةٍ، خَمْسُمِائَةِ نَزْوَلُهُ، وَخَمْسُمِائَةِ صُعُودُهُ، لِأَنَّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، يَقُولُ: لَوْ سَارَ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ لَمْ يَقْطَعْهُ إِلَّا فِي أَلْفِ سَنَةٍ، وَالْمَلَائِكَةُ يَقْطَعُونَهُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ "3. وروي عن النبي ﷺ في تحديد مسافة ما بين السماء والأرض أحاديث لا تخلو من مقال، نكتفي منها بقوله ﷺ: ﴿

¹ - النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (33/4).

² - حديث صحيح، رواه أحمد، حديث رقم (2528)، والترمذي، حديث رقم (2354)، وغيرهما.

³ - تفسير البغوي، (300/6).

مَا بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا إِلَى الْأَرْضِ مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَغَلَطَ كُلٌّ مِنْهُمَا مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ¹. وهذا يقوي ما ذهب إليه البغوي في تحديد الألف سنة بالنزول والعروج.

وأما قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: 4]، فقد تضاعف عدد السنين في هذا المقام مائة مرة، فذكر في آية السجدة ألف سنة نزولاً وصعوداً، قال البغوي: " أَرَادَ مَدَّةَ الْمَسَافَةِ بَيْنَ الْأَرْضِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى الَّتِي هِيَ مَقَامُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَسِيرُ جِبْرِيلُ وَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ مَقَامِهِ مَسِيرَةَ خَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا"².

وأما مدة خلق السموات والأرض " فَبِهِ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ الَّتِي يَتَحَدَّدُ الْيَوْمُ مِنْهَا بِعَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِ يَكُونُ فِيهِ، فَإِنَّ الْيَوْمَ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الزَّمَنُ الَّذِي يَمْتَازُ بِمَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنْ غَيْرِهِ، كَامْتِيَازِ أَيَّامِنَا بِمَا يَحْدُثَا مِنَ النُّورِ وَالظَّلَامِ، وَأَيَّامِ الْعَرَبِ بِمَا كَانَ يَقَعُ فِيهَا مِنَ الْحَرْبِ وَالْخِصَامِ، وَأَيَّامِ اللَّهِ الَّتِي أَمَرَ مُوسَى أَنْ يُذَكِّرَ قَوْمَهُ بِهَا هِيَ أَرْبَعُونَ أَنْوَاعٍ نَعَمِهِ عَلَيْهِمْ ... وَلَا يُعْقَلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَيَّامُ السِّتَّةُ مِنْ أَيَّامِ أَرْضِنَا، الَّتِي يَحْدُ لَيْلُ الْيَوْمِ وَنَهَارُهُ مِنْهَا بِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً مِنَ السَّاعَاتِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَنَا، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَيَّامَ إِنَّمَا وُجِدَتْ بَعْدَ خَلْقِ هَذِهِ الْأَرْضِ فَكَيْفَ يَكُونُ أَصْلُ خَلْقِهَا فِي أَيَّامٍ مِنْهَا"³.

فإذا تقرر هذا علمنا أن مدة خلق السموات والأرض هي قبل خلق الزمن عند أهل الأرض، لأن الزمن البشري هو نتاج حركة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، وهذا قانون لا يحكم إلا من كان يعيش على الأرض، ولا تسري نواميسه إلا على من كان داخلها ضمن دائرة النظام الشمسي.

يتبين من هذه النصوص أن الفضاء الزمني الذي تم فيه خلق آدم عليه السلام بكل مراحلها المذكورة، كان يوم الجمعة من أيام الخلق الست، في آخر ساعة من ساعات ذلك اليوم، كما في التقدير الرباني، لا في التقدير الزمني الذي يعرفه البشر اليوم.

¹ - المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار العاصمة، دار الغيث، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1419 هـ، (172/14). قال البوصيري: " قال البزار: لا نعلمه عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد، وأبو نصر أحسبه حميد بن هلال، ولم يسمع من أبي ذر. قلت: وباقى رجال الإسناد ثقافت "

² - تفسير البغوي، (300/6).

³ - تفسير المنار، رشيد رضا، (396/8).

2 - الْمَشْهَدُ الثَّانِي: الْأَمْرُ بِسُجُودِ الْمَلَائِكَةِ وَعِصْيَانُ إِبْلِيسَ

- 1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 34].
- 2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف: 11].
- 3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر: 28 - 31].

- 4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: 61].
- 5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: 50].
- 6 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ [طه: 116].
- 7 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص: 71 - 74].

الْمِفْصَلُ الْأَوَّلُ: لِحْظَةُ تَلْقَى الْخَبَرِ

- 1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: 28 - 29].
- 2 - وَقَالَ أَيْضًا: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: 71 - 72].

أخبرنا الله تعالى في هذه الآيات بتفاصيل أحداث وقعت قبل خلق آدم عليه السلام وإيجاده، وقد ورد ذلك في قوله: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾، فإن " **الْأَمْرَ بِالسُّجُودِ حَصَلَ قَبْلَ أَنْ يُسَوِّيَ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقَهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ** " ¹.

بينما جاءت الآيات الأخرى لتتنقل لنا أوامر الله عز وجل للملائكة بالسجود بعدما أكمل خلقه ونفخ فيه من روحه، فجاء الأمر على ذلك تطبيقاً لما طُلبَ منهم سابقاً، فقال تعالى:

1 – ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا** ﴾ [البقرة: 34].

2 – ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا** ﴾ [الاسراء: 61].

3 – ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا** ﴾ [الكهف: 50].

4 – ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا** ﴾ [طه: 116].

فنقلنا لنا هذه الآيات مشهد امتثال الملائكة للأوامر الربانية، وطاعتهم لله عز وجل، لكن هناك تفاصيل لأحداث لم ترد إلا في سورة البقرة، حيث قص الله عز وجل علينا حواراً دار بينه وبين الملائكة قبل ذلك، فصورت لنا الآيات مشهدين: الأول: قبل خلق آدم عليه السلام.

والثاني: بعد إيجاده ونفخ الروح فيه، وقبل سجود الملائكة له.

قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ [البقرة: 30 – 33].

وفي كل جزئية من ألفاظ هذا النص مبحث خاص، موسع، يضيق مجال البحث عن بسطه، لكن الذي يخدم هذا المقام في تفصيل المشهد، هو أن كل هذا الحوار الذي دار بين الله عز وجل وملائكته كان قبل سجود الملائكة، لأن سياق الآيات يقتضي ذلك، وإن كان أكثر المفسرين لم يشر إليه قط، ومنهم من جعل " **ظَاهِرَ هَذِهِ**

¹ - تفسير الرازي، (427/2).

الآية يدلُّ على أنه ﷺ لَمَّا صَارَ حَيًّا صَارَ مَسْجُودَ الْمَلَائِكَةِ، لِأَنَّ الْفَاءَ فِي قَوْلِهِ: (**فَقَعُوا**) لِلتَّعْقِيبِ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يَكُونُ تَعْلِيمُ الْأَسْمَاءِ وَمُنَاطَرَتُهُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي ذَلِكَ حَصَلَ بَعْدَ أَنْ صَارَ مَسْجُودَ الْمَلَائِكَةِ ¹.

ولكن الذي يظهر من سياق الآيات وترتيبها أن قصة تعليم الأسماء ومناظرته للملائكة هو " عَطْفُ الْقِصَّةِ عَلَى الْقِصَّةِ، وَإِعَادَةُ (اِدُّ) بَعْدَ حَرْفِ الْعَطْفِ الْمُعْنِي عَنْ إِعَادَةِ ظَرْفِهِ، تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ مَقْصُودَةٌ بِدَائِمَتِهَا، لِأَنَّهَا مُتَمَيِّزَةٌ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ، فَجَاءَتْ عَلَى أُسْلُوبٍ يُؤَدِّنُ بِالِاسْتِقْلَالِ وَالِإِهْتِمَامِ، وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْمُرَاعَاةِ لَمْ يُؤْتْ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ مَعْطُوفَةً بِ(فَاءِ) التَّفْرِيعِ، فَيَقُولُ: (**فَقُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**)، وَإِنْ كَانَ مَضْمُونُهَا فِي الْوَاقِعِ مُتَّفَرِّعًا عَلَى مَضْمُونِ اللَّتِي قَبْلَهَا ².

ومما يحتج به على ذلك أن ترتيب نظم الآيات يكون تابعا للمدلولات التي يتضمنها اللفظ، " فَإِنَّ الْأَصْلَ فِي الْكَلَامِ أَنْ يَكُونَ تَرْتِيبُ نَظْمِهِ جَارِيًا عَلَى تَرْتِيبِ حُصُولِ مَدْلُولَاتِهِ فِي الْخَارِجِ مَا لَمْ تُنْصَبْ قَرِينَةٌ عَلَى مُخَالَفَةِ ذَلِكَ ³.

في هذا المشهد المهيّب، تلوح شخصيات جديدة تكون محورا مهما تدور حوله أحداث هذا الفصل، هي شخصيات غيبية لا ترى، لكن نصوص الوحي كشفت عنها بعض الخفايا التي تخلف في ذهن القارئ منظر جلال ورهبة وعظمة، فلا يمكن تشكيل مشاهد قصة آدم ﷺ واستكمال تصورهما إلا إذا ارتسمت في مخيلتنا بعض ملامح تلك الشخصيات التي كانت محورا مهما في تشكيل هذا المشهد.

تَشْكِيلُ شَخْصِيَّاتِ الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

ولكي يتم تشكيل صورة المشهد بوضوح يجدر بنا إبراز بعض ملامح الشخصية الجديدة في أحداث هذه القصة، وهم ملائكة الرحمن عليهم السلام:

- فهم خلق عظيم من خلق الله تعالى، قال ﷺ: « **أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةٌ سَبْعِمِائَةٍ عَامٍ** » ⁴.

¹ - تفسير الرازي، (427/2).

² - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (406/1).

³ - المصدر نفسه.

⁴ - حديث صحيح، رواه مسلم، حديث رقم: (7687).

- خلقهم الله عز وجل من نور، فقال رسول الله ﷺ: « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ »¹.
- جعلهم الله ﴿ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ [فاطر: 1]، قال ابن كثير: " مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَنَاحَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَرْبَعَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ : رَأَىٰ جِبْرِيلَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، وَلَهُ سِتْمَانَةَ جَنَاحٍ، بَيْنَ كُلِّ جَنَاحَيْنِ كَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ² " ³.
- لهم عقول يميزون بها الخطاب والأوامر ف ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [طه: 116].
- لهم أسماء سماهم الله تعالى بها كجبريل، وميكائيل أو ميكال، ومالك خازن النار، قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 98]، وقال: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كَاتِبُونَ ﴾ [الزخرف: 77].
- لهم وظائف يقومون بها، مثل إنزال الوحي، وقبض الأرواح، والتعاقب على البشر في الليل والنهار، وكتابة الأعمال، وإنزال الأرزاق، وقبض الأرواح، وغيرها.
- أما أعدادهم فلا يعلم إحصاءها إلا خالقهم عز وجل، قال ﷺ: « ثُمَّ رَفَعَ لِي الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ »⁴. وثبت عنه ﷺ أيضا قوله: « أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَبَّ، إِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ مَوْضِعٌ قَدِمَ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ قَائِمٌ، أَوْ رَاكِعٌ، أَوْ سَاجِدٌ »⁵.
- لهم اليد الطولى، والقوة الأشد، قال تعالى: ﴿ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: 6]، وقال تعالى

¹ - حديث صحيح، رواه أبو داود وغيره، حديث رقم: (4729).

² - هذا حديث لم أعثر عليه في كتب السنة.

³ - تفسير ابن كثير، (427/2).

⁴ - حديث صحيح، منفق عليه، رواه البخاري، حديث رقم (3207)، رواه مسلم، حديث رقم (434).

⁵ - حديث صحيح، رواه المروزي، حديث رقم (255)، تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر أبو عبد الله المروزي، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريواني، مكتبة الدار، المدينة المنورة، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1406هـ، (261/1).

في وصف قوة جبريل عليه السلام: ﴿ **عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿ [النَّجْم: 5 – 6]**, وقال أيضا: ﴿ **ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿ [التَّكْوِين: 20 – 21]**.

هذه بعض التفاصيل التي جاءت في وصف الملائكة عليهم السلام, تخلف في ذهن المتلقي صورة مهيبية للأحداث التي دارت في الجنة, وتعطي كثيرا من الأبعاد البصرية المتشكلة من خلال الحوار الذي كان بينهم وبين رب العزة تبارك وتعالى, وبهذه الأوصاف يستجمع القارئ تراكيب مشاهد وفصول وبدايات قصة البشرية الأولى.

ومما يحسب على متشابه اللفظ في هذا المشهد, قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا ﴿ [الْحَجَر: 28]**, وفي [ص: 71], فجاءت لفظة (**خَالِقٌ**), وفي البقرة جاء التعبير بلفظة (**جَاعِلٌ**), قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ ﴿ [البقرة: 30]**, " **وَلَا تَالِثَ لهُمَا، لِأَنَّ (جَعَلَ) إِذَا كَانَ بِمَعْنَى (خَلَقَ) يُسْتَعْمَلُ فِي الشَّيْءِ يَتَجَدَّدُ وَيَتَكَرَّرُ، كَقَوْلِهِ: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴿ [الأنعام: 1]**, لِأَنَّهُمَا يَتَجَدَّدَانِ زَمَانًا بَعْدَ زَمَانٍ، وَكَذَلِكَ (الْخَلِيفَةُ) يَدُلُّ لَفْظُهُ عَلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ يَخْلُفُ بَعْضًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَخُصَّتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿ **إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا ﴿** إِذْ لَيْسَ فِي لَفْظِ (الْبَشَرِ) مَا يَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالتَّكَرَّرِ، فَجَاءَ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ السُّورَتَيْنِ مَا اقْتَضَاهُ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ ¹. وهذا التوجيه من الكرمانى قد حزم أمر نزاع طويل بين المفسرين في تحديد مدلول (الْخَلِيفَةُ) والمعنى المقصود منها, ومع ما ذكره فلم يزد في تفاصيل المشهد شيئا جديدا.

المفصل الثاني: لحظة وقوع السجود

1 – قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴿ [البقرة: 34]**

2 – وقال تعالى: ﴿ **ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴿ [الأعراف: 11]**.

3 – وقال تعالى: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**

(29) **فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿ [الْحَجَر: 29 - 30]**.

4 – وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴿ [الإسراء: 61]**.

¹ - أسرار التكرار في القرآن، محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1396 هـ ، (ص: 118 – 119).

- 5 – وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [الكهف: 50].
- 6 – وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [طه: 116].
- 7 – وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿ [ص: 72 – 73].

في هذه النصوص عدة قضايا تتداخل فيما بينها لتشكل لنا صورة بداية الصراع بين الخير الذي جبل الله عليه ملائكته، والشر الدفين المخبوء في أعماق إبليس، والحقد والحسد الذي افتضح به أمام آدم عليه السلام. وقد دارت رحى الخلاف بين العلماء والمفسرين في محاولة تبين حقيقة ما حدث في هذا الفصل من القصة، بسبب اختلافهم في تحديد المعاني المتوارية وراء الألفاظ المستعملة في هذه النصوص، وكان يجدر بعلماء المتشابه الإشارة إلى هذه الجزئيات الدقيقة في توجيه معاني الآيات لكي تنجلي الصورة بوضوح أمام أعين المتلقين. ويمكن إجمال هذا الاختلاف في:

- هل الأمر بالسجود عامٌ لكل الملائكة، أم خاص لبعضهم؟
- وهل سجودهم كان لآدم عليه السلام؟ أم لله عز وجل؟

جاءت هذه الآيات لتنتقل لنا قصة وقعت حقا، نسجت خيوطها وراء أستار الغيب، حيث لا يستطيع البشر الحديث عن حقائق أحداثها بضرب من التخمين، بل يجب عليهم تلقيها من مصادر الوحي الذي لا دخل للأهواء فيه، لأن معظم ما ورد في تفسيرها منقول عن الإسرائيليات المبنوثة في كثير من كتب التفسير، فيجب على الباحث استنطاق النصوص بألفاظها ومعانيها، معتمدا على ما تعرفه العرب في استعمالاتها من ذلك في لغتها، ومستندا على النصوص النبوية الصحيحة إن وجدت حتى يتبين له ما أجمل منها، ويتضح ما أبهم فيها.

حقيقة معنى سجود الملائكة:

ورد السجود في كتاب الله عز وجل على أربع هيئات:

- ❖ سجود الملائكة لآدم عليه السلام.
- ❖ سجود إخوة يوسف وأبويه له عليهم السلام. وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ [يوسف: 100].
- ❖ سجود المكلفين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ [النجم: 62]. وغيرها من الآيات.

❖ سجود كل المخلوقات لله عز وجل، قال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ﴾ [الرَّعْدِ: 15]. وغيرها من الآيات.

فيتبين من هذا أن " السُّجُودَ لِلَّهِ تَعَالَى قِسْمَانِ: سُجُودُ الْعُقَلَاءِ الْمُكَلَّفِينَ لَهُ تَعَبُّدًا عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ، وَسُجُودُ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا لِمُقْتَضَى إِرَادَتِهِ فِيهَا "1. وهو في اللغة: " التَّطَامُنُ وَالْخُضُوعُ وَالْإِنْقِيَادُ، وَأَعْظَمُ مَظَاهِرِهِ: الْخُرُورُ نَحْوَ الْأَرْضِ لِلْأَذْقَانِ، وَوَضْعُ الْجَبْهَةِ عَلَى التُّرَابِ "2.

ويتميز سجود المخلوقات من غير المكلفين بأنه خضوع وانقياد على الصورة التي أَرَادَهَا اللهُ لَهَا، وسجود الباقي بالخرور نحو الأرض للأذقان ووضع الجبهة على التراب، هذا من حيث صفته، ويتأكد ذلك بالألفاظ المعبرة عنه في السياقات المتعددة المذكورة بحسب مظاهرها في القرآن الكريم. فقال في صورة سجود إخوة يوسف عليه السلام: ﴿ **وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا** ﴾، وعند العرب: " خَرَّ الْبِنَاءُ: سَقَطَ. وَخَرَّ، يَخْرُ، خَرًّا: هَوَى مِنْ غُلُوٍّ إِلَى أَسْفَلٍ، وَخَرَّ لِوَجْهِهِ، يَخْرُ، خَرًّا، وَخُرُورًا: وَقَعَ كَذَلِكَ "3، فكان سجودهم خرورا بجباههم على الأرض، و" كَانَ عِنْدَ بَعْضِ الْقَدَمَاءِ مِنْ تَحِيَّةِ النَّاسِ لِلْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ "4. ومثله سجود الملائكة في صفته، فقد ورد بصيغة الأمر في قوله تعالى في سورتي الحجر ووص: ﴿ **فَقَعُّوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾، والأمر هنا: " هُوَ أَمْرٌ بِالْوُقُوعِ، مِنْ وَقَعَ يَقَعُ. وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأُمُورَ بِهِ هُوَ السُّجُودُ، لَا مُجَرَّدَ الْإِنْحِنَاءِ كَمَا قِيلَ، وَهَذَا السُّجُودُ: هُوَ سُجُودٌ تَحِيَّةٌ وَتَكْرِيمٌ، لَا سُجُودَ عِبَادَةٍ "5.

وبعد هذا، اختلف العلماء في تعيين من سجد من الملائكة، فخصوا بعض الملائكة دون بعض، على الرغم من أن اللفظ يدل على سجودهم جميعا دون تخصيص، ولا برهان لمن ادعى الاستثناء، قال تعالى في سورتي الحجر ووص: ﴿ **فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ** ﴾، وهذا " عِنْدَ سِبْيَوِيَّةٍ تَأْكِيدٌ بَعْدَ تَأْكِيدٍ، يَتَضَمَّنُ الْآخِرُ مَا تَضَمَّنَ الْأَوَّلُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿ **كُلُّهُمْ** ﴾ لَوْ وَقَفَ عَلَيْهِ لَصَلَحَتْ لِلِاسْتِيفَاءِ، وَصَلَحَتْ عَلَى مَعْنَى الْمُبَالَغَةِ، مَعَ أَنْ يَكُونَ الْبَعْضُ لَمْ يَسْجُدْ، وَهَذَا كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ:

1- تفسير المنار، (221/1).

2- المصدر نفسه.

3- لسان العرب، ابن منظور، مادة (خرر).

4- المصدر نفسه.

5- فتح القدير، الشوكاني، (177/4).

كُلُّ النَّاسِ يَعْرِفُ كَذَا، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ الْمَذْكُورُ أَمْرٌ مُشْتَهَرٌ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ رَفَعَ الْإِحْتِمَالَ فِي أَنْ يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَاقْتَضَى الْكَلَامُ أَنْ جَمِيعَهُمْ سَجَدَ. وَقَالَ ابْنُ الْمُبَرِّدِ: لَوْ وَقَفَ عَلَى ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ لَاحْتِمَلُ أَنْ يَكُونَ سُجُودُهُمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ سَجَدُوا فِي مَوْطِنٍ وَاحِدٍ¹.

فجاءت ألفاظ الآيتين تصور مشهدا مهيبا، يمزج الجمال بالجلال، فعلى المتلقي أن يستحضر صورة الأمر في قوله ﴿ فَفَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾، وكيف تلقته الملائكة من ربهم تبارك وتعالى، دون إغفال الحوار الذي دار بينهم وبين الله عز وجل، ثم بعد ذلك صورة الامتثال لطاعة أمر الله وتنفيذه على الوجه الأكمل، فوقعوا ساجدين ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾، دون استثناء أو تأخر في حركة واحدة مشتركة بينهم. ومن هنا تتشكل في ذهنية المتلقي وترتسم على مستوى تصوراته صورة فعل واحد، من خلق عظيم كثير، لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، من ملائكة الرحمن وهم يؤدون حركة الوقوع ساجدين لآدم عليه السلام، قد ملؤوا أرجاء السماء، طائعين ربهم، في مشهد عظيم، زاده اتساع السموات جلالا ورهبة.

ثم إن سجود الملائكة " كَانَ لِآدَمَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَفَرَضِهِ، بِإِجْمَاعٍ مَنْ يُسْمَعُ قَوْلُهُ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَجُوهٌ: أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: (لِآدَمَ): وَلَمْ يَقُلْ: (إِلَى آدَمَ)، وَكُلُّ حَرْفٍ لَهُ مَعْنَى، وَمِنْ التَّمْيِيزِ فِي اللِّسَانِ أَنْ يَقَالَ: (سَجَدْتُ لَهُ) وَ (سَجَدْتُ إِلَيْهِ)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فُصِّلَتْ: 37]، وَقَالَ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الرَّعْدِ: 15] "2.

فيتميز بتمايز الحروف جنس السجود، فيفرق بين سجود العبادة وسجود التكريم والتعظيم، " فَسُجُودُ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ عِبَادَةٌ لِلَّهِ، وَطَاعَةٌ لَهُ، وَقُرْبَةٌ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ لِآدَمَ تَشْرِيفٌ، وَتَكْرِيمٌ، وَتَعْظِيمٌ "3، وسجود التعظيم كان معمولا به في شرائع من سبقنا، كالذي قصه الله علينا في قصة يوسف عليه السلام حين تحققت رؤياه، قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾.

¹ - المحرر الوجيز في تفسير لكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: محمد أبو الأحقان ومحمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1983م، (360/3).

² - مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس ابن تيمية الحراني، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: 1426هـ / 2005م، (358/4).

³ - مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (358/4).

الْمِفْصَلُ الثَّلَاثُ: عَصِيَانُ إِبْلِيسَ

- 1 - قال الله تعالى: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 34].
- 2 - وقال أيضا: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف: 11].
- 3 - وقال أيضا: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر: 30 - 31].
- 4 - وقال أيضا: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: 61].
- 5 - وقال أيضا: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: 50].
- 6 - وقال أيضا: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ [طه: 116].
- 7 - وقال أيضا: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص: 73 - 74].
- ظهر في هذا المفضل من القصة سر دفين من الشر كان مستورا في أعماق إبليس، كشفته الحكمة الإلهية، وافتضح أمام الأعين، ليعلن في الوجود بداية رحلة الصراع بين الخير والشر، ومقارعة الباطل للحق، انكشف أمر إبليس في لحظة خرت فيها الملائكة سجدا لآدم عليه السلام، طائعين لربهم، في موقف مهيب رهيب، وبقي وحده مصطبغا بصبغة العصيان، مذهولا أمام مشهد الطاعة المطلقة، مفتضا بما تستر عليه من حقد وحسد دام أحقابا طويلة من زمن مضى.
- اقترن اسم إبليس من أول وهلة ذكر فيها مع العصيان والتمرد والاستكبار، ثم بعد ذلك كان هو مصدر الشر المطلق في الخليقة، واسمه دال عليه، معروف به.
- ورد في المعاجم¹: " (أَبْلَسَ) الرَّجُلُ: قُطِعَ بِهِ، وَ (أَبْلَسَ) : سَكَتَ، وَ (أَبْلَسَ) مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أَي: يَيْسَ وَنَدِمَ، وَمِنْهُ سُمِّيَ (إِبْلِيسُ)، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَرِيزُ: ﴿ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الرُّوم: 12]. وَ (إِبْلِيسُ) لَعَنَهُ اللَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْهُ، لِأَنَّهُ

¹ - ينظر: لسان العرب، وتاج العروس، مادة (بلس)، والقاموس المحيط، فصل الباء، وغيرها.

(**أَبْلَسَ**) مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أَي: أُويسَ. وَقَالَ أَبُو إِسْحَقَ: لَمْ يُصَرَّفْ لِأَنَّهُ أَعْجَمِيٌّ مَعْرِفَةً. وَ(**المُبْلِسُ**): أَلْيَاسُ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلَّذِي يَسْكُتُ عِنْدَ انْقِطَاعِ حُجَّتِهِ، وَلَا يَكُونُ عِنْدَهُ جَوَابٌ: قَدْ (**أَبْلَسَ**) ... وَقِيلَ: إِنَّ (**إِبْلِيسَ**) سُمِّيَ بِهَذَا الْأِسْمِ لِأَنَّهُ لَمَّا أُويسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ (**أَبْلَسَ**) يَأْسًا ... وَ(**الإِبْلَاسُ**): الْحَيْرَةُ. وَمِنَ الْحَدِيثِ: (أَلَم تَرَ الْجَنَّ وَإِبْلَاسَهَا)¹، أَي تَحَيَّرَهَا وَدَهَشَهَا².

اجتمعت في لفظة (**الإِبْلَاسِ**) كل المعاني والأوصاف التي عرفتتها العرب، واستعملتها في كلامها، وَهِيَ أَوْصَافُ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ، فَقَدْ قُطِعَ بِهِ، وَسَكَتَ، وَيَسَّ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَنَدِمَ، عِنْدَ انْقِطَاعِ حُجَّتِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ جَوَابٌ إِلَّا الْإِسْتِكْبَارُ، فَهُوَ الْقَانِطُ الَّذِي انْقَطَعَ فِيهِ الرَّجَاءُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِسَبَبِ كُفْرِهِ.

تشكيل شخصية إبليس:

في هذا الفصل من القصة تبرز شخصية جديدة كانت محورا مهما في أحداثها، دارت عليها كل التفاصيل المذكورة، فقد برزت شخصية إبليس، العدو الأعظم لنبي الله آدم عليه السلام، وقد بين الله عز وجل في كتابه أصل خلق إبليس، والمادة التي كونه منها، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ** ﴾ [الأعراف]، و[ص]، وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: « **خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ نَارٍ سَمُومٍ** »³.

اختلف العلماء في تحديد جنس إبليس اختلافا كبيرا، " وَقَدْ رُوِيَ فِي هَذَا آثَارٌ كَثِيرَةٌ عَنِ السَّلَفِ، وَغَالِبُهَا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي تُنْقَلُ لِيُنْظَرَ فِيهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَالِ كَثِيرٍ مِنْهَا. وَمِنْهَا مَا قَدْ يُقْطَعُ بِكَذِبِهِ لِمُخَالَفَتِهِ لِلْحَقِّ الَّذِي بَأْيَدِينَا، وَفِي الْقُرْآنِ غُنْيَةٌ عَنْ كُلِّ مَا عَدَاهُ مِنَ الْأَخْبَارِ الْمُتَقَدِّمَةِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْ تَبْدِيلٍ وَزِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ، وَقَدْ وُضِعَ فِيهَا أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْحِفَاطِ الْمُتَقِينِ الَّذِينَ يَنْفُونَ عَنْهَا تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، كَمَا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ⁴ ".

¹ - حديث صحيح، رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم (3866).

² - تاج العروس، مرتضى الزبيدي، (464/15).

³ - حديث صحيح، رواه ابن منده في كتاب التوحيد، حديث رقم (70)، التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد، محمد بن إسحاق بن محمد أبو عبد الله ابن منده، تحقيق: علي بن محمد الفقيهي، نشر الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: (1405 هـ - 1413 هـ).

⁴ - تفسير ابن كثير (168/5).

وقد بينت النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية حقيقة جنسه، فقال تعالى: **﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾** [الكهف: 50]، قال ابن كثير: " وَقَوْلُهُ: **﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾**، أي: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور¹."2

وعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه طبعه عند التمحيص والامتحان، وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة، ونبه تعالى هاهنا على أنه **﴿مِنَ الْجِنِّ﴾**، أي: أنه خلق من نار، كما قال: **﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾** [الأعراف: 12]، قال الحسن البصري: " مَا كَانَ إِبْلِيسُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَطُّ، وَإِنَّهُ لِأَصْلُ الْجِنِّ ، كَمَا أَنَّ آدَمَ أَصْلُ الْإِنْسِ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَنِ الْحَسَنِ. وَهَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بِنِ اسْتَلَمَ سِوَاءً "3.

وإبليس هو الشيطان، الرجيم، الأكبر، المذكور في النصوص القرآنية، كما في قوله: **﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** [الأعراف: 27]. قال القرطبي: " (قَبِيلُهُ): جُنُودُهُ. قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْجِنَّ وَالشَّيَاطِينَ. ابْنُ زَيْدٍ: (قَبِيلُهُ): نَسْلُهُ. وَقِيلَ: جِبِلُّهُ. **﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾**، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجِنَّ لَا يُرَوْنَ، لِقَوْلِهِ: **﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾**، قِيلَ: جَائِزٌ أَنْ يُرَوَّا، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ أَنْ يُرِيَهُمْ كَشَفَ أَجْسَامَهُمْ حَتَّى تَرَى "4.

وإبليس هو خطيب أهل النار بعد دخولهم فيها يوم القيامة، ليس له حجة ولا قوة ملك على الناس، كما في قوله تعالى: **﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [إبراهيم: 22]، وقد بين

¹ - يشير على حديث لفظه عند مسلم، عن عائشة قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ ». حديث رقم (7687)، وقد مر ذكره بلفظ مقارب عند ابن منده في كتاب التوحيد.

² - تفسير ابن كثير، (167/5).

³ - تفسير ابن كثير، (167/5).

⁴ - حديث صحيح، رواه ابن منده في كتاب التوحيد، حديث رقم (70).

الله تعالى أنه ﴿ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: 99].

ومن أوصافه التي ذكرت في السنة النبوية، قوله ﷺ: « **إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ** »¹. " قَالَ الْقَاضِي وَغَيْرُهُ: قِيلَ: هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهُ قُوَّةً وَقُدْرَةً عَلَى الْجَرْيِ فِي بَاطِنِ الْإِنْسَانِ مَجَارِي دَمِهِ. وَقِيلَ: هُوَ عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ لِكَثْرَةِ إِغْوَائِهِ وَوَسْوَاسَتِهِ، فَكَأَنَّهُ لَا يُفَارِقُ الْإِنْسَانَ كَمَا لَا يُفَارِقُهُ دَمُهُ. وَقِيلَ: يُقْبَلُ وَسْوَاسَتُهُ فِي مَسَامٍ لَطِيفَةٍ مِنَ الْبَدَنِ، فَتَصِلُ الْوَسْوَاسَةُ إِلَى الْقَلْبِ "2.

وقد يطلق اسم الشيطان على غير إبليس، كما في قوله عليه السلام: « **لَا تَلْجُوا عَلَى الْمُغِيبَاتِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَحَدِكُمْ مَجْرَى الدَّمِ، قُلْنَا: وَمِنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَمَنِّي، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ، فَاسَلَّمْ** »³. فهذا الشيطان قطعاً غير إبليس اللعين المطرود من رحمة الله.

هذه بعض الأوصاف التي تقرب صورة إبليس كشخص بارز في أهم أحداث قصة آدم عليه السلام، أردت الإشارة إليها من باب استحضارها في مقام السجود الأعظم، حتى يكتمل تشكيل الصورة من جميع جوانبها، فللمتلقي أن يرى الآن مشهداً مهيباً لشخص آدم عليه السلام مكتملاً في خلقته، ومستويا قائماً بهامته في السماء، وقد تحوّل من بيوسة الطين إلى جسم ينبض بالحياة، وقد وقعت أمامه الملائكة النورانية، ذوات الأجنحة، ساجدين بين يديه، وانعزل إبليس المخلوق الناري منفرداً بنفسه، عاصياً متمرداً، مخذولاً مدحوراً، تائها وغارقاً في بحور حيرته.

ورد في القرآن الكريم عصيان إبليس وعدم سجوده في سبع مواطن، لم يشر إليها علماء المتشابه، مع أن لها أهمية بارزة في تجلية المعنى بوضوح، وترتيبها في المصحف كالاتي:

قال تعالى: ﴿ **إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: 34].

وقال أيضاً: ﴿ **إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ** ﴾ [الأعراف: 11].

وقال أيضاً: ﴿ **إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** ﴾ [الحجر: 31].

وقال أيضاً: ﴿ **إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا** ﴾ [الإسراء: 61].

¹ - حديث صحيح، متفق عليه، رواه البخاري، حديث رقم (3281)، ورواه مسلم، حديث رقم (3281).
² - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1392 هـ، (311/7).
³ - حديث صحيح، رواه أحمد، وغيره، حديث رقم (14375).

وقال أيضا: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: 50].

وقال أيضا: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبِي﴾ [طه: 116].

وقال أيضا: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: 74].

وحتى تتبين حقائق المعاني المتوارية وراء هذه الصياغات المختلفة تبعا للسياقات الواردة فيها، لا بد من محاولة إعادة ترتيبها حسب السياق القصصي، والتراتب الزمني لأحداث القصة، جعل ابن جماعة علة اختلاف الصيغ ترجع إلى اعتبار القرآن المكي والمدني، فقال: "قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَبِي وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34]، فَجَاءَ هُنَا مُجْمَلًا وَفِي بَقِيَّةِ السُّورِ مُفَصَّلًا؟ جَوَابُهُ: لَمَّا تَقَدَّمَ التَّفْصِيلُ فِي السُّورَةِ الْمَكِّيَّةِ أَجْمَلَهُ فِي السُّورَةِ الْمَدَنِيَّةِ، وَهِيَ الْبَقْرَةُ، اِكْتِفَاءً بِمَا تَقَدَّمَ عِلْمُهُ مِنَ التَّفْصِيلِ فِي الْمَكِّيَّاتِ"¹.

إن السياق القصصي للآيات يقتضي أن تكون البداية انطلاقا من آية سورة الكهف التي بينت أن سبب عصيانه يرجع إلى أصل خلقته ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، ولو كان من زمرة الملائكة ما كان له أن يعصي أمر ربه، لأنهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: 6]، و﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: 27]، و"ظَاهِرٌ فِي أَنَّ سَبَبَ فِسْقِهِ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ كَوْنُهُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ: أَنَّ الْفَاءَ مِنَ الْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّغْلِيلِ، كَقَوْلِهِمْ: سَرَقَ فَقَطَعَتْ يَدُهُ، أَي: لِأَجْلِ سَرِقَتِهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ هُنَا ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ﴾ أَي: لِعِلَّةِ كَيْفُونَتِهِ مِنَ الْجِنِّ؛ لِأَنَّ هَذَا الْوَصْفَ فَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَلَائِكَةِ؛ لِأَنَّهُمْ امْتَنَلُوا الْأَمْرَ وَعَصَا هُوَ؛ وَلِأَجْلِ ظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ذَهَبَتْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ إِبْلِيسَ لَيْسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْأَصْلِ بَلْ مِنَ الْجِنِّ، وَأَنَّهُ كَانَ يَتَعَبَّدُ مَعَهُمْ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِمْ اسْمُهُمْ لِأَنَّهُ تَبَعَ لَهُمْ، كَالْحَلِيفِ فِي الْقَبِيلَةِ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُهَا"².

فلما ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ فسق وعصا، أي: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ فيما حكاه الله عنه في سورة الأعراف، ثم وصف قبح فعله في سورة البقرة ﴿أَبِي وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، جامعا بذلك ما ورد في سورة الحجر ﴿أَبِي أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، وسورة طه ﴿أَبِي﴾، وسورة ص ﴿اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، وما

¹ - كشف المعاني، ابن جماعة (ص: 92 - 93).

² - أضواء البيان، الشنقيطي، (290/3).

ورد في سورة الإسراء كان نقلا لأقواله التي تكلم بها مع الله ﴿ قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾.

الْفَصْلُ الثَّانِي

قِصَّةُ نَبِيِّ

اللَّهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الْجُزْءُ الثَّانِي

الفصل الثاني

قصة نبي الله آدم عليه السلام
الجزء الثاني

المشاهد التفصيلية لقصة آدم عليه السلام الجزء الثاني

1 - المشهد الأول

الجواز بين الله عز وجل وإبليس المتمرد

المفصل الأول: كُفِّرَ وَاسْتَكْبَرَ

بعد بقاء إبليس منعزلاً عن مجمع الطاعة المتمثل في سجود الملائكة أجمعين، وأبى أن يكون في زميرتهم، واستكبر مفتخراً بأصل خلقته، وعاند خالقه فكان من الكافرين، فخطبه ربه وهو أعلم بحاله، وكان ذلك في سابق علمه سبحانه وتعالى.

1 - قال الله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: 12 - 13].

2 - وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر: 32 - 34].

3 - وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [ص: 75 - 76].

تعتبر هذه الآيات من صميم التشابه اللفظي في نصوص القرآن الكريم لذلك تحدث عنها العلماء، وأبرز ما يجذب فيها انتباه القارئ، هو اختلافها في صيغ التعابير، وتنوع الألفاظ والعبارات مع أن المعبر عنه شيء واحد، بالإضافة إلى أن الحادثة هي نفسها لم تتكرر، بل جاء الاختلاف تبعاً للسياقات التي سردت القصة فيها، وقد ذهب بعض من العلماء إلى أن تنوع الألفاظ في تلك التعابير لم يكن مقصوداً " وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ ذِكْرُ الْمَعْنَى، فَإِنَّ الْأَلْفَازَ إِذَا اخْتَلَفَتْ وَادَّتْ الْمَعْنَى الْمَقْصُودَ كَانَ اخْتِلَافُهَا وَاتِّفَاقُهَا سَوَاءً " ¹.

¹ - درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، اعتنى به: خليل مأمون شبحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1433 هـ / 2012م، (102).

ركز الإسكافي على المعاني المقصودة في الآيات مع اختلاف الألفاظ والتعبير دون إبراز تلك الوجوه الخفية فيها، ولا شك أن هذا الرأي يجعلنا نجمد على ظواهر الآيات فلا نصل إلى حقائقها، فإن الله تعالى قد قص علينا القصص بالحق، فجاءت الصيغ التي عبر بها النص القرآني على المعاني المقصودة متنوعا ليبرز كثيرا من الخفايا التي لم تكن لتظهر لولاه، فكل حرف له دوره المهم في سياقه الوارد فيه، لا يؤديه غيره من الحروف، وكل كلمة تؤدي وظيفتها المنوطة بها، وتصور جانبا من الجوانب التي يعجز غيرها عن تأديتها، وهكذا مع كل جملة وتركيب في كل ما ورد من نصوص المتشابه اللفظي في القرآن عموما، وفي القصة القرآنية على وجه الخصوص.

دارت أحداث هذا الفصل من مشهد العصيان على محور الحوار، في مسألة الخالق تبارك وتعالى لإبليس الذي أبى السجود كفرا واستكبارا، وكان ربه يسأله وهو أعلم به، لا تخفى عنه سريرته، وقد جاءت الآيات مصورة لهذا الموقف في غاية من الدقة مع الاختلاف البارز في عباراتها وألفاظها، مما يجعل المتلقي واقفا أمام حجاب من الأسئلة يحجبه عن رؤية المشهد بوضوح، لا تنجلي سحبه إلا بالإجابة عنها.

وأول ما يبرز من اختلافات اللفظ في الآيات زيادة حرف النداء والمنادى ﴿ يَا إِبْلِيسُ ﴾ في سورة الحجر، وسورة ص، وعدم ذكرها في الأعراف، والنكته في ذلك، أن " خِطَابُهُ قَرَبٌ مِنْ ذِكْرِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ ﴾ [الأعراف: 11]، فَحَسُنَ حَذْفُ حَرْفِ النَّدَاءِ وَالْمُنَادَى، وَلَمْ يَقْرُبْ فِي ص قُرْبُهُ مِنْهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، لِأَنَّ فِي ص: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص: 74]، بِزِيَادَةِ ﴿ اسْتَكْبَرَ ﴾، فزَادَ حَرْفَ النَّدَاءِ وَالْمُنَادَى، فَقَالَ: ﴿ يَا إِبْلِيسُ ﴾، وَكَذَلِكَ فِي الْحَجْرِ، فَإِنَّ فِيهَا: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر: 31]، بِزِيَادَةِ (أَبَى) فزَادَ حَرْفَ النَّدَاءِ وَالْمُنَادَى، فَقَالَ: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ ﴾ ¹.

وكذلك للسائل أن يسأل عن قوله عز وجل: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾، وقوله في سورة الحجر: ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾، وقوله في سورة

¹ - أسرار التكرار في القرآن، محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1396 هـ، (ص: 77 - 78).

ص: ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾. ثلاثة أقوال، اختلفت ألفاظها واتفقت معانيها: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ و﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ و﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾. ونجمل ذلك كالآتي:

- قوله تعالى في الأعراف: ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾، وفي الحجر: ﴿ مَا لَكَ ﴾.
- وفي الأعراف: استفتاح بسؤاله عن امتناعه بقوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾، من غير ندائه باسمه، وفي الحجر نداؤه: ﴿ يَا إِبْلِيسُ ﴾.
- وفي الأعراف: قوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾، وفي الحجر: ﴿ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾.

فسر العلماء ما تشابه من لفظ في هذه النصوص انطلاقاً من السياق العام الذي وردت فيه، فلما " تَقَدَّمَ فِي الْأَعْرَافِ ذِكْرُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَتَصْوِيرِهِ، مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الْمَادَّةِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [الأعراف: 11]، وَالْخِطَابُ لِبَنِي آدَمَ، وَلَمْ يَذْكَرْ خَلْقَ غَيْرِهِمْ مِنْ مَلَكٍ أَوْ جِنٍّ، ثُمَّ إِنَّ الْأَمْرَ بِالسُّجُودِ وَرَدَ لِلْمَلَائِكَةِ، وَلَمْ يَرِدْ إِشْعَارٌ بِأَنَّ إِبْلِيسَ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَسَبَقَ مِنْ ظَاهِرِ الْكَلَامِ أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَمَأْمُورٌ مَعَهُمْ لِاسْتِثْنَائِهِ مِنْهُمْ، فَنَاسَبَ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾، لِأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِظَاهِرِ مَا تَقَدَّمَ، وَنَاسَبَ ذَلِكَ أَيْضًا، وَعَضَّدَ مَا قُلْنَا قَوْلُهُ: ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ "1.

وأما ما ورد في سورة الحجر فظاهر الآية يشعر أيضا من أن إبليس من الملائكة، لذلك ورد خطابه بذكر المعية، وبحسب هذا " قِيلَ لَهُ: ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾، فُقِيلَ: ﴿ مَعَهُمْ ﴾، إِذْ لَيْسَ مِنْهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف: 50]، وَبِحَسَبِ ذَلِكَ اسْتُوْنِفَ نِدَاؤُهُ فُقِيلَ: ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾، لِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ قِيلَ كَانَ يَفْتَضِي أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُنَاسِبَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ صَدْرُ الْكَلَامِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ، فَنُوْدِيَ بِاسْمِهِ الْمُشْعِرِ بِطَرْدِهِ، وَمُعَايِرَتِهِ لَهُمْ "2.

جاء التعبير القرآني في هذه النصوص بصيغة من السرد مختلف عما يألفه الناس في حكاياتهم، وحواراتهم، فهو كلام معجز من كل الوجوه، وطريقة نقل الحوار الذي دار بين رب العزة تبارك وتعالى وبين إبليس، مع اتحاد القصة

1- ملاك التأويل، الغرناطي، (487/1-488).

2- المصدر نفسه.

والحدث, يجعل المستمع يتوقف عند كل حرف عبر به في ذلك, وبالتدقيق في الحروف المستعملة في النصوص التي نقلت لنا المشهد, تستوقفك صيغ التعابير المختلفة من سورة إلى أخرى, ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **أَلَّا تَسْجُدَ** ﴾ [الأعراف: 12]. وقوله في ص: ﴿ **أَنْ تَسْجُدَ** ﴾ [ص: 75]. وقوله في الحجر: ﴿ **مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ** ﴾ [الحجر: 32]. فزيادة (لا) في سورة الأعراف دون السورتين يشعر أنه " لَمَّا حَذَفَ مِنْهَا ﴿ **يَا إِبْلِيسُ** ﴾، وَاقْتَصَرَ عَلَى الْخِطَابِ، جَمَعَ بَيْنَ لَفْظِ الْمَنْعِ وَلَفْظِ (لا)، زِيَادَةً فِي النَّفْيِ، وَإِعْلَامًا أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِهِ إِبْلِيسُ خِلَافًا لِلسُّورَتَيْنِ، فَإِنَّهُ صَرَّحَ فِيهِمَا بِاسْمِهِ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: جَمَعَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بَيْنَ مَا فِي ص وَمَا فِي الْحَجْرِ، فَقَالَ: ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ** ﴾، ﴿ **مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ** ﴾، فَحَذَفَ ﴿ **أَنْ تَسْجُدَ** ﴾، وَحَذَفَ ﴿ **مَا لَكَ** ﴾، لِإِدْلَالَةِ الْحَالِ، وَإِدْلَالَةِ السُّورَتَيْنِ عَلَيْهِ، فَبَقِيَ ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ** ﴾ "1.

• قوله في الأعراف: ﴿ **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾، وفي الحجر: ﴿ **فَاخْرُجْ مِنْهَا فَاتَّكِبْ رَجِيمٌ** ﴾.

في هذين النصين ورد التعبير بقوله: ﴿ **فَاهْبِطْ مِنْهَا** ﴾، وقوله: ﴿ **فَاخْرُجْ** ﴾، فورد في سورة الأعراف الأمر بالهبوط أولاً ثم الخروج، ولا شك أن هناك فارقاً واضحاً بين التعبيرين، فقال في الأعراف: ﴿ **فَاهْبِطْ مِنْهَا** ﴾، " إِذْ لَمْ يَتَقَدَّمَ فِيهَا مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَجْرِ، بَلْ ظَاهِرٌ مَا فِي الْأَعْرَافِ أَنَّهُ مِنْهُمْ، فَجَرَى الْأَمْرُ آخِراً مُنَاسِباً لِهَذَا الظَّاهِرِ فَعَبَّرَ بِالْهَبُوطِ. وَلَمَّا تَقَدَّمَ فِي الْحَجْرِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِخَلْقِهِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ، فَاشْعَرَ ذَلِكَ بِشَرِّ الْمَادَّةِ نَاسِبَهُ قَوْلُهُ: ﴿ **فَاخْرُجْ مِنْهَا** ﴾، وَإِتِّبَاعُ ذَلِكَ بِمَا يُلَاقِيهِ مِنَ الْوَصْفِ وَيُنَاسِبُهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ **فَاتَّكِبْ رَجِيمٌ** ﴾، ثُمَّ بِمَا كَتَبَ عَلَيْهِ مِنَ الطَّرْدِ وَاللَّعْنَةِ، وَلَمْ يَرُدْ فِي الْأَعْرَافِ هَكَذَا، بَلْ رُوِيَ فِيهِ مُنَاسِبَةً مَا تَقَدَّمَ، وَلِنَلَا يَتَنَافَرُ الْكَلَامُ وَيَتَنَافَرُ الْمَعْنَى، فَقِيلَ: ﴿ **فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ "2.

ويختلف الأمر بالهبوط عن الأمر بالخروج من ناحية اقتران الخروج بالطرد والذلة والصغار، فجاءت الآيتان في الحجر وص: ﴿ **فَاخْرُجْ مِنْهَا فَاتَّكِبْ رَجِيمٌ** ﴾، وفي الأعراف: ﴿ **فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾، ويتفق هذا المعنى في الأعراف

1- أسرار التكرار في القرآن، الكرمانلي (ص 78).

2- ملاك التأويل، الغرناطي، (ص: 489 - 490).

بقوله: ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَذْحُورًا ﴾ [الأعراف: 18]، فكان الإخراج من الجنة مع اللعن والإبعاد، والطرده والصغار، مما يجعله آيسا منها أبد الأبدين، بخلاف ما أمر به نبي الله آدم ﷺ بالهبوط من الجنة دون طرد أو إخراج، فإن في لفظ الإخراج إشعار بممارسة فعل الغضب، مع ما تحمله الكلمة من معاني الغضب والقهر.

المفصل الثاني: طمَّعَ فِي الْخُلُودِ

- 1 - قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: 14 - 15].
- 2 - وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر: 36 - 38].
- 3 - وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [ص: 79 - 81].

مما يلاحظ في هذه النصوص زيادة حرف (الفاء) في سؤال إبليس، وجواب المولى تبارك وتعالى في سورتي الحجر وص، بينما حذفت في سورة الأعراف، ولذلك تخريجات بيَّنها العلماء من حيث:

- 1 - تناسب الجواب مع السؤال: فقوله □ ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِ □ ﴾ [الأعراف: 15]، في هذه السورة وفي السورتين □ ﴿ قَالَ فَأَيَّ □ ﴾ [الحجر: 37]، [ص: 80]، " لِأَنَّ الْجَوَابَ يُبْنَى عَلَى السُّؤَالِ، وَلَمَّا خَلَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَنِ (الْفَاءِ) خَلَا الْجَوَابُ عَنْهُ، وَلَمَّا ثَبَّتَتْ (الْفَاءُ) فِي السُّؤَالِ فِي السُّورَتَيْنِ ثَبَّتَتْ فِي الْجَوَابِ " ¹.
- 2 - ورودها بين الإيجاز والإطناب والتأكيد: ربط علماء المتشابه ورود الجواب على طلب إبليس في النصوص المختلفة حسب السياق العام للسورة، وأن الاختلاف بين ما جاء في سورة الأعراف وسورة الحجر يرجع إلى التناسب بين طول العبارات وقصرها وبين عدد الكلمات الواقعة في السياق، ذلك ما يوضحه الغرناطي بقوله: " أَلَا تَرَى أَنَّ مَجْمُوعَ الْكَلِمِ الْوَاقِعَةِ مِنْ لَدُنْ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ﴾، وَهُوَ ابْتِدَاءُ الْقِصَّةِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾، بَضْعٌ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَالْوَارِدِ فِي الْحَجْرِ مِنْ لَدُنْ قَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي ﴾، بَضْعٌ وَسَبْعُونَ كَلِمَةً، وَفِي سُورَةِ ص

¹ - أسرار التكرار في القرآن، الكرمانى (ص 79).

مِنْ لَدُنْ قَوْلِهِ: ﴿ اذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾، إِلَى الْآيَةِ بِضَعِّ وَسْتُونَ كَلِمَةٍ، فَقَدْ وَضَحَ مَا قَصَدَ فِي الْأَعْرَافِ مِنْ إِجَازِ الْإِخْبَارِ فِي الْقِصَّةِ، وَمَا فِي السُّورَتَيْنِ بَعْدَ مِنَ الْإِطْنَابِ. ثُمَّ إِنَّهُ وَرَدَ فِي سُورَتَيْ الْحَجْرِ وَصِ التَّأَكِيدِ بِ (كَلِّ) وَ (أَجْمَعِ) فِي قَوْلِهِ: ﴿ كَلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾، وَلَمْ يَرِدْ ذَلِكَ فِي الْأَعْرَافِ، فَقَصَدَ مَا قُلْنَاهُ، وَتَنَاسَبَ الْإِطْنَابُ وَالتَّأَكِيدُ، وَلِأَعْمَ مَا وَرَدَ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي السُّورَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُنَاسِبَ الْعَكْسُ "1.

3 – جاءت الآيات إجابة وليست استجابة: ولا بد من هذا التفريق المهم حتى لا يتوهم أحد أن الله عز وجل استجاب لطلب إبليس، بل إن سياق سرد الحدث بهذه الألفاظ الدقيقة يضع الإنسان في الصورة المكتملة، وأن الألفاظ المعبر بها في النص تسوق الإنسان إلى تشكيل المشهد تشكيلا صحيحا، مبنيا على دقة معاني الألفاظ والتراكيب، و" لَمَّا لَمْ يَكُنْ إِجَابَةً لَهُ إِلَى مَا طَلَبَ لَمْ يَكُنْ أَيْضًا مَعْطُوفًا عَلَيْهِ بِ (الْفَاءِ)، وَإِنَّمَا سَأَلَ تَأْخِيرَ أَجَلِهِ، فَقَالَ: إِنَّكَ فِي حُكْمِي مِمَّنْ أُخِّرَ أَجَلُهُ، لَا لِأَجْلِ مَسْأَلَتِكَ "2. فبني جواب الله عز وجل على سؤال إبليس حسب وروده في الآيات، فجاء الجواب متناسبا بدقة متناهية مع ما طرح من طلب، لا يزيد عليه ولا ينقص.

سأل إبليس رب العزة تبارك وتعالى أن يؤخره إلى يوم يبعثون، ويقصد من وراء ذلك البقاء على قيد الحياة إلى يوم القيامة، " فَلَمْ تَقَعْ الإِجَابَةُ إِلَى مَا طَلَبَ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾، أَي: إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي هُوَ آخِرُ أَوْقَاتِ الْأَحْيَاءِ، فَأَقْتَضَى إِضْمَارَ: (إِنْ لَعْنَتِي يَا رَبِّ) أَنْ يَأْتِيَ بِ (الْفَاءِ)، فَيَقُولَ: ﴿ فَأَنْظِرْنِي ﴾، وَيَأْتِيَ فِي جَوَابِهِ بِهَا وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾، لِأَنَّ التَّقْدِيرَ: (إِنْ طَلَبْتَ تَأْخِيرَ الْأَجَلِ وَتَنْفِيسَ الْمَهْلِ مِنْ أَجْلِ أَنْ لُعِنْتَ، فَإِنَّكَ مُؤَخَّرُ الْمَوْتِ لِمَا حَكَمْتَ بِهِ لَكَ، لَا لِإِجَابَتِكَ إِلَى مَسْأَلَتِكَ)، فَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى السُّؤَالِ عَطْفَ الْكَلَامِ عَلَى الْكَلَامِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ، لَا عَطْفَ الْإِجَابِ عَلَى السُّؤَالِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُجِبْ عَاصِيًا مِثْلَهُ إِلَى مَا يَسْأَلُ "3.

1- ملاك التأويل، الغرناطي، (ص: 490 – 491).

2- درة التنزيل، الإسكافي، (ص: 103 – 104).

3- درة التنزيل، المصدر السابق، (ص 104).

المفصل الثالث: سفاهة التّحدي

1 - قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَأَاتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 16 - 17].

2 - وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: 39 - 40].

3 - وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: 82-83].

تتشكل صور معاني هذه الآيات في كلام إبليس وتدور على ثلاثة محاور:
 المحور الأول: اختلاف المحكيات، ففي موضع قال: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾، وفي موضع قال: ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ وفي الآخر قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾.
 المحور الثاني: حذف (الفاء) في سورة الحجر من قوله: ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾، وإثباتها في الآيتين الأخريين.

والمحور الآخر: في ذكر الصراط في قوله: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَأَاتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 16 - 17]. وفي تزيينه لهم في الأرض في قوله: ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: 39 - 40].

بين العلماء أسرار هذه الاختلافات التعبيرية الواردة في القصة الواحدة، وأن ذلك من قبيل تنوع الصياغة بحسب السياق الواردة فيه، لأن النظم القرآني يقتضي ذلك، فكل الكلام مرتبط بعبءه ببعض، يؤدي وظائفه على الوجه المعجز الذي تسجد أمامه العقول، فلم يكن لحرف أن يحل محل حرف آخر إلا لقصد دقيق، وهدف منشود، فضلا عن اللفظة أو الجملة والتركيب.

ففي المحور الأول يجزم العلماء أن لا اختلاف في المعاني الواردة فيه " لِأَنَّ الْمُرَادَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ بِأَعْوَابِكَ إِيَّايَ، وَهُوَ يَحْتَمِلُ وُجُوهًا مِنَ الْمَعْنَى. أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: بِتَخْيِيبِكَ إِيَّايَ لِأَجْتِهَدَنَّ فِي تَخْيِيبِهِمْ، وَهَذَا ظَاهِرُ الْكَلَامِ، لِأَنَّ الْقِسْمَ مُتَلَقًى بِـ (اللامِ)، وَلِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ فِي مَقَابَلَتِهِمَا مِنَ الْآيَةِ الْأُخْرَى

وَتَخْيِبُ اللَّهُ إِيَّاهُ هُوَ بِعِزَّتِهِ ... وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِإِهْلَاكِكَ إِيَّايَ بِأَنْ لَعَنْتَنِي، وَهَذَا الْفِعْلُ أَيْضًا عِزَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ¹.

فيتبين من هذا أن العبارات كلها قد تساوت في المعنى، فإن الإغواء أو الحكم بالغواية كل من عند الله عز وجل، والقسم به كالقسم بعزته، وكل ذلك عزة من الله.

وأما زيادة (الفاء) في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾، وفي سورة ص: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لِأَغْوَيْتَنَّهُمْ ﴾، " فَهِيَ لِلْعَطْفِ، لِيَكُونَ الثَّانِي مَرْبُوطًا بِالْأَوَّلِ، لِأَنَّ مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ مُوَافِقٌ لِمَا قَبْلَهُ فِي الْأَقْتِصَارِ عَلَى الْخُطَابِ دُونَ النَّدَاءِ، وَمَا فِي الْحَجْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾، مُوَافِقٌ لِمَا قَبْلَهُ فِي مُطَابَقَةِ النَّدَاءِ، فَانْتَفَى بِمُطَابَقَتِهِ لِامْتِنَاعِهِ مِنْهُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِالَّذِي يَسْتَدْعِيهِ النَّدَاءُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَقَعُ مَعَ السُّؤَالِ وَالطَّلْبِ، وَهَذَا قَسَمٌ عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ بِدَلِيلِ مَا فِي ص، وَخَبَرَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، وَالَّذِي فِي ص عَلَى قِيَاسِ مَا فِي الْأَعْرَافِ دُونَ الْحَجْرِ، لِأَنَّ مُوَافَقَتَهُمَا أَكْثَرَ عَلَى مَا سَبَقَ فَقَالَ: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ ². وحذف (الفاء) من قوله: ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ حذف لا بد منه، " لِأَنَّ الدُّعَاءَ فِي الْمَصْدَرِ يُسْتَنَافُ بَعْدَهُ الْكَلَامَ، وَالْقِصَّةَ غَيْرَ مُقْتَضَاةٍ لِمَا قَبْلَهَا كَمَا اقْتَضَاهُ قَوْلُهُ: ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي ﴾، وَ(الْفَاءُ) تُوجِبُ مَا بَعْدَهَا بِمَا قَبْلَهَا. وَالنَّدَاءُ أَوْلَى يُوجِبُ الْقَطْعَ، وَاسْتِنَافُ الْكَلَامِ، لَا سِيَّمَا فِي قِصَّةٍ لَا يَقْتَضِيهَا مَا قَبْلَهَا، فَلَمْ تَحْسُنْ (الْفَاءُ) مَعَ قَوْلِهِ: ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾، وَالْمَوْضِعَانِ الْآخِرَانِ لَمْ يَدْخُلَ الْكَلَامُ فِيهِمَا نِدَاءً يُوجِبُ اسْتِنَافَ مَا بَعْدَهُ، فَلِذَلِكَ وَصَلَ الْقَسَمَ فِيهِمَا بِالْأَوَّلِ بِدُخُولِ (الْفَاءِ) ³.

وأما المحور الثالث ففيه من الأسرار ما يرتبط بسياق الآيات في السور الواردة فيها، باعتبار المعنى الإجمالي لموضوع السورة، ذلك " أَنَّ الْمَعْنَى الْحَاصِلَ مِنْ قَوْلِهِ فِي السُّورَتَيْنِ وَاحِدٌ، لَا إِشْكَالَ فِيهِ، ثُمَّ اخْتَلَفَ التَّعْبِيرُ عَنْ ذَلِكَ، بِحَسَبِ مَا تَقَدَّمَ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ السُّورَتَيْنِ، وَمَا اسْتَدْعَاهُ مِنَ الْمُنَاسَبَةِ ... فَلِأَجْلِ اخْتِلَافِ الْمَتَقَدِّمِ فِي كُلِّ مِنَ السُّورَتَيْنِ مَا اخْتَلَفَ الْمَبْنِيُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَحْكِيِّ عَنْ إِبْلِيسَ مِنْ طَمَعِهِ، وَوَرَدَ كُلُّ عَلَى مَا يُنَاسِبُ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُنَاسِبَ تَعْقِيبُ مَا وَرَدَ فِي الْأَعْرَافِ بِمَا

¹ - درة التنزيل، المصدر السابق، (ص 105).

² - أسرار التكرار، الكرمانى، (ص 79).

³ - درة التنزيل، المصدر السابق.

أَعْقَبَ الْمُتَقَدِّمَ فِي الْحَجْرِ، وَتَعْقِيبُ مَا وَرَدَ فِي الْحَجْرِ بِمَا أَعْقَبَ الْمُتَقَدِّمَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ¹.

المِفْصَلُ الرَّابِعُ: طَرْدٌ وَإِنْعَادٌ

1 – قال الله تعالى: ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: 18].

2 – وقال تعالى: ﴿ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الحجر: 34 – 35].

3 – وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [ص: 77 – 78].

تكرر الأمر بالخروج في سورة الأعراف مرتين، فقال في الآية الأولى: ﴿ فَأَخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَدْحُورًا ﴾، " وَالْأَمْرُ الْأَوَّلُ بِالْخُرُوجِ قَدْ ذُكِرَ لِبَيَانِ سَبَبِهِ لِأَنَّهُ أَبِي السُّجُودِ وَاسْتَكْبَرَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، وَهَذَا لِبَيَانِ صِفَتِهِ "².

وقد ناسب هذا الطرد بذمه وإبعاده ما حكاه الله عنه بقوله: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَا تَبْنِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 16 – 17]. فتناسب الحوار بطرفيه، فلما بالغ وتمادى في القول، جاءه الرد مبالغاً فيه على القدر الذي يستحقه من الطرد والإبعاد واللعن.

أما اللعنة فقد جاءت بالألف واللام في سورة الحجر، وبالإضافة في سورة ص، مع أن المراد منهما واحد، وقد حاول علماء المتشابهة تخريج ذلك بحسب السياق الذي وردت فيه الآيتان، وأرجعوا سبب ذلك إلى أسلوب التعبير القرآني في السورتين، فقالوا: " قَوْلُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ لِإِبْلِيسَ: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ [الحجر: 35]، بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ، وَفِي ص: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ [ص: 78] بِالإِضَافَةِ، لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ جَرَى عَلَى الْجِنْسِ مِنْ أَوَّلِ الْقِصَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ [الحجر: 26]، ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ ﴾ [الحجر: 27]، ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ

¹ - ملاك التأويل، الغرناطي، (ص: 492 – 494).

² - تفسير المنار، رشيد رضا، (301/8).

كُلُّهُمْ ﴿ الْحَجَرِ: 30﴾، كَذَلِكَ قَالَ: ﴿ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ ﴾، وَفِي ص تَقَدَّمَ: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: 75]، فَخَتَمَ بِقَوْلِهِ: ﴿ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ [ص: 78] 1.

لكن الذي يخدم هذا المشهد أكثر، ويؤثر في حركية الحوار، ويجعلها في الغاية القصوى من التوازن، هو تناسب قوله تعالى: ﴿ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ [ص: 78]، مع قوله: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: 75]، فلما أراد سبحانه أن يبين عليّ التشريف والتكريم في خلقه لآدم عليه السلام ذكر أنه خلقه بيده عز وجل، وهذا في غاية التشريف، وأعلى قمم التكريم، فكان لا بد من أن يقابل بالطاعة عوض العصيان، ولكنه لما أبى واستكبر، خصه باللعنة المضافة إليه سبحانه الدالة على منتهى المقت والذم، فلو أنه لعن من غير الله عز وجل، لكان باب رحمة الله أمامه مفتوحاً، ولكنه بتمرده كان محلاً مستحقاً للعنة الله التي لا مطمع بعدها في رحمة غيره، فلو رضي الله عنه ما ضره من بعد ذلك سخط غيره، ولكن لما جلب سخط الله له فمن ذا الذي ينفعه بعد ذلك، فتقابلت قمة التكريم مع منتهى الإهانة والذم والصغار.

1 - الْمَشْهَدُ الثَّانِي

سُكِّنِيَ الْجَنَّةَ وَقِصَّةَ الْهَبُوطِ إِلَى الْأَرْضِ

في هذا المشهد تتحرك القصة وفق ثلاثة مفاصل، ترتبط فيها الأحداث فيما بينها، وتعبّر عنها الألفاظ بدقة الإعجاز القرآني، لتنتقل لنا الصورة في كمالها الذي وضعت له، وفق سرد وقص لم يعهده البشر من قبل، ولم تألفه العرب في استعمالها.

1 - قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 35 - 38].

2 - قال الله تعالى: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا

¹ - أسرار التكرار في القرآن، الكرمانلي، (ص: 118 - 119).

مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا
مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَذَلَّاهُمَا
بَغْرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ
وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ
(22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23)
قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿
[الأعراف: 19 – 24].

3 – قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا
(115) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ
هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ [طه: 117 – 119].

كان الحوار الدائر بين إبليس ورب العزة تبارك وتعالى على مرأى ومسمع من آدم عليه السلام، فأخذ إبليس جزاء عصيانه وتمرده، وأخرج من الجنة والرحمة إلى الطرد واللعنة، مذعوما مدحورا، شيطانا رجيمًا، وقد أسدل الستار عن دور آدم عليه السلام في تفاصيل أحداث هذا المشهد، إلا أنها وقعت بين يديه، وكان واعيا لما يحدث أمامه، مدركا حقيقة الموقف، فإن الله عز وجل وهبه ملكة التمييز والإدراك، حين علمه أسماء كل شيء، وذلك بعد نفخ الروح فيه، فالتعليم ميزة حصل عليها آدم عليه السلام، فمكنته من فهم ما يحدث أمامه، والتعامل معه وفق المعايير التي بُني عليها إدراكه، وقد ورد في السنة ما يثبت تعليمه، وطريقة تعلمه، وأن ذلك قد تم قبل أن يكون مسجود الملائكة، وقد اختلف العلماء في ذلك، فقد روى النسائي في السنن الكبرى ثلاثة أحاديث، خطأ منها طريقتين وصوب واحدة، وهي الشاهد والدليل على ما ذهب إليه.

• الطريق الأولى: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ، فَحَمِدَ رَبَّهُ بِإِذْنِ اللهِ لَهُ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: رَحِمَكَ رَبُّكَ يَا آدَمُ، اذْهَبْ إِلَى أَوْلَادِكَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَلَأْ مِنْهُمْ جُلُوسًا، فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: سَلَامٌ عَلَيْكَ وَرَحْمَةٌ مِنَ اللهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ فَقَالَ: هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ بَيْنَهُمْ »¹.

¹ - رواه النسائي، حديث رقم (10046).

• الطريق الثانية: عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: « **خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، فَلَمَّا تَبَالَعَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: قُلِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ: رَحِمَكَ رَبُّكَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اذْهَبْ إِلَى أَهْلِ هَذَا الْمَجْلِسِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، فَفَعَلَ فَقَالَ: هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ** »¹. قال أبو عبد الرحمن: وهذا هو الصواب، والآخر خطأ، والذي بعده حديث محمد بن خلف وهو منكر.

• الطريق الثالثة: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: « **خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَهُ، فَجَلَسَ فَعَطَسَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: يَرْحَمُكَ رَبُّكَ، أَنْتَ أَوْلَىكَ الْمَلَائِكَةُ فَقُلِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَأَتَاهُمْ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا لَهُ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ تَعَالَى فَقَالَ لَهُ: هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ بَيْنَهُمْ** »².

بين النسائي خطأ الطريق الأولى بمخالفة أحد الرواة لمن هو أوثق منه، والأخيرة أعلاها بالنكارة، وفيهما أن تعليمه كان بعد السجود، بينما صوب الطريق الثانية الموقوفة على عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وفيها عدم ذكر سجود الملائكة، وأن طريقة تعليمه عليه السلام كانت قبل سجود الملائكة عليهم السلام.

يتبين من هذه النصوص أن ملكة الإدراك عند آدم عليه السلام بدأت في الاشتغال عند نفخ الروح فيه، ثم تحركت فيه ملكة التواصل بعد ذلك وفق ما جاء في الحديث، فتواصل مع ربه عز وجل، وتلك أولى خطوات التعلم، حين « **قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: قُلِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ: رَحِمَكَ رَبُّكَ** »، ثم مر إلى المرحلة الثانية في تواصله مع الملائكة، وذلك أيضا بتعليم الله له، حين « **قَالَ لَهُ: اذْهَبْ إِلَى أَهْلِ هَذَا الْمَجْلِسِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، فَفَعَلَ فَقَالَ: هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ** »، وهذا الحديث هو تفسير لقوله عز وجل: « **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا** » [البقرة: 31]، فهو من علم الملائكة قبله سبحانه وتعالى، قال: « **قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** » [البقرة: 32].

¹ - رواه النسائي، حديث رقم (10047).

² - رواه النسائي، حديث رقم (10048).

مما سبق يتأكد مشهد وعي آدم عليه السلام لكل ما وقع بين يديه من طغيان إبليس، وطرده بعد ذلك من الجنة، لينتقل الكلام إليه وإدخاله في دائرة الحوار الرباني، وأمره بسكنى الجنة، فقد جاءت الآيات تحكي أمر الله له بذلك بعد طرد الشيطان الرجيم منها. تتحرك أحداث هذا المشهد وفق ثلاثة مفاصل تتشكل وفقها صورة الحقائق منسوجة من وراء أستار الغيب.

المِفْصَلُ الْأَوَّلُ: سَكُنِي الْجَنَّةَ وَالْأَكْلُ مِنْهَا

- 1 – قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة: 35].
- 2 – وقال تعالى: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [الأعراف: 19].

مما يجب التنبيه عليه في هذا المقام خطأ من يصف سكنى آدم في الجنة، فيقول: (ثم أدخل آدم الجنة)، وينسى أن الله عز وجل قد أتم خلقه فيها، وهذا ما سبق ذكره في ما رواه مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ ... »¹ الحديث، ومما يؤكد هذا، أن الله تبارك وتعالى قد أمر إبليس بالخروج من الجنة بعد عصيانه، وهذا يدل على أن الفضاء المكاني الذي تحركت فيه مفاصل الأحداث في هذه القصة كان كله الجنة، لذلك جاء الأمر الرباني لآدم عليه السلام أن (اسْكُنْ) الجنة، ولم يقل له (ادخل) الجنة، في مقابل قوله لإبليس: ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَدْحُورًا ﴾.

انضمت لقصتنا شخصية جديدة لها أثرها في ما يستقبل من أحداث القصة، وهي شخصية زوج آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾، لم تشر النصوص القرآنية إلى تفاصيل ملامح هذه الشخصية إلا بالقدر الذي يعطينا عنها الفكرة مجملة، فقد ذكرها الله عز وجل في غير ما موضع من القرآن، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء: 1]. وقال أيضا: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: 189].

¹ - حديث صحيح، رواه مسلم، وغيره، حديث رقم (6815).

أجمع المفسرون على أن المراد بالزوجة " حواء، وإن لم يتقدم ذكرها في هذه السورة، وفي سائر القرآن ما يدل على ذلك، وأنها مخلوقة منه، كما قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء: 1]، وفي الأعراف: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: 189] "1.

وقد بين النبي ﷺ أن أصل البشر الأول آدم عليه السلام فهو أبوهم، ومنه خرجت ذريته بعد أن خلق الله منه زوجة، فقال ﷺ: « النَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ ثَرَابٍ »²، وقد ثبت في السنة الصحيحة أن الله خلق زوجة من ضلعه، جاء في الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ »³.

أجمع العلماء وشراح الحديث أن المرأة التي خلقت من ضلع هي زوج آدم عليه السلام، إلا أن الروايات الصحيحة المسندة إلى النبي ﷺ لم تزد على هذا، ولم تبين كيفية ووقت خلقها، وقد رويت في تفاصيل خلقها كثير من الآثار التي لا مستند لها إلا ما نقل عن الإسرائيليات المبنوثة في كتب التفسير، كقول القرطبي وغيره: "وَزَوْجُ آ □ □ هِيَ حَوَاءٌ عَلَيْهَا السَّلَامُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَمَّاهَا بِذَلِكَ حِينَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحْسَنَ آ □ □ بِذَلِكَ، وَلَوْ أَلِمَ بِذَلِكَ لَمْ يَعْطِفَ رَجُلٌ عَلَى امْرَأَتِهِ، فَلَمَّا انْتَبَهَ قِيلَ لَهُ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: امْرَأَةٌ، قِيلَ: وَمَا اسْمُهَا؟ قَالَ: حَوَاءٌ، قِيلَ: وَلِمَ سَمَّيْتَ امْرَأَةً؟ قَالَ: لِأَنَّهَا مِنَ الْمَرْءِ أَخَذْتُ، قِيلَ: وَلِمَ سَمَّيْتَ حَوَاءً؟ قَالَ: لِأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ حَيٍّ. رُوِيَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ سَأَلَتْهُ عَنْ ذَلِكَ لِتَجَرَّبَ عِلْمُهُ، وَأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ: أَتَحِبُّهَا يَا آدَمُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا لِحَوَاءَ: أَتَحْبِبِينَ يَا حَوَاءُ؟ قَالَتْ: لَا، وَفِي قَلْبِهَا أَضْعَافٌ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ حُبِّهِ. قَالُوا: فَلَوْ صَدَقَتْ امْرَأَةٌ فِي حُبِّهَا لِزَوْجِهَا لَصَدَقَتْ حَوَاءُ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا أُسْكِنَ آدَمُ الْجَنَّةَ مَشَى فِيهَا مُسْتَوْحِشًا، فَلَمَّا نَامَ خُلِقَتْ حَوَاءٌ مِنْ ضِلْعِهِ الْقَصْرَى⁴، مِنْ شَقِّهِ الْأَيْسَرِ، لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا وَيَأْنَسَ بِهَا، فَلَمَّا انْتَبَهَ رَأَاهَا، فَقَالَ: مَنْ أَنْتِ؟ قَالَتْ: امْرَأَةٌ، خُلِقْتُ مِنْ ضِلْعِكَ لِتَسْكُنَ إِلَيَّ، وَهُوَ

1- تفسير الرازي، (451/3).

2- حديث صحيح، رواه الترمذي، وغيره، حديث رقم (3956).

3- حديث صحيح، رواه مسلم، وغيره، حديث رقم (3719).

4- القصرى (بضم القاف وسكون الصاد وفتح الراء)، والقصيرى (بضم القاف وفتح الصاد ، على التصغير): أسفل الأضلاع، أو هي الضلع التي تلي الشاكلة، بين الجنب والبطن، ينظر: حاشية تفسير الطبري، (515/7).

معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: 189] ¹.

ولا شك أن هذه الروايات لم تثبت عن النبي ﷺ في حديث صحيح الإسناد يروى عنه.

شخصية حواء عليها السلام:

وأما عن ثبوت اسم زوجة النبي ﷺ (حواء)، فقد دلت عليه الأحاديث الصحيحة مثل ما ورد في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: « لَوْلَا حَوَاءُ لَمْ تَخُنْ² أَنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ³ ». وكذلك ورد اسمها في كثير من الأحاديث التي لا يخلو إسنادها من مقال.

ومع أن الإجماع قائم بين المفسرين بأن الله خلق حواء من آدم عليه السلام، لكن الاختلاف وقع في تحديد زمن وقوع ذلك، فذهب بعضهم إلى أنها خلقت قبل دخوله الجنة، ونسي أن آدم عليه السلام لم يؤمر بدخول الجنة، بل أمر بسكناها، ولم يرد في السنة الصحيحة ما يعول عليه في إثبات ذلك، لهذا وجب التوقف في أمر الغيب هذا، ما لم يثبت بين أيدينا وحي يستند عليه.

ذكر بعض من وهم فقال بخلق حواء قبل أو بعد دخول آدم الجنة:

1. قال ابن كثير في تفسيره: " وَسِيَاقُ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنَّ حَوَاءَ خُلِقَتْ قَبْلَ دُخُولِ آدَمَ الْجَنَّةَ ... وَيُقَالُ: إِنَّ خَلْقَ حَوَاءَ كَانَ بَعْدَ دُخُولِهِ الْجَنَّةَ، كَمَا قَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ⁴ ".

2. وقال ابن عادل في اللباب: " فَهَذَا الْخَبْرُ يُدُلُّ عَلَى أَنَّ حَوَاءَ خُلِقَتْ قَبْلَ إِدْخَالِهَا الْجَنَّةَ⁵ ".

3. وقال الماوردي: " وَاخْتَلَفَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي خُلِقَتْ فِيهِ حَوَاءُ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ آدَمَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَحْدَهُ، فَلَمَّا اسْتَوْحَشَ خُلِقَتْ حَوَاءُ مِنْ ضَلْعِهِ بَعْدَ دُخُولِهِ فِي الْجَنَّةِ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ.

¹ - تفسير القرطبي، (301/1).

² - قال الحافظ ابن حجر: " وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش، حاشا وكلا، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة، وحسنت ذلك لآدم، عد ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها، وقريب من هذا حديث: " جحد آدم فجحدت ذريته "، فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، سنة الطبع: 1379هـ، (368/6).

³ - حديث صحيح، منفق عليه رواه البخاري، حديث رقم (3330)، ورواه مسلم، حديث رقم (3723).

⁴ - تفسير ابن كثير، (233/1).

⁵ - تفسير اللباب، ابن عادل دمشقي، (145/1).

وَالثَّانِي: أَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ ضُلْعِهِ قَبْلَ دُخُولِهِ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أُدْخِلَا مَعًا إِلَى الْجَنَّةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا** ﴾، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي إِسْحَاقَ ¹.

احتج كل من قال بهذا القول ببعض الآثار المروية عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما، رضي الله عنهم، ولكن المحتج لم ينتبه إلى أن الوارد في أقوالهم كان بلفظ الإسكان، فطابق لفظ الآيتين، ولم يرد بلفظ الإدخال كما فهموا، فقد روى ابن جرير في تفسيره، " عَنْ السُّدِّيِّ، فِي خَبَرِ ذَكَرَهُ عَنْ أَبِي مَالِكٍ، وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنْ مُرَّةَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ نَاسٍ، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: فَأَخْرَجَ إِبْلِيسُ مِنَ الْجَنَّةِ حِينَ لَعِنَ، وَأُسْكِنَ آدَمَ الْجَنَّةَ، فَكَانَ يَمْشِي فِيهَا وَحَشًا لَيْسَ لَهُ زَوْجٌ يَسْكُنُ إِلَيْهَا. فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ، وَإِذَا عِنْدَ رَأْسِهِ امْرَأَةٌ قَاعِدَةٌ خَلَقَهَا اللَّهُ مِنْ ضُلْعِهِ، فَسَأَلَهَا: مَنْ أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: امْرَأَةٌ، قَالَ: وَلِمَ خُلِقْتِ؟ قَالَتْ: تَسْكُنُ إِلَيَّ. قَالَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ يَنْظُرُونَ مَا بَلَغَ عِلْمُهُ: مَا اسْمُهَا يَا آدَمُ؟ قَالَ: حَوَاءُ، قَالُوا: وَلِمَ سَمَّيْتِ حَوَاءَ؟ قَالَ: لِأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ شَيْءٍ حَيٍّ. فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿ **يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا** ﴾. فَهَذَا الْخَبَرُ يُنبِئُ عَنِ أَنَّ حَوَاءَ خُلِقَتْ بَعْدَ أَنْ سَكَنَ آدَمُ الْجَنَّةَ، فَجُعِلَتْ لَهُ سَكَنًا " ².

يتبين من هذا النقل أن الطبري قد عبر عن الحال بالإسكان، ولم يشر إلى حال الدخول، وهذا ما يقتضيه النص المستشهد به من أقوال الصحابة رضي الله عنهم، لكن من جاء بعده من المفسرين غير وبدل الإسكان بالدخول، فجعل الحدث مرتبطاً بزمان قبل الدخول وبعده، فَوَهِمَ.

جاء في هذا الفصل من القصة تشابه لفظي بين آية البقرة: ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا** ﴾ [البقرة: 35]، وآية الأعراف: ﴿ **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا** ﴾ [الأعراف: 19]. ولهذا التشابه دور مهم في توضيح بعض الصور المتشكلة من خلاله، وإبراز خفايا بعض الزوايا التي سنتكشف بعد تحليل ألفاظه.

1. أولاً: ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ** ﴾ في البقرة، و ﴿ **وَيَا آدَمُ** ﴾ في الأعراف.

2. ثانياً: ﴿ **وَكُلَا** ﴾ في البقرة، و ﴿ **فَكُلَا** ﴾ في الأعراف.

¹ - تفسير الماوردي، (104/1).

² - تفسير الطبري، (513/1 - 514).

3. ثالثاً: ﴿ مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ في البقرة، و ﴿ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾

في الأعراف.

أول طريق يجب أن نسلكه ليتسنى لنا الجمع بين هذه المتشابهات اللفظية هو قراءتها في سياقها الذي وردت فيه، فقصد بالآيات إخبار وإعلام النبي ﷺ بما جرى في قصة آدم عليه السلام، لذلك وردت الآيات على نسق واحد من بدايتها إلى نهايتها، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ [البقرة: 30]، ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ [البقرة: 32]، ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ ﴾ [البقرة: 33]، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [البقرة: 34]، ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: 35]، ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [البقرة: 38].

وأما آية الأعراف، فقد جاءت في سياق المبالغة في إهانة إبليس، فتقابل الجزاء مع الفعل، فلما بالغ إبليس في التمرد بقوله: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (16) ثُمَّ لَا تَبِيبُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 16 – 17]، جاءه الطرد وفق قوله: ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَدْحُورًا ﴾ [الأعراف: 17]، وزيادة على هذا، فإن هذا الذي وهمت في تفضيل خلقك على خلقه بسببه، فأخرج منها أنت مذعوماً مدحوراً، ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ مكرماً محبوراً، وقد أظهر هذا التعبير بالجمع بـ (الواو) في قوله: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ ﴾ قيمة تكريم آدم عليه السلام في مقابل الإهانة القصوى لإبليس، فكانت المقابلة بين التكريم في أعلى قمته، وبين الإهانة في أدنى مستوياتها، وقد نقلت الآيات أثر هذه الإهانة على إبليس وما خلفته في نفسه من الضغائن، فقال تعالى ناقلاً قول إبليس: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 62]، وتنقل لنا الآيات مشهداً متحداً " فِي حَضْرَةٍ وَاحِدَةٍ، كَانَ فِيهَا آدَمُ وَالْمَلَائِكَةُ وَإِبْلِيسُ حُضُورًا، وَفِي تَوْجِيهِهِ الْخُطَابِ لِآدَمَ بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ بِحُضُورِ إِبْلِيسَ بَعْدَ طَرْدِهِ زِيَادَةً إِهَانَةً، لِأَنَّ إِعْطَاءَ النِّعَمِ لِمَرْضِيٍّ عَلَيْهِ فِي حِينِ عِقَابِ مَنْ اسْتَأْهَلَ الْعِقَابَ زِيَادَةً حَسْرَةً عَلَى الْمَعَاقِبِ، وَإِظْهَارٌ لِلتَّفَاوُتِ بَيْنَ مُسْتَحَقِّ الْإِنْعَامِ وَمُسْتَحَقِّ الْعُقُوبَةِ، فَلَا يُفِيدُ الْكَلَامُ مِنَ الْمَعَانِي مَا أَفَادَهُ الْعَطْفُ عَلَى الْمَقُولِ الْمَحْكِيِّ، وَلِأَنَّهُ لَوْ أُرِيدَ ذَلِكَ لِأَعِيدَ فِعْلُ الْقَوْلِ

1۱۱

1- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (41/8).

وأما سبب ورود الأمر بأكلهما في سورة البقرة بـ (الواو)، وفي الأعراف بـ (الفاء) والأمر واحد والقصة واحدة فإن " مَا وَرَدَ فِي الْبَقْرَةِ قَصْدٌ بِهِ مُجَرَّدَ الْإِخْبَارِ وَالْإِعْلَامِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا جَرَى فِي قِصَّةِ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَابْتِدَاءِ خَلْقِهِ، وَأَمْرِ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَمَا جَرَى مِنْ إِبْلِيسَ فِي امْتِنَاعِهِ عَنِ السُّجُودِ، ثُمَّ مَا أَمَرَ آدَمَ مِنْ سُكْنَى الْجَنَّةِ، وَالْأَكْلِ مِنْهَا، وَلَمْ يَقْصِدْ غَيْرَ التَّعْرِيفِ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبِ زَمَانِيٍّ، أَوْ تَحْدِيدِ غَايَةٍ، فَنَاسَبَهُ (الْوَاوُ) وَلَيْسَ مَوْضِعُ (الْفَاءِ)"¹.

وما جاء في سورة الأعراف كان على نسق حكاية الأمر حال وقوعه في حينه، لأن ما جاء مجملا مجموعا في سورة البقرة، جاء مفصلا في سورة الأعراف، فأمره بالسكنى في سورة البقرة كان من باب الحكاية عنه مجملا، وما جمع له من تكريم من غير ترتيب زمني، لذلك ناسبه (الواو)، ولما كان التعبير في سورة الأعراف يصور حال وقوع فعل الأمر بسكنى الجنة، وبعده جاء تعاقب حركة فعل الأمر الثاني بالأكل، اقتضى المقام أن تترتب الأوامر وفق منظومة تعاقب الأفعال ووقوعها مرتبة، فاستعمل (الفاء) لتؤدي وظيفتها في هذا المقام الذي لا يصلح له غيرها.

وقد ذهب بعض علماء المتشابه غير هذا المذهب في الجمع بين هذين الموضوعين، فقال: " وَأَمَّا آيَةُ الْأَعْرَافِ، فَمَقْصُودُهَا تَعْدَادُ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ وَتَعَالَى عَلَى آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ، أَلَا تَرَى مَا تَقَدَّمَهَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ** ﴾، وَمَا اتَّبَعَ بِهِ هَذَا مِنْ ذِكْرِ الْخَلْقِ وَالتَّصْوِيرِ، وَأَمْرِ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، ثُمَّ قَوْلُهُ مُفْرَدًا لِإِبْلِيسَ: ﴿ **اخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَذْحُورًا** ﴾، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ، أَمَرَ آدَمَ ﷺ بِالْهَبُوطِ، مُتَّبِعًا بِالتَّائِيْسِ لَهُ، وَوَصِيَّةِ ذُرِّيَّتِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ** ﴾، فَنَاسَبَ هَذَا الْقَصْدُ الْعَطْفَ بِـ (الْفَاءِ) الْمُفْتَضِيَّةِ التَّرْتِيبِ، وَ (الْوَاوُ) لَا تَقْتَضِي ذَلِكَ، وَإِنَّمَا بَابُهَا الْجَمْعُ، حَيْثُ لَا يُرَادُ تَرْتِيبٌ، وَلَيْسَ مَوْضِعَ شَرْطٍ وَجَزَاءٍ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مُسَوِّغًا لِدُخُولِ (الْفَاءِ)"².

وقد علل بعض العلماء ورود (الواو) في البقرة و (الفاء) في الأعراف بسبب معنى كلمة السكنى أو السكون، وأن الأمر في الآيتين " لَيْسَ بِأَمْرٍ بِالسُّكُونِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْحَرَكَةِ، وَإِنَّمَا الَّذِي فِي الْبَقْرَةِ مِنَ السُّكُونِ الَّذِي مَعْنَاهُ الْإِقَامَةُ، وَذَلِكَ

¹ - ملاك التاويل، الغرناطي، الآية السادسة من سورة البقرة، (ص: 187 — 188).

² - المصدر نفسه.

يَسْتَدْعِي زَمَانًا مُّمْتَدًّا، فَلَمْ يَصْلُحْ إِلَّا بِ(الْوَاوِ)، لِأَنَّ الْمَعْنَى: إِجْمَعُ بَيْنَ الْإِقَامَةِ فِيهَا وَالْأَكْلِ مِنْ ثِمَارِهَا، وَلَوْ كَانَ (الْفَاءُ) مَكَانَ (الْوَاوِ) لَوَجِبَ تَأْخِيرُ الْأَكْلِ إِلَى الْفِرَاحِ مِنَ الْإِقَامَةِ، لِأَنَّ (الْفَاءَ) لِلتَّعْقِيبِ وَالتَّرْتِيبِ، وَالَّذِي فِي الْأَعْرَافِ مِنَ السُّكْنَى الَّذِي مَعَهَا إِتِّخَاذُ الْمَوْضِعِ مَسْكَنًا، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنَ الْجَنَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿ اٰخْرَجْ مِنْهَا مَذْعُوْمًا ﴾ [الْأَعْرَافِ: 18]، وَخَاطَبَ آدَمَ فَقَالَ: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 19]، أَيِ اتَّخَذَاهَا لِأَنْفُسِكُمَا مَسْكَنًا¹.

ومن تمام الحديث عن دقائق هذا المفصل من القصة تجدر الإشارة إلى أن ما ورد في سورة الأعراف من أحداث القصة هي تفصيل لما أجمل منها في سورة البقرة.

- فقوله تعالى: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ فصله في الأعراف: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾.
- وقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾، فصله في الأعراف: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾.
- وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ فكان جزاءه جزاء الكافرين: ﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.
- وقوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ فصله في الأعراف: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِحِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِيَّيَ لَكُمَْا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِحُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَْا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَْا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾.
- وقوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ فصله في الأعراف: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

¹ - أسرار التكرار في القرآن، الكرمانى، (ص: 25 - 26).

وقد أرجع العلماء سبب زيادة (الرغد) في قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ في البقرة، وعدم وروده في قوله تعالى: ﴿ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ في الأعراف، إلى ما يحمله لفظ (مِنْ) من معنى، وأن القصد منه لم يكن إرادة التقليل، فهو غير مراد هنا " وَإِنَّمَا مُصْرَفُ التَّبْعِيضِ هُنَا إِلَى الْمَأْكُولِ مِنْهُ، فَإِنَّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا أَكَلَتْ مِنْهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ بِأَجْمَعِهَا فَإِنَّمَا تَأْكُلُ بَعْضًا، إِذْ فِيهَا مِنْ كُلِّ مَتْنَعٍ بِهِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاجْتَمَعَ هُنَا أَنَّ الْبَعْضِيَّةَ مُرَادَةٌ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ، وَإِبَاحَةُ التَّوْسِيعَةِ فِي أَكْلِهَا مَقْصُودَةٌ، وَلَيْسَ ثُمَّ مَا يُحْرِزُهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ رَعْدًا ﴾ لِيَحْصُلَ مَعْنَى التَّوْسِيعَةِ، وَتَجَرَّدَتْ (مِنْ) لِإِحْرَازِ مَعْنَاهَا، وَلَمْ يَكُنْ هُنَا بُدٌّ، إِذْ لَيْسَ فِي السِّيَاقِ مَا يُحْرِزُ ذَلِكَ الْمَعْنَى مِنَ التَّوْسِيعَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ لِإِبَاحَةِ مَا فِي أَمَاكِنِهَا، وَمِنْ أَلْحَالِ أَنْ يُبَاحَ لَهُمَا الْأَكْلُ مِنْ حَيْثُ شَاءَا مِنْهَا عَلَى اتِّسَاعِ الْمَسَاحَةِ وَكَثْرَةِ الْمَأْكَلِ، ثُمَّ يُحْجَرُ عَلَيْهِمَا التَّوَسُّعُ فِي الْأَكْلِ وَالتَّرَعُّدُ فِيهِ، هَذَا مُتَنَاقِضٌ. فَإِنْ قِيلَ: قَدْ وَقَعَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾، وَتِلْكَ تَوْسِيعَةٌ فِي الْأَمَاكِنِ؟ قُلْتُ: لَيْسَ مَوْقِعُ ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ مَوْقِعُ ﴿ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾، لِأَنَّ ﴿ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ يُحْرِزُ وَيُعْطِي إِبَاحَةَ الْأَكْلِ مِنْ ثَمَرِ كُلِّ مَوْضِعٍ فِيهَا، أَمَا (حَيْثُ) إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهَا (مِنْ) فَإِنَّهَا تُعْطِي بِأُظْهَرِ الْإِحْتِمَالَيْنِ إِبَاحَةَ الْأَكْلِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ¹.

جاء التعبير في الآيتين مناسبا لبعضه لبعض، يتناسق ويتناسب مع السياق الوارد فيه، فكان التعبير بلفظ ﴿ رَعْدًا ﴾ من أجل بيان مجموع ما أخبر به النبي ﷺ، فأضيف إلى سابقه، ليحصل معنى التوسعة في التمتع بما في الجنة من مأكول، أما قوله: ﴿ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾، فجاء لإباحة ما في أماكنها، على اتساع المساحة المتمتع بها وكثرة المأكول فيها، فقد أبيح له عليه السلام الأكل من كل ما في مواضعها.

وتصور الآيتان مشاهد النعيم، والعيش الرغد الذي أبيح لآدم وزوجه في الجنة، ينتعمان بهوائها وريحها ورياحينها، بأشجارها وظلالها وأنهارها، تكريما وإحسانا من الله عز وجل لآدم وزوجه ﷺ.

وفي هذه الأثناء عهد الله عز وجل لعبده ونبيه آدم ﷺ عهدا ما فتى أن نسيه، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنْسِيهِ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: 115]،

¹ - ملاك التأويل، الغرناطي، (ص: 188 — 189).

وكان عهد الله إليه بتحذيره من إبليس وكيده، وعداوته له، فقال له: ﴿ يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه: 117]، فبين له الله عز وجل أن غاية إبليس أن يخرج من دار السعادة والراحة المطلقة إلى دار العناء والشقاء، فإذا أخرجك منها فستدوق الشقاء من جهاته الأربع، ستجوع وتعري، وستظماً وتضحى، على خلاف ما أنت عليه في الجنة، فإن ربك قد تكفل لك فيها بـ ﴿ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ [طه: 118] - [119].

أباح الله لآدم عليه السلام وزوجه الجنة وما فيها، وابتلاه بشجرة معينة نهاه أن يقربها وزوجه، فقال: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 35]. ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: 19].

وقد اختلف المفسرون في تعيين نوع الشجرة المنهي عنها، قال ابن كثير: " قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَمَاءُ أَبُو جَعْفَرِ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ نَهَى آدَمَ وَزَوْجَتَهُ عَنِ أَكْلِ شَجَرَةٍ بَعَيْنِهَا مِنْ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، دُونَ سَائِرِ أَشْجَارِهَا، فَأَكَلَا مِنْهَا، وَلَا عِلْمَ عِنْدَنَا بِأَيِّ شَجَرَةٍ كَانَتْ عَلَى التَّعْيِينِ؟ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ لِعِبَادِهِ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ. وَقَدْ قِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةَ الْبُرِّ. وَقِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةَ الْعِنَبِ. وَقِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةَ التِّينِ. وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْهَا، وَذَلِكَ عِلْمٌ إِذَا عِلْمٌ لَمْ يَنْفَعِ الْعَالَمَ بِهِ عِلْمُهُ، وَإِنْ جَهْلُهُ جَاهِلٌ لَمْ يَضُرَّهُ جَهْلُهُ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَذَلِكَ رَجَّحَهُ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَغَيْرُهُ، وَهُوَ الصَّوَابُ " ¹.

وقد بين أهل التحقيق من أهل التفسير: " أَنَّ اخْتِلَافَ الْعُلَمَاءِ فِي تَعْيِينِ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ آدَمَ عَنِ الْأَكْلِ مِنْهَا اخْتِلَافٌ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، لِعَدَمِ الدَّلِيلِ عَلَى تَعْيِينِهَا، وَعَدَمِ الْفَائِدَةِ فِي مَعْرِفَةِ عَيْنِهَا. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: هِيَ السُّبُّلَةُ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: هِيَ شَجَرَةُ الْكُرْمِ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: هِيَ شَجَرَةُ التِّينِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ

211

¹ - تفسير ابن كثير، (1/235).

² - أضواء البيان، الشنقيطي، (4/112).

المفصل الثاني: وسوسة إبليس لآدم عليه السلام

1 – قال الله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة: 36].

2 – وقال الله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [الأعراف: 20 – 22].

3 – وقال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طه: 120 – 121].

سبق الحديث عن العلاقة بين آيات سورة البقرة وآيات سورة الأعراف، فما أُجْمِلَ في سورة البقرة، بَيَّنَّ وَفَسَّرَ في سورة الأعراف، فقوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾، بَيَّنَّهُ وَفَسَّرَهُ قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾، ثم لما تمكن اللعين منهما بوسوسته، وتيقن من سماعهما لكلامه، قال لهما: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾.

يتحرك هذا المفصل من المشهد عبر ثلاثة أجزاء مهمة، شكلها ما تشابه من لفظ في الآيات الثلاث:

• أولاً: ذكر الفرق بين قوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ﴾، وقوله: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ﴾.

• ثانياً: ذكر الفرق بين قوله: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾، وقوله: ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾. وهل كانت الوسوسة هي القول؟ أم أن القول جاء بعد الوسوسة؟

- ثالثا: ذكر الفرق بين آية سورة الأعراف التي ذكرت وسوسة إبليس للزوجين، وآية سورة طه التي ذكرت الوسوسة لآدم وحده، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾.

لم يشر العلماء الذين درسوا المتشابهات اللفظية في القرآن الكريم إلى هذه الجزئيات، على الرغم من أن لها أثرا بليغا في بناء تصور الأحداث المهمة في هذه القصة تصورا صحيحا.

قال تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾، فقد " اختلف القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة لهم: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ﴾، بتشديد اللام، بمعنى: (استزلهما)، من قولك: (زل) الرجل في دينه: إذا هفا فيه، وأخطأ، فأتى ما ليس له إثباته فيه، و(أزله) غيره: إذا سبب له ما يزل من أجله في دينه أو دنياه. ولذلك أضاف الله تعالى ذكره إلى إبليس خروج آدم وزوجته من الجنة فقال: ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا ﴾، يعني إبليس، ﴿ مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾، لأنه كان الذي سبب لهما الخطيئة التي عاقبهما الله عليها بإخراجهما من الجنة. وقرأه آخرون: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ﴾، بمعنى (إزالة) الشيء عن الشيء، وذلك تنحيته عنه "1.

وعلى كلتا القراءتين تشكلت صورة أثر الفعل من معنى الآية، فكان إبليس سببا في زلل آدم وزوجه عليهما السلام، وهو من أزلهما بوسوسته وتزيين الفعل لهما، وأزالهما عن السكن الذي أسكنهما ربهما إياه.

و(الوسوسة): " حديث النفس، والوسواس: الصوت الخفي من ريح تهز قصبًا ونحوه، وبه يشبهه صوت الخلي ... وتقول: وسوس إلي، وسوس في صدري، وفلان وسوس: أي: غلبت عليه الوسوسة، والوسواس: اسم الشيطان "2.

¹ - تفسير الطبري، (524/1).

² - كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، (335/7).

قال أبو هلال العسكري: " وَأَصْلُ الْوَسْوَسةِ: الصَّوْتُ الْخَفِيُّ، وَمِنْهُ يُقَالُ لَصَوْتِ الْخَلِيِّ: وَسْوَاسٌ، وَكُلُّ صَوْتٍ لَا يُفْهَمُ تَفْصِيلُهُ لِحَفَائِهِ وَسْوَسةٌ، وَسْوَاسٌ، وَكَذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي النَّفْسِ خَفِيًّا "1.

والوسوسة هي فعل إبليس الذي يتسلط به على قلوب بني آدم كما فعل مع أبيهم، قال مقاتل: " وَسْوَسةٌ: هُوَ الدُّعَاءُ لِطَاعَتِهِ بِكَلَامٍ خَفِيٍّ، يَصِلُ مَفْهُومُهُ إِلَى الْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ سَمَاعِ صَوْتٍ "2. وقد بينت السنة الصحيحة أن: « الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ »3، فلا تعلم كيفية ذلك، ولا طريقته في الوصول إلى قلب الإنسان وعقله، إلا من خلال ما يلقي فيهما من وساوسه، وقد وصف الله عز وجل بعض هذه الوسواس التي يتعامل بها الشيطان مع الإنسان، فقال: ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 200 – 201]، وقال أيضا: ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ [الناس: 4 – 5].

مما تقدم يمكن تقريب صورة وسوسة الشيطان لآدم وزوجه عليهما السلام، وذلك بتتبع كل حرف له أثره في توضيح الصورة وتشكيل المشهد بدقة، فقوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾، هذا قول جاء بعده قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا ﴾، فتعقبه بـ(الواو) الدالة على الجمع دون ترتيب، على خلاف قوله في سورة طه: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ ﴾، فوقعت جملة: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ ﴾، وهي " بَيَانٌ لِجُمْلَةٍ: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾، وَهَذِهِ الْآيَةُ مِثَالٌ لِلْجُمْلَةِ الْمُبَيِّنَةِ لغيرها فِي عِلْمِ الْمَعَانِي، وَهَذَا الْقَوْلُ خَاطِرٌ أَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِ آدَمَ بِطَرِيقِ الْوَسْوَسةِ، وَهِيَ الْكَلَامُ الْخَفِيُّ، إِنَّمَا بِالْفَاظِ نَطَقَ بِهَا الشَّيْطَانُ سِرًّا لِآدَمَ لِنَلَا يَطَّلِعَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ فَيَحْذَرُوا آدَمَ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ، فَيَكُونُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَيْهِ حَقِيقَةً؛ وَإِنَّمَا بِمَجَرَّدِ تَوَجُّهِ أَرَادَهُ الشَّيْطَانُ كَمَا يُوسْوِسُ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا، فَيَكُونُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَيْهِ مَجَازًا بِاعْتِبَارِ الْمُشَابَهَةِ "4.

1- الفروق اللغوية، الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة التاسعة، سنة الطبع: 1991م، ص(67).

2- تفسير القرطبي، (263/20).

3- تقدم تخريجه.

4- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (195/16).

فاختلف المحكي في سورة الأعراف عن المحكي في سورة طه، فكما تقرر سابقا أن ما جاء في سورة الأعراف فيه زيادة تفصيل وبيان عما جاء في ما سواه من السور، فكانت الوسوسة أولا، ثم كان بعدها حديث لهما يسمعهان جميعا، فبعدهما قال لهما: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ أكمل إغواءه لهما، و﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (21) فدلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴿، ويفهم من عطف جملة: ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا ﴾ على جملة: ﴿ فَوَسْوَسَ ﴾، أنه إشعار " بِأَنَّ أَدَمَ وَزَوْجَهُ تَرَدَّدَا فِي الْأَخْذِ بِوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ فَأَخَذَ الشَّيْطَانُ يُرَاوِدُهُمَا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمْ يَعْطِفْ قَوْلَهُ، فِي سُورَةِ طه: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا أَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ أَخْضَدُ وَمِنْهَا لَا يَبْلَى ﴾. فَإِنَّ ذَلِكَ حِكَايَةٌ لِابْتِدَاءِ وَسْوَسَتِهِ، فَابْتِدَاءُ الْوَسْوَسَةِ بِالْإِجْمَالِ، فَلَمْ يُعَيِّنْ لِأَدَمَ الشَّجَرَةَ الْمُنْهَيَّ عَنْ الْأَكْلِ مِنْهَا اسْتِنزَالًا لِطَاعَتِهِ، وَاسْتِنزَالًا لِقَدَمِهِ، ثُمَّ أَخَذَ فِي تَأْوِيلِ نَهْيِ اللَّهِ إِيَّاهُمَا عَنْ الْأَكْلِ مِنْهَا، فَقَالَ مَا حُكِيَ عَنْهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ الآية، فَأَشَارَ إِلَى الشَّجَرَةِ بَعْدَ أَنْ صَارَتْ مَعْرُوفَةً لهُمَا زِيَادَةً فِي إِغْرَائِهِمَا بِالْمَعْصِيَةِ بِالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ، فَقَدْ وَرَعَتْ الْوَسْوَسَةُ وَتَذْيِيلُهَا عَلَى الصُّورَتَيْنِ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ فِي الْإِخْتِصَارِ فِي سَوْقِ الْقِصَصِ إِكْتِفَاءً بِالْمَقْصُودِ مِنْ مَعْرِى الْقِصَّةِ لِنَلَا يَصِيرَ الْقِصَصُ مَقْصِدًا أَصْلِيًّا لِلتَّنْزِيلِ "1.

ثم إن تعدية الوسوسة في سورة الأعراف بـ (لهُمَا) في قوله: ﴿ فَوَسْوَسَ لهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾، وبـ (إِلَى) في قوله في طه: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾، فإن المفسرين جعلوا ذلك من باب " أَنَّ حُرُوفَ الْجَرِّ يَخْلُفُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَ (اللَّامُ) تَأْتِي بِمَعْنَى (إِلَى) كَعَكْسِ ذَلِكَ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ فِي صِحَاحِهِ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ يُرِيدُ إِلَيْهِمَا²، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ تَوَصَّلَ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ كُلِّهَا الْفِعْلُ ١ هـ. وَتَبِعَهُ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي اللِّسَانِ "3.

لكن استعمال الحرفين في الموضعين، كل حرف في موضعه له أثره في تبين المعنى بدقة أكثر، ذلك أن: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ﴾، فحرف الجر (إلى) يدل على انتهاء الوسوسة إلى آدم، قال الزمخشري: " وَمَعْنَى (وَسْوَسَ إِلَيْهِ) أَنَّهُى إِلَيْهِ الْوَسْوَسَةَ

1- التحرير والتنوير، المصدر السابق، (45/8 - 46).

2- كذا وقعت في الأضواء، وقول الجوهري في الصحاح: " ﴿ فَوَسْوَسَ لهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ يريد إليهما "، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، مادة (وسوس).

3- أضواء البيان، (111/4).

1، على خلاف قوله: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾، " وَمَعْنَى وَسْوَسَ لَهُ: فَعَلَ الْوَسْوَسَةَ لِأَجْلِهِ، وَوَسْوَسَ إِلَيْهِ: أَلْقَاهَا إِلَيْهِ "2، وقال ابن عادل: " وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: عُدِّي (وَسْوَسَ) بِـ (إِلَى) لِأَنَّهُ بِمَعْنَى أَسْرَى، وَعَدَّاهُ فِي مَوْضِعِ آخِرِ بِـ (اللَّامِ)، لِكُونِهِ بِمَعْنَى: ذَكَرَ لَهُ، أَوْ تَكُونُ بِمَعْنَى: لِأَجْلِهِ "3.

بهذا التفصيل يتبين أن قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ﴾، أي فعل الوسوسة لأجلهما، بأن ألقاها في قلوبهما، وبعدها ذكر لهما أنه ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾، وقد بين الله تعالى في سورة طه أن الشيطان أغراهما بأن يأكلا من ﴿ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمَلِكِ لَا يَبْلَى ﴾، وهو قوله في سورة الأعراف: ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾، والمعنى: " مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ أَنْ تَأْكُلَا مِنْهَا إِلَّا لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: اتِّقَاءِ أَنْ تَكُونَا بِالْأَكْلِ مِنْهَا مَلَكَيْنِ، أَيْ كَالْمَلَكَيْنِ فِيمَا أُوتِيَ الْمَلَائِكَةُ مِنَ الْخَصَائِصِ، كَالْقُوَّةِ، وَطُولِ الْبَقَاءِ، وَعَدَمِ التَّأَثُّرِ بِفَوَاعِلِ الْكُونِ الْمُؤَلِّمَةِ وَالْمُنْعِبَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ... أَوْ اتِّقَاءِ أَنْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ فِي الْجَنَّةِ، أَوْ الَّذِينَ لَا يَمُوتُونَ أَبْتَةً. وَأَوْهَمَهُمَا أَنَّ الْأَكْلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ يُعْطِي الْأَكْلَ صِفَةَ الْمَلَائِكَةِ وَغَرَائِزَهُمْ، وَيَقْتَضِي الْخُلُودَ فِي الْحَيَاةِ "4.

ثم " خَلَصَ إِلَيْهِمَا حَتَّى بَاشَرَهُمَا بِالْكَلامِ، وَشَافَهُمَا بِالْخِطَابِ "5، و﴿ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾، أي: " حَلَفَ لَهُمَا بِمَا يُوهِمُ صِدْقَهُ ... وَتَأَكِيدُ إِخْبَارِهِ عَنْ نَفْسِهِ بِالنُّصْحِ لَهُمَا بِثَلَاثِ مُؤَكِّدَاتٍ دَلِيلٌ عَلَى مَبْلَغِ شَكِّ آدَمَ وَرُوجِهِ فِي نُصْحِهِ لَهُمَا، وَمَا رَأَى عَلَيْهِمَا مِنْ مَخَائِلِ التَّرَدُّدِ فِي صِدْقِهِ، وَإِنَّمَا شَكَّ فِي نُصْحِهِ لِأَنَّهُمَا وَجَدَا مَا يَأْمُرُهُمَا مُخَالَفًا لِمَا أَمَرَهُمَا اللَّهُ الَّذِي يَعْلَمَانِ إِرَادَتَهُ بِهِمَا الْخَيْرَ عِلْمًا حَاصِلًا بِالْفِطْرَةِ "6.

شكل هذا التعبير: ﴿ قَاسَمَهُمَا ﴾، صورة إصرار إبليس وتأكيده عليهما حتى يوقع بهما في ما أراده لهما، و" ادَّعَى اللَّعِينُ أَنَّهُ نَاصِحٌ لَهُمَا فِيمَا رَغَبَهُمَا فِيهِ مِنْ

1- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1407 هـ، (93/3).

2- الكشاف، المصدر السابق، (94/2).

3- تفسير اللباب، ابن عادل، (407/1).

4- تفسير المنار، رشيد رضا، (309/8 - 310).

5- ينظر: النكت والعيون، (107/1).

6- التحرير والتنوير، (47/8).

الأكل من الشجرة، ولما كان محل الظنة في نصحه عندهما؛ لأنه تعالى أخبرهما بأنه عدو لهما، أكد دعواه بأشد المؤكدات وأغلظها، وهي القسم وإن واللام¹.

جاء تعليل وسوسة إبليس لآدم وزوجه عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمِهِمَا﴾، ليبين أن الغرض من ذلك أن يظهر لهما ما واره الله عنهما من سواتهما، فيقال: " وارى الشيء: إذا غطاه وستره، وورى الشيء غطي وستر"².

وأما السوءة فهي كل " ما يسوء الإنسان من أمر شائن وعمل قبيح. والسوءة السواء: الخلة القبيحة، والمرأة المخالفة ... وإذا أضيفت السوءة إلى الإنسان أريد بها عورته الفاحشة؛ لأنه يسوءه ظهورها بمقتضى الحياء الفطري ما لم يفسده بتعود إظهارها مع آخرين، فيرتفع الحياء بينهم، وجمعت هنا على القاعدة في إضافة المثنى إلى ضميره "³.

اختلف العلماء في تحديد الطريقة التي تمت بها الوسوسة، وهل كان لإبليس أن يدخل الجنة بعد إخراجه منها حتى يتمكن من مشافهة آدم وزوجه؟ وحكوا في ذلك قصصا لا مستند لهم فيها إلا ما روي عن بني إسرائيل.

وقد رد الشنقيطي على هذه المسألة بقوله: " واعلم أن في وسوسة الشيطان إلى آدم إشكالا معروفا، وهو أن يقال: إبليس قد أخرج من الجنة صاعرا مذموما مذخورا، فكيف أمكنه الرجوع إلى الجنة حتى وسوس لآدم؟ والمفسرون يذكرون في ذلك قصة الحيّة، وأنه دخل فيها فأدخلته الجنة، والملائكة الموكلون بها لا يشعرون بذلك. وكل ذلك من الأسرانيات. والواقع أنه لا إشكال في ذلك، لإمكان أن يقف إبليس خارج الجنة قريبا من طرفها بحيث يسمع آدم كلامه وهو في الجنة، وإمكان أن يدخله الله إياها لامتحان آدم وزوجه، لا لكرامة إبليس. فلا محال عقلا في شيء من ذلك. والقرآن قد جاء بأن إبليس كلم آدم، وحلف له حتى غره وزوجه بذلك"⁴.

تبين بعد محاورتنا للنصوص وألفاظها انجلاء صورة هذا المفصل من المشهد، وأن لا مانع من دخول إبليس الجنة بعد طرده منها، وأن ما جاء في آيات

1- تفسير المنار، (8/ 310).

2- المصدر نفسه، (8/ 309).

3- المصدر نفسه.

4- أضواء البيان، الشنقيطي، (4/ 110 - 111).

سورة الأعراف كان مفصلاً بدقة عجيبة، ومبيناً لما أجمل ذكره في باقي الآيات الواردة في القصة.

المفصل الثالث: عصيان آدم عليه السلام وتوبته الله عز وجل عليه

1 – قال الله تعالى: ﴿ فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (36) فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 36 – 38].

2 – وقال تعالى: ﴿ فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: 22 – 25].

3 - وقال تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: 121 – 123].

استمع آدم وزوجه عليهما السلام لإغراء إبليس، ﴿ فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾، أي: " خَدَعَهُمَا، يُقَالُ: مَا زَالَ فُلَانٌ يُدَلِّي لِفُلَانٍ بِغُرُورٍ، يَعْنِي: مَا زَالَ يَخْدَعُهُ، وَيَكَلِّمُهُ بِزُخْرَفٍ بَاطِلٍ مِنَ الْقَوْلِ. وَقِيلَ: حَطَّهْمَا مِنْ مَنْزِلَةِ الطَّاعَةِ إِلَىٰ حَالَةِ الْمَعْصِيَةِ، وَلَا يَكُونُ التَّدَلِّي إِلَّا مِنْ عُلُوٍّ إِلَىٰ أَسْفَلٍ، وَالتَّدَلِّيَةُ: إِرسَالُ الدَّلْوِ فِي البِنْرِ، يُقَالُ: تَدَلَّى بِنَفْسِهِ وَدَلَّى غَيْرَهُ، قَالَ الأَزْهَرِيُّ: أَصْلُهُ: تَدَلِّيَةُ الْعَطْشَانِ البِنْرَ لِيَرَوْى مِنَ المَاءِ وَلَا يَجِدُ المَاءَ، فَيَكُونُ مُدَلَّى بِغُرُورٍ، وَالعُرُورُ: إِظْهَارُ النُّصْحِ مَعَ إِبْطَانِ العِشِّ "1.

تنجلي صورة مشهد نفسي دقيق تلوح معالمه من خلال وظيفة التصوير والتشكيل التي يؤديها اللفظ في قوله تعالى: ﴿ فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾، فكان من حالهما

1- معالم التنزيل، البغوي، (3/ 220).

حين استمعا إلى عدوهما كحال العطشان الذي رام الماء ليروى فلم يجد شيئا، فوصف الله عز وجل، آثار فعل إبليس على نفسيتهما قبل أن يقع ذلك عليهما.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾، وقال في طه: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾، وبين التعبيرين فرق ظاهر في اللفظ، خفي في المعنى والاستعمال، إذ أنه لم يُشَرَّ إليه عند علماء المتشابه، ولم أجد فيما بين يدي من المفسرين من تطرق إليه.

فقوله (ذَاقَا) أي: " اختبر طعمه، وأصله فيما يقلُّ تناوله، فإنَّ ما يكثُر من ذلك يُقال له: الأكلُ "1، فتبين أن الاستعمال الأول وهو المفصل في سورة الأعراف يفهم منه أنهما تناولوا ما قل، بخلاف الاستعمال الثاني، فيفهم منه الأكل على حقيقة معناه المتعارف عليه، فأى وجه قصد بذلك ؟

جاء التعبير في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾، ليقرب صورة مفصلة لحجم الشجرة من جهة، ولوفرة فاكحتها من جهة أخرى، وقد تقدم وصف تفاصيل الفضاء المكاني الذي وقعت فيه هذه الأحداث، وأن الله تعالى قد وصف فاكهة الجنة في قوله: ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: 32 – 33]، فلما كانا أمام هذا الشجر الساحق الوافر، وصف أكلهما بالتذوق، فمهما أكلتا منها فيعد أكلهما أقل القليل، لذلك عبر عنه بـ (ذَاقَا)، لأن الفعل (ذَاقَا) في آية الأعراف وقع على مفعوله (الشَّجَرَةَ)، دون حرف الجر (مِنْ) التبعية، ولا يصلح مكانه (فَأَكَلَا)، فمهما أكلتا منها فهو قليل بالمقارنة مع كثرة ما فيها من ثمر، لذلك ناسبه (ذَاقَا)، ولما أراد أن يعبر بـ (أَكَلَا)، الذي يدل على الكثرة، استعمل (مِنْهَا)، ليبين أنهما أكلتا بعض ثمارها، فتناسب (ذَاقَا) مع (الشَّجَرَةَ)، و(أَكَلَا) مع (مِنْهَا)، ولا يصلح أحدهما مكان الآخر، والله أعلم بمراده.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا ﴾، " دلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ بُدُوَّ سَوَاتِهِمَا حَصَلَ عِنْدَ أَوَّلِ إِدْرَاكِ طَعْمِ الشَّجَرَةِ، دَلَالَةً عَلَى سُرْعَةِ تَرْتَبِ الْأَمْرِ الْمَحْدُورِ عِنْدَ أَوَّلِ الْمُخَالَفَةِ، فَزَادَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى آيَةِ الْبَقَرَةِ "2.

وقد اختلف العلماء في مسألة الساتر الذي كان يستر عورتها، وتعددت أقوالهم فيه دون برهان من قرآن، ولا دليل من سنة صحيحة، قال الشنقيطي: " وَاعْلَمْ أَنَّ السِّتْرَ الَّذِي كَانَ عَلَى آدَمَ وَحَوَاءَ، وَانْكَشَفَ عَنْهُمَا لَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ اِخْتَلَفَ

1- تاج العروس، مرتضى الزبيدي، مادة (ذوق)، (326 / 25).

2- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (48 / 8).

العلماء في تعيينه، فقالت جماعة من أهل العلم: كان عليهما لباس من جنس الظفر، فلما أكلا من الشجرة أزاله الله عنهما إلا ما أبقى على رءوس الأصابع. وقال بعض أهل العلم: كان لباسهما نورًا يستر الله به سوءاتهما، وقيل: لباس من ياقوت، إلى غير ذلك من الأقوال. وهو من الاختلاف الذي لا طائل تحته، ولا دليل على الواقع فيه كما قدمنا كثيرًا من أمثلة ذلك في سورة الكهف. وغاية ما دل عليه القرآن: أنهما كان عليهما لباس يسترهما الله به، فلما أكلا من الشجرة نزع عنهما، فبدت لهما سوءاتهما¹.

قال تعالى: ﴿ **بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾² أي: شرعًا يلزقان عليهما من ورق الجنة بعضه ببعض، ليسترا به عورتاهما². هذا شرح وتفسير لبعض الألفاظ الغريبة من آيات القصة، وأما ما تبقى منها فيفسر بعضه بعضًا، كقوله تعالى: ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (36) فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: 36 – 37]. وقوله تعالى: ﴿ **وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** ﴾ [طه: 121–122]، يفسره ما قصه الله تعالى علينا في سورة الأعراف في قوله: ﴿ **فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** ﴾ [الأعراف: 22 – 25].

فقوله عز وجل: ﴿ **وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** ﴾، وقوله: ﴿ **فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾، فكانت الكلمات التي تلقاها آدم وزوجه عليهما السلام من ربهما، وعلمهما إياها، هي قوله تعالى: ﴿ **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾.

¹ - أضواء البيان، الشنقيطي، (4 / 114).

² - المصدر نفسه.

تقبل الله عز وجل توبة عبديه التائبين، ورجع إبليس خائبا خاسرا، لم ينل ما كان يرجوه من وسوسته، التي قصد بها أن يتشارك معهما جميعا في معصية الله عز وجل، وبسببها سيطرده آدم عليه السلام من الجنة كما طرد هو، ولم يدرك اللعين أن الله تبارك وتعالى ما خلق آدم عليه السلام إلا ليكون خليفة في الأرض، كتب الله ذلك في اللوح المحفوظ منذ الأزل، وكتبه في كتبه المنزلة على رسله، كما قال رسول الله ﷺ:

« **احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته، وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجيا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاما. قال آدم: فهل وجدت فيها ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ [طه: 121]، قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملا كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة. قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى »¹.**

أمر الله آدم وزوجه بالهبوط، فقال: **﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ (36) فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم (37) قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: 36 - 38]. وقال تعالى: **﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (23) قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ (24) قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ [الأعراف: 23 - 25]. وقال أيضا: **﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى (122) قال اهبطا منها جميعا لبعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ [طه: 122 - 123].******

قال الغرناطي: " ويسأل عن أي شيء لم ترد هذه الزيادة في قوله في البقرة: **﴿قلنا اهبطوا منها جميعا﴾**؟ والجواب عن ذلك، أنه لم يرد ذلك هنا، إكتفاء بما في الآية قبلها، وهو قوله: **﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾**، فلو قيل: ذلك في

¹ - حديث صحيح، رواه مسلم، حديث رقم (6914).

الآية بعدها مع الإتصال والتقارب لكان تكراراً لا يحرز فائدة لم تحصل، بخلاف ما في سورة الأعراف وسورة طه¹.

وقال الكرمانى: " قوله: ﴿ اهبطوا منها ﴾ [البقرة: 38]، كرر الأمر بالهبوط، لأن الأول من الجنة، والثاني من السماء"².

إن طريقة سرد أحداث القصة تقضي بأن الهبوط الذي ورد في الآيات المتشابهات هو هبوطان، الأول من الجنة إلى السماء دون تحديد أي سماء، فهي سبع، والثاني من السماء إلى الأرض، وقد اختلف العلماء في هذا، فمنهم من أثبتة ومنهم من حكا غيره، لكن الذي عليه التحقيق هو القول الأول.

حين عصا آدم وزوجه عليهما السلام ربهما وأكلا من الشجرة استوجب ذلك الخروج من الجنة، قال تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهبطوا بعضكم لبعض عدوً ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين ﴾، فأمرهما بالهبوط كان خروجاً من الجنة، وهبوطاً إلى السماء، دون تحديدها، مع الجزم بأن الجنة في السماء السابعة كما مر في ذكر صفتها، فأخراجهما كان من الجنة، ولم يكن من السماء، حالهما في الخروج كحال خروج إبليس، فلم يؤمر بالهبوط إلى الأرض بل بقي في السماء، وكذلك الحال هنا، ومما يؤيد هذا تعقيب الآية بالآية التي جاءت بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾، فثبتت توبته في السماء بعد حكاية خروجه، وأمره بالهبوط، فما كان ليتوب بعد هبوطه إلى الأرض، ويتأكد هذا بما ورد في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهبطوا بعضكم لبعض عدوً ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين ﴾ [الأعراف: 23 - 24]. فبعدما تلقى آدم ﷺ من ربه كلمات التوبة، وتاب الله عليه، أمره بالهبوط إلى الأرض، وهذا ما تكرر ذكره في آيات سورة البقرة، حين أعاد الأمر بالهبوط في قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة: 38].

فكان الأمر الأول أمر هبوط من الجنة إلى السماء التي كانت فيها توبتهما، والأمر الثاني أمر هبوط إلى الأرض بعد التوبة، ومن قبيله قوله تعالى في سورة

¹ - ملاك التاويل، الغرناطي، (ص 190).

² - أسرار التكرار في القرآن، الكرمانى، (ص 26).

طه: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: 122 – 123].

ومهما تشابهت هذه الآية في سورة طه، في قوله: ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾، مع الهبوط الأول المذكور في سورة البقرة في قوله: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ ﴾، فإن الذي ورد في طه قد جمع اللفظ الوارد في الموضعين، ففي الموضع الأول ذكر: ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾، مع ما في البقرة، وفي الموضع الثاني: ﴿ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ مع قوله في البقرة: ﴿ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، فكان ما ورد في سورة طه جمعا بين الهبوطين في صيغة واحدة لما اقتضاه سياق الإجمال فيها، فقد سارت أحداث القصة فيها مجملة على نسق واحد.

وقد اختلفت العبارات في تحديد من خوطب في الآيات بين التثنية والجمع، قال ابن عادل: " قوله: ﴿ اهْبِطَا ﴾ إما أن يكون خطاباً مع شخصين أو أكثر؟ فإن كان خطاباً مع شخصين، فكيف قال بعده: ﴿ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ وهو خطاب الجمع؟ وإن كان خطاباً مع شخصين، فكيف قال: ﴿ اهْبِطَا ﴾؟ وأجاب أبو مسلك: بأن الخطاب لآدم ومعه ذريته، ولإبليس ومعه ذريته، ولكونهما جنسين صح قوله: ﴿ اهْبِطَا ﴾، ولأجل اشتغال كل من الجنسين على الكثرة صح قوله: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾. وقال الزمخشري: لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصل البشر اللذين منهما تفرغوا أنفسهما، فخوطبا مخاطبتهم، فقيل: ﴿ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ على لفظ الجماعة. ومن قال: بأن أقل الجمع اثنان، أو بأنه يعبر عن الإثنين بلفظ الجمع، كقوله: ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحریم: 4] فلا يحتاج إلى التأويل¹.

وإتماما لكشف مواطن الجمال المكنون في تعابير آيات هذه القصة، نتوقف عند تنوع التعبير في قوله: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ [البقرة: 38]. وقوله: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ [طه: 123]، وأن ورود " (تَبِعَ) وَ (اتَّبَعَ) يتعلق بما في الكلمتين من تصوير للمعنى الحاصل فيهما، فكان التعبير بالفعل (تَبِعَ) هو الأصل، ثم جاء التعبير بما زيد عليه في الفعل الثاني (اتَّبَعَ)، ومن المؤكد أن بنية الفعل لها دورها

¹ - اللباب، ابن عادل الحنبلي، (413/1).

في أداء وظيفة تصوير المعاني وتشكلها، " فَإِنَّ هَذِهِ الْبُنْيَةَ أَعْنِي بِنْيَةَ إِفْتَعَلَ، تُنْبِئُ عَنِ تَعْمَلٍ وَتَحْمِيلٍ لِلنَّفْسِ، فَقَدَّمَ مَا لَا تَعْمَلُ فِيهِ، وَأَخَّرَ (اتَّبَعَ) لِمَا يَقْتَضِيهِ مِنَ الزِّيَادَةِ، وَلَمْ تَكُنْ إِحْدَى الْعِبَارَتَيْنِ لِتُعْطِيَ الْمَجْمُوعَ، فَقَدَّمَ مَا هُوَ أَصْلٌ، وَأَخَّرَ مَا هُوَ فَرْعٌ عَنِ الْأَوَّلِ، وَكِلَاهُمَا هُدَى وَرَحْمَةٌ "1.

يتبين من خلال بنية الفعل الثاني (اتَّبَعَ) فيه زيادة في معنى الفعل الأصلي، وأنه " مَزِيدٌ مُنْبِئٌ عَنِ التَّعْمَلِ وَالْعِلَاجِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَلَا يُفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ (تَبِعَ) الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ، وَإِنَّمَا يُنْبِئُ فِي الْأَظْهَرِ عَنِ قَضِيَّةٍ يَتَلَوُّ فِيهَا التَّابِعُ الْمَتَّبِعُ مَتَّقِيًّا بِهِ فِي فِعْلِهِ، مِنْ غَيْرِ كَبِيرٍ تَعْمَلٍ وَلَا عِلَاجٍ "2.

وقد جاءت المعاني في آيات سورة البقرة متناسبة مع ما جاء من صيغ هذا الفعل بحسب سياقاتها الواردة فيها، فلما تقدم في قوله تعالى في آية سورة البقرة قوله تعالى: " ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة: 35]، إلى قوله: ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ﴾، ولم يرد فيها مما كان من إبليس سوى ما أخبر به تعالى عنه من قوله: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ [البقرة: 36]، من غير تعرضٍ لكيفية تناوله ما فعل، ولا إبداءٍ علة، ولا كبيرٍ معالجة، ناسب هذا: (تَبِعَ)، ولما ورد في آية طه ذكر الكيفية في إغوائه بقوله له: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ [طه: 120]، وقد حصل في هذا الإشارة إلى ما بسط من قوله في الأعراف: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف: 20]، وقسمه على ذلك، فكان هذا كله قد تحصل مذکوراً في آية طه بما تضمنته من الإشارة إليه، فأفهمت الآية قوة كيد اللعين، واستحكام حيلته، حتى اختنك الكثير من ذريته، وحملهم على عبادة الطواغيت، وتلقّت النفوس المتعاقبة ذلك منه بقبول، فصارت تمييز الحق لا يحصل إلا بمعالجة وتعمّل، فناسبه: ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ ﴾، كما ناسب ما تقدم في آية البقرة ﴿ فَمَنْ تَبِعَ ﴾، من حيث لم يبسط فيها من كيد اللعين ما بسط في آية طه، فورد كلٌّ على ما يناسب، معنى، ونظماً، وإيجازاً، وإطالةً بإطالةً "3.

تنتهي قصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم عند هذا الحد من الآيات، فلا توجد نصوص أخرى تبين تفاصيل حياته حين أنزل إلى الأرض، إلا ما كان من قصة ابنه

1- ملاك التأويل، الغرناطي، (ص: 190 — 191).

2- المصدر نفسه، (ص 191).

3- ملاك التأويل، الغرناطي، (ص: 193 — 194).

المذكورة في سورة المائدة، وهي ليست مقصودة بالبحث على حسب ما تقتضيه الدراسة.

إِسْدَالُ السِّتَارِ

مَوْتُ نَبِيِّ اللَّهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

تميماً للفائدة في هذه المباحث، أنقل بعض النصوص التي تبين نهاية قصة أبي البشر ﷺ، وأحداث موته، وذلك باستقائها من سنة النبي ﷺ. روى أحمد في المسند، والحاكم في المستدرک، بسند صحيح من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا حَضَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ لِبَنِيهِ: انْطَلِقُوا فَاجْنُوا لِي مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، قَالَ: فَخَرَجَ بَنُوهُ، فَاسْتَقْبَلَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، فَقَالُوا: أَيْنَ تُرِيدُونَ يَا بَنِي آدَمَ؟ قَالُوا: بَعَثْنَا أَبُونَا لِنَجْنِي لَهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، قَالَ: ارْجِعُوا فَقَدْ كُفَيْتُمْ. قَالَ: فَارْجِعُوا مَعَهُمْ حَتَّى دَخَلُوا عَلَى آدَمَ، فَلَمَّا رَأَتْهُمْ حَوَاءُ، دُعِرَتْ مِنْهُمْ، وَجَعَلَتْ تَدْنُو إِلَى آدَمَ، وَتَلْتَصِقُ بِهِ، فَقَالَ لَهَا آدَمُ: إِلَيْكَ عَنِّي، إِلَيْكَ عَنِّي، فَمِنْ قِبَلِكَ أُتَيْتُ، حَلَّ بَيْنِي وَبَيْنَ مَلَائِكَةِ رَبِّي. قَالَ: فَاقْبَضُوا رُوحَهُ، ثُمَّ غَسَلُوهُ، وَحَنَطُوهُ، وَكَفَّنُوهُ، ثُمَّ صَلَّوْا عَلَيْهِ، ثُمَّ حَفَرُوا لَهُ، ثُمَّ دَفَنُوهُ، ثُمَّ قَالُوا: يَا بَنِي آدَمَ، هَذِهِ سُنَّتُكُمْ فِي مَوْتَاكُمْ، فَكَذَّاكُمْ فَأَفْعَلُوا»¹.

وروى الترمذي، وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ، مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مَنْ هُوَ لَاءِ؟ قَالَ: هُوَ لَاءِ ذُرِّيَّتِكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ، فَأَعْجَبَهُ وَبَيْصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَّمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ. فَقَالَ: رَبِّ، كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ زِدَهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً. فَلَمَّا انْقَضَى عُمْرُ آدَمَ، جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوْلَمْ يَبْقَ مِنْ

¹ - حديث صحيح، رواه أحمد موقوفاً عن أبي بن كعب رضي الله عنه، حديث رقم (21278)، رواه الحاكم في المستدرک مرفوعاً، حديث رقم (1275)، وقال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يَخْرُجْ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحِينَ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ النِّسَابُورِيُّ، تَحْقِيقٌ: مُصْطَفَى عَبْدِ الْقَادِرِ عَطَا، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بَيْرُوتَ، لُبْنَانَ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى، سَنَةَ الطَّبْعِ: 1411هـ / 1990م. وقال الهيثمي: " رواه عبد الله بن أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير عتي بن ضمرة وهو ثقة "، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1412هـ / 1992م، (366/8).

عُمري أربعون سنة ؟ قال: أولم تُعْطِها ابنك داود ؟ قال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونسي آدم، فنسيت ذريته، وخطى آدم، فخطنت ذريته»¹.

هذه بعض الكلمات التي حاولت من خلالها الاقتراب من تشكيل صور الأحداث التي وقعت حقا في الزمن الأول من تاريخ البشرية، وقد نقلتها لنا نصوص القرآن الكريم، فجعلتنا نتابعها وكأنا ننظر إليها من وراء ستر رقيق، بل كنا أحيانا نراها كراي العين، وبهذا الموقف الأخير ينتهي ما ورد في قصة آدم عليه السلام مما ورد من آيات الذكر الحكيم، تناسقت حروف نصوصها مع كلماتها وجملها، كلها في نظم معجز، كأنه حبات لؤلؤ في عقد بلغ حسنه الجمال من كل وجه، وقد صب عليه الكمال صبا، نظم لم تألفه العرب من قبل في كلامها، ولا عرفته في أساليبها واستعمالاتها، ولن يستطيع أحد من الخلق أبدا أن يأتي بمثله، و﴿ **لَئِن اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا** ﴾ [الإسراء : 88 – 89].

¹ - حديث صحيح، رواه الترمذي، وغيره، حديث رقم (3076)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

كَلَامُ عُلَمَاءِ الْمُتَشَابِهِ
الْلَّفْظِيِّ عَلَى قِصَّةِ آدَمَ

السَّيِّدِ

أَفْصَلُ الشَّالِثُ

كَلَامُ عُلَمَاءِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ
عَلَى قِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

مُخَمَّلُ الْقِصَّةِ:

1 - قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 34 - 38].

2 - وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَعْوَيْتَنِي لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَا تِيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِحِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِحُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: 11 - 25].

3 - وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا

مِنْ صَلَّالٍ مِنْ حَمَا مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَّالٍ مِنْ حَمَا مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿ [الْحَجَرِ: 26 - 42].

4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكِنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِرُ مِنْهُمُ اسْتَفْزِرُ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الْإِسْرَاءِ: 61 - 65].

5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الْكَهْفِ: 50].

6 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيكُمْ مِنْهُ هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: 115 - 123].

7 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (84) لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: 71 - 85].

الْمُشَاهِدُ التَّفْصِيلِيُّ لِقِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

1 - الْمُنْتَهَدُ الْأَوَّلُ: خَلْقُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - خَلْقُ الْإِنْسَانِ -

- 1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 59].
 - 2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 11].
 - 3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [سُورَةُ الْحَجْرِ: 29].
 - 4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السَّجْدَةِ: 7 - 9].
 - 5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازٍ □ ﴾ [الصَّافَاتِ: 11].
 - 6 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرَّحْمَنِ: 14].
- أ - الْمِفْصَلُ الْأَوَّلُ: مَرْحَلَةُ الْخَلْقِ

- 1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 59].
- 2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 11].
- 3 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا ﴾ [الْحَجْرِ: 29].
- 4 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ ﴾ [السَّجْدَةِ: 7].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

****** قال الكرماني في سورة الحجر, (أسرار التكرار في القرآن) (118/1):
قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا ﴾ [الْحَجْرِ: 28], هُنَا وَفِي [ص: 71], وَفِي الْبَقَرَةِ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ ﴾ [الْبَقَرَةِ: 30], وَلَا ثَالِثَ لَهُمَا, لِأَنَّ (جَعَلَ) إِذَا كَانَ بِمَعْنَى (خَلَقَ) يُسْتَعْمَلُ فِي الشَّيْءِ يَتَجَدَّدُ وَيَتَكَرَّرُ, كَقَوْلِهِ: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الْأَنْعَامِ: 1], لِأَنَّهُمَا يَتَجَدَّدَانِ زَمَانًا بَعْدَ زَمَانٍ, وَكَذَلِكَ (الْخَلِيفَةُ) يَدُلُّ لَفْظُهُ عَلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ يَخْلُفُ بَعْضًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ, وَخُصَّتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا ﴾ إِذْ لَيْسَ فِي لَفْظِ (الْبَشَرِ) مَا يَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالتَّكَرُّرِ, فَجَاءَ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ السُّورَتَيْنِ مَا افْتَضَاهُ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَلْفَافِ.

ب - الْمِفْصَلُ الثَّانِي: مَرَحَلَةُ التَّصْوِيرِ وَالتَّسْوِيَةِ

- 1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 11].
- 2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ [السَّجْدَةِ: 9].

مادة الجسد:

- 1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 59].
- 2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ [ص: 72 - 17].
- 3 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ [الصَّافَّاتِ: 11].
- 4 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الْحَجْرِ: 28].
- 5 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرَّحْمَنِ: 14].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

*** قال ابن جماعة في سورة الصافات, (كَشَفُ الْمَعَانِي) (307/1):

مَسْأَلَةٌ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ [الصَّافَاتِ: 11]. وَقَالَ فِي الْحَجِّ: ﴿ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾, وَقَالَ: ﴿ مِنْ صُلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرَّحْمَنِ: 14].

جَوَابُهُ:

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْ تُرَابٍ ﴾, وَ ﴿ مِنْ صُلْصَالٍ ﴾, وَ ﴿ مِنْ طِينٍ ﴾, فَالْمُرَادُ: أَصْلُهُمْ, وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ, لِأَنَّ أَصْلَهُ مِنْ تُرَابٍ, ثُمَّ جَعَلَهُ طِينًا, ثُمَّ جَعَلَهُ صُلْصَالًا كَالْفَخَّارِ, ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾, أَيُّ: أَوْلَادِ آدَمَ, وَذُرِّيَّتُهُ, كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ.

ج - الْمِفْصَلُ الثَّلَاثُ: مَرْحَلَةُ نَفْخِ الرُّوحِ

- 1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ [الْحَجْرِ: 29].
- 2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ [السَّجْدَةِ: 9].
- 3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ [ص: 72].

2 - الْمَشْهَدُ الثَّانِي: الْأَمْرُ بِسُجُودِ الْمَلَائِكَةِ وَعِصْيَانِ إِبْلِيسَ

- 1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البَقَرَةِ: 34].
- 2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأَعْرَافِ: 11].
- 3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الْحَجْرِ: 28 - 31].

- 4 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَاسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الْإِسْرَاءِ: 61].
- 5 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الْكَهْفِ: 50].
- 6 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ [طه: 116].
- 7 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص: 71 – 74].

أ - الْمِفْصَلُ الْأَوَّلُ: لِحَظَةُ تَلَقِّي الْخَبَرِ

- 1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الْحَجَرِ: 28 – 29].
- 2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: 71 – 72].

امتنال الملائكة لأمر الله عز وجل:

- 1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [البقرة: 34].
- 2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [الْإِسْرَاءِ: 61].
- 3 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [الْكَهْفِ: 50].
- 4 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [طه: 116].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

*** قال الكرماني في سورة الحجر، (أَسْرَارُ التَّكْرَارِ فِي الْقُرْآنِ) (1 / 118):
 قوله: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الْحَجْرِ: 30]، فِي هَذِهِ، وَفِي [ص:
 73]، لِأَنَّهُ لَمَّا بَلَغَ فِي السُّورَتَيْنِ فِي الْأَمْرِ بِالسُّجُودِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ فَفَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾
 [الْحَجْرِ: 29]، وَسُورَةِ [ص: 72]، فِي السُّورَتَيْنِ، بَلَغَ فِي الْإِمْتِنَالِ فِيهِمَا، فَقَالَ: ﴿
 فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الْحَجْرِ: 30]، وَسُورَةِ [ص: 73]، لِنَقَعِ الْمُوَافَقَةِ بَيْنَ
 أُولَاهَا وَأَخْرَاهَا.

ب - الْمِفْصَلُ الثَّانِي: لِحِظَةِ وَفُوعِ السُّجُودِ

1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [البقرة: 34]

2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [الأعراف:

.11]

3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ

(29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الْحَجْرِ: 29 - 30].

4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [الإسراء:

.61]

5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [الْكَهْف:

.50]

6 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [طه: 116].

7 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ

(72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [ص: 72 - 73].

ج - الْمِفْصَلُ الثَّلَاثُ: عِصْيَانُ إِبْلِيسَ

1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ

﴾ [البقرة: 34].

2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 11].

3 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الْحَجَرِ: 30 - 31].

4 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الْإِسْرَاءِ: 61].

5 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الْكَهْفِ: 50].

6 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ [طَهَ: 116].

7 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص: 73 - 74].

عصيان إبليس:

1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الْبَقَرَةِ: 34].

2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 11].

3 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الْحَجَرِ: 31].

4 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الْإِسْرَاءِ: 61].

5 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الْكَهْفِ: 50].

6 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ [طَهَ: 116].

7 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص: 74].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

*** قال ابن جماعة في سورة البقرة (كَشَفُ الْمَعَانِي) (92/1):

مَسْأَلَةٌ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ **أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: 34]، فَجَاءَ هُنَا مُجْمَلًا، وَفِي بَقِيَّةِ السُّورِ مُفَصَّلًا ؟
جَوَابُهُ:

لَمَّا تَقَدَّمَ التَّفْصِيلُ فِي السُّورَةِ الْمَكِّيَّةِ أَجْمَلَهُ فِي السُّورَةِ الْمَدَنِيَّةِ، وَهِيَ الْبَقْرَةُ، اِكْتِفَاءً بِمَا تَقَدَّمَ عِلْمُهُ مِنَ التَّفْصِيلِ فِي الْمَكِّيَّاتِ.

3 - الْمَشْهَدُ الثَّلَاثُ: الْحَوَازُ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِبْلِيسَ الْمْتَمَرِّدِ

أ - الْمِفْصَلُ الْأَوَّلُ: كُفْرُ وَاسْتِكْبَارُ

1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)** قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: 12 - 13].

2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32)** قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الحجر: 32 - 35].

3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيٍّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75)** قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [ص: 75 - 78].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

*** قال الإسكافي في سورة الأعراف (دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَعُرَّةُ التَّأْوِيلِ):

الآية الأولى منها (102 - 103) :

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)** قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: 12 - 13]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ: ﴿ **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32)** قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ

مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿ [الْحَجْر: 32 – 34]. وَقَالَ فِي سُورَةِ
ص: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ﴾ [الآيَةِ, [ص: 75], ﴿ قَالَ أَنَا
خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ [الآيَةِ, [ص: 76].
لِلسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ فَيَقُولُ:

إِذَا كَانَ هَذَا فِي قِصَّةِ وَاحِدَةٍ، وَوَقَعَ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَمَّا قَالَ إِبْلِيسُ،
 وَعَمَّا قِيلَ لَهُ عِنْدَمَا يَظْهَرُ مِنْ عِصْيَانِهِ، فَلِمَاذَا اخْتَلَفَتِ الْحِكَايَتَانِ وَالْمَخَيُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ
 ؟

وَالْجَوَابُ: مَا قُلْتُهُ فِيمَا قَبْلَهُ، وَأَقُولُهُ فِيمَا بَعْدَهُ، مِنْ أَنْ افْتِصَاصَ مَا مَضَى إِذَا لَمْ
 يَقْصِدْ بِهِ آدَاءَ الْأَلْفَافِ بِأَعْيَانِهَا، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ ذِكْرُ الْمَعْنَى، فَإِنَّ الْأَلْفَافَ إِذَا اخْتَلَفَتْ
 وَأَدَّتِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودَ كَانَ اخْتِلَافُهَا وَاتِّفَاقُهَا سَوَاءً.

فَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ هَاهُنَا: **﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ ﴾**, وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ:
﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) ﴾, وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ ص: **﴿ يَا إِبْلِيسُ**
مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) ﴾.

أُقْوَالٌ ثَلَاثَةٌ، فِي بَعْضِ الْأَفَافِ اخْتِلَافٌ، وَفِي الْمَعْنَى اتِّفَاقٌ، وَهِيَ: **﴿ مَا مَنَعَكَ**
أَنْ تَسْجُدَ ﴾ و**﴿ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ ﴾** و**﴿ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾**.

فَأَمَّا قَوْلُهُ: **﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ص: 75]**, فِيهِ
 زِيَادَةٌ إِخْبَارٍ عَنْ حَالٍ لَمْ تَكُنْ فِي الْأَيَاتَيْنِ الْمُتَقَدِّمَتَيْنِ، وَلَمْ يَقُلْ عِنْدَهُمَا إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ
 حِطَابٌ إِلَّا مَا حَكَيْنَاهُ فِيهِمَا، فَتَكُونُ الزِّيَادَةُ مَعْدُودَةً فِي الْاِخْتِلَافِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ، وَهُوَ حِكَايَةٌ مَا كَانَ مِنْ جَوَابِ إِبْلِيسَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَفِي
 سُورَةِ ص: **﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) ﴾**, وَفِي سُورَةِ
 الْحَجْرِ: **﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) ﴾**.

فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لِلسَّمَاعِ فِي الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ مَعْنَى وَاحِدٌ، وَهُوَ ذِكْرُ مَا حَمَلَهُ عَلَى تَرْكِ
 السُّجُودِ لِآدَمَ عليه السلام، لَمَّا كَانَ مَخْلُوقًا مِنَ النَّارِ، وَآدَمُ مَخْلُوقًا مِنَ الطِّينِ، وَرَأَى أَصْلَهُ
 أَشْرَفَ مِنْ أَصْلِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي إِحْدَاهُمَا ذِكْرُ بَعْضِ مَا دَعَاهُ إِلَى مَا فَعَلَ، وَفِي الْآخَرِ
 يُنْكَرُ كَلَّهُ مِنْ مُقَابَلَةِ أَصْلِهِ بِأَصْلِهِ، وَتَوَهَّمَهُ أَنَّهُ أَشْرَفُ، إِنَّ سُّجُودَ الْأَشْرَفِ لِمَا دُونَهُ لَا
 يَجُوزُ.

وَكَذَلِكَ مَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قَوْلِهِ لَهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) ﴾، لَا يُخَالِفُ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ: ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) ﴾، وَلَا يُخَالِفُ أَيْضًا قَوْلَهُ فِي سُورَةِ ص: ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78) ﴾، لِأَنَّهُ إِذَا أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْجَنَّةِ، أَوْ مِنَ السَّمَاءِ، فَقَدْ أَمَرَهُ بِالْهَبُوطِ إِلَى الْأَرْضِ.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ [الحجر: 35]، و﴿ لَعْنَتِي ﴾ واحدٌ، لِأَنَّ اللَّعْنَةَ فِي الْحَقِيقَةِ: إِبْعَادُ اللَّهِ مَنْ يَعْصِيهِ عَنِ الْخَيْرِ، ثُمَّ لَعْنُ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ مِنَ التَّبَعِ لِلْعَنْتِ، نَعُودٌ بِاللَّهِ مِنْهَا.

*** قال الغرناطي في سورة الأعراف (مَلَاكُ التَّأْوِيلِ):

الآية الأولى منها (ص: 487 — 490):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: 12 — 13]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر: 32 — 34].

فِي الْآيَتَيْنِ مِمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْأُولَى: ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾، وَفِي الثَّانِيَةِ: ﴿ مَا لَكَ ﴾.

وَفِي الْأُولَى: اسْتِفْتَاخٌ بِسُؤَالِهِ عَنِ امْتِنَاعِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾، مِنْ غَيْرِ نِدَائِهِ

بِاسْمِهِ، وَفِي الثَّانِيَةِ نِدَاؤُهُ: ﴿ يَا إِبْلِيسُ ﴾.

وَفِي الْأُولَى: قَوْلُهُ: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾، وَفِي الثَّانِيَةِ: ﴿ إِلَّا تَكُونُ

مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾.

وَفِي الْأُولَى قَالَ: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾، وَفِي

الثَّانِيَةِ: ﴿ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾.

وَفِي الْأُولَى: قَالَ: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾، وَفِي الثَّانِيَّةِ: ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾.
فَهَذِهِ خَمْسُ سُؤَالَاتٍ.

فَأَقُولُ: إِنَّهُ لَمَّا تَقَدَّمَ فِي الْأَعْرَافِ ذِكْرُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَتَصْوِيرِهِ، مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الْمَادَّةِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 11]، وَالْخَطَابُ لِبَنِي آدَمَ، وَلَمْ يَذْكَرْ خَلْقَ غَيْرِهِمْ مِنْ مَلَكٍ أَوْ جِنٍّ. ثُمَّ إِنَّ الْأَمْرَ بِالسُّجُودِ وَرَدَ لِلْمَلَائِكَةِ، وَلَمْ يَرِدْ إِشْعَارٌ بِأَنَّ إِبْلِيسَ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَسَبَقَ مِنْ ظَاهِرِ الْكَلَامِ أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَمَأْمُورٌ مَعَهُمْ لِاسْتِثْنَائِهِ مِنْهُمْ، فَنَاسَبَ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾، لِأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِظَاهِرِ مَا تَقَدَّمَ، وَنَاسَبَ ذَلِكَ أَيْضًا، وَعَضَدَ مَا قُلْنَا قَوْلُهُ: ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾، وَلَمَّا لَمْ يَقَعْ ذِكْرٌ لِخَلْقِ غَيْرِ الْآدَمِيِّينَ، وَلَا ذِكْرُ مَادَّةِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، نَاسَبَ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ عَنِ إِبْلِيسَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾، فَاسْتَوْفَى ذِكْرُ الْمَادَّتَيْنِ، وَبَتَّى عَلَى ذَلِكَ مَا تَوَهَّمْ مِنْ فَضْلِ النَّارِ عَلَى الطِّينِ.

أَمَّا آيَةُ الْحَجْرِ، فَقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الْحَجْرِ: 26]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَفَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾، فَأَشَارَتْ الْآيَةُ بِظَاهِرِهَا إِلَى أَنَّ إِبْلِيسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَقَدْ نَطَقَتْ الْآيَةُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ هُمُ الْمَأْمُورُونَ بِالسُّجُودِ، فَبِحَسَبِ هَذَا الْبَاطِنِ مِنَ الظَّاهِرِ وَرَدَتِ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي أَصْلِ الْخُلُقَةِ وَالْمَادَّةِ مِنْهُمْ، وَكَانَ الْأَمْرُ بِظَاهِرِ الْعِبَارَةِ لَهُمْ وَإِنْ كَانَ مُرَادًا أَنَّهُ مَعَهُمْ، فَبِحَسَبِ هَذَا قِيلَ لَهُ: ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾، فَقِيلَ: ﴿ مَعَهُمْ ﴾ إِذْ لَيْسَ مِنْهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الْكَهْفِ: 50]، وَبِحَسَبِ ذَلِكَ اسْتَوْفَى نِدَاؤُهُ فَقِيلَ: ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾، لِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ قِيلَ كَانَ يَقْتَضِي أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُنَاسِبَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ صَدْرُ الْكَلَامِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ، فَنُودِيَ بِاسْمِهِ الْمُشْعِرِ بِطَرْدِهِ، وَمُعَايَرَتِهِ لَهُمْ، فَقِيلَ: ﴿ يَا إِبْلِيسُ ﴾، فَتَنَاسَبَ هَذَا، كَمَا تَنَاسَبَ أَيْضًا مَا وَرَدَ فِي الْحَجْرِ، مِنْ تَبْيِينِ خَلْقِ إِبْلِيسَ مِنَ النَّارِ وَفَصْلِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، مَا أَعْقَبَ بِهِ مِنْ مَحْكِي قَوْلِهِ: ﴿ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الْحَجْرِ: 33]، وَاحْتِقَارِهِ مَادَّةَ الطِّينِ،

وَتَفْضِيلِهِ مَادَّةَ النَّارِ عَلَيْهَا. فَنَاسَبَ هَذَا تَعْقِيبُ أَمْرِهِ بِالْخُرُوجِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿ فَأَخْرَجَ مِنْهَا ﴾**, وَقِيلَ فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ: **﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾**, وَلَيْسَ التَّعْبِيرُ بِالْإِخْرَاجِ كَالْتَّعْبِيرِ بِالْهَبُوطِ، فَقَدْ أَمَرَ آدَمَ بِالْهَبُوطِ، وَلَمْ يَقْصِدْ مِنْ تَعْنِيفِهِ مَا قَصَدَ بِإِبْلِيسَ، فَالْفَرْقُ مَا بَيْنَ الْعِبَارَتَيْنِ فِيمَا تُعْطِيَانِهِ، قِيلَ فِي الْأَعْرَافِ: **﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾**, إِذْ لَمْ يَتَقَدَّمْ فِيهَا مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَجْرِ، بَلْ ظَاهِرُ مَا فِي الْأَعْرَافِ أَنَّهُ مِنْهُمْ، فَجَرَى الْأَمْرُ آخِرًا مُنَاسِبًا لِهَذَا الظَّاهِرِ، فَعَبَّرَ بِالْهَبُوطِ. وَلَمَّا تَقَدَّمَ فِي الْحَجْرِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِخُلُقِهِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ، فَأَشْعَرَ ذَلِكَ بِشَرِّ الْمَادَّةِ نَاسِبَهُ قَوْلُهُ: **﴿ فَأَخْرَجَ مِنْهَا ﴾**, وَإِتْبَاعَ ذَلِكَ بِمَا يَلَانِمُهُ مِنَ الْوَصْفِ، وَيُنَاسِبُهُ مِنْ قَوْلِهِ: **﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾**, ثُمَّ بِمَا كَتَبَ عَلَيْهِ مِنَ الطَّرْدِ وَاللَّعْنَةِ، وَلَمْ يَرُدْ فِي الْأَعْرَافِ هَكَذَا، بَلْ رُوِيَ فِيهِ مُنَاسِبَةٌ مَا تَقَدَّمَ، وَلِنَلَّا يَتَنَافَرُ الْكَلَامُ وَيَتَنَافَرُ الْمَعْنَى، فَقِيلَ: **﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَأَخْرَجَ إِنَّكَ مِنَ الصَّاعِرِينَ ﴾**.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فَقَدْ قِيلَ هُنَا: **﴿ فَأَخْرَجَ ﴾**, كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ، قُلْتُمْ: تَدْرَجُ بِهِ إِلَى التَّعْنِيفِ وَسِيقَ هُنَاكَ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَجَاءَ كُلُّ عَلَى مَا يَجِبُ وَيُنَاسِبُ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُنَاسِبَ وَرُودُ الْعَكْسِ فِي السُّورَتَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ، وَقَدْ حَصَلَ جَوَابُ السُّؤَالَاتِ بِأَسْرَاهَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

*** قال ابن جماعة في سورة الحجر (كَشَفُ الْمَعَانِي) (1 / 173 - 175):

مَسْأَلَةٌ:

مَا سَبَبُ اخْتِلَافِ الْأَلْفَافِ، وَزِيَادَةِ الْمَعَانِي وَنَقْصِهَا فِي بَعْضِ قِصَصِ آدَمَ دُونَ بَعْضٍ، وَكَذَلِكَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقِصَصِ، كَقِصَّةِ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ، وَنُوحٍ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، مَعَ قَوْمِهِمْ، وَشَبَّهَ ذَلِكَ؟

جَوَابُهُ:

أَمَّا اخْتِلَافُ الْأَلْفَافِ فَلِأَنَّ الْمَفْصُودَ الْمَعَانِي، لِأَنَّ الْأَلْفَافَ دَالَّةٌ عَلَيْهَا: أَوَّلًا: لَمْ تَكُنْ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، بَلْ بِالسِّنَةِ الْمُتَخَاطِبِينَ حَالَةً وَنُوعٍ ذَلِكَ الْمَعْنَى، فَلَمَّا أُدِيَتْ تِلْكَ الْمَعَانِي إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، أُدِيَتْ بِالْأَلْفَافِ عَرَبِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَى مَعَانِيهَا، مَعَ اخْتِلَافِ الْأَلْفَافِ وَإِتْحَادِ الْمَعْنَى، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ: **﴿ أَبِي أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾**

[الْحَجْر: 31], وَبَيَّنَ ﴿ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف: 11], فِي دَلَالَتِهَا عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، وَهُوَ: عَدَمُ السُّجُودِ.

وَكَذَلِكَ لَا فَرْقَ فِي الْمَعْنَى بَيْنَ: ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الْحَجْر: 32], وَ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف: 12], لِأَنَّ اللَّامَ صِلَةً زَائِدَةً. وَأَمَّا زِيَادَةُ الْمَعْنَى وَنَقْصُهَا فِي بَعْضِ دُونَ بَعْضٍ، فَلِأَنَّ الْمَعْنَى الْوَاقِعَةَ فِي الْقِصَصِ فُرِّقَتْ فِي إِيرَادِهَا، فَيُذَكَّرُ بَعْضُهَا فِي مَكَانٍ، وَبَعْضًا آخَرَ فِي مَكَانٍ آخَرَ، وَلِذَلِكَ عِدَّةُ فَوَائِدِ ذِكْرَتِهَا فِي كِتَابِ (الْمُقْتَصِّ فِي تَكَرَّرِ الْقِصَصِ).

*** قَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ (كَشَفُ الْمَعْنَى) (1 / 222 – 223) :
مَسْأَلَةٌ:

قَوْلُهُ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الْحَجْر: 35], وَفِي ص: ﴿ لَعْنَتِي ﴾ [ص: 78].
جَوَابُهُ:

لَمَّا أَضَافَ خَلَقَ آدَمَ إِلَيْهِ تَشْرِيْفًا لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: 75], أَضَافَ طَرْدَ عَدُوِّهِ إِلَيْهِ أَيْضًا زِيَادَةً فِي كِرَامَتِهِ.

*** قَالَ الْكِرْمَانِيُّ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ (أَسْرَارُ التَّكَرَّرِ فِي الْقُرْآنِ) (1 / 77 – 80) :

قَوْلُهُ: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ ﴾ [الأعراف: 12], فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَفِي ص: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ ﴾ [ص: 75], وَفِي الْحَجْرِ: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ ﴾ [الْحَجْر: 32], بِزِيَادَةٍ: ﴿ يَا إِبْلِيسُ ﴾ فِي السُّورَتَيْنِ، لِأَنَّ خِطَابَهُ قَرِيبٌ مِنْ ذِكْرِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ ﴾ [الأعراف: 11], فَحَسُنَ حَذْفُ حَرْفِ النَّدَاءِ وَالْمُنَادَى، وَلَمْ يَفْرُبْ فِي ص قُرْبَهُ مِنْهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، لِأَنَّ فِي ص: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص: 74], بِزِيَادَةِ ﴿ اسْتَكْبَرَ ﴾، فَزَادَ حَرْفَ النَّدَاءِ وَالْمُنَادَى، فَقَالَ: ﴿ يَا إِبْلِيسُ ﴾، وَكَذَلِكَ فِي الْحَجْرِ، فَإِنَّ فِيهَا: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبِي أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الْحَجْر: 31], بِزِيَادَةِ (أَبِي) فَزَادَ حَرْفَ النَّدَاءِ وَالْمُنَادَى، فَقَالَ: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ ﴾.

* قَوْلُهُ: ﴿ **أَلَا تَسْجُدَ** ﴾ [الأعراف: 12]. وَفِي ص: ﴿ **أَنْ تَسْجُدَ** ﴾ [ص: 75].
 وَفِي الْحَجْرِ: ﴿ **مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ** ﴾ [الحجر: 32].
 فَزَادَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (لَا), وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِي (لَا) أَقْوَالٌ.
 قَالَ بَعْضُهُمْ: (لَا) صَلَةٌ, كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ **لِنَلَّا يَعْلَمَ** ﴾ [الحديد: 29].
 وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَمْنُوعُ مِنَ الشَّيْءِ مُضْطَرٌّ إِلَى مَا مَنَعَ.
 وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: مَا الَّذِي جَعَلَكَ فِي مَنَعَةٍ مِنْ عَدَائِي.
 وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: مَنْ قَالَ لَكَ ﴿ **أَلَا تَسْجُدَ** ﴾, وَقَدْ ذَكَرْتَ ذَلِكَ, وَأَخْبَرْتُ
 بِالصَّوَابِ فِي كِتَابِي (لِبَابِ التَّفْسِيرِ). وَالَّذِي يَلِيقُ بِهَذَا الْكِتَابِ, أَنْ نَذْكَرَ مَا السَّبَبُ
 الَّذِي خَصَّ هَذِهِ السُّورَةَ بِزِيَادَةِ: (لَا) دُونَ السُّورَتَيْنِ.
 قُلْتُ: لَمَّا حَذَفَ مِنْهَا ﴿ **يَا إِبْلِيسُ** ﴾, وَاقْتَصَرَ عَلَى الْخِطَابِ, جَمَعَ بَيْنَ لَفْظِ الْمَنَعِ
 وَلَفْظِ (لَا), زِيَادَةً فِي النَّفْيِ, وَإِعْلَامًا أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِهِ إِبْلِيسُ خِلَافًا لِلسُّورَتَيْنِ, فَإِنَّهُ
 صَرَّحَ فِيهِمَا بِاسْمِهِ.
 وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ: جَمَعَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بَيْنَ مَا فِي ص وَمَا فِي الْحَجْرِ, فَقَالَ: ﴿ **مَا
 مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ** ﴾, ﴿ **مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ** ﴾, فَحَذَفَ ﴿ **أَنْ تَسْجُدَ** ﴾, وَحَذَفَ ﴿ **مَا لَكَ** ﴾,
 لِذَلَالَةِ الْحَالِ, وَذَلَالَةِ السُّورَتَيْنِ عَلَيْهِ, فَبَقِيَ ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ** ﴾, وَهَذِهِ لَطِيفَةٌ
 فَاحْفَظْهَا.

ب - الْمِفْصَلُ الثَّانِي: طَمَعٌ فِي الْخُلُودِ

- 1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ **قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ** (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ
 الْمُنْظَرِينَ ﴾ [الأعراف: 14 - 15].
- 2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ **قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ** (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
 الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر: 36 - 38].
- 3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ **قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ** (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
 الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [ص: 79 - 81].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

*** قال الإسكافي في سورة الأعراف (دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَعُرَّةُ التَّأْوِيلِ):

الآية الثانية منها (103 – 104) :

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 14 – 15], وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ وَسُورَةِ ص: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [الْحَجْرِ: 36 – 38], وَسُورَةِ [ص: 79 – 81].

لِلسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ:

عَنْ إِدْخَالِ (الْفَاءِ) فِي قَوْلِهِ: ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي ﴾, فِي سُورَتَيْ الْحَجْرِ وَص, وَحَدْفِهَا مِنْهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ؟

وَالْجَوَابُ أَنْ يُقَالَ:

إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ أَنْظِرْنِي ﴾, فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَقَعَ مُسْتَأْنَفًا، غَيْرَ مَقْصُودٍ بِهِ عَطْفٌ عَلَى مَا يَقَعُ بِهِ هَذَا السُّؤَالُ عَقِيبَهُ، فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى (الْفَاءِ).

وَالْجَوَابُ أَيْضًا:

لَمَّا لَمْ يَكُنْ إِجَابَةً لَهُ إِلَى مَا طَلَبَ، لَمْ يَكُنْ أَيْضًا مَعْطُوفًا عَلَيْهِ بِـ (الْفَاءِ), وَإِنَّمَا سَأَلَ تَأْخِيرَ أَجَلِهِ، فَقَالَ: إِنَّكَ فِي حُكْمِي مِمَّنْ أُخِّرَ أَجَلُهُ، لَا لِأَجْلِ مَسْأَلَتِكَ.

وَأَمَّا فِي الْآيَتَيْنِ فِي سُورَتَيْ الْحَجْرِ وَص, فَإِنَّهُ قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ رَبِّ

فَأَنْظِرْنِي ﴾, وَجَاءَ بَعْدَ إِخْبَارِ اللَّهِ بِلَعْنِهِ لَهُ، فَكَانَهُ قَالَ: (يَا رَبِّ إِنْ لَعَنْتَنِي، وَآيَسْتَنِي

مِنَ الْجَنَّةِ، فَأَخِّرْ أَجَلِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ), وَيَوْمَ يُبْعَثُونَ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، لَا يَوْمُ

الْإِمَاتَةِ، فَلَمْ تَقَعْ الْإِجَابَةُ إِلَى مَا طَلَبَ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (37) إِلَى

يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ أَي: إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي هُوَ آخِرُ أَوْقَاتِ الْأَحْيَاءِ، فَأَقْتَضَى إِضْمَارَ:

(إِنْ لَعَنْتَنِي يَا رَبِّ) أَنْ يَأْتِيَ بِـ (الْفَاءِ), فَيَقُولُ: ﴿ فَأَنْظِرْنِي ﴾, وَيَأْتِي فِي جَوَابِهِ بِهَا،

وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾, لِأَنَّ التَّقْدِيرَ: (إِنْ طَلَبْتَ تَأْخِيرَ الْأَجَلِ،

وَتَنْفِيسَ الْمَهْلِ مِنْ أَجْلِ أَنْ لَعَنْتَ، فَإِنَّكَ مُؤَخَّرُ الْمَوْتِ، لَمَّا حَكَمْتَ بِهِ لَكَ، لَا لِإِجَابَتِكَ إِلَى

مَسْأَلَتِكَ), فَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى السُّؤَالِ عَطْفُ الْكَلَامِ عَلَى الْكَلَامِ الَّذِي يَفْتَضِيهِ، لَا عَطْفُ

الْإِجَابِ عَلَى السُّؤَالِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُجِبْ عَاصِيًا مِثْلَهُ إِلَى مَا يَسْأَلُ.

فَدُخُولُ (الْفَاءِ) فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِتَقْدُّمِ ذِكْرِ اللَّعْنِ، وَأَنَّ الْمَعْنَى: (إِنْ آيَسْتَنِي مِنْ

رَحْمَتِكَ فَأَخِّرْ أَجَلِي، لِأَنَّالَ مِنْ عَدُوِّي الَّذِي كَانَ سَبَبَ ذَلِكَ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِغْوَاءِ لَهُ،

وَلَمَنْ يَكُونُ مِنْ نَسْلِهِ، وَأَسْتَشْفِي بِذَلِكَ لِحَبْلِهِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ طَاعَةِ الْهَوَى الْمُوَدِّي إِلَى سَبِيلِ الرَّدَى.

*** قال الغرناطي في سورة الأعراف (مَلَكَ التَّأْوِيلِ):

الآية الثانية من سورة الأعراف (490 – 491):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: 14 – 15], وَفِي سُورَةِ الْحَجْرِ وَسُورَةِ ص: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر: 36 – 38], وَسُورَةِ ص: آيَةٌ: 79 – 81.

فُورِدَ فِي آيَةِ الْحَجْرِ وَصَ زِيَادَةُ (الْفَاءِ) فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَأَنْظِرْنِي ﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ فَإِنَّكَ ﴾، وَزِيَادَةُ قَوْلِهِ ﴿ رَبِّ ﴾ وَلَمْ يَرِدْ ذَلِكَ فِي الْأَعْرَافِ، فَيَسْأَلُ عَنْهُ؟

وَجَوَابُ ذَلِكَ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ –:

أَنَّ مُنَاسِبَةَ مَا تَقَدَّمَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْآيِ الثَّلَاثِ: مِنَ الْإِسْهَابِ، وَالتَّأَكِيدِ، أَوْ الْإِيجَازِ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَجْمُوعَ الْكَلِمِ الْوَاقِعَةِ مِنْ لَدُنْ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ﴾، وَهُوَ ابْتِدَاءُ الْقِصَّةِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾، بِضَعِّ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَالْوَارِدَ فِي الْحَجْرِ مِنْ لَدُنْ قَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي ﴾، بِضَعِّ وَسَبْعُونَ كَلِمَةً، وَفِي سُورَةِ ص مِنْ لَدُنْ قَوْلِهِ: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾، إِلَى الْآيَةِ بِضَعِّ وَسِتُّونَ كَلِمَةً، فَقَدْ وَضَحَ مَا قَصَدَ فِي الْأَعْرَافِ مِنْ إِيجَازِ الْإِخْبَارِ فِي الْقِصَّةِ، وَمَا فِي السُّورَتَيْنِ بَعْدَ مِنَ الْإِطْنَابِ، ثُمَّ إِنَّهُ وَرَدَ فِي سُورَتِي الْحَجْرِ وَصَ التَّأَكِيدِ بِ (كُلِّ) وَ (أَجْمَعِ) فِي قَوْلِهِ: ﴿ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾، وَلَمْ يَرِدْ ذَلِكَ فِي الْأَعْرَافِ، فَقَصَدَ مَا قُلْنَا، وَتَنَاسَبَ الْإِطْنَابُ وَالتَّأَكِيدُ، وَلِأَعْمَ مَا وَرَدَ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي السُّورَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُنَاسِبَ الْعَكْسُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

فَإِنْ قُلْتَ مَا وَجْهٌ وَرُودُ الْقِصَّةِ الْوَاحِدَةِ مُوجَزَةً مَرَّةً، وَمَطْوَلَةً أُخْرَى؟

قُلْتُ: لِيَحْصُلَ مِنْ ذَلِكَ الْإِطْلَاعُ عَلَى عِلْيِ الْأَبْلَاغَةِ، وَجَلَالَةِ النَّظْمِ، وَعَلَى فَصَاحَةِ فِي طَرَفِي الْإِيْجَازِ وَالْإِطْنَابِ، فَإِنَّ الْفَصِيحَ الْبَلِيغَ مِنَ الْبَشْرِ إِنْ رَامَ هَذَا لَمْ يَفِ فِي الطَّرَفَيْنِ بِمَا يُرِيدُهُ، وَوَضَحَ التَّفَاوُثَ فِي هَذَا بِوَجْهِهِ.
فَأَنْقُلْتُ: فَمَا وَجْهُ تَقْدِيمِ الْمَوْجِزِ عَلَى الْمَطْوُولِ ؟
قُلْتُ: شَبَّهُ ذَلِكَ بِالْمُجْمَلِ مِنَ الْكَلَامِ وَالْمُفْصَلِ، وَإِنَّمَا يَرُدُّ التَّفْصِيلُ بَعْدَ الْإِجْمَالِ، فَهَذَا الْجَوَابُ مُنْزَلٌ عَلَى التَّرْتِيبِ الثَّابِتِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

*** قال الكرمانى في سورة الأعراف (أَسْرَارُ التَّكْرَارِ فِي الْقُرْآنِ) (1 / 78 -

: (79)

قَوْلُهُ: ﴿ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف: 14]. وَفِي الْحَجْرِ، وَص: ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي ﴾ [الحجر: 36]، [ص: 79]، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَقْتَصَرَ فِي السُّؤَالِ عَلَى الْخِطَابِ دُونَ صَرِيحِ الْأِسْمِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، أَقْتَصَرَ فِي الْجَوَابِ أَيْضًا عَلَى الْخِطَابِ دُونَ ذِكْرِ الْمُنَادَى. وَأَمَّا زِيَادَةُ (أَلْفَاءِ) فِي السُّورَتَيْنِ دُونَ هَذِهِ السُّورَةِ، فَلِأَنَّ دَاعِيَةَ (أَلْفَاءِ) مَا تَضَمَّنَتْ النِّدَاءَ مِنْ (أَدْعُو) أَوْ (أُنَادِي)، نَحْوُ: ﴿ رَبَّنَا قَاعِظْنَا ﴾ أَي: أَدْعُوكَ، وَكَذَلِكَ دَاعِيَةُ (أَلْوَاوِ) فِي قَوْلِهِ □ ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا ﴾، فَحَدَفَ الْمُنَادَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ، فَلَمَّا حَدَفَهُ انْحَدَفَتْ (أَلْفَاءُ).

قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: 15]، فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي السُّورَتَيْنِ: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ ﴾ [الحجر: 37]، [ص: 80]، لِأَنَّ الْجَوَابَ يُبْنَى عَلَى السُّؤَالِ، وَلَمَّا خَلَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَنِ (أَلْفَاءِ) خَلَا الْجَوَابُ عَنْهُ، وَلَمَّا ثَبَتَتْ (أَلْفَاءُ) فِي السُّؤَالِ فِي السُّورَتَيْنِ ثَبَتَتْ فِي الْجَوَابِ، وَالْجَوَابُ فِي السُّورِ الثَّلَاثِ إِجَابَةٌ، وَلَيْسَ بِاسْتِجَابَةٍ.

ج - الْمِفْصَلُ الثَّلَاثُ: سَقَاهَهُ التَّحْدِي

1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16)

ثُمَّ لَا تَبِيتُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 16 - 17].

- 2 - وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَزِيَّتَنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَلَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الْحَجْر: 39 - 40].
- 3 - وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ
الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: 82 - 83].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

*** قال الإسكافي في سورة الأعراف (دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَغُرَّةُ التَّأْوِيلِ):

الآية الثالثة منها (104 - 105) :

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَفْعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَا تِيَنَّهُمْ
مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾
[الْأَعْرَافِ: 16 - 17]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَزِيَّتَنَ لَهُمْ
فِي الْأَرْضِ وَلَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الْحَجْر: 39 -
40]، وَقَالَ فِي سُورَةِ ص: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ
الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: 82-83].

لِلسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ شَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: اخْتِلَافُ الْمَحْكِيَّاتِ، فَفِي مَوْضِعٍ: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾، وَفِي مَوْضِعٍ:
﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾، وَفِي الْآخِرِ: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ ؟
وَالثَّانِي: حَذْفُ (الْفَاءِ) فِي سُورَةِ الْحَجْرِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾،
وَإثْبَاتِهَا فِي الْآيَتَيْنِ الْآخِرِيَيْنِ ؟

وَالْجَوَابُ عَنْ اخْتِلَافِ الْأَلْفَاطِ الْمَحْكِيَّةِ أَنْ يُقَالَ:

مَتَى حُمِلَتْ (الْبَاءُ) عَلَى الْقَسَمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾، وَ﴿ رَبِّ بِمَا
أَغْوَيْتَنِي ﴾، فِي الْآيَتَيْنِ بِشَهَادَةِ الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ، وَهِيَ: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ اخْتِلَافٌ
فِي الْمَعْنَى، لِأَنَّ الْمُرَادَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾: (بِإِعْوَانِكَ إِيَّايَ)، وَهُوَ يَحْتَمِلُ
وُجُوهًا مِنَ الْمَعَانِي.

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: (بِتَخْيِيبِكَ إِيَّايَ لِأَجْتِهَدَنَّ فِي تَخْيِيبِهِمْ)، وَهَذَا ظَاهِرُ
الْكَلَامِ، لِأَنَّ الْقَسَمَ مُتَلَقًى بِ(اللَّامِ)، وَلِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾، فِي مُقَابَلَتِهِمَا مِنَ الْآيَةِ
الْآخِرَى، وَتَخْيِيبُ اللهِ إِيَّاهُ هُوَ بَعِزَّتِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

..... ***** وَمَنْ يَغْوُ لَا يَعْدُمُ عَلَى الْغَيِّ لَأَنَّمَا

أَيُّ: مَنْ يَخْبُ لَمْ يَنْلُ خَيْرًا، يَشْهَدُ لِذَلِكَ صَدْرُ الْبَيْتِ، وَهُوَ:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرُهُ *****

.....

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ (بِإِهْلَاكِكَ إِيَّايَ بِأَنْ لَعَنْتَنِي)، وَهَذَا الْفِعْلُ أَيْضًا عِزَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَكَذَلِكَ إِنْ حُمِلَ عَلَى مَعْنَى الْحُكْمِ بِغَوَايَتِهِ فَهُوَ عِزَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ تَسَاوَتْ فِي الْمَعْنَى، وَكُلُّ قَسَمٍ، وَالْإِعْوَاءُ الَّذِي هُوَ التَّخْيِيبُ، أَوْ الْإِهْلَاكُ، أَوْ الْحُكْمُ بِالْغَوَايَةِ، كُلُّ ذَلِكَ عِزَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَالْقَسَمُ بِهِ كَالْقَسَمِ بِعِزَّتِهِ.

وَالْجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ الثَّانِي:

وَهُوَ حَذْفُ (الْفَاءِ) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ رَبِّ بِمَا أَعُوَيْتَنِي ﴾، وَلِأَنَّ الدُّعَاءَ فِي الصَّدْرِ يُسْتَأْنَفُ بَعْدَهُ الْكَلَامُ، وَالْقِصَّةُ غَيْرُ مُقْتَضَاةٍ لِمَا قَبْلَهَا كَمَا افْتَضَاهُ قَوْلُهُ: ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي ﴾، وَ(الْفَاءُ) تُوجِبُ مَا بَعْدَهَا بِمَا قَبْلَهَا.

وَالنِّدَاءُ أَوْلَا يُوجِبُ الْقَطْعَ، وَاسْتِنْفَافَ الْكَلَامِ، لَا سِيمَا فِي قِصَّةٍ لَا يَفْتَضِيهَا مَا قَبْلَهَا، فَلَمْ تَحْسُنِ (الْفَاءُ) مَعَ قَوْلِهِ: ﴿ رَبِّ بِمَا أَعُوَيْتَنِي ﴾، وَالْمَوْضِعَانِ الْآخِرَانِ لَمْ يُدْخِلِ الْكَلَامُ فِيهِمَا نِدَاءً يُوجِبُ اسْتِنْفَافَ مَا بَعْدَهُ، فَلِذَلِكَ وَصَلَ الْقَسَمَ فِيهِمَا بِالْأَوَّلِ بِدُخُولِ (الْفَاءِ).

*** قال الغرناطي في سورة الأعراف (مَلَاكُ التَّأْوِيلِ):

الآية الثانية منها (103 – 104) :

قَوْلُهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ إبْلِيسَ: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَعُوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَا تَجِدُنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 16 – 17]، وَفِي سُورَةِ الْحَجْرِ: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَعُوَيْتَنِي لِأَزَيِّتَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأَعُوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: 39 – 40].
إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ:

عَنْ وَجْهِ اخْتِلَافِ الْوَارِدِ فِي السُّورَتَيْنِ، الْمَحْكِيِّ مِنْ قَوْلِ إِبْلِيسَ مَعَ اتِّحَادِ الْقِصَّةِ؟

فَجَوَابُهُ: أَنَّ الْمَعْنَى الْحَاصِلَ مِنْ قَوْلِهِ فِي السُّورَتَيْنِ وَاحِدٌ، لَا إِشْكَالَ فِيهِ، ثُمَّ اخْتَلَفَ التَّعْبِيرُ عَنْ ذَلِكَ، بِحَسَبِ مَا تَقَدَّمَ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ السُّورَتَيْنِ، وَمَا اسْتَدْعَاهُ مِنَ الْمُنَاسَبَةِ، وَلَمَّا تَقَدَّمَ فِي الْأَعْرَافِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [الأعراف: 3]، وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْقُرْآنِ، لِأَنَّهُ يُوضِّحُ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ** ﴾ [الأنعام: 153]، وَالْإِشَارَةُ بِهَذَا إِلَى الْمُنَزَّلِ قُرْآنًا، لِأَنَّهُ مُبَيِّنٌ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي طَمَعَ اللَّعِينُ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَيْهِ، وَقَطَعَ سَالِكِهِ، فَقِيلَ عِبَارَةً عَنْ مَرَامِهِ مِنْ ذَلِكَ: ﴿ **لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾، إِلَى آخِرِ الْمَحْكِيِّ مِنْ كَلَامِهِ، وَمَرَادُهُ: (لَأَسْتَوْلِيَنَّ لَهُمْ عَلَيْهِ)، لَا عَلَى مَا فَهَمَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ، حِينَ رَامَ الْحَاقُّ مِثْلَ هَذَا مِنَ الظُّرُوفِ الْمُخْتَصَّةِ بِالْمُبْهَمَةِ مِنْهَا، وَخَالَفَ النَّاسَ فِي ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا قَالَ، لَكَانَ وُصُولُ الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ ﴿ **لَأَقْعُدَنَّ** ﴾ عَلَى تَقْدِيرِ حَرْفِ الْوِعَاءِ الَّذِي هُوَ (**فِي**)، وَكَانَ يُفْسِدُ الْمَعْنَى، لِأَنَّ مُرَادَ اللَّعِينِ وَطَمَعَهُ إِنَّمَا كَانَ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى الطَّرِيقِ، بِدَلِيلِ حَصْرِهِ الْجِهَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ **مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ** ﴾، فَهَذَا طَلَبٌ أَخَذَهُمْ بِكُلِّ الْجِهَاتِ، وَطَمَعٌ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ سُلْطَانٌ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾، وَلَوْ كَانَ عَلَى تَقْدِيرِ حَرْفِ الْوِعَاءِ لَنَاقِضَ هَذَا الْغَرَضَ، وَلَكَانَ تَقْدِيرُهُ: (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ فِي صِرَاطِكَ)، وَهَذَا ضِدٌّ مَا يَفْتَضِيهِ تَقْدِيرُ (عَلَى) مِنَ الْإِسْتِيْلَاءِ، وَقَدْ بَسِطَ هَذَا فِي مَوْضِعِهِ، وَأَنَّ الصَّوَابَ مَا عَلَيْهِ جَمَاعَةُ النَّحْوِيِّينَ، وَمَا فَهَمُوا عَلَيْهِ كَلَامَ سَيْبَوِيهِ – رَحِمَهُ اللَّهُ – مِنْ أَنَّ الطَّرِيقَ مُخْتَصٌّ لَا مُبْهَمٌ، وَأَنَّ الْمَعْنَى هُنَا فِي الْآيَةِ عَلَى تَقْدِيرِ حَرْفِ الْإِسْتِيْلَاءِ لَا حَرْفِ الْوِعَاءِ، وَلَمَّا قَدْ كَانَ قَدْ وَرَدَ فِي الْحَجْرِ مَنْعُهُ، وَمَنْعُ جُنُودِهِ عَنْ تَعَرُّفِ خَيْرِ السَّمَاءِ، وَاسْتِرَاقِ السَّمْعِ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرِيَاءَهَا لِلنَّاظِرِينَ** (16) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (17) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر: 16 – 18]، فَلَمَّا صَدَّ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، عَدَلَ إِلَى الْأُخْرَى، فَقَالَ: ﴿ **لَأُرِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ** ﴾ [الحجر: 39]، أَي: إِنْ كُنْتُ مَمْنُوعًا عَنْ إِغْوَانِهِمْ مِنْ حَيْثُ خَبِرُ

السَّمَاءِ، وَإِبْدَاءُ الْمُقَدَّرَاتِ مِمَّا يُوجِّهُهُ اللَّهُ إِلَى مَلَائِكَتِهِ مِمَّا يَحْدُثُ فِي عِلْمِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَبَقَ فِي الْعِلْمِ الْأَقْدِيمِ، فَإِنْ كُنْتَ قَدْ مَنَعْتَنِي عَنْ إِغْوَائِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، رَجَعْتَ إِلَى إِغْوَائِهِمْ مِنْ جِهَةٍ لَمْ تَمْنَعْنِي عَنْهَا، لِأَزِينَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا مَنْ عَصَمْتَهُ مِنِّي، وَلَمْ تَجْعَلْ لِي السَّبِيلَ إِلَيْهِ، وَهُمْ عِبَادُكَ الْمُخْلِصُونَ، فَلِأَجْلِ اخْتِلَافِ الْمُتَقَدِّمِ فِي كُلِّ مِنَ السُّورَتَيْنِ مَا اخْتَلَفَ الْمَبْنِيُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَخَيِّ عَنْ إِبْلِيسَ مَنْ طَمَعِهِ، وَوَرَدَ كُلُّ عَلَى مَا يُنَاسِبُ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُنَاسِبَ تَعْقِيبُ مَا وَرَدَ فِي الْأَعْرَافِ بِمَا أَعَقَبَ الْمُتَقَدِّمَ فِي الْحَجْرِ، وَتَعْقِيبُ مَا وَرَدَ فِي الْحَجْرِ بِمَا أَعَقَبَ الْمُتَقَدِّمَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

*** قال الكرمانى في سورة الأعراف (أسرار التكرار في القرآن) (1 / 79 -

: 80)

قوله: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الأعراف: 16]، في هذه السورة، وفي ص: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لِأَغْوِيَنَّهُمْ ﴾ [ص: 82]، وفي الحجر: ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الحجر: 39]، لَأَنَّ مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ مُوَافِقٌ لِمَا قَبْلَهُ فِي الْإِقْتِصَارِ عَلَى الْخُطَابِ دُونَ النِّدَاءِ، وَمَا فِي الْحَجْرِ مُوَافِقٌ لِمَا قَبْلَهُ فِي مُطَابَقَةِ النِّدَاءِ، وَزَادَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (الْفَاءُ) الَّتِي هِيَ لِلْعَطْفِ، لِيَكُونَ الثَّانِي مَرْبُوطًا بِالأَوَّلِ، لَأَنَّ مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ مُوَافِقٌ لِمَا قَبْلَهُ فِي الْإِقْتِصَارِ عَلَى الْخُطَابِ دُونَ النِّدَاءِ، وَمَا فِي الْحَجْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾، مُوَافِقٌ لِمَا قَبْلَهُ فِي مُطَابَقَةِ النِّدَاءِ، فَكَتَفَى بِمُطَابَقَتِهِ لِامْتِنَاعِهِ مِنْهُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِالَّذِي يَسْتَدْعِيهِ النِّدَاءُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَقَعُ مَعَ السُّؤَالِ وَالطَّلْبِ، وَهَذَا قَسَمٌ عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ، بِدَلِيلِ مَا فِي ص، وَخَبَرَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، وَالَّذِي فِي ص عَلَى قِيَاسِ مَا فِي الْأَعْرَافِ دُونَ الْحَجْرِ، لَأَنَّ مُوَافَقَتَهُمَا أَكْثَرَ عَلَى مَا سَبَقَ، فَقَالَ: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَهَذَا الْفَصْلُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بُرْهَانٌ لَامِعٌ.

وَسَأَلَ الْخَطِيبُ نَفْسَهُ عَنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ، فَأَجَابَ عَنْهَا، وَقَالَ: " إِنَّ اقْتِصَاصَ مَا مَضَى إِذَا لَمْ يَفْصِدْ بِهِ آدَاءَ الْأَلْفَافِ بِأَعْيَانِهَا كَانَ اخْتِلَافُهَا وَاتِّفَاقُهَا سَوَاءً إِذَا أَدَّى الْمَعْنَى الْمَقْصُودَ "، وَهَذَا جَوَابٌ حَسَنٌ، إِنَّ رَضِيَتْ بِهِ كُفَيْتْ مُؤَنَّةَ السَّهْرِ إِلَى السَّحْرِ.

د - اَلْمِفْصَلُ الرَّابِعُ: طَرْدٌ وَإِنْعَادٌ

- 1 - قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لِأَمَلَانٍ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: 18].
- 2 - وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الحجر: 34 - 35].
- 3 - وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [ص: 77 - 78].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

*** قال الكرمانى في سورة الأعراف (أسرار التكرار في القرآن) (1 / 80):

قَوْلُهُ: ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَذْحُورًا ﴾ [الأعراف: 18], لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ غَيْرُهُ، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا بَالَغَ فِي الْحِكَايَةِ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ لَأَفْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ [الأعراف: 16], الْآيَةِ، بَالَغَ فِي دَمِهِ، فَقَالَ: ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَذْحُورًا ﴾، وَالذَّأْمُ: أَشَدُّ الدَّمِّ.

*** قال الكرمانى في سورة الحجر (أسرار التكرار في القرآن) (1 / 118 -

119):

قَوْلُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ لِإِبْلِيسَ: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ [الحجر: 35], بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ، وَفِي ص: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ [ص: 78] بِالإِضَافَةِ، لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ جَرَى عَلَى الْجِنْسِ، مِنْ أَوَّلِ الْقِصَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ [الحجر: 26], ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ ﴾ [الحجر: 27], ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ ﴾ [الحجر: 30], كَذَلِكَ قَالَ: ﴿ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ ﴾، وَفِي ص تَقَدَّمَ: ﴿ لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدِي ﴾ [ص: 75], فَخَتَمَ بِقَوْلِهِ: ﴿ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ [ص: 78].

4- اَلْمَشْهَدُ الرَّابِعُ : سَكَنَى الْجَنَّةِ وَقِصَّةُ اَلْهَبُوطِ إِلَى اَلْأَرْضِ

- 1 - قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَازْلَمَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا

فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ [البقرة: 35 – 38].

2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿ [الأعراف: 19 – 24].

3 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿ [طه: 117 – 119].

أ - الْمِفْصَلُ الْأَوَّلُ: سَكَنِي الْجَنَّةِ وَالْأَكْلُ مِنْهَا

1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴿ [البقرة: 35].

2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴿ [الأعراف: 19].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

*** قال الإسكافي في سورة البقرة (دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَغَرَّةُ التَّأْوِيلِ)::

الآية الأولى منها (7 – 8) :

فَأَوَّلُ آيَةٍ ابْتَدَأَتْ بِهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة: 35]. وَقَالَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [الأعراف: 19]. فَعَطَفَ (كَلَا) عَلَى (اسْكُنْ) بِـ (أَلْفَاءِ) فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَعَطَفَهَا عَلَيْهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِـ (أَلْوَاوِ).

وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ عَطَفَ عَلَيْهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ تَعَلَّقَ الْجَوَابُ بِالْإِبْتِدَاءِ، وَكَانَ الْأَوَّلُ مَعَ الثَّانِي بِمَعْنَى الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ، فَالْأَصْلُ فِيهِ عَطَفَ الثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ بِـ (أَلْفَاءِ)، دُونَ (أَلْوَاوِ) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَعَدًا ﴾ [البقرة: 58]. فَعَطَفَ (كَلُوا) عَلَى (ادْخُلُوا) بِـ (أَلْفَاءِ)، لَمَّا كَانَ وَجُودُ الْأَكْلِ مِنْهَا مُتَعَلِّقًا بِدُخُولِهَا، فَكَأَنَّهُ قَالَ: (إِنْ دَخَلْتُمُوهَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا)، فَالِدُخُولُ مُوَصَّلٌ إِلَى الْأَكْلِ، وَالْأَكْلُ مُتَعَلِّقٌ وَجُودُهُ بِوَجُودِهِ، يُبَيِّنُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي مِثْلِ هَذِهِ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً ﴾ [الأعراف: 161]. فَعَطَفَ (كَلُوا) عَلَى قَوْلِهِ (اسْكُنُوا) بِـ (أَلْوَاوِ) دُونَ (أَلْفَاءِ)، لِأَنَّ (اسْكُنُوا) مِنَ السُّكْنَى، وَهِيَ الْمَقَامُ مَعَ طُولِ نُبْتٍ، وَالْأَكْلُ لَا يَخْتَصُّ وَجُودُهُ بِوَجُودِهِ، لِأَنَّ مَنْ يَدْخُلُ بُسْتَانًا قَدْ يَأْكُلُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ مُجْتَازًا، فَلَمَّا لَمْ يَتَعَلَّقِ الثَّانِي بِالْأَوَّلِ تَعَلَّقَ الْجَوَابُ بِالْإِبْتِدَاءِ وَجَبَ الْعَطْفُ بِـ (أَلْوَاوِ) دُونَ (أَلْفَاءِ)، وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الَّتِي بَدَأَتْ بِذِكْرِهَا: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾.

وَبَقِيَ أَنْ نُبَيِّنَ الْمُرَادَ بِـ (أَلْفَاءِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [الأعراف: 19]. مَعَ عَطْفِهِ عَلَى قَوْلِهِ (اسْكُنْ)، وَهُوَ أَنْ (اسْكُنْ)، يُقَالُ لِمَنْ دَخَلَ مَكَانًا، فَيُرَادُ بِهِ: الزَّمِ الْمَكَانَ الَّذِي دَخَلْتَهُ، وَلَا تَنْتَقِلْ مِنْهُ، وَيُقَالُ أَيْضًا لِمَنْ لَمْ يَدْخُلْهُ: (اسْكُنْ) هَذَا الْمَكَانَ، يَعْنِي (ادْخُلْهُ وَاسْكُنْهُ)، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ تَعْرِضُ عَلَيْهِ دَارًا يَنْزِلُهَا سَكْنَى، فَتَقُولُ: (اسْكُنْ هَذِهِ الدَّارَ، فَاصْنَعْ فِيهَا مَا شِئْتَ مِنَ الصَّنَاعَاتِ)، مَعْنَاهُ: (ادْخُلْهَا سَاكِنًا لَهَا، فَافْعَلْ فِيهَا كَذَا وَكَذَا)، فَعَلَى هَذَا أَلَوْجِهَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا ﴾ [الأعراف: 19]. بِـ (أَلْفَاءِ)، فَالْحَمْلُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَوْلَى، عَزَّ مِنْ قَائِلٍ وَجَلَّ قَالَ

لِإِبْلِيسَ: ﴿ اَخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَذْحُورًا ﴾ [الأعراف: 18], فَكَأَنَّهُ قَالَ لِآدَمَ: (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)، أَي: (ادْخُلْ)، فَيَقَالُ: (اسْكُنْ)، يَعْنِي (ادْخُلْ سَاكِنًا)، لِيُؤَافِقَ الدُّخُولُ الخُرُوجَ، وَيَكُونُ أَحَدُ الخُطَابَيْنِ لهُمَا قَبْلَ الدُّخُولِ، وَالْآخِرُ بَعْدَهُ، مُبَالَغَةٌ فِي الإِعْذَارِ، وَتَأْكِيدًا لِلإِنْدَارِ، وَتَحْقِيقًا لِمَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة: 35].

*** قال الغرناطي في سورة البقرة (مَلَاكُ التَّأْوِيلِ):

الآية السادسة من سورة البقرة (ص: 186 — 189):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة: 35], وَفِي سُورَةِ الأَعْرَافِ: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [الأعراف: 19].

فِي هَذَا سُؤَالِ الْآنِ:

الأوَّلُ: وَرُودُ أَمْرِهِمَا بِالْأَكْلِ فِي البَقْرَةِ بِـ (وَآو) النَّسَقِ الْمُقْتَضِيَةِ عَدَمَ التَّرْتِيبِ مَا لَمْ يُفْهَمَ مِنْ غَيْرِهَا، وَفِي الأَعْرَافِ: بِـ (أَلْفَاءِ) الْمُقْتَضِيَةِ التَّرْتِيبِ وَالتَّعْقِيبِ، وَالأَمْرُ وَاحِدٌ وَالْقِصَّةُ وَاحِدَةٌ

وَالثَّانِي: وَصَفُ الأَكْلِ فِي البَقْرَةِ بِـ (الرَّغْدِ)، وَلَمْ يَقَعْ هَذَا الوَصْفُ فِي الأَعْرَافِ، مَعَ اتِّحَادِ الأَمْرِ كَمَا ذَكَرْنَا.

وَالجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ الأوَّلِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -:

أَنَّ مَا وَرَدَ فِي الأَيَاتَيْنِ مُخْتَلَفٌ فِي المَوْضِعَيْنِ، أَمَا الوَارِدُ فِي البَقْرَةِ قَصْدَ بِهِ مُجَرَّدَ الإِخْبَارِ وَالإِعْلَامِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا جَرَى فِي قِصَّةِ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَابْتِدَاءِ خَلْقِهِ، وَأَمْرِ المَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَمَا جَرَى مِنْ إِبْلِيسَ فِي امْتِنَاعِهِ عَنِ السُّجُودِ، ثُمَّ مَا أَمَرَ آدَمَ مِنْ سُكْنَى الْجَنَّةِ، وَالْأَكْلِ مِنْهَا، وَلَمْ يَقْصِدْ غَيْرَ التَّعْرِيفِ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبِ زَمَانِيٍّ، أَوْ تَحْدِيدِ غَايَةٍ، فَنَاسِبَهُ (الوَاوُ) وَلَيْسَ مَوْضِعُ (أَلْفَاءِ).

وَأَمَّا آيَةُ الأَعْرَافِ، فَمَقْصُودُهَا تَعْدَادُ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ وَتَعَالَى عَلَى آدَمَ وَدُرِّيَّتِهِ، أَلَا تَرَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾، وَمَا اتَّبَعَ بِهِ هَذَا مِنْ ذِكْرِ الخَلْقِ وَالتَّصْوِيرِ، وَأَمْرِ المَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، ثُمَّ قَوْلِهِ مُفْرَدًا لِإِبْلِيسَ: ﴿ اَخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَذْحُورًا ﴾، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ، أَمَرَ آدَمَ ﷺ بِالهُبُوطِ، مُتَّبِعًا بِالتَّائِبِيسَ لَهُ، وَوَصِيَّةَ

دُرِّيَّتِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾، فَنَاسَبَ هَذَا الْقَصْدُ الْعَطْفَ بِـ (أَلْفَاءِ) الْمُقْتَضِيَةِ التَّرْتِيبِ، وَ (أَلَوَاؤِ) لَا تَقْتَضِي ذَلِكَ، وَإِنَّمَا بِأَبْهَاءِ الْجَمْعِ، حَيْثُ لَا يُرَادُ تَرْتِيبٌ، وَلَيْسَ مَوْضِعَ شَرْطٍ وَجَزَاءٍ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مُسَوِّغًا لِدُخُولِ (أَلْفَاءِ)، وَإِنَّمَا وَرَدَ هُنَا لِمَا ذَكَرْتُهُ مِنْ قَصْدِ تَجْرِيدِ التَّفْصِيلِ الْمَحْصَلِ لِتَعْدَادِ النَّعْمِ، وَلَمَّا اخْتَلَفَ الْقَصْدَانِ اخْتَلَفَتِ الْعِبَارَةُ عَنْهُمَا، فَوَرَدَ كُلُّ عَلَى مَا يُنَاسِبُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا السُّؤَالُ الثَّانِي فَالْجَوَابُ عَنْهُ:

أَنَّ وُرُودَ (الرَّغْدِ) فِي آيَةِ الْبَقْرَةِ، وَسُقُوطُ ذَلِكَ فِي الْأَعْرَافِ، إِنَّمَا ذَلِكَ لِأَنَّ مَعْنَى (مِنْ) هُنَا التَّبْعِيضُ، وَمَعْنَاهَا بِمَا هُوَ تَبْعِيضٌ قَدْ يَسْبِقُ مِنْهُ إِرَادَةُ التَّقْلِيلِ، وَهُوَ غَيْرُ مُرَادٍ هُنَا، وَإِنَّمَا مُصَرَّفُ التَّبْعِيضِ هُنَا إِلَى الْمَأْكُولِ مِنْهُ، فَإِنَّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا أَكَلَتْ مِنْهُ ذُرِّيَّةُ آدَمَ بِاجْمَعِهَا فَإِنَّمَا تَأْكُلُ بَعْضًا، إِذْ فِيهَا مِنْ كُلِّ مَتَنَعَمٍ بِهِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاجْتَمَعَ هُنَا أَنَّ الْبَعْضِيَّةَ مُرَادَةً بِالنَّظَرِ إِلَى مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ، وَإِبَاحَةَ التَّوَسُّعَةِ فِي أَكْلِهَا مَقْصُودَةً، وَلَيْسَ ثُمَّ مَا يُحْرِزُهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ رَعْدًا ﴾ لِيَحْصُلَ مَعْنَى التَّوَسُّعَةِ، وَتَجَرَّدَتْ (مِنْ) لِإِحْرَازِ مَعْنَاهَا، وَلَمْ يَكُنْ هُنَا بُدٌّ، إِذْ لَيْسَ فِي السِّيَاقِ مَا يُحْرِزُ ذَلِكَ الْمَعْنَى مِنَ التَّوَسُّعَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ لِإِبَاحَةِ مَا فِي أَمَاكِنِهَا، وَمِنْ الْمَحَالِ أَنْ يُبَاحَ لَهُمَا الْأَكْلُ مِنْ حَيْثُ شَاءَا مِنْهَا عَلَى اتِّسَاعِ الْمِسَاحَةِ وَكَثْرَةِ الْمَأْكَلِ، ثُمَّ يُحْجَرُ عَلَيْهِمَا التَّوَسُّعُ فِي الْأَكْلِ وَالتَّرَعُّدُ فِيهِ، هَذَا مُتَنَاقِضٌ.

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ وَقَعَ فِي سُورَةِ الْبَقْرَةِ ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾، وَتِلْكَ تَوْسُّعَةٌ فِي الْأَمَاكِنِ؟ قُلْتُ: لَيْسَ مَوْقِعُ ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ مَوْقِعُ ﴿ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾، لِأَنَّ ﴿ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ يُحْرِزُ وَيُعْطِي إِبَاحَةَ الْأَكْلِ مِنْ ثَمَرِ كُلِّ مَوْضِعٍ فِيهَا، أَمَّا (حَيْثُ) إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهَا (مِنْ) فَإِنَّهَا تُعْطِي بِأَظْهَرِ الْإِحْتِمَالَيْنِ إِبَاحَةَ الْأَكْلِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ، فَقَدْ يُقَالُ لِلشَّخْصِ: كُلْ هَذَا الْعُنُقُودَ حَيْثُ شِئْتَ مِنْ هَذَا الْبُسْتَانِ، فَإِنَّمَا أُبِيحَ لَهُ أَكْلُ عُنُقُودٍ مُعَيَّنٍ، مَخْصُوصٍ مِنْ حَيْثُ شَاءَ مِنْ أَمَاكِنِ ذَلِكَ الْبُسْتَانِ، وَلَمْ يَنْعَرَّضْ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ لِإِبَاحَةِ أَكْلِ مَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهُ إِلَّا بِإِحْتِمَالٍ ضَعِيفٍ، أَمَّا إِذَا قِيلَ لَهُ: كُلْ مِنْ حَيْثُ شِئْتَ مِنْ مَوَاضِعِ هَذَا الْبُسْتَانِ، فَقَدْ أُبِيحَ لَهُ الْأَكْلُ مِنْ كُلِّ مَا فِي مَوَاضِعِهِ، وَحَصَلَتِ التَّوَسُّعَةُ فِي الْمَأْكَلِ، وَلَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ عِنْدَ سُقُوطِ (مِنْ) عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَنفَاءً، فَقَدْ وَضَحَ افْتِرَاقُ

الْمَوْضِعَيْنِ، وَتَعَيَّنَ وُرُودُ **﴿ رَعَدًا ﴾** فِي الْبَقْرَةِ إِذْ لَيْسَ ثَمَّ مَا يُحَرِّزُهُ، وَتَعَيَّنَ سُقُوطُهُ فِي الْأَعْرَافِ لَوْجُودِ مَا يُحَرِّزُهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

*** قال ابن جماعة في سورة البقرة (كشَفُ الْمَعَانِي) (1/ 92 – 93):

مَسْأَلَةٌ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا ﴾** [البقرة: 35]، وَفِي

الْأَعْرَافِ: **﴿ فَكَلَا ﴾** بِـ (الْفَاءِ) ؟

جَوَابُهُ:

قِيلَ: إِنَّ السُّكْنَى فِي الْبَقْرَةِ: لِلْإِقَامَةِ، وَفِي الْأَعْرَافِ اتَّخَاذِ الْمَسْكَنِ، فَلَمَّا نَسَبَ الْقَوْلَ إِلَيْهِ تَعَالَى: **﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ ﴾**، نَاسَبَ زِيَادَةَ الْأَكْرَامِ بِـ (الْوَاوِ) الدَّالَّةَ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ السُّكْنَى وَالْأَكْلِ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِيهِ: **﴿ رَعَدًا ﴾**، وَقَالَ: **﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾** لِأَنَّهُ أَعَمُّ. وَفِي الْأَعْرَافِ: **﴿ وَيَا آدَمُ ﴾**، فَاتَى بِـ (الْفَاءِ) الدَّالَّةَ عَلَى تَرْتِيبِ الْأَكْلِ عَلَى السُّكْنَى الْمَأْمُورِ بِاتَّخَاذِهَا، لِأَنَّ الْأَكْلَ بَعْدَ الْإِتِّخَاذِ، وَ**﴿ مِنْ حَيْثُ ﴾** لَا يُعْطَى عُمُومَ مَعْنَى **﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾**.

مَسْأَلَةٌ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ﴾** [البقرة: 38]، وَفِي طَهَ: **﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴾**

[طه: 123] ؟

جَوَابُهُ:

يَحْتَمِلُ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ – أَنَّ (فَعَلَ) الَّتِي جَاءَ عَلَى وَزْنِهَا: **﴿ تَبِعَ ﴾** لَا يَلْزَمُ مِنْهُ مَخَالَفَةُ الْفِعْلِ قَبْلَهُ، وَ(افْتَعَلَ) الَّتِي جَاءَ عَلَى وَزْنِهَا: **﴿ اتَّبَعَ ﴾** يُشْعِرُ بِتَجْدِيدِ الْفِعْلِ، وَبَيَانُ قِصَّةِ آدَمَ هُنَا لِفِعْلِهِ، فَجِيءَ بِـ **﴿ تَبِعَ هُدَايَ ﴾**، وَفِي طَهَ جَاءَ بَعْدَ قَوْلِهِ: **﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾** [طه: 115]، فَنَاسَبَ **﴿ مَنْ اتَّبَعَ ﴾**، أَيْ: جَدَّدَ قِصَّةَ الْإِتِّبَاعِ.

*** قال الكرمانى في سورة البقرة (أَسْرَارُ التَّكْرَارِ فِي الْقُرْآنِ) (1/ 25 –

26):

قَوْلُهُ: **﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَا ﴾** [البقرة: 35] بِـ (الْوَاوِ)، وَفِي

الْأَعْرَافِ **﴿ فَكَلَا ﴾** بِـ (الْفَاءِ)، **﴿ اسْكُنْ ﴾** فِي الْآيَتَيْنِ لَيْسَ بِأَمْرٍ بِالسُّكُونِ الَّذِي هُوَ

ضِدَّ الْحَرَكَةِ، وَإِنَّمَا الَّذِي فِي الْبَقْرَةِ مِنَ السُّكُونِ الَّذِي مَعْنَاهُ الْإِقَامَةُ، وَذَلِكَ يَسْتَدْعِي زَمَانًا مُمْتَدًّا، فَلَمْ يَصْلُحْ إِلَّا بِ (الْوَاوِ)، لِأَنَّ الْمَعْنَى: إِجْمَعُ بَيْنَ الْإِقَامَةِ فِيهَا وَالْأَكْلِ مِنْ ثَمَارِهَا، وَلَوْ كَانَ (الْفَاءُ) مَكَانَ (الْوَاوِ) لَوَجِبَ تَأْخِيرُ الْأَكْلِ إِلَى الْفَرَاغِ مِنَ الْإِقَامَةِ، لِأَنَّ (الْفَاءُ) لِلتَّعْقِيبِ وَالتَّرْتِيبِ، وَالَّذِي فِي الْأَعْرَافِ مِنَ السُّكُونِ الَّذِي مَعْنَاهَا إِتِّخَاذُ الْمَوْضِعِ مَسْكَنًا، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنَ الْجَنَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا ﴾ [الْأَعْرَافِ: 18]، وَخَاطَبَ آدَمَ فَقَالَ: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 19]، أَيْ إِتِّخَاذَهَا لِأَنْفُسِكُمْ مَسْكَنًا، ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 19]، ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [الْأَعْرَافِ: 19]، فَكَانَتْ (الْفَاءُ) أَوْلَى، لِأَنَّ إِتِّخَاذَ الْمَسْكَنِ لَا يَسْتَدْعِي زَمَانًا مُمْتَدًّا، وَلَا يُمَكِّنُ الْجَمْعَ بَيْنَ الْإِتِّخَاذِ وَالْأَكْلِ فِيهِ، بَلْ يَقَعُ الْأَكْلُ عَقِيبَهُ، وَزَادَ فِي الْبَقْرَةِ ﴿ رَعْدًا ﴾، لَمَّا زَادَ فِي الْخَبَرِ تَعْظِيمًا، بِقَوْلِهِ ﴿ وَقُلْنَا ﴾، بِخِلَافِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ فَإِنَّ فِيهَا ﴿ قَالَ ﴾. (....) كَلَامٌ غَيْرُ مَفْهُومٍ ذَكَرَ فِيهِ الْخَطِيبُ (....).

ب - الْمِفْصَلُ الثَّانِي: وَسُوسَةُ إِبْلِيسَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَازْلَمْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [الْبَقْرَةِ: 36].

2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 20 - 22].

3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طه: 120 - 121].

ج - الْمِفْصَلُ الثَّلَاثُ: عِصْيَانُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَوْبَتُهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ

1 - قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 36 - 38].

2 - وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَلَّلَاهُمَا بَعْرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْنَا لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: 22 - 25].

3 - وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: 121 - 123].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

*** قال الغرناطي في سورة البقرة (مَلَأُ التَّأْوِيلِ):

الآية السابعة (ص: 189 - 190):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ [البقرة: 38].
وَفِي الْأَعْرَافِ: ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الأعراف: 24]. وَفِي سُورَةِ طه:
﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه: 123].

وَيَسْأَلُ:

عَنْ أَيِّ شَيْءٍ لَمْ تَرِدْ هَذِهِ الزِّيَادَةُ فِي قَوْلِهِ فِي الْبَقَرَةِ: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ ؟

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ:

أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ ذَلِكَ هُنَا، اِكْتِفَاءً بِمَا فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ وَفَلْنَا اهْبُطُوا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾، فَلُو قِيلَ: ذَلِكَ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا مَعَ الْإِتِّصَالِ وَالتَّقَارُبِ لِكَانَ
تَكَرَّرًا لَا يُحَرِّزُ فَائِدَةً لَمْ تَحْصُلْ بِخِلَافِ مَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَسُورَةِ طهَ، فَوَرَدَ كُلُّ
عَلَى مَا يَجِبُ وَيُنَاسِبُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية الثامنة (ص: 190 — 194):

قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْبَقَرَةِ: ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ﴾ [البقرة: 38]. وَفِي سُورَةِ طهَ:
﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ [طه: 123].

هُنَا سُؤَالَانِ:

1 — مَا فَائِدَةُ اخْتِلَافِهِمَا؟ وَمَا وَجْهُ تَخْصِيصِ كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهُمَا بِمَا اخْتَصَّ بِهِ؟
وَالْجَوَابُ عَنْهُ — وَاللَّهُ أَعْلَمُ —:

﴿ تَبِعَ ﴾ وَ﴿ اتَّبَعَ ﴾ مُحْصَلَانِ لِلْمَعْنَى عَلَى الْوَفَاءِ، وَ﴿ تَبِعَ ﴾ فِعْلٌ، وَهُوَ الْأَصْلُ،
وَ﴿ اتَّبَعَ ﴾ فَرْعٌ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ يَزِيدُ عَلَيْهِ، وَهُوَ مُبْنِيٌّ عَنْ زِيَادَةٍ فِي مَعْنَى (فَعَلَ)
بِمُقْتَضَى التَّضْعِيفِ، فَعَلَى هَذَا وَبِحَسَبِ لِحْظِهِ وَرَعِيهِ، وَرَدَ ﴿ فَمَنْ تَبِعَ ﴾ وَ﴿ فَمَنْ
اتَّبَعَ ﴾، وَتَقَدَّمَ فِي التَّرْتِيبِ الْمُتَقَرَّرِ، ﴿ فَمَنْ تَبِعَ ﴾، لِإِنْبَائِهِ عَنِ الْإِتِّبَاعِ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّلٍ،
وَلَا تَكَلُّفٍ، وَلَا مَشَقَّةٍ، فَإِنَّ هَذِهِ الْبِنْيَةَ أَعْنَى بِنْيَةِ إِفْتَعَلَ، تَنْبِيٌّ عَنْ تَعَمُّلٍ وَتَحْمِيلٍ
لِلنَّفْسِ، فَقَدَّمَ مَا لَا تَعَمُّلَ فِيهِ، وَأَخَّرَ ﴿ اتَّبَعَ ﴾ لِمَا يَقْتَضِيهِ مِنَ الزِّيَادَةِ، وَلَمْ تَكُنْ إِحْدَى
الْعِبَارَتَيْنِ لِتُعْطِيَ الْمَجْمُوعَ، فَقَدَّمَ مَا هُوَ أَصْلٌ، وَأَخَّرَ مَا هُوَ فَرْعٌ عَنِ الْأَوَّلِ، وَكِلَاهُمَا
هُدَى وَرَحْمَةٌ، وَوَرَدَ كُلُّ عَلَى مَا يُنَاسِبُ وَيُلَاقِ.

وَجَوَابُ ثَانٍ يُنْبِئُ عَلَيْهِ مَا تَقَدَّمَ، فَيَكُونُ جَوَابًا وَاحِدًا، وَهُوَ:

وَأَنَّ ﴿ اتَّبَعَ ﴾ مَزِيدٌ، مُبْنِيٌّ عَنِ التَّعَمُّلِ، وَالْعِلَاجُ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَلَا يُفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ
﴿ تَبِعَ ﴾، الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ، وَإِنَّمَا يُنْبِئُ فِي الْأَظْهَرِ عَنْ قَضِيَّةٍ يَنْتَلُو فِيهَا التَّابِعُ الْمَتَّبِعَ،
مُنْتَقِدًا بِهِ فِي فِعْلِهِ، مِنْ غَيْرِ كَبِيرِ تَعَمُّلٍ، وَلَا عِلَاجٍ، وَكُلٌّ مِنَ الْعِبَارَتَيْنِ أَعْنَى: ﴿ تَبِعَ ﴾
وَ﴿ اتَّبَعَ ﴾، إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْعَالِبِ، حَيْثُ يُرَادُ مُقْتَضَاهُ مِمَّا بَيْنَا، أَلَا تَرَى قَوْلَ الْخَلِيلِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي إِخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ [إبراهيم: 36].
حِينَ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ إِلَى الْخَاصَّةِ مِنْ سَالِكِي سَبِيلِهِ بِاتِّبَاعِهِ الْقَدِيمِ، فَعَبَّرَ
بِمَا يُشِيرُ إِلَى غَايَةِ التَّمَسُّكِ وَالْقُرْبِ حِينَ قَالَ: ﴿ مِنِّي ﴾، فَنَاسَبَ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ تَبِعَنِي ﴾،

يُرِيدُ الْجَزِيَّ عَلَى مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ، وَمَيَّزَ الْحَقَّ بِدِيهَا بِسَابِقَةِ التَّوْفِيقِ، مِنْ غَيْرِ إِطَالَةٍ نَظَرٍ، أَوْ كَبِيرِ عِلَاجٍ، لِسَبْقِيَّةِ الْهُدَى، وَوُضُوحِ الشَّوَاهِدِ، وَفِي طَرْفٍ مِنْ حَالِ هَوْلَاءِ مَنْ قِيلَ فِيهِ: **﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾** [الْقَصَصِ: 50]، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَأَمْثَالُهَا مُرَادٌ بِهَا مِنْ تَعَامَى عَنِ النَّظَرِ فِي الدَّلَالَاتِ، وَتَرَكَ وَاضِحَ الْأَعْتِبَارِ، وَحَمَلَ نَفْسَهُ بِقَدْرِ اللَّهِ عَلَى مَا لَا يَشْهَدُ لَهُ نَظْرٌ، وَلَا يَقُومُ عَلَيْهِ بُرْهَانٌ، فَكَانَ هَوْلَاءِ تَعَمَّلُوا فِي ذَلِكَ، وَعَالَجُوا أَنْفُسَهُمْ حَتَّى انْقَادَتْ طِبَاعُهُمْ إِلَى غَيْرِ مَا تَشْهَدُ بِهِ مِنَ الْفِطْرَةِ، وَلِذَلِكَ اسْتَعِيرَ لِمَنْ جَرَى عَلَى حَالِ هَوْلَاءِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، فَقِيلَ: **﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾** [البقرة: 16]، لَمَّا كَانَ مَا بَسَطَ مِنَ الدَّلَائِلِ، وَنَصَبَ مِنَ الْآيَاتِ وَالشَّوَاهِدِ وَاضِحًا، وَكَانُوا ذَوِي أَسْمَاعٍ وَأَبْصَارٍ وَأَفْئِدَةٍ، فَمَا اعْتَبَرُوا، وَلَا أُجِدَتْ عَلَيْهِمْ، كَانَ سُلُوكُهُمْ سُبُلَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ، تَعَمَّلًا وَتَرَكَاً لِلرُّشْدِ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَلِذَلِكَ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ حَالِ هَوْلَاءِ فِي فِعْلِهِمْ وَمُرْتَكِبِهِمْ بِالْجُحُودِ، فَسَمَّاهُ بِهِذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾** [الأحقاف: 26].

وَلَا يُقَالُ (جَحَدَ) إِلَّا فِيمَنْ كَتَمَ مَعْلُومًا بَعْدَ حُصُولِهِ، وَتَظَاهَرَ بِبَاطِلٍ، فَقَدْ أَعْمَلَ نَفْسَهُ فِي ذَلِكَ، فَعَبَّرَ عَنْ مِثْلِ هَذَا بِـ **﴿ اتَّبَعَ ﴾**، وَلَمْ يَكُنْ مَوْضِعَ **﴿ تَبِعَ ﴾**، وَكَذَلِكَ قِيلَ لِمَنْ وَسِمَ بِالْإِسْرَافِ فِي الْمَخَالَفَاتِ مِنْ عَصَاةِ الْمُؤَحِّدِينَ، فَقِيلَ لَهُمْ: **﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾** [الزمر: 55]، وَذَلِكَ لِإِلْفَتِهِمُ الْمَخَالَفَاتِ، وَانْقِيَادِ نُفُوسِهِمْ لَهَا، حَتَّى احْتَأَجُّوا فِي الْإِقْلَاعِ عَنْ ذَلِكَ، وَالْأَخْذِ فِي خِلَافِ حَالِهِمْ إِلَى التَّعَمُّلِ وَالْعِلَاجِ، وَكَذَا قِيلَ لِمَنْ أَلْفَ الطَّاعَاتِ، وَارْتَاضَ لِإِنْتِزَامِهَا: **﴿ لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ﴾** [النور: 21]، لِإِلْفَةِ نُفُوسِهِمُ الطَّاعَاتِ، حَتَّى إِنَّهُمْ إِنْ وَقَعَتْ مِنْهُمْ مُخَالَفَةٌ، فَبِتَعَمُّلٍ وَعِلَاجٍ، لِأَنَّهَا خِلَافُ الْمَأْلُوفِ، فَتَأَمَّلْ مَا يَرُدُّ مِنْ هَذَا، فَإِنَّهُ يُوضِّحُ بَعْضَهُ.

وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا، فَتَأَمَّلْ مَا بَيْنَ الْقَضِيَّتَيْنِ، فَأَقُولُ: لَمَّا تَقَدَّمَ فِي آيَةِ الْبَقْرَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾** [البقرة: 35]، إِلَى قَوْلِهِ: **﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ﴾**، وَلَمْ يَرُدَّ فِيهَا مِمَّا كَانَ مِنْ إِبْلِيسَ سِوَى مَا أَخْبَرَ بِهِ تَعَالَى عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ: **﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾** [البقرة: 36]، مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِكَيْفِيَّةِ تَنَاوُلِهِ مَا فَعَلَ، وَلَا إِبْدَاءِ عِلَّةٍ، وَلَا كَبِيرِ مُعَالَجَةٍ، نَاسِبَ هَذَا: **﴿ تَبِعَ ﴾**، وَلَمَّا وَرَدَ

فِي آيَةِ طَهَ ذِكْرُ الْكَيْفِيَّةِ فِي إِغْوَائِهِ بِقَوْلِهِ لَهُ: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ [طه: 120]، وَقَدْ حَصَلَ فِي هَذَا الْإِشَارَةَ إِلَى مَا بَسَطَ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْأَعْرَافِ: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف: 20]، وَقَسَمَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَكَانَ هَذَا كُلُّهُ قَدْ تَحَصَّلَ مَذْكَورًا فِي آيَةِ طَهَ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ، فَأَفْهَمَتِ الْآيَةَ قُوَّةَ كَيْدِ اللَّعِينِ، وَاسْتَحْكَامَ حِيلَتِهِ، حَتَّى اخْتَنَكَ الْكَثِيرَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى عِبَادَةِ الطَّوَاعِيتِ، وَتَلَقَّتِ النَّفُوسُ الْمُتَعَاقِبَةُ ذَلِكَ مِنْهُ بَقْبُولٍ، فَصَارَ تَمْيِيزُ الْحَقِّ لَّا يَحْصُلُ إِلَّا بِمُعَالَجَةٍ وَتَعَمُّلٍ، فَنَاسَبَهُ ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ ﴾، كَمَا نَاسَبَ مَا تَقَدَّمَ فِي آيَةِ الْبَقْرَةِ ﴿ فَمَنْ تَبِعَ ﴾، مِنْ حَيْثُ لَمْ يُبَسِّطْ فِيهَا مِنْ كَيْدِ اللَّعِينِ مَا بَسِطَ فِي آيَةِ طَهَ، فَوَرَدَ كُلُّ عَلَى مَا يُنَاسِبُ، مَعْنَى، وَنَظْمًا، وَإِيجَازًا، وَإِطَالَةً بِإِطَالَةٍ، ثُمَّ إِذَا لِحِظَ التَّرْتِيبُ، فَالْجَارِي عَلَى رَعِيَّةٍ تَقْدِيمِ مَا هُوَ الْأَصْلُ، وَتَأْخِيرِ مَا هُوَ الْفَرْعُ، فَقِيلَ فِي آيَةِ الْبَقْرَةِ: ﴿ فَمَنْ تَبِعَ ﴾، وَفِي آيَةِ طَهَ: ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ ﴾، وَحَصَلَ رَعْيُ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ، وَوَضَحَ أَنَّهُ مُقْتَضَى النَّظْمِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

*** قال الكرمانى في سورة البقرة (أسرار التكرار في القرآن) (1 / 25 –

26):

قَوْلُهُ: ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا ﴾ [البقرة: 38]، كَرَّرَ الْأَمْرَ بِالْهَبْطِ، لِأَنَّ الْأَوَّلَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالثَّانِي مِنَ السَّمَاءِ.
قَوْلُهُ: ﴿ فَمَنْ تَبِعَ ﴾ [البقرة: 38]، وَفِي طَهَ: ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ ﴾ [طه: 123]، ﴿ تَبِعَ ﴾ وَ﴿ اتَّبَعَ ﴾ بِمَعْنَى، وَإِنَّمَا اخْتَارَ فِي طَهَ ﴿ اتَّبَعَ ﴾، مُوَافَقَةً لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ﴾ [طه: 108].

قِصَّةُ نَبِيِّ آلِهِ نُوحٍ عليه السلام

مُجْمَلِ الْقِصَّةِ

مُجْمَلُ الْقِصَّةِ:

1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿[الْأَعْرَافِ: 59 - 64].

2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عَمَةً ثُمَّ افْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿[يُونُسَ: 71 - 73].

3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْ كُتُوبَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ

كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرَمُونَ (35) وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَآ كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَاوِي إِلَى جِبَلٍ يَغْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ هُودٍ: 25 - 48﴾.

4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَعْرِضْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء: 76 - 77].

5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا

الأُولَيْنِ (24) إِنَّهُ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (25) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿ [المؤمنون: 23 - 30].

6 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (110) قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ (111) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَنْ لِمَ تَنْتَهِي يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿ [الشعراء: 105 - 120].

7 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿ [العنكبوت: 14 - 15].

8 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلْنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿ [الصافات: 75 - 82].

9 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ

الْوَاحِ وَدُسِرَ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَذَكِرٍ ﴿ [الْقَمَرِ: 9 - 15].

10 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التَّحْرِيمِ: 10].

11 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدْكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجْكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24) مِمَّا خَطَبْنَا تَحْتَهُمْ أَعْرَفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوكَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28) ﴾ [سُورَةُ نُوحٍ].

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

قِصَّةُ نَبِيِّ

اللَّهِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

أَلْفَصْلُ الرَّابِعِ

قِصَّةُ نَبِيِّ آلِهِ نُوحٍ عليه السلام
الجزء الأول

المشاهد التفصيلية لقصة نوح عليه السلام الجزء الأول

الفضاء الزماني:

نوح عليه السلام نبي من أنبياء الله عز وجل، ومن أولي العزم من الرسل، الذين قال الله تعالى في شأنهم موصيا نبيه محمد ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]، وقد اختلف في تعيينهم، وأشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام¹.

وقال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]، وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7].

يعتبر نوح عليه السلام هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: 163]، و" مفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾: أن نوحاً أول نبي مرسل أوحى الله إليه رسالته وشرعه، ويؤيده في الجملة هذه الآيات التي نفسرها، وما في معناها، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: 26] ... ويؤيده بالنص الصريح حديث الشفاعة المتفق عليه، من حديث أنس بن مالك، وأبي هريرة، والأول أصرح قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة، فيهتمون لذلك، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا، فأراحنا من مكاننا هذا! فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك، حتى يريحنا من مكاننا هذا... فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذي أصابه،

¹ - ينظر: أضواء البيان، الشنقيطي، (241/7).

فَيَسْتَحِي مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنْ انْتُوا نُوحًا، أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَيَأْتُونَ نُوحًا ¹. **الْحَدِيثُ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ** ² **أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لَهُ: « يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلَ الرَّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ »** ³. **الْحَدِيثُ** ⁴.

وكان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون من الزمن، روى ابن حبان والطبراني وغيرهما، عن أبي أمامة رضي الله عنه، أن رجلاً، قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنبِيَّ كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: « نَعَمْ، مُكَلَّمٌ »، قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: « عَشْرَةَ قُرُونٍ » ⁴. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: " كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةَ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ " ⁵.

اختلف العلماء في تحديد معنى القرن، فمنهم من جعله مرتبطاً بعدد السنين، ومنهم من جعله متعلقاً بالجيل من الناس، قال ابن كثير: " فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْقُرْنِ مِائَةَ سَنَةٍ - كَمَا هُوَ الْمُتَبَادَرُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ - فَبَيْنَهُمَا أَلْفُ سَنَةٍ، لَا مَحَالَةَ، لَكِنْ لَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ، بِاعْتِبَارِ مَا قَيَّدَ بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالْإِسْلَامِ، إِذْ قَدْ يَكُونُ بَيْنَهُمَا قُرُونٌ أُخْرَى مُتَأَخِّرَةً، لَمْ يَكُونُوا عَلَى الْإِسْلَامِ، لَكِنَّ حَدِيثَ أَبِي أَمَامَةَ يَدُلُّ عَلَى الْحَصْرِ فِي عَشْرَةِ قُرُونٍ، وَزَادَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ كَانُوا عَلَى الْإِسْلَامِ ... وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْقُرْنِ الْجِيلَ مِنَ النَّاسِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الأنعام: 17]، وَقَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [المؤمنون: 31]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: 38]، وَقَالَ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ [مريم: 74].

¹ - حديث صحيح، متفق عليه، رواه البخاري، حديث رقم (6565)، ورواه مسلم، حديث رقم (495).

² - حديث صحيح، رواه البخاري، حديث رقم (3340).

³ - تفسير المنار، رشيد رضا، (502/7).

⁴ - حديث صحيح، رواه ابن حبان، حديث رقم (6190)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير، المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، حديث رقم (7545)، وفي المعجم الأوسط، المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، مصر، سنة الطبع: 1415هـ، حديث رقم (403).

⁵ - حديث صحيح موقوف، رواه الحاكم، وغيره، حديث رقم (3654)، وقال الحاكم: " هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ".

وَكَقَوْلِهِ ﷺ: « **خَيْرُ الْقُرُونِ قُرْنِي** »¹ الْحَدِيثُ. فَقَدْ كَانَ الْجِيلُ قَبْلَ نُوحٍ يُعْمَرُونَ الدُّهُورَ الطَّوِيلَةَ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ أَلُوفٌ مِنَ السِّنِينَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ².
تبدأ قصة نوح عليه السلام مع آية في سورة سميت باسمه، حين ذكر الله عز وجل تكذيب قومه له، فحكى الله على لسانهم: ﴿ **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴾ [نوح: 23]، فقد كان الناس كلهم على شريعة الحق كما تبين، حتى أوقع الشيطان فيهم الشرك، فعبدوا خمسة أصنام من دون الله عز وجل، وهي كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: « **أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا، أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ أَنْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أَوْلَادُكَ، وَتَسَخَّ الْعِلْمُ، عُبِدَتْ** »³. وقال ابن جرير: " **عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ (وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)**، قَالَ: كَانُوا قَوْمًا صَالِحِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَكَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَفْتَدُونَ بِهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا قَالَ أَصْحَابُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَفْتَدُونَ بِهِمْ: لَوْ صَوَّرْنَاكُمْ كَمَا أَشَقَقْنَا لَنَا إِلَى الْعِبَادَةِ إِذَا دُكِّرْنَاكُمْ، فَصَوَّرُوهُمْ، فَلَمَّا مَاتُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ دَبَّ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ الْمَطَرَ، فَعَبَدُوهُمْ⁴."

وبقيت هذه الأصنام تعبد من دون الله إلى مجيء الإسلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: « **صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدَ، أَمَّا (وَدٌّ)⁵ كَانَتْ لِكَلْبٍ، بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا (سُوَاعٌ) كَانَتْ لِهَذِيلٍ، وَأَمَّا (يَغُوثٌ)**

¹ - رواه البزار بهذا اللفظ، حديث رقم (4508)، مسند البزار، (المطبوع باسم البحر الزخار)، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار. تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: 2009م. ورواه البخاري، في صحيحه، حديث رقم (2652)، ومسلم، حديث رقم (6635)، وغيرهما، بلفظ: « **خَيْرُ النَّاسِ قُرْنِي** » الحديث.

² - البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1408 هـ / 1988م، (114/1).

³ - حديث صحيح موقوف، رواه البخاري، في صحيحه، حديث رقم (4539).

⁴ - تفسير الطبري، (639/23).

⁵ - قال الطبري: " **وَاخْتَلَفَتِ الْقُرَاءُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ: (وَدًّا)، فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَاءِ الْمَدِينَةِ: (وَدًّا) بِضَمِّ الْوَاوِ. وَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَاءِ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ: (وَدَا) بِفَتْحِ الْوَاوِ. وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنَّهُمَا قِرَاءَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ فِي قُرَاءِ الْأَمْصَارِ، فَبَيَّتَهُمَا قَرَأَ الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ "**، (640/23).

فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي عَطِيفٍ بِالْجُرْفِ عِنْدَ سَبَا، وَأَمَّا (يَعُوقُ) فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا (نَسْرٌ) فَكَانَتْ لِحَمِيرَ لَالٍ ذِي الْكَلَاعِ»¹.

فلما دب الشرك في قوم نوح عليه السلام أرسله الله عز وجل ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلام الشرك إلى نور التوحيد، ومن هذا المنطلق تبدأ القصة.

الْمَشَاهِدُ التَّفْصِيلِيَّةُ لِقِصَّةِ نُوحٍ ﷺ

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

1 - الْمَشْنَهْدُ الْأَوَّلُ

رِسَالَةُ نُوحٍ ﷺ وَبِدَايَةُ الدَّعْوَةِ

- 1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59].
- 2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: 25 - 26].
- 3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: 23].
- 4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء: 105 - 110].
- 5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ [نوح: 1 - 2].

¹ - حديث صحيح موقوف، رواه البخاري، في صحيحه، حديث رقم (4539).

قص الله عز وجل علينا قصة أول رسول أرسله إلى أهل الأرض، بعد ما انحرفت ذرية آدم عليه السلام عن جادة الحق، فذب فيهم الشرك، وعبدوا الآلهة من دون الله، و﴿ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْنِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: 20]، فعبدوا أصناما وحجارة من دون الله، لا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل، ولا تنفع، ولا تضر.

المفصل الأول: الإنذار بين يدي العذاب

جاءت الآيات تحكي قصة نوح عليه السلام، في كثير من المواطن في القرآن الكريم، بصياغات وعبارات تختلف من موضع إلى آخر، ويرجع سبب هذا الاختلاف كما قرره العلماء إلى تعدد مواقف الدعوة وتكررها، فإن لكل رسول صولات وجولات مع قومه، وهو يدعوهم إلى غير الذي كانوا عليه، فتتباين أقواله، وتختلف أساليب دعوته لهم، بحسب المقام الذي يكون فيه، فتأتي الآيات لتصور تلك المقامات والمشاهد في غاية من الدقة، وقمة من التصوير المعجز، قال الإسكافي: " إنَّ لِلنَّبِيِّاءِ صَلَواتِ اللَّهِ عَلَيْهِم مَقاماتٍ مَعَ أُمَّمِهِم، يُكَرَّرُ فِيها الإِندارُ وَالإِنذارُ، وَيُرْجَعُ فِيها عَودًا عَلى بَدءِ، الوَعْدِ وَالوَعِيدِ، وَلا يَكُونُ دُعاؤُهُم إِلى الإِيمانِ بِاللَّهِ، وَرَفُضِ عِبادَةِ ما سِوى اللَّهِ تَعالى في مَواقِفِ واحِدٍ، بِلَفْظِ واحِدٍ، لا يَتَغَيَّرُ عَن حَوالِهِ، مِثْلَ الواعِظِ يَفْتَنُ في مَقالِهِ، وَالجَاحِدِ المُنكَرِ تَخْتَلِفُ أَجوابُهُ في مَواقِفِهِ "1.

وبين الغرناطي: " أنَّ دُعاءَ الرُّسُلِ أُمَّمَهُم مِمّا يَتَكَرَّرُ وَيَتَوالى في أوقاتٍ مُختلِفَةٍ، وَمَحالٍ مُتباينَةٍ، فَمَرَّةً يُرغِبُونَ، وَمَرَّةً يُخَوِّفُونَ وَيُنذِرُونَ ... فَأخْتِلافُ المَحكيِّ مِنَ مَقالِهِم، إِنما هُوَ بِحَسَبِ اخْتِلافِ الأوقاتِ، وَما يَناسِبُ كُلَّ وَقْتٍ وَقَتِّ، وَما يَجري فِيهِ وَيُشاهِدُ مِنَ أَقوالِ المَدعُويِّينَ وَأحوالِهِم، وَكُلُّ المَحكيِّ مِنَ مَعنى مَقالَتِهِم لا إِشكالَ فِيهِ ... فَلكُلِّ مَقالٍ مَقالٌ، فلا سَؤالَ في المَحكيِّ مِنَ قولِ نوحِ عليه السلام لِقومِهِ واخْتِلافِ ذلكَ، وَإِنما السُّؤالُ في اخْتِصاصِ كُلِّ سُورَةٍ بِالأورِدِ فِيها مِنَ حِكايةِ كَلامِهِ عليه السلام، إِذْ لا يَذكُرُ في كُلِّ سُورَةٍ إِلا ما يَناسِبُ "2.

1- درة التنزيل، الإسكافي، (ص: 109 - 110).

2- ملك التاويل، الغرناطي، (513/1 - 514).

يحاول العلماء تأويل ما جاء من متشابه القصص بحسب السياق الذي وردت فيه الآيات، وربط ذلك بالسياق العام الذي جاءت فيه السورة، فتظهر من خلال تأويلاتهم وجوه من الإعجاز تقف أمامها العقول مدهوشة، ولكن يبقى تصوير المشهد في القصة، وتبيين دقائقه وتفصيله مربوطا ببنية الألفاظ والصيغ والعبارات بحد ذاتها، والتي جاءت لتعبر عن حال بعينها، بحيث لا يستطيع غيرها أن يحل محلها، أو أن يأتي لفظ آخر فيقوم مقامها.

ذكرت في هذا المشهد خمسة مواطن من القرآن الكريم قصت علينا بداية القصة، فتنوعت فيها التصويرات، وتعددت فيها طريقة وأسلوب الحكى، وأول ما يلفت انتباه المتلقي وهو يتأمل النصوص التي بين يديه، ويحاول أن يرتب أحداثها، يلفت انتباهه آخر نص من النصوص المذكورة حسب ترتيبها في المصحف، وهي آيات سورة نوح عليه السلام، حيث يقول تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح:1]، فهذه الآية تحكي أول الأمر، وبداية الرسالة، فتبدأ السورة " بتقرير مصدر الرسالة والعقيدة، وتوكيده: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، فهذا هو المصدر الذي يتلقى منه الرسل التكليف، كما يتفقون حقيقة العقيدة، وهو المصدر الذي صدر منه الوجود كله، وصدرت منه الحياة، وهو الله الذي خلق البشر وأودع فطرتهم الاستعداد لأن تعرفه وتعبده، فلما انحرفوا عنها، وزاغوا، أرسل إليهم رسله، يرثونهم إليه، ونوح عليه السلام كان أول هؤلاء الرسل بعد آدم عليه السلام "1، وفي " إسناد الفعل إلى ضمير العظمة مع تأكيد الجملة ما لا يخفى من الاعتناء بأمر إرساله عليه السلام إلى قومه "2.

عاش نوح عليه السلام بين ظهرائي قوم زاغوا عن طريق الحق، فخالفوا فطرة الله التي فطرهم عليها، وكانت بداية دعوته لهم بكلمات تقرر أسماعهم، وتعالج زيغهم، بحسب الحال التي كانوا عليها، فتناسبت كلماته مع أحوالهم، وقد اختصرت فحوى

1- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة الخامسة والثلاثون، سنة الطبع: 1425هـ / 2005م، (3710/6).

2- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألويسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1415هـ، (76/15) -

الرسالة في كلمة (الإنذار)، قال تعالى: ﴿ أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح:1].

جعل المفسرون قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَنْذِرَ ﴾ أصله: " (بِأَنْ أَنْذِرَ)، فَحَذَفَ الْجَارَ، وَأَوْصَلَ الْفِعْلَ بِـ (أَنْ)، وَهِيَ (أَنْ) النَّاصِبَةُ لِلْفِعْلِ، وَالْمَعْنَى: (أَرْسَلْنَاهُ بِأَنْ قُلْنَا لَهُ أَنْذِرْ)، أَي: (أَرْسَلْنَاهُ بِالْأَمْرِ بِالْإِنْذَارِ). وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُفَسِّرَةً، لِأَنَّ الْإِزْسَالَ فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ "1. فلما تلقى نوح عليه السلام هذه الرسالة من ربه أسرع في دعوة قومه منذرا إياهم: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [هود: 25].

فكانت أول وقفة وقفها نوح عليه السلام مع قومه هي إنذارهم وتحذيرهم من عذاب الله، إذ لم يكن بين القوم مؤمن فيبشره، فكان المقام يقتضي الإنذار والتخويف، وهو بداية الرسالة وفحواها، مشابها في ذلك حال الرسل عليهم السلام، وعلى رأسهم محمد صلى الله عليه وسلم، حين قال له ربه: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) فَمُ فَاذْنُرْ ﴾ [المدثر: 1 - 2].

ويفسر معنى الإنذار ما رواه البخاري ومسلم، " عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: 214]: وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ. خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: « يَا صَبَاخَاهُ ». فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتَفُ؟ قَالُوا: مُحَمَّدٌ. فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: « يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنْأَفٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ » فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ ». قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا. قَالَ: « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » "2.

ومما يؤكد أن هذا الإنذار كان قبل الدعوة إلى العبودية ما جاء في سورتي الأعراف: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: 59]، وسورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [المؤمنون: 23]، فجاء بـ " (الْفَاءِ) دَالَّةً عَلَى أَنَّ الثَّانِي بَعْدَ الْأَوَّلِ "3، فكان أول مقام في تبليغ الرسالة: الإنذار، ثم الدعوة إلى

1- الكشاف، الزمخشري، (615/4)-

2- حديث صحيح، متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، رواه البخاري، حديث رقم (4770)، ورواه مسلم واللفظ له، حديث رقم (529)-

3- تفسير القرطبي، (232/7)-

التوحيد، ثم ذكر العذاب، وهذا ما بينه قوله تعالى في سورة هود: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ** ﴾ [هُود: 25 - 26]، فبعد أن جاءهم بالرسالة، مستجيباً لأمر ربه، قال لهم: ﴿ **إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [هُود: 25]. قَالَ الْكُرْمَانِيُّ: " قَوْلُهُ: ﴿ **أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ** ﴾ [الأعراف: 59]، بِـ (الْفَاءِ) فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَكَذَلِكَ فِي الْمُؤْمِنُونَ فِي قِصَّةِ نُوحٍ: ﴿ **فَقَالَ** ﴾، وَفِي هُودٍ فِي قِصَّةِ نُوحٍ: ﴿ **إِنِّي لَكُمْ** ﴾، بغير (قَالَ)، وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ فِي قِصَّةِ عَادٍ بغير (فَاءِ)، لِأَنَّ إِثْبَاتَ (الْفَاءِ) هُوَ الْأَصْلُ، وَتَقْدِيرُهُ: (أَرْسَلْنَا نُوحًا فَجَاءَ فَقَالَ)، فَكَانَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَى مَا يُوجِبُهُ اللفظُ، وَأَمَّا فِي هُودٍ، فَالتَّقْدِيرُ: (فَقَالَ إِنِّي)، فَأَضْمَرَ (قَالَ)، وَأَضْمَرَ مَعَهُ (الْفَاءِ)، وَهَذَا كَمَا قُلْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ** ﴾ [آل عمران: 106]، أَي: (فَيُقَالُ لَهُمْ أَكْفَرْتُمْ) فَأَضْمَرَ (الْفَاءِ) وَالْقَوْلَ مَعًا "1.

تصور هذه الآيات بداية الدعوة، وصورة القوم وهم في حال من الدنيا، خالية قلوبهم من التوحيد، وعقولهم من التدبر، وجوارحهم من الاستقامة، خرجوا عن مألوف الفطرة التي فطرهم الله عليها، إلى العهد الذي قطعه إبليس على نفسه بأن يضلهم، فكان المقام يقتضي أن تكون أول الكلمات التي يتلقونها من رسولهم، هي كلمات الإنذار التي تخوفهم وتردعهم، وتردهم إلى رشدهم بعد غيهم وضلالهم، فإذا نزلت الكلمات عليهم اخترقت أسماعهم، واستفزت عقولهم، فحتماً ستستقر في قلوبهم، فتوقظها بعد نومهم، وتحييها بعد موتهم، لأن مصيرهم مرهون باستجابتهم، والإنذار متعلق بها، وحالهم لن تبقى على ما هي عليه فيما يستقبل من الزمن، فالحجة قد قامت عليهم، والرسول قد بلغ رسالة ربه، فلا بد لهم من الاستجابة قبل ﴿ **أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1)** ﴾ [نوح].

جاء وصف العذاب الذي كان نوح عليه السلام يخاف وقوعه على قومه بوصفين، قال فيه مرة: ﴿ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الأعراف: 59]، وقال في الأخرى: ﴿ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ** ﴾ [هُود: 26].

1- أسرار التكرار في القرآن، الكرمانى، (ص: 82) -

أما وصفه للعذاب فكان مضافا لليوم الذي يتبين فيه مصير الخلائق، وقد جاء محكيا على لسانه في موضعين من القصص، الأول وهو مضمون رسالته التي سينذر بها قومه، كما في سورة نوح، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح:1]، فلما أمره ربه بذلك قام في قومه منذرا إياهم، فقال في الموضع الثاني: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴾ [هود: 26].

وأما الوصف الآخر، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59].

قال صاحب تفسير المنار في تفسير آيات سورة هود: " وَفِي قِصَّتِهِ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59]، أَي أَلْمُهُ وَهَوْلُهُ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَىٰ قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: 3]، وَالْمُرَادُ وَاحِدًا. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا قَالَهُ نُوحٌ جَامِعًا لِمَعْنَى الْأَلْمِ وَمَعْنَى الْعِظَمَةِ وَالْكَبَرِ؛ إِذِ الْقُرْآنُ يَبِينُ الْمَعَانِيَ الْمَحْكِيَّةَ بِالْأَلْفَافِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي السُّورِ الْمُتَعَدِّدَةِ. كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ، وَيَأْتِي فِي بَعْضِهَا بِمَا يُغْنِي عَنْ بَعْضٍ ¹.

ولا شك أن كل لفظ من ألفاظ الآيات قد وضع بقصد، وله دوره الذي لا يقوم به غيره، وذكر العذاب أنه ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾، و﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، له ارتباط بما سيأتي من أحداث تتخلل القصة، كل بحسب موضعه.

ومهما اختلف العلماء في تبيين معنى اليوم الأليم والعظيم، بأنه قد يراد به يوم نزول الغرق بقوم نوح، فإن القلب يميل إلى قصد اليوم الآخر، وذلك للاعتبارات الآتية:

الأول: أن هذا الكلام مرتبط بوعاء زمني محدد، وهو يدل على أنه كان في بداية الرسالة، ولم يكن لنوح أن يعلم خاتمة قومه بعد.

الثاني: وصف الله عز وجل اليوم الآخر بعدة أوصاف في كتابه تحاكي أهواله، ومن جملتها هذين الوصفين، فكلما ذكر هذا اليوم وأهواله استحضر الذهن صورة اليوم الآخر.

¹ - تفسير المنار، رشيد رضا، (52/12).

الثالث: لما أراد الله عز وجل أن يصف يوم الغرق مع عظم هوله، وصفه بالعظم أيضا، لكنه فرق بينه وبين اليوم الآخر في اللفظ والمعنى، فقال: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء: 76 – 77]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: 75 – 76]، فكان الكرب العظيم وصف للتعذيب بالغرق، كما قال في موسى عليه السلام وقومه: ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: 114 – 115]. وشتان بين الوصفين، فمهما بلغ عظم الكرب في الدنيا فكرب الآخرة أعظم، فيعتبر الغرق كرب عظيم في الدنيا، وأما الآخرة فكلها كربات عظام، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنُدِيقنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: 21]، وقال: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ [الرعد: 34]، وقال: ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: 33].

لم يبين العلماء مناسبة ذكر الوصفين (أليم) و (عظيم) في السياق القصصي، وسبب اختلاف التعبير بهما في السور المذكورة، إلا ما أشار إليه الغرناطي في (ملاك التأويل)، حين أراد أن يرجع ذلك إلى السياق العام للسورة، وما ورد فيها من آيات تسبق القصة، فقال وهو يجيب عن بعض الأسئلة التي طرحها يريد تبين الأمر من خلالها: " أَنَّهُ لَمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْيَوْمِ الْآخِرِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ، مِنْ أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى ابْتِدَاءِ قِصَّةِ نُوحٍ، وَقَدْ تَضَمَّنَ مَا ذَكَرَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَا يُعْظَمُ أَمْرُهُ ... فَلَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ أَهْوَالِ هَذَا الْيَوْمِ مَا لَمْ يَتَقَدَّمَ فِي السُّورَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ، نَاسَبَهُ مِنْ مَقَالَاتِ نُوحٍ لِقَوْمِهِ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59] ... وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: 26] ... فَتَكَرَّرَ ذِكْرُ الْعَذَابِ يُنَاسِبُهُ مَا خُتِمَتْ بِهِ آيَةُ دَعَاؤِ نُوحٍ عليه السلام مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: 17] ¹.

¹ - ملاك التأويل، الغرناطي، (1/ 514 – 515).

وهذا الذي ذهب إليه الغرناطي إن كان يعطي تبريرا لتناسب الآيات فيما بينها، وورودها على هذا النسق الذي بينه، فإنه لم يوضح سبب اختلاف التعبيرين في كل موضع وردا فيه، والذي يظهر – والله أعلم بما أراد – أن كل لفظ ورد في مقام يتعلق بالأحداث التي جاءت القصة لتنقلها، كل بحسب ما وردت فيه.

فقوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59]، وقوله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: 17]، يرجع السر في التعبير بهما إلى المعنى المقصود من اللفظين في ذاتيهما: (عَظِيمٍ) و(أَلِيمٍ).

و(العَظِيمُ): أصله من " (العِظْمُ) ، بِكسْرِ العَيْنِ، أَي مَعَ فَتْحِ الظَّاءِ: خِلافَ الصِّغَرِ، وَهُوَ كِبَرُ الطُّولِ وَالْعَرْضِ وَالْعُمُقِ ... وَقَالَ الْأَصْبَهَانِيُّ: أَصْلُ عَظْمٌ: كَبُرَ عَظْمُهُ، ثُمَّ اسْتَعِيرَ لِكُلِّ كَبِيرٍ، فَأَجْرِي مَجْرَاهُ، مَحْسُوسًا كَانَ أَوْ مَعْقُولًا، عَيْنًا كَانَ أَوْ مَعْنَى "1.

وقال ابن منظور: " و(العِظْمُ) فِي صِفَاتِ الْأَجْسَامِ: كِبَرُ الطُّولِ وَالْعَرْضِ وَالْعُمُقِ "2، و" مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، وَيُسَبَّحُ الْعَبْدُ رَبَّهُ، فَيَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ، (العَظِيمُ): الَّذِي جَاوَزَ قُدْرَهُ، وَجَلَّ عَنْ حُدُودِ الْعُقُولِ، حَتَّى لَا تُتَّصَرَّفَ إِلَّا حَاطَةً بِكُنْهِهِ وَحَقِيقَتِهِ "3.

يفهم من تبیین هذا المعنى أن العرب تطلق العظم على الوصف الخارجي للشيء، من حيث الحجم، طولاً وعرضاً وعمقاً، مما يخلف في ذهن المستمع تصوراً وكأنه يرى الشيء من خارجه، فر (أَلِيَوْمِ الْعَظِيمِ): هو عظيم من حيث عِظْمُهُ في ذاته، ومن حيث عِظْمُ أهواله وأحداثه.

وأما (أَلَلِيمٍ)، فأصله من (أَلَمٍ): " و(أَلَلَمُ): أَلْوَجَعُ، وَقَدْ أَلَمَ يَأْلَمُ أَلَمًا ... وَالتَّأْلَمُ: التَّوَجُّعُ. وَالْإِيلَامُ: الْإِيْجَاعُ. و(أَلَلِيمُ): أَلْمُوجَعُ، مِثْلُ: السَّمِيعِ، بِمَعْنَى الْمُسْمَعِ "4. وَقَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ: " (أَلَلِيمُ): الْمَوْلَمُ، وَالْعَذَابُ (أَلَلِيمُ): الَّذِي يَبْلُغُ إِجْجَاعَهُ عَايَةَ الْبُلُوغِ "5. وقال ابن منظور: " و(أَلَلِيمُ): الْمَوْلَمُ، الْمَوْجَعُ، مِثْلُ:

1- تاج العروس، مرتضى الزبيدي، مادة (عظم)، (110/33).

2- لسان العرب، ابن منظور، مادة (عظم).

3- المصدر نفسه.

4- الصحاح في اللغة، الجوهري، مادة (ألم) (20/1).

5- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، (416/10).

السَّمِيع، بِمَعْنَى الْمُسْمِعِ ... وَالْعَذَابُ (الْأَلِيمُ): الَّذِي يَبْلُغُ إِجَاعَهُ غَايَةَ الْبُلُوغِ، وَإِذَا قُلْتَ: عَذَابٌ (أَلِيمٌ)، فَهُوَ بِمَعْنَى: مُؤَلِّمٌ¹.

وأما (الْأَلِيمُ) فهو وصف للعذاب حين وقوعه، ويكون له أثر على الذي وقع عليه الإيذاء غاية في وقوعه، وله متعلق بالأثر الذي يخلفه على من وقع عليه الألم الموجه.

مما تقدم يتبين أن وصف العذاب المقصود في قول نوح عليه السلام: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴾ [هُود: 17]، قد ورد في موضعين في القصة من نصوص القرآن الكريم، الأول في سورة هود، والثاني في سورة نوح، وكلا الموضعين قد فصلا أحداث القصة تفصيلاً لم يرد في باقي المواضع، وبتدبر ما ورد في الموضعين يتبين المقصد من ذلك.

فحيث ورد وصف العذاب بـ(الْأَلِيمُ) كان سياق القصة يحكي تفاصيل المعاناة النفسية المؤلمة لنبي الله نوح عليه السلام في مواقف كثيرة متعددة مع قومه، جاءت الآيات لتنقلها وتنقل معها تصوير الحالة النفسية العميقة له أثناء تبليغ رسالة ربه، وذلك في أطول نصين سرديين وردا في هذه القصة، ورد النص الأول في سورة هود، والنص الآخر في سورة نوح عليهما السلام.

ويمكننا من خلال سرد أحداث القصة تتبع الأثر النفسي العميق الذي يصور مدى الآلام التي كان يكابدها من جراء صدود قومه، فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى توحيد الله عز وجل، فما استجاب له منهم إلا القليل، بل ما كان منهم إلا الصدود والإعراض الذي لا يخلف في النفس إلا الآلام والأوجاع، وسيظهر ذلك جلياً أثناء الولوج في تفاصيل أحداث القصة في كلا الموضعين من سورة هود وسورة نوح عليهما السلام.

ثم إن الفارق جلي بين استعمال اللفظ في سورة هود وفي سورة نوح، لأنه قال له في سورة نوح: ﴿ أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) ﴾، فكانت دعوته لقومه في سورة هود بقوله: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ (26) ﴾.

¹ - لسان العرب، ابن منظور، مادة (أ ل م).

وقد جاء تحذيره ﷺ في سورة الأعراف بوصف العذاب بالعظيم على ما يقتضيه موقف السرد المجمل للقصة هناك، مع تعدد القول بحسب ما يقتضيه المقام، فمرة قال هذا، وأخرى قال الآخر.

الْمِفْصَلُ الثَّانِي: الدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ

بعد إنذار نوح ﷺ قومه العذاب الأليم العظيم إن هم عصوا أوامر ربهم، بين لهم غاية وجودهم في هذه الحياة التي من أجلها خلق الخلق، حيث يقول الله تعالى: **﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾** [الذَّارِيَاتِ: 56]، فكان مقام الدعوة يقتضي حتمية الدخول في إصلاح فساد الرعية من باب إقامة التوحيد، لذلك كانت الآيات تحكي قول نوح ﷺ: **﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾** [الأعراف: 59]، **﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾** [هُود: 26]، **﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾** [المؤمنون: 23]، **﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾** [نوح: 2].

وهذه دعوة كل الرسل على مر العصور، هي دعوته ودعوة من جاء قبله، ويأتي بعد، قال الله تعالى: **﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾** [النحل: 36].

وقد تعددت مواقف هذه الدعوة، وتكررت، كلما تعددت معها مواقف الإعراض والصدود من قومه، فنقلنا لنا آيات سورة نوح كلامه مع ربه وهو يبين صدود قومه: **﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) ﴾**، ومع ذلك لم ييأس، ولم يفشل، بل قابل عنادهم، وصد إعراضهم.

تختلف صيغ تعبير نوح ﷺ في الدعوة إلى عبودية الله عز وجل، ولكنها تصب كلها في مصب واحد، فقله: **﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾** [الأعراف: 59]، [المؤمنون: 23]، هو نفسه قوله: **﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾** [هُود:

[26]، فدار المعنى في كلا الموضعين على: " الاستثناء من النفي الذي يوجب نفي غير المُستثنى "1.

وقوله: ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ التي وردت في مواطن عديدة من القصة، ومواقع مختلفة في القرآن يشعر بتكرار المحاولة، وتجدها منه ^{الكتاب}، واستعطافه لقومه، واستمالته لهم.

وأما قوله: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾، يدل على " أَنَّهُمْ مَا كَانُوا يُنْكِرُونَ وَجُودَ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ عَقَّبَ كَلَامَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُمْ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ [المؤمنون: 24]، فَهُمْ مُثَبِّتُونَ لَوْجُودِ اللَّهِ "2، ومع إثباتهم وإقرارهم بوجود الله عز وجل إلا أنهم كانوا يشركون به غيره، فيتوجهون بعبادتهم إلى أصنامهم وأوثانهم، ويتركون الإله الحق الذي لا إله غيره.

وأما قوله: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: 23]، وقوله: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (108) ﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ [نوح: 3]. قال المفسرون: " وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقَوْمَ إِنَّمَا قَبِلُوا تِلْكَ الْأَدْيَانَ لِلتَّقْلِيدِ، وَالْمُقَدُّ إِذَا خُوفَ خَافَ، وَمَا لَمْ يَحْصُلِ الْخَوْفُ فِي قَلْبِهِ لَا يَشْتَغِلُ بِالِاسْتِدْلَالِ، فَلِهَذَا السَّبَبِ قَدَّمَ عَلَى جَمِيعِ كَلِمَاتِهِ قَوْلَهُ: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ "3، ويظهر من قوله: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ (106) ﴾ [الشعراء]، أنه " صَدَرَ بَعْدَ أَنْ دَعَاهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَكَرَّرَ دَعْوَتَهُمْ إِذْ رَأَاهُمْ مُصْرِيْنَ عَلَى الْكُفْرِ "4.

2 - الْمَشْهَدُ الثَّانِي

مَجَالِسُ الدَّعْوَةِ وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ

1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) أَبْلِغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: 60 - 63].

1- تفسير الرازي، (336/17).

2- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (34/18).

3- تفسير الرازي، (520/24).

4- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (166/19).

2 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةً ثُمَّ افْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: 71 - 72].

3 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود: 27 - 34].

4 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَانِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَانَا الْأُولِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25) ﴾ [المؤمنون: 24 - 25].

5 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا أَنْوَمُنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ (111) قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَنْ لِمَ تَنْتَهِي يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: 111 - 116].

6 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ إِلَهُتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: 22 - 23].

الْحَوَارُ فِي قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يبدأ الحوار في هذه القصة من منطلق دعوة نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وتوحيده، ونبذ الشرك وترك عبادة الأصنام، وقد جاء ذلك محكياً مفصلاً على لسانه عليه السلام في سورة نوح، وقد نقلت لنا هذه السورة دقائق التفاصيل عن طريقة تبليغه رسالة ربه، وإلحاحه وإصراره عليهم، وعدم استسلامه لهم، مع صدود قومه وإعراضهم عنه، وتمسكهم الشديد بعبادة الأصنام والأوثان.

انطلق نبي الله نوح عليه السلام في دعوته إلى الله من منطلق مخاطبة العقل، وإقامة الحجة على الخلق بإثبات وجود الخالق من خلال ما خلق، وهذا ما تراه العين وتدركه الحواس، فقال لهم: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِنَسْأَلُكُمْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20) ﴾ [نوح: 13 - 20]، لكن القوم جحدوا واستكبروا وعاندوا، وكلما كرر لهم الدعوة، ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعَسَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ [نوح: 7].

استمر نوح عليه السلام في دعوة قومه مدة زمنية يتوقف العقل مذهولاً في إدراك كنهها، فقد لبث فيهم ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: 14]، يدعوهم ﴿ لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ [نوح: 5]، كل ذلك حرصاً منه عليه السلام على ما يصلحهم في الدنيا والآخرة، بل كان يتحين الفرص كلما سنحت، فلا يبخل في دعوته لهم ولا يقصر، حتى قال: ﴿ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: 8 - 9]، ومع ذلك كله ردوا دعوته بصدودهم وإعراضهم، وتمسكهم بشركهم وغيهم وطغيانهم.

روت لنا نصوص القرآن الكريم أهم الأحداث التي دارت بين نوح وقومه، وحكت لنا أهم ما يجب أن يعرف من حوارهم معهم، وقد كان هذا الحكيم القرآني ضرب آخر من الإعجاز، حيث اختصر لنا مسيرة (أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) من الدعوة في كلمات قليلة ترجمت لنا قصة هذه الرسالة برمتها.

ويمكننا أن نجمل كلام نوح عليه السلام في دعوته بادئ الأمر في:

1 – الإنذار: وذلك في قوله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59]، وقوله: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود: 25]، وقوله: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [نوح: 2].

2 – الدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك: وذلك في قوله: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: 59]، وقوله: ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [هود: 26]، وقوله: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: 23]، وقوله: ﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ [نوح: 3].

3 – تحقيق التقوى والخوف من الله: وذلك في قوله: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: 23]، وقوله: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء: 106 – 108]، وقوله: ﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ [نوح: 3].

بعد ذكر ما ورد من تفاصيل هذه الدعوة يسرد لنا النص القرآني رد فعل هؤلاء القوم، وهم أول قوم أشركوا بالله، ومن أقوالهم تتحرك أحداث القصة من المفاصل الآتية:

مَجَالِسُ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: 60].

2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدَائِهِمُ الرَّاْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: 27].

3 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (24) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: 24 – 25].

4 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ﴾ [الشعراء: 111].

5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: 22].

جاءت الآيات تحكي ردود فعل قوم نوح عليه السلام بحسب المواقف، وتعدد الأحداث، وكل نص نقل لنا المشهد الحاصل من زاوية معينة، بدقة متناهية، سيرا على طبيعة إعجاز النص القرآني والكلام الرباني، وكل مشهد يصور لنا مجلسا مستقلا من مجالس الدعوة، وموقف القوم منها، قَالَ الْغُرْنَاطِيُّ: " دُعَاءُ الرُّسُلِ أَمَمَهُمْ مِمَّا يَتَكَرَّرُ وَيَتَوَالَى فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَمَحَالٍ مُتَبَايِنَةٍ، فَمَرَّةٌ يُرْعَبُونَ، وَمَرَّةٌ يُخَوِّفُونَ وَيُنْذِرُونَ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ حَالِ حَالٍ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. فَاخْتِلَافُ الْمَحَكِيِّ مِنْ مَقَالِهِمْ، إِنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ، وَمَا يُنَاسِبُ كُلَّ وَقْتٍ وَقْتٍ، وَمَا يَجْرِي فِيهِ وَيَشَاهِدُ مِنْ أَقْوَالِ الْمَدْعُوعِينَ وَأَحْوَالِهِمْ، وَكُلُّ الْمَحَكِيِّ مِنْ مَعْنَى مَقَالَاتِهِمْ لَا إِشْكَالَ فِيهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، كَانَ يَدْعُوا قَبَائِلَ الْعَرَبِ إِذَا وَقَدُوا عَلَى مَكَّةَ، وَيَقِفُ عَلَى كُلِّ قَبِيلَةٍ قَبِيلَةً، فَيُكَلِّمُهُمْ، وَيُسْمِعُهُمُ الْقُرْآنَ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ بِمَا يُنَاسِبُ أَحْوَالَهُمْ وَمَقَالَهُمْ " ¹.

ومما يلاحظ في هذا المقام تنوع الصيغ والعبارات في الآيات التي نقلت لنا موقف قوم نوح عليه السلام من دعوته، واختلاف عبارات النصوص الناقلة لذلك، وهذا ما جعل علماء المتشابه يولونها اهتماما خاصا، يريدون من خلالها دراسة وتوضيح ما استشكل منها، قال الغرناطي معلقا على أجوبة قوم نوح عليه السلام: " هَذِهِ أَجُوبَةٌ فِي مَقَامَاتٍ شَتَّى، وَأَحْوَالٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَلَا سُؤَالَ فِي إِخْتِلَافِهَا، وَإِنَّمَا السُّؤَالَ عَنْ وَجْهِ الْوَاقِعِ فِي كُلِّ سُورَةٍ، إِذْ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمُنَاسِبَةٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ هَذَا فِي الْآيَةِ قَبْلُهَا، فَيُسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ ؟ " ².

هذا مثال يقرب ما أشار إليه العلماء من ورود الآيات المتشابهة في القصة، وما فيها من تباين في التعبير، سواء ما كان في كلام القوم، أو ما كان في طريقة الحكي في القصة، وسواء كان هذا أو ذاك فإن له أثره الواضح في التشكيل السردى لمشاهد ومفاصل القصة.

¹ - ملاك التأويل، الغرناطي، (513/1).

² - ملاك التأويل، المصدر السابق.

ولكي يتضح المشهد لا بد من تقسيم الآيات إلى قسمين، قسم باعتبار سرد الحكاية، وقسم باعتبار قول القوم.

أولاً: باعتبار السرد: وفيه قوله تعالى:

— في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف: 60].

— وسورة هود: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ [هود: 27].

— وسورة المؤمنون: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ [المؤمنون: 24].

وفي هذه الآيات وردت تأويلات العلماء حول ذكر (الْمَلَأُ) في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ ﴾، ووصف الملا بالكفر في آيتين، وخلوها من الأخرى، وقبل تبين المراد من ذلك وأثره في بناء مشاهد القصة، وجب توضيح المعنى المراد من مفردة (الملا) في النص القرآني.

قال ابن سيده: " وَ (الْمَلَأُ) : أَلْجَمَاعَةُ، وَقِيلَ: أَشْرَافُ النَّاسِ وَوُجُوهُهُمْ ... وَالْجَمْعُ (أَمْلَاءٌ) ... وَكَذَلِكَ (الْمَلَأُ)، إِنَّمَا هُمْ الْقَوْمُ ذُوو الشَّارَةِ وَالْتَجَمُّعُ لِلدَّارَةِ "1، وزاد في المخصص: " وَلَا يَكُونُ الْمَلَأُ إِلَّا الرِّجَالُ بَعْدَ نِسَاءِ "2، وقال ابن منظور: " وَ (الْمَلَأُ) : الرُّؤَسَاءُ، سُمُّوا بِذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ مِلَاءٌ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَ (الْمَلَأُ) : مَهْمُوزٌ مَقْصُورٌ: أَلْجَمَاعَةُ، وَقِيلَ أَشْرَافُ الْقَوْمِ، وَوُجُوهُهُمْ، وَرُؤَسَاؤُهُمْ، وَمَقْدَمُوهُمْ، الَّذِينَ يُرْجَعُ إِلَى قَوْلِهِمْ، وَفِي الْحَدِيثِ: « هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى ؟ »3. يُرِيدُ الْمَلَائِكَةَ الْمُقْرَبِينَ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ [البقرة: 246]. وَفِيهِ أَيْضًا: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ [الأعراف: 90]. وَيُرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَقَدْ رَجَعُوا مِنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ، يَقُولُ: مَا قَتَلْنَا إِلَّا عَجَانِزَ صَلْعَاءَ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: « أَوْلَيْكَ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، لَوْ حَضَرَتْ فِعَالَهُمْ لَاحْتَقَرْتَ فِعْلَكَ »4، أَيْ: أَشْرَافُ قُرَيْشٍ، وَالْجَمْعُ (أَمْلَاءٌ) "5.

1- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، (10/ 413 - 414).

2- المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1417هـ / 1996م، (13/ 4 - 5).

3- حديث صحيح، رواه أحمد، حديث رقم (3484)، والترمذي، حديث رقم (3233)، وغيرهما.

4- لم أجده في كتب الحديث، وقد ذكره ابن الأثير في النهاية، النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1399هـ / 1979م، (4/ 779).

5- لسان العرب، ابن منظور، مادة (ملأ).

بين النبي ﷺ أن لفظه (الملاً) تطلق على وجوه القوم، ورؤسائهم ومقدميهم الذين يُرجع إلى قولهم، فقال: **« اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ، أَبَا جَهْلٍ ابْنَ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ، أَوْ أَبِي بَنٍ خَلْفٍ »**¹، ومن المجمع عليه أن هؤلاء من سادات قريش ورؤسائها.

(و) (الملاً) المذكورون في آية الأعراف هم: " الكُبرَاءُ، وَالسَّادَاتُ، الَّذِينَ جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ أَضْدَادَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالِدَلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ قَوْلَهُ: **« مِنْ قَوْمِهِ »** يَقْتَضِي أَنَّ ذَلِكَ (الْمَلَأَ) بَعْضُ قَوْمِهِ، وَذَلِكَ الْبَعْضُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونُوا مَوْصُوفِينَ بِصِفَةٍ لِأَجْلِهَا اسْتَحَقُّوا هَذَا الْوَصْفَ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَكُونُوا هُمُ الَّذِينَ يَمْلُؤُونَ صُدُورَ الْمَجَالِسِ، وَتَمْتَلِي الْقُلُوبُ مِنْ هَيْبَتِهِمْ، وَتَمْتَلِي الْأَبْصَارُ مِنْ رُؤْيَتِهِمْ، وَتَتَوَجَّهُ الْعُيُونُ فِي الْمَحَافِلِ إِلَيْهِمْ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا فِي الرُّؤْسَاءِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْمَلَأِ الرُّؤْسَاءُ وَالْأَكَابِرُ "².

إذا تقرر معنى (الملاً) في الآيات ووضحت دلالته، وجب ذكر الفرق بين ذكر (الفاء) في الآيتين وحذفها من الأخرى، ويرجع العلماء سبب ذلك إلى أن جواب قوم نوح ﷺ اقترن (ب) (الفاء) لأنه " هُوَ الْأَصْلُ فِي الرَّدِّ السَّرِيعِ، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ، وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ مَفْصُولًا وَهُوَ: **« قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »** [الأعراف: 60]، لِأَنَّهُ هُوَ الْأَصْلُ فِي بَابِ الْمُرَاجَعَةِ، يُقَالُ: (.. قَالَ: ...)، وَيُسَمَّى: الْإِسْتِنَافُ الْبَيِّنِيُّ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ: أَنَّ الْمَوْصُولَ بِ(الْفَاءِ) أُرِيدَ بِهِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى الرَّدِّ عَلَى نُوحٍ بِمَا يُبْطِلُ دَعْوَتَهُ بِرَعْمِهِمْ، وَالْمَفْصُولُ لَيْسَ إِلَّا طَعْنًا وَتَخْطِنَةً، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ مَا رَمَوْهُ بِهِ، لَا يُعْلَمُ مَتَى وَقَعَ مِنْهُمْ، وَلَيْسَ جَوَابًا مُتَّصِلًا بِالِدَّعْوَةِ "³.

نحتاج في هذا المقام ما يوضح لنا صورة الأحداث وهي تتحرك في الوعاء الزمني الذي دارت فيه، فالعلماء يرجعون ذكر (الفاء) في آيتي هود والمؤمنون " لبناء هذا الكلام على ما قبله، وتمحض الجوابية فيه، ورد (الفاء) المقتضية السببية، والمبنية للجوابية، ومثل هذا من غير فرق هو والوارد من جوابهم في

¹ - رواه البخاري، حديث رقم (3185)، ومسلم، حديث رقم (4751).

² - تفسير الرازي، (296/14).

³ - تفسير المنار، رشيد رضا، (52/12).

سورة المؤمنون ... وهذا هو الذي أشرنا إليه من مقالهم في هاتين السورتين (الفاء) لربط الجوابية وضوح السببية¹، وأما قوله في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأعراف: 60]، " فَإِنَّ هَذَا وَإِنْ تَضَمَّنَ الْجَوَابِيَّةَ، فَإِنَّهُ كَلَامٌ يُسْتَأْنَفُ وَيَبْتَدِئُ بِمِثْلِهِ، وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى مَا يُبْنَى عَلَيْهِ، فَنَاسَبَ ذَلِكَ وَرُودُهُ بِغَيْرِ (الفاء)، وَحَصَلَتْ الْجَوَابِيَّةُ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى ... فَتَأَمَّلْ جَوَابَهُمْ هُنَا، لَمَّا كَانَ الْوَارِدُ فِي قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَنَّهُ يَبْتَدِئُ بِمِثْلِهِ، وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى مَا يُبْنَى عَلَيْهِ كَيْفَ وَرَدَ بِغَيْرِ (الفاء) "2.

المفصل الأول: المجلس الأول

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: 60 - 63].

يتبين مما سبق أن قول قوم نوح عليه السلام في الآيات اختلف بحسب أزمنة معينة، والذي يظهر - والله أعلم - أن ما ورد في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأعراف: 60]، كان حكاية عما صدر من القوم في بداية ردودهم عليه، وربما قبل إقامة الحجة عليهم، إذ أن الله عز وجل يرسل الرسل لذلك، قال تعالى: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 165]. فبعد إقامة الحجة عليهم آمن بعض (الملاء) منهم، ففرق فيما بعد بينهم، ووصف من تبقى بالكفر، ويعتبر هذا النص وصفا لأول مجلس نقل حوار نوح عليه السلام مع سادات وأشراف قومه، والدليل على ذلك شيان:

الأول: عدم وصفهم بصفة الكفر.

والآخر: مقول قولهم: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأعراف: 60].

¹ - ملاك التأويل، الغرناطي، (520/1 - 521).

² - ملاك التأويل، المصدر نفسه.

اتجه العلماء اتجاها واحدا في تأويل عدم وصف القوم بالكفر في سورة الأعراف، وقالوا بأنهم لم يوصفوا بالكفر " استغناءً بدلالة المقام على أنهم كذبوا، وكفروا "1، وقال الغرناطي: " فلما كان في دعاء نوح ما يشير إلى الكفر ويدل عليه، اقتضى الإيجاز الاكتفاء بذلك "2، هذا ما ذهب إليه بعض العلماء، وقال ابن جماعة: " قوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ ﴾ في نوح، وقال بعده في قصة هود: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ ؟ جوابه: أن نوحاً لم يؤمن أحد من أشرف قومه، وهود آمن بعض أشرف قومه، فلذلك قال: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ "3.

وهذا تأويل بعيد، ذلك لو أننا عملنا بهذا القياس، فالأصح أن يقال بأن نوحا ﷺ قد آمن له بعض الملا من قومه، ودليل ذلك ما ورد في سورة هود والمؤمنون، وهذا هو الصحيح الذي يدل عليه المقام، فأية الأعراف لم تصفهم بالكفر، لأن القوم في بداية سماع الرسالة ولم تقم الحجة عليهم بعد، لذلك لم يميز بين من آمن منهم ومن كفر، كما فعل في النصين الآخرين.

ومن القران التي تقوي هذا المذهب هو الفرق الواضح بين صريح الإساءة لنبي الله ﷺ من الملا الذين كفروا في سورتي هود والمؤمنون بأقوالهم فيها، وبين قولهم في سورة الأعراف، " فإساءتهم فيما ذكر من الأورد عنهم في الموضعين ووصفوا بالكفر، فقال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾، فوصفهم بالكفر في السورتين، وأما آية الأعراف فقولهم فيها: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأعراف: 60]، ليس كجوابهم في السورتين الأخرتين، لا من جهة الطول، ولا من جهة المعنى، لأن لفظ الضلال ليس بنص في الضلال عن الدين، لأنه يقال: ضل بمعنى تحيز وجرار عن دين أو طريق، ويتسع في إطلاق لفظ الضلال على غير ما ذكرنا، وقد قال بعض المفسرين هنا في تفسير الضلال: (إنه الذهاب عن طريق الصواب والحق)، وبالجمله فإنهم لم يريدوا هنا الضلال الذي هو الكفر، وإن كان قد يقع إذا تقدمته قرينة على أعظم من الكفر، وأما هنا فليس كذلك "4.

1- التحرير والتنوير، (147/8).

2- ملاك التأويل، الغرناطي، (529/1).

3- كشف المعاني، ابن جماعة، (178 - 179).

4- ملاك التأويل، الغرناطي، (524/1).

ومن القرائن التي تدل على ذلك أيضا، استشعار المتلقي لطف الرد، وقوته في قول نوح عليه السلام لقومه في سورة الأعراف، فكان رده في هذا المقام يختلف اختلافا واضحا عما ورد في الموضوعين الآخرين، فحين قالوا: ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأعراف: 60]، هذا قول منهم مبني على ما رأوه جميعا بادئ الأمر، والرؤية قد تكون قلبية بمعنى اليقين والظن، وقد تكون بصرية¹، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن المقصود منها الرؤية القلبية²، ومع ذلك فقولهم يشعر باجتهادهم في الحكم على نوح عليه السلام بالضلال، فرد عليهم قولهم بأبلغ عبارة يلتمس فيها المستمع مشاعر اللطف، والحرص على فائدة المدعو، فقال: ﴿ **يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ** ﴾، " أي: لَيْسَ بِي نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّلَالَةِ الْبَتَّةِ، فَكَانَ هَذَا أَبْلَغَ فِي عُمُومِ السَّلْبِ " ³، ﴿ **وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأعراف: 61]، " ثُمَّ إِنَّهُ عليه السلام لَمَّا نَفَى عَنْ نَفْسِهِ الْعَيْبَ الَّذِي وَصَفُوهُ بِهِ، وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِأَشْرَفِ الصِّفَاتِ وَأَجَلِّهَا، وَهُوَ كَوْنُهُ رَسُولًا إِلَى الْخَلْقِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ذَكَرَ مَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الرَّسَالَةِ، وَهُوَ أَمْرَانِ: الْأَوَّلُ: تَبْلِيغُ الرَّسَالَةِ. وَالثَّانِي: تَفْرِيرُ النَّصِيحَةِ، فَقَالَ: ﴿ **أَبْلِغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ** ﴾ ⁴، والمعنى: " إِنِّي أَبْلَغُ إِلَيْكُمْ تَكَالِيفَ اللَّهِ، ثُمَّ أُرْشِدُكُمْ إِلَى الْأَصْوَابِ الْأَصْلَحِ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى مَا دَعَايَ، وَأُحِبُّ لَكُمْ مَا أَحْبَبْتُ لِنَفْسِي " ⁵.

ثم قال: ﴿ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: 62]، جاء قوله هذا " جَمْعًا لِمَعَانٍ كَثِيرَةٍ مِمَّا تَتَّضَمَّنُهُ الرَّسَالَةُ، وَتَأْيِيدًا لِثَبَاتِهِ عَلَى دَوَامِ التَّبْلِيغِ وَالنُّصْحِ لَهُمْ، وَالِاسْتِخْفَافِ بِكَرَاهِيَّتِهِمْ وَأَدَاهُمْ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُونَهُ، مِمَّا يَحْمِلُهُ عَلَى الْإِسْتِرْسَالِ فِي عَمَلِهِ ذَلِكَ، فَجَاءَ بِهَذَا الْكَلَامِ الْجَامِعِ، وَيَتَّضَمَّنُ هَذَا الْإِجْمَالَ الْبَدِيعَ تَهْدِيدًا لَهُمْ بِحُلُولِ عَذَابٍ بِهِمْ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَتَنْبِيهًا لِلتَّأَمُّلِ فِيمَا أَتَاهُمْ بِهِ، وَفَتْحًا لِبَصَائِرِهِمْ أَنْ تَتَطَلَّبَ الْعِلْمَ بِمَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ شَأْنُهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى تَصَدِيقِهِ وَقَبُولِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ " ⁶.

¹ - روح المعاني، الألويسي، (398/4).

² - ينظر: تفسير الرازي، (296/14)، والتحرير والتنوير، ابن عاشور، (147/8) وغيرهما.

³ - تفسير الرازي، (296/14).

⁴ - تفسير الرازي، المصدر السابق.

⁵ - المصدر نفسه، (297/14).

⁶ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (150/8).

وقد ورد التعبير في النص في رده عليهم بالاعتماد على استعمال الأفعال الدالة على تجديدها واستمرارها لتحقيق الغاية والمقصود المراد منها، فقوله: **﴿ وَأَنْصَح ﴾**، **﴿ وَأَعْلَم ﴾**، إنما استعملا " لِيُعَلِّمَ بِتَمَادِيهِ عَلَى النَّصْحِ لَهُمْ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَلَا يَهْتَدُونَ، وَيَأْمُدَّاهِ بِزِيَادَةِ عُلُومِهِ بِالْوَحْيِ، وَهُمْ عَنْ ذَلِكَ فِي أَشْنَعِ ضَلَالٍ وَأَبْعَدِهِ، فَجَمَعَ عَلَيْهِمَا فِيمَا خَاطَبَهُمْ بِهِ رَدَّ مَقَالِهِمْ، وَرَمِيَهُمْ بِأَكْثَرِ مِمَّا رَمَوْهُ بِهِ، وَرَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِاللِّطْفِ رَدًّا وَأَبْيَنَهُ لِمَنْ وَفَّقَ، وَنَزَّهَ عَلَيْهِمَا عِبَارَتَهُ الْمُخْلِصَةَ لِذَلِكَ، عَلَى أتمَّ الْوَجْهِ، عَنْ شَنِيعِ عِبَارَتِهِمْ، وَقُبْحِ مَوَاجَهَتِهِمْ "1.

ثم ختم رده بقوله: **﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾** [الأعراف: 63]، وافتتح الجملة بالاستفهام الإنكاري، وهذا " مُشْعِرٌ بِأَنَّهُمْ أَحَالُوا أَنْ يَكُونَ رَسُولًا، مُسْتَدَلِّينَ بِأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ ... وَاخْتِيرَ الْأِسْتِفْهَامُ دُونَ أَنْ يَقُولَ: (لَا عَجَبَ)، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ احْتِمَالَ وَقُوعِ ذَلِكَ مِنْهُمْ مِمَّا يَتَرَدَّدُ فِيهِ ظَنُّ الْعَاقِلِ بِالْعُقُلَاءِ، فَقَوْلُهُ: (أَوْ عَجِبْتُمْ): بِمَنْزِلَةِ الْمَنْعِ لِقَضِيَّةِ قَوْلِهِمْ: **﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾** [الأعراف: 60]، لِأَنَّ قَوْلَهُمْ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ مُقَدِّمَةِ دَلِيلٍ عَلَى بُطْلَانِ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ "2. ومما هو ملاحظ في هذه الأقوال أنها تختلف عما ورد في النصين الآخرين من سورتي هود والمؤمنون، من حيث الشدة والقوة في الرد، وهذا ما سيأتي مفصلا في موضعه من هذا البحث إن شاء الله.

تتشكل صورة هذه الجزئية في هذا المشهد من خلال الكلمات التي جاءت تبين دقائق اللحظات في دعوة نبي الله نوح عليه السلام قومه، وأن ذكر بعض الألفاظ وحذفها قد بين أنه قد يكون من أشرف قوم نوح عليه السلام وساداتهم، من آمن به، واتبع دين الحق بعد أن بلغته الحجة، وقامت عليه البيعة، وبقيت بقية من الملا على معتقد الشرك والوثنية، فجاءت آيات سورة هود والمؤمنون لتنتقل لنا مشهدا حواريا آخر، يختلف عن المشهد الأول، زمانا وحالا، وهو ما ورد في حوار نوح عليه السلام مع الملا الذين كفروا من قومه.

1- ملاك التأويل، الغرناطي، (527 /1).

2- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (150/8).

المفصل الثاني: المجلس الثاني

قال الله تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْمُكُومَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هُود: 27 - 35].

يعد هذا المجلس من أبرز وأهم المجالس التي دار فيها الجدل بين نوح عليه السلام وبين الملأ الذين كفروا من قومه، قال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هُود: 27]، ورد في هذا النص التصريح بأن بعض القوم استجاب لدعوة نوح عليه السلام، فتبعه وآمن بما جاء به، وقد جاء وصف صناديد قومهم الكافرين لهؤلاء المؤمنين بأنهم (أرادل القوم)، وهذا ما تأكد في قولهم في سورة الشعراء: ﴿ قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ﴾ [الشعراء: 111].

ومما يجعل هذا الموقف مستقلاً بذاته عن الموقف الآخر، أن خطاب الملأ موجه إلى نوح عليه السلام ابتداءً، ثم توجه خطابهم له مع جماعة المؤمنين بعد ذلك، بينما خطابهم في الآخر موجه إلى قومهم، يحرضونهم عليه دون ذكره في السياق، فجاء في آية هود مخاطباً بذكر ضمير المفرد الموجه إليه عليه السلام، فقالوا: ﴿ مَا نَرَاكَ ﴾، ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ ﴾، ثم ذكر ضمير جمع المخاطبين وهو معهم: ﴿ وَمَا

نَرَى لَكُمْ)، (بَلْ نَنْظُنُّكُمْ)، وعلى خلاف قولهم: (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ)، (يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ)، (فَتَرَبَّصُوا بِهِ) .

فمما يلاحظ على هذا النص في سرد أحداث هذا المجلس أنه ما كان كلامهم ابتداء بادروا به نبي الله ﷺ، ذلك " أَنْ الْوَأَقَعَ فِي سُورَةِ هُودٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ قَوْمِ نُوحٍ: (مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا) [هُودٍ: 27]، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِمْ، كَلَامٌ لَا يَسْتَقِلُّ مُبْتَدَأً بِهِ، بَلْ يَسْتَدْعِي مَا يُبْنَى عَلَيْهِ، إِذْ لَا يَفْتَتِحُ أَحَدٌ أَحَدًا مُبْتَدَأً بِمِثْلِ هَذَا، وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ بِهَذَا جَوَابًا "1، ولما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وما عرفهم به من مقامه النبوي في تبليغ الرسالة أجابوه على ذلك بقولهم: (مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا)، " أَي: لَوْ كُنْتَ كَمَا تَزْعُمُ لَكُنْتَ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ، وَلَمْ تَكُنْ مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ، وَقَدْ أَفْصَحُوا بِهَذَا فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ ... فَلِبِنَاءِ هَذَا الْكَلَامِ عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَتَمَحُّصِ الْجَوَابِيَّةِ فِيهِ، وَرَدَ بِـ (الْفَاءِ) الْمَقْتَضِيَّةِ السَّبَبِيَّةِ، وَالْمُبْنِيَّةِ لِلْجَوَابِيَّةِ، وَمِثْلُ هَذَا مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ هُوَ وَالْوَارِدُ مِنْ جَوَابِهِمْ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ: (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ) [الْمُؤْمِنُونَ: 24]، ثُمَّ قَالُوا: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً) [الْمُؤْمِنُونَ: 24]، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنْ مَقَالِهِمْ فِي هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ بِـ (الْفَاءِ) لِرَبِطِ الْجَوَابِيَّةِ وَضُوحِ السَّبَبِيَّةِ 2،

صور لنا هذا النص المعجز مجلس جدال ومناظرة بين رسول من الله يقيم الحجج والبراهين على قوم كفروا برسالته وتمالئوا على عدائه، وجادلوه بالباطل ليدحضوا به الحق، فثبت الله عزيمته وأقام الحجة على لسانه، وضرب بالحق على الباطل فدمغه، وانقطع القوم دون الوصول إلى غايتهم، كل ذلك بأوجز عبارة وأدق صياغة، جاءت الكلمات في الآية منتظمة تهدم حجة الكفر، وتقيم وتبني صرح الإيمان، ببراهين ساطعة، وأدلة قاطعة.

تتشكل بين أيدينا صورة مشهد أول مناظرة وجدال في تاريخ الرسل على وجه الأرض، من خلال أقوال الملا الذين كفروا من قوم نوح ﷺ، وهم يحاولون الإطاحة به، والانتصار عليه بشبهات حاولوا أن يقيموا عليها حججا وبراهين، قدموها أمام

1- ملاك التأويل، الغرناطي، (520/1).

2- ملاك التأويل، المصدر نفسه، (520/1 - 521).

الحاضرين ليصدوهم عن سبيل الله الذي دعوا إليه، " فقدموا لذلك مقدمات استخلصوا منها تكذيبه، وتلك مقدمات باطلة أقاموها على ما شاع بينهم من المغالطات الباطلة التي روجها الألف والعادة، فكانوا يعدون التفاضل بالسؤدد وهو شرف مصطلح عليه، قوامه الشجاعة والكرم، وكانوا يجعلون أسباب السؤدد أسباباً مادية جسيمة، فيسودون أصحاب الأجسام البهجة، كأنهم خشب مسندة، لأنهم ببساطة مداركهم العقلية يعظمون حسن الدوات، ويسودون أهل الغنى، لأنهم يطمعون في نوالهم، ويسودون الأبطال، لأنهم يعدونهم لدفاع أعدائهم، ثم هم يعرفون أصحاب تلك الخلال، إما بمخالطتهم، وإما بمخالطة أتباعهم، فإذا تسامعوا بسيد قوم ولم يعرفوه تعرفوا أتباعه وأنصاره، فإن كانوا من الأشراف والسادة علموا أنهم ما اتبعوه إلا لما رأوا فيه من موجبات السيادة؛ وهذه أسباب ملانمة لأحوال أهل الضلالة، إذ لا عناية لهم بالجانب النفساني من الهيكل الإنساني "1. وقد دارت دعواهم كلها على أربع شبهات نقلها لنا النص الكريم:

الأولى منها: قوله تعالى على لسانهم: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾، وكانت هذه أول شبهة أرادوا إلقاءها، وهي أن نوحاً عليه السلام " بشرٌ مثْلهم، فسأوه بأنفسهم في الجملة، وهذا يدل على أنه كان من طبقتهم، أو ما يقرب منها، في بيته، وفي شخصه، وهكذا كان كل رسول من وسط قومه "2.

الثانية: قولهم: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِادِي الرَّأْيِ ﴾، يدور معنى هذه الشبهة حول قولتي: ﴿ أَرَادْنَا ﴾ و﴿ بِادِي الرَّأْيِ ﴾، والأولى منهما معناها: " سفلتْنَا، و(الرذل) : الدون من كل شيء، والجمع: (أرذل)، ثم يجمع على (أرادل)، مثل: كلب وأكلب وأكالب، وقال في سورة الشعراء: ﴿ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ [الشعراء: 111]. يعني: السفلة. وقال عذرة: الحاكّة، والأساكفة "3، أما الأخرى: " قرأ أبو عمرو (بادئ) بالهمز، أي: أول الرأي، يريدون أنهم اتبعوك في أول الرأي من غير روية وتفكير، ولو تفكروا لم يتبعوك. وقرأ الآخرون بغير همز، أي: ظاهر الرأي، من قولهم: بدا الشيء: إذا ظهر، معناه: اتبعوك ظاهراً

1- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (239/11).

2- تفسير المنار، رشيد رضا، (53/12).

3- معالم التنزيل، البغوي، (171/4).

مَنْ غَيْرِ أَنْ يَتَدَبَّرُوا وَيَتَفَكَّرُوا بَاطِنًا ¹، ويفهم من قولهم هذا أنه " لم يتبعه منهم إلا أراد لهم في الطبقة والمكانة الاجتماعية **(بادي الرأي)**، لا بدليل من العقل والعلم، وبهذا تنتفي المساواة فينزل هو عن رتبة الطبقة العليا إلى رتبة من اتبعه من الطبقات السفلى، وهذا مرجح لرد دعوته والتولي عنه ².

الثالثة: قولهم: **(وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ)**، ومعنى كلمة (فضل): " الزيادة في الشرف والكمال، والمراد هنا آثاره وعلاماته، لأنها التي ترى، فجعلوا عدم ظهور فضل لهم عليهم دليلًا على انتفاء فضلهم، لأن الشيء الذي لا تخفى آثاره يصح أن يجعل انتفاء رؤيتها دليلًا على انتفائها، إذ لو ثبتت لرئيت ³، وقد جاءت الكلمة نكرة في سياق النفي لتثبت نفي كل الفضل من جميع الوجوه، " أي وما نرى لك ولمن اتبعك علينا أدنى فضلٍ تمتازون به في جماعتكم، كالقوة، والكثرة، والعلم، والرأي، يحملنا على اتباعكم، والنزول عن جاهنا، وامتناننا عليكم بالجاه والمال لمساواتكم ⁴، وقد اعتمدوا على نفي رؤية أي فضل لهم ليثبتوا شينا أرادوه، وكأنهم قالوا: " إذا لم نشاهد فضلك علينا في شيء من هذه الأحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا في أشرف الدرجات وأعلى المقامات ؟ ⁵، ويقصدون بذلك شرف مقام النبوة، وعلو درجة الرسالة.

الرابعة: قولهم: **(بَلْ نَطْنُكُمْ كَاذِبِينَ)** [هود: 27]، ويحمل معنى الظن في الآية على العلم، وهذا استعمال شائع تعرفه العرب في كلامها، ودليله قوله تعالى: **(الَّذِينَ يَطْنُونَ أَنَّهُمْ مَلَاقُو رَبِّهِمْ)** [البقرة: 46]، أي يعلمون يقينا بأنهم سيلاقون ربهم، وإذا حمل اللفظ على معنى آخر وهو الاحتمال وعدم القطع في الحكم، فيفهم منه أنهم " قد كرموا أنفسهم بعدم الجزم بالكذب فعبروا عنه بالظن ⁶.

وقولهم: **(نَطْنُكُمْ كَاذِبِينَ)** يحتمل وجهين: " الأول: أن يكون هذا خطابًا مع نوح ومع قومه، والمراد منه تكذيب نوح في دعوى الرسالة. والثاني: أن يكون هذا

¹ - معالم التنزيل، المصدر السابق، (171/4).

² - تفسير المنار، المصدر السابق، (53/12).

³ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (242/11).

⁴ - المصدر نفسه، (53/12).

⁵ - تفسير الرازي، (336/17 - 337).

⁶ - تفسير المنار، رشيد رضا، (53/12).

خِطَابًا مَعَ الْأَرَادِلِ فَنَسَبُوهُمْ إِلَىٰ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا فِي أَنْ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ ¹، وعلى كل ذلك يحمل المعنى في الجملة على أن " الأمر شرٌّ من ذلك، وهو أننا نظنكم كاذبين في جُمَلَتِكُمْ: المَثْبُوعُ فِي دَعْوَى النُّبُوَّةِ، وَالتَّابِعُونَ فِي تَصَدِيقِهِ، فَهِيَ إِذَا انْتَمَارَ بِنَا، تُحَاوِلُونَ بِهِ أَنْ تَقْلُبُوا الْحَقِيقَةَ، فَتَجْعَلُوا الْفَاضِلَ مَفْضُولًا، وَالشَّرِيفَ مَشْرُوفًا ²."

تعتبر هذه الشبهة الأخيرة هي أقوى ما عند الملا الذين كفروا من قوم نوح عليه السلام، فهم يعتقدون أنفسهم قد أقاموا الحجج والبراهين على ما ادعوه في بطلان هذه الرسالة لذلك أخروا هذا المرجح ليكون " الأقوى لِرِدِّ الدَّعْوَةِ، وَقَدْ أَخْرُوهُ فِي الذِّكْرِ، لِأَنَّهُمْ لَوْ قَدَّمُوهُ لَمَا بَقِيَ لِذِكْرِ تِلْكَ الْعِلَلِ الْأُخْرَى وَجْهٌ، وَهِيَ وَجِهَةٌ فِي نَظَرِهِمْ، لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ بَيَانِهَا، وَهَذِهِ الْأَخِيرَةُ طَعْنٌ لَهُمْ عَلَىٰ نُوحٍ عليه السلام أَشْرَكُوهُ فِيهِ مَعَ اتِّبَاعِهِ، وَلَمْ يُجَابِهُوهُ بِهِ وَحْدَهُ، وَلَمْ يَجْزِمُوا بِهِ، كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَجْعَلُوهُ فِي طَبَقَتِهِمْ مِنَ الرَّذَالَةِ ³."

صورت الآية صرْحَ أقوال الملا الذين كفروا من قوم نوح عليه السلام تصويراً دقيقاً بأوجز العبارات، وأدق الكلمات، وهم في أوج عنادهم واستكبارهم، قد ألقوا حبال أوهامهم، وأقوى حججهم، يحسبون أنفسهم قد أقاموا البينات على صدق ما ذهبوا إليه، ولكن هيهات، ما فتى صرْحُ الخيال والأوهام أن يقوى أمام نور الرسالة وبرهان الوحي، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 18].

أمام الناس جميعاً، وبمراى وبمسمع ممن حضروا تعلوا راية الحق على لسان نبي الله نوح عليه السلام، ويسجلها النص القرآني المعجز بأحرف النور الرباني، لتبقى خالدة أبد الدهر، فرد نوح عليه السلام عليهم قائلًا: ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا

¹ - تفسير الرازي، (17/ 337).

² - تفسير المنار، المصدر نفسه، (53/12).

³ - المصدر نفسه.

أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمَنْ الظَّالِمِينَ (31) ﴿ هُودٍ: 28 - 31 ﴾.

قام نوح عليه السلام مقام المدافع عن رسالته، والمنافع عن حياض دينه، الناصح لأمته، والحريص على إبلاغ الحق لقومه، ولما تبين أن قومه رموه بأثقل ما عندهم من شبّهات، وذاك قصارى جهدهم، جاءهم الرد بأربع آيات تقابلها وتزيد عليها، وقد " تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ دَخَصَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ الْأَرْبَعُ الَّتِي رَدُّوا بِهَا عَلَيْهِ، وَشُبُهَاتٍ أُخْرَى مِنْ لَوَازِمِهَا، وَرَبَّمَا صَرَّحُوا بِهَا وَاسْتَعْنَى عَنْ حِكَايَتِهَا بِالْعِلْمِ بِهَا مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهَا، وَهُوَ مِنْ دَقَائِقِ إِيجَازِ الْقُرْآنِ الْمُعْجَزِ لِلْبَشَرِ " ¹.

بدأ نبي الله خطابه بنداء قومه ﴿ يَا قَوْمِ ﴾، هذه الكلمة التي تثبت بقاء قيام العلاقة بينه وبين قومه على الرغم من كل ما رموه به من تهم وإساءة، فبهذه الكلمة بين لهم أن ذلك لم يقطع أوصاله عنهم، ولم يذهب برابطة القرابة بينهم، فما زال يذكرهم بأنه منهم، يريد لهم ما يريد لنفسه من الخير.

وقد أجمع أهل التفسير على أن قوله عليه السلام: ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾، يتضمن معنى (أَخْبِرُونِي عَنْ رَأْيِكُمْ)، ولم أجد فيما بين يدي من أقوال المفسرين ما يشير إلى سر استعمال هذا اللفظ دون غيره، مع أن له أثرا بليغا في ضرب حجج الملا الذين كفروا، وهدم الصرح الذي بنوه بأوهامهم، ومن تبيين وجه استعماله تبدأ رحلة المحاجة، وضرب الدليل بالدليل.

استعمل هذا اللفظ ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾، وإن كان يتضمن معنى أخبروني عند المفسرين، فإن بناءه الصرفي همزة استفهام، وفعل وفاعل (رأيتم)، قال ابن منظور: " الْعَرَبُ لَهَا فِي (أَرَأَيْتَ) لُغَتَانِ وَمَعْنَيَانِ، أَحَدُهُمَا: أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلَ الرَّجُلَ: أَرَأَيْتَ زَيْدًا بِعَيْنِكَ؟ فَهَذِهِ مَهْمُوزَةٌ، فَإِذَا أَوْقَعْتَهَا عَلَى الرَّجُلِ مِنْهُ قُلْتَ: أَرَأَيْتَكَ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الْحَالِ؟ يُرِيدُ: هَلْ رَأَيْتَ نَفْسَكَ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الْحَالَةِ؟ ... وَالْمَعْنَى الْآخَرُ: أَنْ تَقُولَ: أَرَأَيْتَكَ، وَأَنْتَ تَقُولُ: أَخْبِرْنِي، فَتَهْمِزُهَا وَتَنْصِبُ التَّاءَ مِنْهَا، وَتَتْرِكُ الْهَمْزَ إِنْ شِئْتَ، وَهُوَ أَكْثَرُ كَلَامِ الْعَرَبِ " ².

¹ - تفسير المنار، المصدر السابق، (54/12).

² - لسان العرب، ابن منظور، مادة (رأى).

خاطب نوح ﷺ الملاً الذين كفروا من قومه بلسانهم، واستعمل ألفاظهم التي كانوا يتبحون بها، فجعلوا تصديقهم لنبوته ﷺ والمحور الذي تدور حوله قضيتهم هو ما يبني على صحة ما ترى أعينهم، وقد تكرر ذكر ذلك في كلامهم ثلاث مرات، فقالوا: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا ﴾، وقالوا مرة: ﴿ وَمَا نَرَاكَ أَتَّبَعَكَ ﴾، ثم قالوا في الأخير: ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ ﴾، ففهم نوح ﷺ عن القوم أن لهم رؤيتهم التي يزعمون، فاعتمدها في رده عليهم، فقابلهم بأقوى مما جاؤوا به، جاعلا نفس المحور هو مدار المعاني التي قصدها في كلامه، سواء أطبق في كلامه الرؤية المزعومة منهم لفظاً، أم ما يقتضيه الكلام من معانيها، فابتدأ قوله: ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾، ثم قال: ﴿ فَعَمِيَّتْ ﴾، ثم قال: ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ ﴾، وأخيراً قال: ﴿ تَزِدِّي أَعْيُنُكُمْ ﴾، ولكل لفظ استعمله مدلوله الدقيق، قد ورد في محله الذي لا يقوم بوظيفته فيه سواه.

قال نوح ﷺ: ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هُود: 28]، فسلك في قوله هذا " مَسَلَّكَ إِجْمَالٍ لِإِبْطَالِ شُبُهَاتِهِمْ، ثُمَّ مَسَلَّكَ تَفْصِيلٍ لِرَدِّ أَقْوَالِهِمْ، فَأَمَّا مَسَلَّكَ الْإِجْمَالِ فَسَلَّكَ فِيهِ مَسَلَّكَ الْقَلْبِ بِأَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَرَوْا فِيهِ وَفِي أَتْبَاعِهِ مَا يَحْمِلُ عَلَى التَّصْدِيقِ بِرِسَالَتِهِ، فَكَذَلِكَ هُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى رُؤْيَا الْمَعَانِي الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ مَنْعَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ مِنْ مُتَابَعَتِهِ وَالْإِهْتِدَاءِ بِالْهُدَى الَّذِي جَاءَ بِهِ "1، فقوله: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ إلى آخر الآية، معناه: " إِنْ كُنْتُ ذَا بُرْهَانٍ وَاضِحٍ، وَمُتَّصِفًا بِرَحْمَةِ اللَّهِ بِالرَّسَالَةِ بِالْهُدَى فَلَمْ تَظْهَرْ لَكُمْ الْحُجَّةُ وَلَا دَلَالُ الْهُدَى، فَهَلْ أَلْزَمُكُمْ أَنَا وَأَتْبَاعِي بِهَا، أَيْ: بِالْإِدْعَانِ إِلَيْهَا، وَالتَّصْدِيقِ بِهَا، إِنْ أَنْتُمْ تَكْرَهُونَ قَبُولَهَا "2، فهذه دعوة منه ﷺ لهم، وتعريض، بأنهم لو أعمالوا نظرهم ببراءة سرانهم، وتأملوا حاله وحالهم بعيداً عن جحودهم واستكبارهم لعلموا صدق دعوته، وصحة رسالته، ولكن رؤيتهم قصرت عن تبين الحق لعمى بصيرتهم، فحجبها عنهم جهلهم وغرورهم وجاههم، ﴿ فَعَمِيَّتْ ﴾ عليهم، فلم يستبينوا بها ما يدلهم على التفريق بينهم وبينه ﷺ.

1- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (243/11).

2- المصدر نفسه.

ومن عجائب الإعجاز وأسراره في هذا المقام قوله: ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾ [هُود: 28]، في هذه القصة بخلاف ما يأتي بعدها من قصة صالح عليه السلام، حيث يقول: ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ [هُود: 63]، فحيل بين المفعول الأول والثاني وقوع الجار والمجرور، " قَالَ الْخَطِيبُ: لَمَّا وَقَعَ ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً ﴾ [هُود: 28] فِي جَوَابِ كَلَامٍ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَفْعَالٍ، كُلُّهَا مُتَعَدَّةٌ إِلَى مَفْعُولَيْنِ لَيْسَ بَيْنَهُمَا حَائِلٌ بِجَارٍ وَمَجْرُورٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾ [هُود: 27]، ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ ﴾ [هُود: 27]، ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هُود: 27]، أَجْرَى الْجَوَابَ مَجْرَاهُ، فَجَمَعَ بَيْنَ الْمَفْعُولَيْنِ مِنْ غَيْرِ حَائِلٍ " ¹.

وخلاصة رده على الشبهة الأولى في قولهم: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾، أن " حُصُولُ الْمُسَاوَاةِ فِي الْبَشَرِيَّةِ لَا يَمْنَعُ مِنْ حُصُولِ الْمَفَارَقَةِ فِي صِفَةِ النَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ " ².

ثم انتقل عليه السلام إلى الرد على الشبهة الثانية، والتي فيها استحقاق ضعفاء المؤمنين في قول الملا الذين كفروا: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ ﴾، فقال: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رِبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هُود: 29]، فأعاد نداءهم مرة أخرى ﴿ وَيَا قَوْمِ ﴾، بقصد تحريك عواطفهم وتكسير جماد قلوبهم، وفي عطف النداء مع أن المخاطب واحد سر عجيب، فيجوز " أَنْ يَكُونَ تَنْبِيْهَا عَلَى اتِّصَالِ النِّدَاءَاتِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَأَنَّ أَحَدَهَا لَا يُغْنِي عَنِ الْآخَرِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ الْوَصْلِ، لِأَنَّ النِّدَاءَ افْتِتَاحُ كَلَامٍ، فَجُمِلَتْهُ ابْتِدَائِيَّةً، وَعَظْفُهَا إِذَا عَظِفَتْ مُجَرَّدُ عَظْفٍ لَفْظِيٍّ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ تَفْنُّنًا عَرَبِيًّا فِي الْكَلَامِ عِنْدَ تَكَرُّرِ النِّدَاءِ اسْتِحْسَانًا لِلْمُخَالَفَةِ بَيْنَ التَّأْكِيدِ وَالْمُؤَكَّدِ " ³.

ولما أظهر نوح عليه السلام لقومه أنه ما جاءهم بدين يرغمهم على الدخول فيه، والإيمان به، وهم له كارهون، بين لهم أنه لا يريد من وراء ذلك شيئا، فقال: ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ﴾، أي لا أريد منكم أجرا " عَلَى نَصِيحَتِي لَكُمْ، وَدِعَايَتِكُمْ إِلَى

¹ - أسرار التكرار في القرآن، الكرمانى، (ص: 106 – 107).

² - تفسير الرازي، (338/17).

³ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (245/11).

تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، فَتَتَّهَمُونِي فِي نَصِيحَتِي، وَتَتَّظُنُونَ أَنَّ فِعْلِي ذَلِكَ طَلَبُ عَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا "1، وقد جاء ذكر (المال) في هذه الآية على خلاف ما ورد في سورة يونس: ﴿ فَمَا سَأَلْتَكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ [يونس: 72]، والشعراء: ﴿ وَمَا أَسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، لأن ما وقع في سورة هود من قصته " وَقَعَ بَعْدَهَا: ﴿ خَزَائِنُ ﴾ [هود: 31]، وَلَفْظُ الْمَالِ بِالْخَزَائِنِ أَلْيَقُ "2.

ثم بين لهم أنه لا يبتغي من وراء ذلك إلا المثوبة من الله وحده، وليس بطامع في أدنى ما عندهم، فقال: ﴿ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾، لأنه هو صاحب الجزاء والثواب سبحانه.

و﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: فما يكون لي أن أقصي " مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَأَقْرَبَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، وَخَلَعَ الْأَوْثَانَ وَتَبَرَّأَ مِنْهَا بِأَنْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ عِلِّيَّتِكُمْ وَأَشْرَافِكُمْ "3، ومثله قوله في سورة الشعراء: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الشعراء: 114 - 115].

ذهب جمع من المفسرين إلى أن هذا القول كان ردا منه عليهم حين طلبوا منه طرد من آمن من قومه، وهم طبقة الضعفاء والفقراء، ولو يصح هذا المذهب لقلنا باحتمال أن هذا المجلس قد دار بين نوح عليه السلام والملا الذين كفروا من قومه فقط، من غير حضور الآخرين، وكأنه مجلس خاص قصدهم فيه نوح عليه السلام وحدهم، فحدث بينهم ما نقلته الآيات، والذي جعلنا نميل إلى هذا القول أنه ما كان للملا أن يزدروا ضعفاء قومهم، ويصفونهم بالنقائص، وهم يريدون كسبهم في تأليبهم على نوح عليه السلام، وتكذيبهم له في ما دعاهم إليه، إذ أن عادة من يفعل ذلك هو السعي إلى كسب الطرف الذي يراهن عليه، فيبذل قصارى جهده حتى يستميله إليه، ولو كان ذلك بالكذب، والبهتان، والخداع.

1- تفسير الطبري، (384/12 - 385).

2- أسرار التكرار في القرآن، الكرمانى، (ص: 106 - 107).

3- تفسير الطبري، (384/12 - 385).

ثم قال عليه السلام: ﴿ **إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ** ﴾، أي: " إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَسْأَلُونِي طَرَدَهُمْ، صَائِرُونَ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ سَائِلُهُمْ عَمَّا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَعْمَلُونَ، لَا عَنْ شَرَفِهِمْ وَحَسَبِهِمْ "1.

ثم بين لهم الرؤية الصحيحة المبنية على الأسس المتينة، فقال: ﴿ **وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ** ﴾، فوصفهم بالجهل " لِكُونِهِمْ بَنَوْا أَمْرَهُمْ عَلَى الْجَهْلِ بِالْعَوَاقِبِ، وَالْإِغْتِرَارِ بِالظُّوَاهِرِ. أَوْ لِأَنَّهُمْ يَتَسَافَلُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَيَدْعُونَهُمْ أَرَادِلَ ... أَوْ تَجْهَلُونَ لِقَاءَ رَبِّكُمْ، أَوْ تَجْهَلُونَ أَنَّهُمْ خَيْرٌ مِنْكُمْ، أَوْ وَصَفُهُمْ بِالْجَهْلِ فِي هَذَا الْإِفْتِرَاحِ، وَهُوَ طَرْدُ الْمُؤْمِنِينَ وَنَحْوُهُ "2.

استمر نوح عليه السلام في إبطال ادعاءات الملا الذين كفروا من قومه، يضرب أوهامهم بحججه الدامغة، ويكشف سفاهة عقولهم بأدلته القاطعة، ويفضح عورهم ببراهينه الساطعة، قال عليه السلام: ﴿ **وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [هُود: 30]، كرر نداءهم مرة أخرى، وأثبت بقاء انتسابه إليهم لتأكيد حرصه على ابتغاء الخير لهم، وقرع آذانهم باستفهام إنكاري آخر، لعله يبلغ به إلى عقولهم فيؤوبوا إلى رشدهم، " أَي لَا يُوجَدُ أَحَدٌ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ بِأَنْ يَمْنَعَ عَنِّي مَا اسْتَحَقَّهُ مِنْ عِقَابِهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ لِي وَاتِّبَاعِهِمْ إِيَّايَ فِيمَا بَلَّغْتُهُمْ عَنْهُ، وَهُوَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ يَفْتَضِي الْعِقَابَ الشَّدِيدَ بِعَدْلِ اللَّهِ تَعَالَى مَهْمَا تَكُنْ صِفَةً مَنِ افْتَرَفَهُ "3، ثم قال: ﴿ **أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾، أي: " أَتُصِرُّونَ عَلَى جَهْلِكُمْ، أَوْ أَتَأْمُرُونِي أَنْ أُطْرَدَهُمْ، فَلَا تَتَذَكَّرُونَ أَنْ لَهُمْ رَبًّا يَنْصُرُهُمْ وَيَنْتَقِمُ لَهُمْ ؟ "4.

وفي هذا الرد مخاطبة صريحة لعقول العاقلين، وأصحاب البصائر المنصفين، فلو كانت عيونهم ترى الحق حقا كما زعموا، لكفتهم هذه الأدلة في رجوعهم عن غيهم وطغيانهم، فقد بين لهم نبي الله عليه السلام أن العقل والشرع في هذا الأمر قد تطابقا، على أنه " لَا بُدَّ مِنْ تَعْظِيمِ الْمُؤْمِنِ الْبِرِّ التَّقِيِّ، وَمِنْ إِهَانَةِ الْفَاجِرِ الْكَافِرِ، فَلَوْ قَلِبَتْ الْقِصَّةُ، وَعَكِسَتْ الْقَضِيَّةُ، وَقَرَّبَتْ الْكَافِرَ الْفَاجِرَ عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ، وَطَرَدَتِ الْمُؤْمِنَ

1- تفسير الطبري، المصدر السابق، (384/12 - 385).

2- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (145/6).

3- تفسير المنار، رشيد رضا، (56/12).

4- المصدر نفسه.

التَّقِيَّ عَلَى سَبِيلِ الْإِهَانَةِ، كُنْتُ عَلَى ضِدِّ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى عَكْسِ حُكْمِهِ، وَكُنْتُ فِي هَذَا الْحُكْمِ عَلَى ضِدِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ إِيْصَالِ الثَّوَابِ إِلَى الْمُحِقِّينَ، وَالْعِقَابِ إِلَى الْمُبْطِلِينَ، وَحِينَئِذٍ أَصِيرُ مُسْتَوْجِبًا لِلْعِقَابِ الْعَظِيمِ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنِ الَّذِي يُخَلِّصُنِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ¹.

ثم ختم مناظرته لهم بقوله: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [هُود: 31]، وهو كلام معطوف على الذي قبله لذلك لم يكرر النداء فيه، نفى فيه أربعة أشياء، سبق ذكر واحدة وبقيت ثلاث، " وَهَذِهِ الثَّلَاثُ الَّتِي نَفَاهَا نُوحٌ عليه السلام عَنْ نَفْسِهِ، هِيَ الَّتِي كَانَ يَظُنُّ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قَوْمِهِ وَمِمَّنْ بَعْدَهُمْ أَنَّ ثُبُوتَهَا لَازِمٌ لِمَنْ كَانَ نَبِيًّا مُرْسَلًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِنْ صَحَّتْ دَعْوَاهُ، وَإِلَّا كَانَ كَسَائِرِ الْبَشَرِ لَا فَضْلَ لَهُ عَلَيْهِمْ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ نَفْيُهَا مُتَضَمَّنًا لِرَدِّ شُبُهَةِ حُجَّتِهِمُ الثَّلَاثَةَ²."

اعتمد عليه السلام في آخر رد عليهم على أسلوب النفي الذي قطع به أنفاسهم، فوظف أربع (لاءات) متتالية في قوله: ﴿ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي ﴾، و﴿ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾، و﴿ لَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾، و﴿ لَا أَقُولُ لِلَّذِينَ ﴾، وكان غايته من ذلك محو كل ما جاءوا به من إفك وزور، فلم يبق لهم بين أيديهم ما يمكن أن يتعلقوا به، ولو كان خيط عنكبوت ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 41]، وكذلك كان أمرهم إلى زوال، ورأيهم في ضلال، فقد انقطع القوم عن الكلام بعدها، ولم يأتوا ولو بنصف شبهة، فكان رده هذا ردا أجمل فيه مقاتلهم كلها.

استدل القوم على نفي نبوته بعدم تمكنهم من رؤية الفضل له ولأتباعه، " فَجَاءَ هُوَ فِي جَوَابِهِمْ بِالْقَوْلِ بِالْمُوجِبِ أَنَّهُ لَمْ يَدْعِ فَضْلًا غَيْرَ الْوَحْيِ إِلَيْهِ ... وَلِذَلِكَ نَفَى أَنْ يَكُونَ قَدْ ادَّعَى غَيْرَ ذَلِكَ. وَاقْتَصَرَ عَلَى بَعْضِ مَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ لَوَائِمِ النُّبُوَّةِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَعْنَى مِنْهُمْ، أَوْ أَنْ يَعْلَمَ الْأُمُورَ الْغَائِبَةَ³."

¹ - تفسير الرازي، (340/17).

² - تفسير المنار، رشيد رضا، (57/12).

³ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (248/11).

وأما قوله: **﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾**، فهو نفي لشبهة قولهم: **﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾**، " لِذَلِكَ أَعَادَ مَعَهُ فِعْلَ الْقَوْلِ، لِأَنَّهُ إِبْطَالُ دَعْوَى أُخْرَى أَلْصَقُوهَا بِهِ، وَتَأْكِيدُهُ (إِنْ)، لِأَنَّهُ قَوْلٌ لَا يَقُولُهُ قَائِلُهُ إِلَّا مُؤَكِّدًا لِشِدَّةِ انْكَارِهِ لَوْ ادَّعَاهُ مُدَّعٍ، فَلَمَّا نَفَاهُ نَفَى صِيغَةً اثْبَاتِهِ "1.

وأما طريقة إبطال قولهم: **﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا ﴾** [هود: 27]، فقد اعتمد فيه على " طَرِيقَةَ التَّغْلِيظِ، لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا ضَعْفَهُمْ وَفَقْرَهُمْ سَبَبًا لِانْتِفَاءِ فَضْلِهِمْ، فَأَبْطَلَهُ بِأَنَّ ضَعْفَهُمْ لَيْسَ بِحَائِلٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَيْرِ مِنَ اللَّهِ، إِذْ لَا ارْتِبَاطَ بَيْنَ الضَّعْفِ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ فَقْرٍ وَبَيْنَ الْحِرْمَانِ مِنْ نَوَالِ الْكَمَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالِدِينِيَّةِ، وَجِيءَ فِي النَّفْيِ بِحَرْفِ (لَنْ) الدَّالَّةِ عَلَى تَأْكِيدِ نَفْيِ الْفِعْلِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ تَعْرِيزًا بِقَوْمِهِ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا ضَعْفَ اتِّبَاعِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفَقْرَهُمْ دَلِيلًا عَلَى انْتِفَاءِ الْخَيْرِ عَنْهُمْ فَأَقْتَضَى دَوَامَ ذَلِكَ مَا دَامُوا ضَعْفَاءَ فَقَرَاءَ، فَلِسَانَ حَالِهِمْ يَقُولُ: (لَنْ يَنَالُوا خَيْرًا)، فَكَانَ رَدُّهُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ لَا يَقُولُ: **﴿ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾** "2.

وأما قوله: **﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾**، فهي جملة جاءت لتبين غلط القوم فيما اتجهوا إليه واعتمدوا فيه على ما يرون إن كانت رؤيتهم تنفعهم، " وَتَغْلِيظُهُ بِالنَّفُوسِ تَنْبِيهُ لِقَوْمِهِ عَلَى غَلْطِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: **﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾** [هود: 27]، بِأَنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَى الْجَانِبِ الْجُمُتَانِيِّ الدُّنْيَوِيِّ، وَجَهِلُوا الْفَضَائِلَ وَالْكَمَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ، وَالْعَطَايَا الدُّنْيَوِيَّةَ الَّتِي اللَّهُ أَعْلَمُ بِهَا "3. وقوله: **﴿ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾** أكد فيه إثبات الظلم لنفسه إن هو أجابهم إلى ما دعوه إليه، وهذا أبلغ من قوله: (إني ظالم)، وقد " أَكَّدَهُ بِثَلَاثِ مُؤَكِّدَاتٍ: (إِنَّ)، وَ(لَا أَلْبِتْدَاءِ)، وَحَرْفِ الْجَزَاءِ، تَحْقِيقًا لِظُلْمِ الَّذِينَ رَمَوْا الْمُؤْمِنِينَ بِالرَّذَالَةِ وَسَلَبُوا الْفَضْلَ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُ أَرَادَ التَّعْرِيزَ بِقَوْمِهِ فِي ذَلِكَ "4.

وبهذه الكلمات انكشف عوار القوم، وافتضح أمرهم، وانبهرت أبصارهم أمام نور الرسالة، فانقطعت حجتهم، وتلعثمت شفاههم، وخرصت ألسنتهم عن النطق

1- المصدر نفسه.

2- المصدر نفسه، (249/11).

3- التحرير والتنوير، المصدر السابق.

4- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (250/11).

بالحجة إلا أن يقولوا: ﴿ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [هُود: 32].

ذهب بعض أهل التفسير إلى أن هذه المجادلة " كانت آخر مجادلة جادلها قومه، وأن ضجرهم وسامتهم من تكرار مجادلتهم حصل ساعتئذ، فقالوا قولهم هذا، فكانت كلها مجادلات مضت. وكانت المجادلة الأخيرة هي التي استفزت امتعاضهم من قوارع جدله، حتى سئموا من تزييف معارضتهم وآرائهم، شأن المبطل إذا دمعته الحجة، ولذلك أرادوا طي بساط الجدل، وأرادوا إفحامه بأن طلبوا تعجيل ما وعدهم من عذاب ينزل بهم " ¹.

وفي هذا القول نظر، لأن نصوص القرآن قد نقلت لنا مجالس أخرى دار فيها الحوار بين نوح عليه السلام وبين قومه، يتبين من خلالها أنها وردت بعد هذه المناظرة وتأخرت عنها في الزمان.

ومن بين القرائن الواردة في سياق نفس الآيات، والتي تدل على أنها لم تكن آخر مجادلة بينه وبين قومه، أنهم حين طالبوه بالإتيان بالعذاب لم يفعل، ولم يدعو عليهم بعد بالعذاب، كما بينته الآيات في موقفه الأخير معهم، فحين قالوا له: ﴿ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [هُود: 32]، فكان رده عليهم: ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [هُود: 33]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾، لم يكن فيه الجزم بالعذاب الدال على أنه لم يصل معهم بعد إلى الطريق المسدود ولعله " لم يكن له وحى من الله بأن يحل بهم عذاب الدنيا، فذلك فوضه إلى المشيئة " ²، ولا شك أن هذا الرد يختلف تماما عن قولهم: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: 25]. فقال: ﴿ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴾ [المؤمنون: 26]، وكذلك قولهم: ﴿ لَنْ نَمُوتَ بِمَا نُوحٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: 116]، فرد قائلا: ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 117 - 118]. وهذه نصوص وردت في سياق أحداث القصة جعلناها في دراستنا هي آخر ما نقل

¹ - المصدر نفسه.

² - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (251/11).

لنا من مجالس الحوار الذي كان بين نوح عليه السلام وبين قومه، إذ بعده لم يبق لهم كلام إلا انتظار العذاب.

وختم هذا المجلس (الثاني) كان بطلب من الملأ الذين كفروا حين أرادوا تعجيل ما توعدهم به نوح عليه السلام، فكان رده عليهم بأن الأمر ليس إليه، بل هو تحت مشيئة الله إن شاء أنفذه، فلا راد لحكمه **﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾** [آلِ عِمْرَانَ: 47]. وزادهم فوق طلبهم: **﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾** [هُود: 34]، والمعنى: " لا يَنْفَعُكُمْ تَحْذِيرِي عُقُوبَتَهُ، وَنُزُولَ سَطْوَتِهِ بِكُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ بِهِ، **﴿ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾** فِي تَحْذِيرِي إِيَّاكُمْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ نُصْحِي لَا يَنْفَعُكُمْ لِأَنَّكُمْ لَا تَقْبَلُونَهُ، **﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾**، يَقُولُ: إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَهْلِكَكُمْ بِعَذَابِهِ، **﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾** يَقُولُ: وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بَعْدَ الْهَلَاكِ "1.

يسدل الستار على هذا المشهد المبهر، والملأ من القوم الذين كفروا قد انقطعت بهم السبل، وقامت عليهم الحجة، فلم يحركوا ساكنا، وتوقفت فجأة حركة سرد القصة وتتابعها في أطول نص نقل لنا حكاية هذا النبي الكريم مع قومه، فقال تعالى: **﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾** [هُود: 35].

وقع خلاف بين المفسرين حول هذه الآية، فمنهم من جعلها من صلب القصة وموضوعها، ومنهم من جعلها فاصلا مستقلا عنها بمخاطبة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، قال القرطبي: " وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (هُوَ مِنْ مُحَاوَرَةِ نُوحٍ لِقَوْمِهِ)، وَهُوَ أَظْهَرُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ إِلَّا ذَكَرَ نُوحٍ وَقَوْمَهُ؛ فَالْحَطَابُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ "2، وقال الرازي: " وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا مِنْ بَقِيَّةِ كَلَامِ نُوحٍ عليه السلام، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَقَعَتْ فِي قِصَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فِي أَثْنَاءِ حِكَايَةِ نُوحٍ، وَقَوْلُهُمْ بَعِيدٌ جِدًّا "3، وقال أبو حيان: " قِيلَ: هَذِهِ الْآيَةُ اعْتَرَضَتْ فِي قِصَّةِ نُوحٍ، وَالْإِخْبَارُ فِيهَا عَنْ قُرَيْشٍ، يَقُولُونَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، أَي: افْتَرَى الْقُرْآنَ، وَافْتَرَى هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ نُوحٍ وَقَوْمِهِ، وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ بِسَنَدٍ

1- تفسير الطبري، (389/12).

2- تفسير القرطبي، (29/9).

3- تفسير الرازي، (343/17).

صَحِيحٌ لَوْ قَفَّ عِنْدَهُ، وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي (يَقُولُونَ) عَائِدٌ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ¹.

مع أن ما ذهب إليه العلماء له وجه معتبر إلا أن سياق القصة يأبى ذلك، فأحداثها المتسلسلة توقفت عند توقف الحوار بين نوح وقومه، وكانت الآية فاصلاً يفصل أجزاء القصة عن بعضها، ذلك أن سياق الآيات يبين بداية أحداث جديدة من قصة نوح عليه السلام مع قومه، فقد أخبرنا الله عز وجل بأنه أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك أحد بعد الذين سبق إيمانهم، لذلك سينطلق النص في سرد باقي الأحداث منفصلة عما سبقها، إذ لا يوجد في هذه الآية ما يربط ما سبق من الأحداث مع ما سيأتي، لذلك يأبى السياق قول من قال بأنها من قول نوح لقومه، وإنما هي " جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ، بَيْنَ جُمْلَةٍ أَجْزَاءِ الْقِصَّةِ وَلَيْسَتْ مِنَ الْقِصَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهَا مِنْهَا فَقَدْ أَبْعَدَ، وَهِيَ تَأْكِيدٌ لِنَظِيرِهَا السَّابِقِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، وَمُنَاسِبَةٌ هَذَا الْأَعْتِرَاضِ أَنَّ تَفَاصِيلَ الْقِصَّةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا الْمُخَاطَبُونَ تَفَاصِيلٌ عَجِيبَةٌ تَدْعُو الْمُنْكَرِينَ إِلَى أَنْ يَتَذَكَّرُوا إِنْكَارَهُمْ وَيُعِيدُوا ذِكْرَهُ"².

يعتبر هذا النوع من الآيات والجمل المعترضة في النص القرآني باب من أبواب تنويع أسلوب القص، وله فوائده، فلا يستعمل إلا لغرض معين، وهدف مقصود من وراء عملية السرد، " وَلِلْجَمَلِ وَالْآيَاتِ الْمُعْتَرِضَةِ فِي الْقُرْآنِ حِكْمٌ وَفَوَائِدٌ يَفْتَضِيهَا تَلْوِينُ الْخُطَابِ لِتَنْبِيهِ الْأَذْهَانَ، وَمَنْعُ السَّامَةِ وَتَجْدِيدُ النَّشَاطِ فِي الْإِنْتِقَالِ، وَالتَّشْوِيقِ إِلَى سَمَاعِ بَقِيَّةِ الْكَلَامِ؛ فَمَنْ الْمُتَوَقَّعِ هُنَا أَنْ يَخْطُرَ فِي بَالِ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ سَمَاعِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهَا مُفْتَرَاةٌ كَمَا زَعَمُوا، لِاسْتِعْرَابِهِمْ هَذَا السَّبْكَ فِي الْجِدَالِ وَالْفُؤَّةِ فِي الْإِحْتِجَاجِ، وَأَنْ يَصُدَّهُمْ هَذَا عَنِ اسْتِمَاعِ، فَيَكُونَ إِيرَادُ هَذِهِ الْآيَةِ تَجْدِيدًا لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَلِنَشَاطِهِمْ، وَأَعْظَمُ بَوَاقِعُهَا فِي قُلُوبِهِمْ إِذَا كَانَ هَذَا الْخَاطِرُ عَرَضَ لَهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْقِصَّةِ"³، وممن قال بهذا القول من مفسري السلف ابن جرير الطبري ومقاتل بن سليمان وغيرهما، واختاره جمع من المتأخرين، وبرروا علة اختيارهم، بأن: " لَهُ وَجْهٌ وَجِيهٌ مِنْ وَجْهَةِ الْأُسْلُوبِ

¹ - البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (148/6).

² - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (253/11).

³ - تفسير المنار، رشيد رضا، (60/12 - 61).

الْخَاصِّ بِالْقُرْآنِ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى تَعْبِيرِهَا عَنِ الْإِنْكَارِ بِ(يَقُولُونَ)، وَعَنِ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ بِ(قُلْ) الدَّالِّينَ عَلَى الْحَالِ، وَأَبْعَدُ عَنِ سِيَاقِ حُكْيِ كُلِّهِ بِفِعْلِ الْمَاضِي مِنَ الْجَانِبَيْنِ (قَالُوا ... قَالَ)، وَهُوَ سِيَاقُ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ¹.

بهذه الآية الفاصلة ينتهي المجلس الثاني من مجالس محاوراة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الملائكة الذين كفروا من قومه، لننتقل إلى نص آخر يصور لنا جانبا غير الذي سبق من محاوراته عَلَيْهِ السَّلَامُ التي كان يحرص من خلالها على إيصال الخير إلى قومه، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

الْمِفْصَلُ الثَّلَاثُ: الْمَجْلِسُ الثَّلَاثُ (الْأَخِيرُ)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (24) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 24 - 26].

سبق القول في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾، ولكن الملفت للانتباه في هذا النص هو عدم توجيه الكلام من الملائكة الذين كفروا إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما كان المخاطبون به هم القوم وحدهم، مع أنه هو من بادرهم بالدعوة إلى عبادة الله وحده، ونبذ الشرك وعبادة الأوثان، ولم أجد عند أهل التفسير - فيما وقع بين يدي من التفاسير - من أشار إلى سر تحويل الخطاب إلى القوم مع أن مخاطبهم هو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلا ما أوما إليه ابن عاشور حينما أراد تبرير العطف بـ (الفاء) في قوله: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، فقال: " فَعَطَفَ هُنَا جَوَابَ الْمَلَأِ مِنْ قَوْمِهِ بِـ (الْفَاءِ) لِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ لَمْ يُوجِّهُوا الْكَلَامَ إِلَيْهِ، بَلْ تَرَكَوهُ، وَأَقْبَلُوا عَلَى قَوْمِهِمْ، يُفَنِّدُونَ لَهُمْ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ نُوحٌ. وَالثَّانِي: لِيُقَادَ أَنَّهُمْ أَسْرَعُوا لِتَكْذِيبِهِ، وَتَرْيِيفِ دَعْوَتِهِ قَبْلَ النَّظَرِ²."

والذي يظهر - والله أعلم - أن الآية جاءت لتصوير جانبا آخر من أهم الجوانب في هذه القصة، والذي يتمثل في تبيين وجه بانس من الوجوه المتعددة لهؤلاء القوم في إعراضهم عن الدعوة، وأنهم بلغوا قمة العصيان لأمر الله عز

¹ - تفسير المنار، المصدر السابق.

² - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (35/18).

وجل، وأنهم وصلوا إلى ما لا يمكن تصوره وتوقعه، أفلم يخبر عنهم نوح عليه السلام أنه دعاهم: ليلا ونهارا، سرا وجهارا، فرادى وجماعات، كل على حاله، والكل في جماعته؟ وهل كان هذا الجهد العظيم الجبار منه عليه السلام إلا بسب صدودهم وعنادهم وغرورهم وإعراضهم؟

والآية في هذا المقام نقلت لنا صورة قبيحة من انحطاط القوم ودناءة أخلاقهم، فكيف يقوم يخاطبهم نبيهم وهو أحرص ما يكون في مخاطبته لهم على مصلحتهم، وهم لا يردون عليه، بل يتجاهلونه ويوجهون خطابهم إلى غيره من قومهم، وهذا دليل قاطع منهم على أنهم بلغوا النهاية معه، ولم يكن لهم أدنى استعداد لسماعه مرة أخرى، وأن الأمر آل بهم إلى محاولة التخلص منه عليه السلام، فقد ضاقوا به ذرعا، وسنموا من دعوته، وقالوا: ﴿ **فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ** ﴾، لذلك لم تنقل لنا الآية أي رد منه، بل انقطع الحوار، وانتهت المساجلة، وصورت الآية نهاية ذلك بقوله عليه السلام: ﴿ **رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ** ﴾ [المؤمنون: 26]، وهذا القول استشعار منه عليه السلام بأن القوم نفدت معهم كل السبل والطرق الموجبة لاستجابتهم، ومع ذلك فقد أدى واجبه معهم على أكمل وجه، ولم ييأس، ولم يقصر في تبليغ رسالة ربه.

لم يتجرأ الملأ الذين كفروا على تنقص الذين استرذلوهم فيما سبق، لأن المقام مقام الحرص على استمالتهم، وإقناعهم بعدم الإيمان والانقياد لما جاء به نوح عليه السلام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن كل ما رموه ورموهم به من أقوال شنيعة قد رُد على وجوههم، فلم يحركوا تجاهه ساكنا، لذلك لم يبق لهم إلا قولهم: ﴿ **مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (24) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ** ﴾ [المؤمنون: 24 - 26].

لما عرف الملأ هشاشة حججهم لم يواجهوا بها نبي الله، بل وُجِهُت عنادا لباقي القوم، وهم يعلمون سلفا ضعفها، وقد سبق وأن رُدت على وجوههم فما استطاعوا لها من قيام، لذلك لما أعيد ذكرها في هذا المجلس لم يرد عليها نوح عليه السلام، لأن الرد منه مرة أخرى يثبت وجودها، وكيف يكون لها ذلك وهي قد هُتت على رؤوسهم من قبل.

وقولهم: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ** ﴾، قد ورد ذكره أيضا من قولهم في سورة القمر، في قوله تعالى: ﴿ **فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ** ﴾ [القَمَرِ: 9 - 10]. وهذا حال الضعيف المنقطع عن إقامة الحجة، يلجأ إلى الطعن في شخص الخصم ليصرف النظر عن ضعفه، ويتخفى وراء السب والشتم والتنقص، فرموا رسول الله ﷺ بالجنون، فقالوا: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ** ﴾، والمعنى: " مَا نُوحٌ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جُنُونٌ، وَقَدْ يُقَالُ أَيْضًا لِلْجِنِّ جِنَّةٌ، فَيَتَّفِقُ الْإِسْمُ وَالْمَصْدَرُ "1، أي أنه: " مَجْنُونٌ فِيمَا يَزْعَمُهُ مَنْ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ، وَاخْتَصَّهُ مِنْ بَيْنِكُمْ بِالْوَحْيِ "2، ﴿ **فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ** ﴾، والتربص: " التَّوَقُّفُ عَنِ عَمَلٍ يُرَادُ عَمَلُهُ وَالتَّرَيُّثُ فِيهِ انْتِظَارًا لِمَا قَدْ يُغْنِي عَنِ الْعَمَلِ، أَوْ انْتِظَارًا لِفُرْصَةٍ تُمْكِنُ مِنْ إِيقَاعِهِ عَلَىٰ أَتَقَنَ كَيْفِيَّةً لِنَجَاحِهِ "3، ومعنى التربص في الآية يتعلق بما سيؤول إليه الأمر من بعد، أو " يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِمَا قَبْلَهُ، أَي: أَنَّهُ مَجْنُونٌ فَاصْبِرُوا إِلَىٰ زَمَانٍ حَتَّىٰ يَظْهَرَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ، فَإِنْ أَفَاقَ وَإِلَّا فَتَتَّمُوهُ "4.

وحين بلغ الأمر نهايته، وجاهر القوم بأذيته، وانفتحت على ألسنتهم جبهات المخاطر، وقالوا: ﴿ **لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ** ﴾ [الشُّعْرَاءِ: 116]، لجأ نبي الله إلى الركن الشديد، والحصن المنيع، فدعا ربه: ﴿ **قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ** ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 26].

3 - الْمَشْهَدُ الثَّلَاثُ

دُعَاءُ نُوحٍ ﷺ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ مِنْ قَوْمِهِ

- 1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ **وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: 76 - 77]
- 2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ **قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ** ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 26]

1- تفسير الطبري، (35/17).

2- تفسير ابن كثير، (473/5).

3- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (37/18).

4- تفسير الرازي، (271/23).

- 3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 117 - 118].
- 4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلْنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات: 75].
- 5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فِدْعَا رَبِّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [القمر: 10].
- 6 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: 26 - 27].
- وقبل البداية في ذكر تفاصيل هذا المشهد، يجدر بنا الإشارة إلى ذكر التحول الواضح في كلام نبي الله نوح عليه السلام مع قومه، وذلك حين تبين له عنادهم وطغيانهم بعد قيام الحجة عليهم، فانتقل من أسلوب اللين والملاطفة معهم إلى أسلوب الحزم والعزم، ولكل مقام مقال، وكل ورد في محله المناسب له بحسب ما تقتضيه الحكمة الربانية، فقال نبي الله لهم: ﴿ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عَمَةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (71) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: 71 - 72]، ولقد أوردنا هذا النص في هذا المقام لأن سياق وأحداث القصة يقتضيه، فبعد قول القوم له: ﴿ قَدْ جَادَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ [هود: 32]، ناسبه تماما قوله عليه السلام: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾، ويحتمل أن يكون سبب هذا التحول هو بأسه منهم، بعدما أوحى الله إليه ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: 36]، فلما علم من الله أن أبواب الاستجابة منهم قد أغلقت، وسبل الاتباع قد انقطعت، قال لهم: ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾، أي: " إن كان شقَّ عليكم مقامي بين أظهركم، وتذكيري بآيات الله، فعزمتُ على قتلي أو طردِي من بين أظهركم، فعلى الله اتكالي، وبه ثقتي، وهو سندي وظهري " ¹، وهذا يعضد ما ذهبنا إليه في قول الملا الذين كفروا: ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾، فرد عليهم: ﴿ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عَمَةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾، أي: " فأعدوا أمركم، واعزموا

¹ - تفسير الطبري، (230/12).

عَلَى مَا تَقْدِمُونَ عَلَيْهِ فِي أَمْرِي، وَادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ مُلْتَبِسًا مُشْكَلاً مَبْهَمًا، ثُمَّ امْضُوا إِلَيَّ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَأَفْرَعُوا مِنْهُ، وَلَا تُؤَخِّرُونَ¹.

وهذا تحد منه ﷺ لهم، ليثبت صحة المعتقد الذي جاء يدعو إليه، فهو واثق بنصر الله له، غير خائف من كيدهم ومكرهم، وأن الأمر كله بيد الله، فهم وآلهتهم جميعا لا يملكون له ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا، وإن كانوا يعتقدون خلاف ذلك فليفعلوا ما يريدون، فهو في انتظار ما يستطيعون القيام به إن كانوا صادقين.

تروي لنا آيات سورة نوح ﷺ قصة مكابדתه في دعوته مع قومه في تبليغهم رسالة ربه، وشدة المعاناة التي تلقاها من صدودهم، وقد قابلوا كل جميل منه بأقبح ما عندهم، وأن معظم ضعفاء قومه اتبعوا ساداتهم وأغنياءهم، وصدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا قليلا منهم، قال نوح ﷺ مخاطبا ربه: ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَئُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ [نوح: 21 – 24].

حين استيأس منهم لجأ إلى ربه فطلب منه النصر عليهم، فنقلت لنا الآيات دعاء نوح ﷺ على قومه، حين قال:

- ﴿ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴾ [المؤمنون: 26].
- ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 117 – 118].
- ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [القمر: 10].
- ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: 26 – 27].

وقبل محاولة كشف بعض أسرار المعاني الواردة في هذه النصوص التي بين أيدينا، يستشكل علينا الأمر في تحديد الإطار الزمني الذي وقعت فيه دعوة نبي الله نوح ﷺ على قومه، قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [القمر: 10]،

¹ - ينظر: المصدر نفسه، (231/12 – 234).

وقال أيضا: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ [الأنبياء: 76 - 77]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات: 75].

وقد بين النبي ﷺ، أنه ما من نبي إلا وله دعوة مستجابة، وأن نبي الله نوح ﷺ قد دعا دعوته على قومه، وذلك ما رواه أحمد في مسنده من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا إِلَّا لَهُ دَعْوَةٌ قَدْ تَجَرَّهَا فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي قَدْ اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي »¹. وقال ﷺ في حديث الشفاعة المشهور: « فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي، نَفْسِي »²، وهذه نصوص تدل على ثبوت دعوة نوح عليه السلام على قومه.

ولم يتبين في نصوص الآيات الوقت الذي وقع فيه دعاءه ﷺ على قومه، فهل دعا عليهم بعد وحي الله إليه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، أو دعا عليهم قبل ذلك؟ وبسبب هذا التساؤل انقسم المفسرون إلى قسمين:

قسم قالوا: دعا عليهم حين علم أمرهم، وممن قال بذلك القرطبي، قال: " وَمَعْنَى الْكَلَامِ: الْإِيَّاسُ مِنْ إِيْمَانِهِمْ، وَاسْتِدَامَةَ كُفْرِهِمْ، تَحْقِيقًا لِنُزُولِ الْوَعِيدِ بِهِمْ. قَالَ الضَّحَّاكُ: فَدَعَا عَلَيْهِمْ لَمَّا أُخْبِرَ بِهِذَا " ³، والبعوي، قال: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَسِسْ ﴾، أي: فَلَا تَحْزَنْ ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾، فَإِنِّي مُهْلِكُهُمْ وَمُنْقِذُكَ مِنْهُمْ، فَحِينَئِذٍ دَعَا نُوحٌ عَلَيْهِمْ ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: 26] ⁴، والقاسمي، قال: " وَكَانَ مِنْ أَمْرِ نُوحٍ ﷺ، أَنْ قَوْمَهُ لَمَّا أَعْرَضُوا عَنِ الْإِيْمَانِ، وَتَمَادَوْا عَلَى الْعُصْيَانِ، وَعَبْدَةَ الْأَوْثَانِ، وَطَالَ عَلَيْهِ أَمْرُهُمْ، شَكَاهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّهُ: ﴿ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾،

¹ - حديث حسن لغيره، رواه أحمد في المسند، حديث رقم (2546)، ومحمد بن نصر في (تعظيم قدر الصلاة)، تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر أبو عبد الله المروري، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريواني، مكتبة الدار، المدينة المنورة، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1406 هـ، حديث رقم (265).

² - حديث صحيح، رواه البخاري، حديث رقم (3340)، ومسلم، حديث رقم (501).

³ - تفسير القرطبي، (9/29).

⁴ - معالم التنزيل، البغوي، (173/4).

وَهُمْ نَاسٌ قَلِيلٌ، فَحِينِذٍ دَعَا عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾¹. والشنقيطي، قال: " وَمَا دَعَا نُوحٌ عَلَى قَوْمِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ أَحَدٌ غَيْرَ الْقَلِيلِ الَّذِي آمَنَ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾².

القسم الثاني: قالوا: دعا عليهم أولاً، ثم أنزل الله قوله بعد ذلك، وممن قال بذلك، ابن جرير الطبري، قال: " وَأَوْحَى اللَّهُ ﴿ إِلَى نُوحٍ ﴾ لَمَّا حَقَّ عَلَى قَوْمِهِ الْقَوْلُ وَأَظْلَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ، ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ ﴾ يَا نُوحُ بِاللَّهِ، فَيُوحِدُهُ وَيَتَّبِعَكَ عَلَى مَا تَدْعُوهُ إِلَيْهِ ﴿ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ فَصَدَقَ بِذَلِكَ وَاتَّبَعَكَ. ﴿ فَلَا تَبْتَسِسْ ﴾، يَقُولُ: فَلَا تَسْتَكِنُ، وَلَا تَحْزَنُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، فَإِنِّي مُهْلِكُهُمْ، وَمُنْقِذُكَ مِنْهُمْ، وَمَنْ اتَّبَعَكَ. وَأَوْحَى اللَّهُ ذَلِكَ إِلَيْهِ بَعْدَ مَا دَعَا عَلَيْهِمْ نُوحٌ بِالْهَلَاكِ، فَقَالَ: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾³، وابن كثير، قال: " يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى نُوحٍ لَمَّا اسْتَعْجَلَ قَوْمُهُ نِقْمَةَ اللَّهِ بِهِمْ وَعَذَابَهُ لَهُمْ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ نُوحٌ دَعْوَتَهُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: 26]، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [الْقَمَرِ: 10]، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾⁴.

اعتمد الفريق الأول على ما روى أهل التفسير عن الضحاك، والحسن البصري، قولهما بذلك.

فأما قول الضحاك، فرواه ابن جرير في تفسيره، بسند ضعيف جداً. قال الطبري: " حَدِيثُ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْفَرَجِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا مُعَاذٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ الضَّحَّاكَ، يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ

¹ - محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1418 هـ، (112/5).

² - أضواء البيان، الشنقيطي، (477 /7).

³ - تفسير الطبري، (390/12).

⁴ - تفسير ابن كثير، (319 /4).

﴿أَمَّنْ﴾، فَحِينِذِ دَعَا عَلَى قَوْمِهِ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ لَهُ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ 1».

وأما قول الحسن البصري: فرواه أحمد في كتاب الزهد، بسند ضعيف أيضا. قال أحمد: " حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ، أَخْبَرَنَا صَالِحٌ، يَعْنِي الْمُرِّيَّ، عَنِ الْحَسَنِ، أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَدْعُ عَلَى قَوْمِهِ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾، فَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، قَالَ: فَدَعَا عَلَيْهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ 2».

وأما الفريق الثاني فقد اعتمد على قول قتادة بن دعامة السدوسي، وهو صحيح الإسناد إليه. أخرجه:

1 – ابن جرير في تفسيره. قال: " حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنِ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾، وَذَلِكَ حِينَ دَعَا عَلَيْهِمْ قَالَ: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ 3».

2 – وعبد الرحمن بن أبي حاتم أيضا في التفسير، قال: " حَدَّثَنَا أَبِي، ثَنَا هِشَامُ بْنُ خَالِدٍ، ثَنَا شَعِيبُ بْنُ إِسْحَاقَ، ثَنَا ابْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنِ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: ﴿ وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾، وَذَلِكَ حِينَ دَعَا عَلَيْهِمْ نُوحٌ قَالَ: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ 4».

لكن ما رواه المفسرون من الفريق الثاني من قول قتادة، في إثبات دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه قد كانت قبل قوله تعالى: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾،

1- تفسير الطبري، (391/12). وهذا سند ضعيف جدا، اجتمعت فيه علة السقط الواقع بين الطبري والحسين بن الفرغ، والطنن الثابت من نقاد الحديث في الحسين بن الفرغ، " وهو أبو علي، وقيل أبو صالح الخياط، يروي عن ابن مهدي، قال يحيى: كذاب، يسرق الحديث. وقال أبو زرعة: ذهب حديثه ليس بشيء ". ينظر: الضعفاء والمتروكين، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1406هـ، (216/1).

2- كتاب الزهد، أحمد بن حنبل الشيباني، محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1420هـ / 1999م، حديث رقم (284). وهذا سند ضعيف، لضعف (صالح المري)، وهو: " صالح ابن بشير ابن وادع المرّي بضم الميم وتشديد الراء، أبو بشر البصري، القاص، الزاهد. ضعيف "، ينظر: تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، دار الرشيد، حلب، سوريا، الطبعة الأولى، 1406هـ، (271/2).

3- تفسير الطبري، (391/12).

4- تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله والصحابة والتابعين المشهور بتفسير ابن أبي حاتم الرازي، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتب الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1417هـ / 1997م، (2024/6).

قد ورد ما يخالفها من قول قتادة نفسه، وتثبت عكس ذلك تماما، وقد وردت بسند صحيح عند عبد الرزاق بن همام الصنعاني في تفسيره، قال: " مَعْمَرٌ، قَالَ: تَلَا قَتَادَةُ: ﴿ لَا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾، فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ مَا دَعَا بِهَا حَتَّى أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ " ¹.

وبعد تتبع الطرق ودراسة الأسانيد، والتطلع على كتب نقد الرجال، تبين ترجيح رواية الطبري وابن أبي حاتم على رواية عبد الرزاق، فقد خالف سعيد بن أبي عروبة معمرًا مع تثبته وحفظه، ولكن سعيد أوثق منه في قتادة²، وقد ثبت أن سعيدًا قد تغير حفظه في آخر عمره، وهذا قد يكون سببًا في تضعيف الرواية عنه، لكن قد ثبت عند الطبري أن الراوي الذي حدث عنه، وهو (يزيد بن زريع)³، هو من أثبت الناس فيه⁴، ومثله الراوي الآخر عند ابن أبي حاتم (شعيب بن إسحاق)، فقد روى عنه بعد اختلاط حفظه⁵.

بعد هذا يتبين أن مذهب السلف في تأويل الآية يتجه إلى أن نوحا عليه السلام دعا على قومه أولاً، ثم أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وهذا مذهب اختاره ابن جرير وابن كثير وغيرهما، وهو مذهب معتبر لولا أن سياق الآيات يأباه، فقد جاء في تمام دعائه عليه السلام قوله: ﴿ رَبِّ لَا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَدْرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) ﴾ [سورة

¹ - تفسير عبد الرزاق الصنعاني، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، دراسة وتحقيق: محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1419 هـ، (350/3).

² - قال الذهبي: " وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ: أَثْبَتَ النَّاسُ فِي قَتَادَةَ: سَعِيدٌ، وَهَشَامُ الدَّسْتَوَائِيُّ، وَشُعْبَةُ ". سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: 1405 هـ / 1985 م، (414/6).

³ - قال الذهبي في رواية يزيد عن سعيد نقلاً عن ابن عدي: " قَالَ: وَأَثْبَتَهُمْ فِيهِ: يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، وَخَالِدُ بْنُ الْحَارِثِ، وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدِ الْقَطَّانُ ". سير أعلام النبلاء، (414/6).

⁴ - وروى ابن عدي في الكامل بسنده عن أحمد بن حنبل، قال: " كل شيء رواه يزيد بن زريع عن سعيد فلا تبال أن لا تسمعه من أحد، سماعه من سعيد قديم ". الكامل في ضعفاء الرجال، أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1418 هـ / 1997 م، (446/4).

⁵ - قال ابن حبان في ترجمة سعيد: " وكان قد اختلط سنة خمس وأربعين ومائة، وبقي خمس سنين في اختلاطه، وأحب إلى أن لا يحتج به إلا بما روى عنه القدماء قبل اختلاطه، مثل: ابن المبارك، ويزيد بن زريع ... وكان سماع شعيب بن إسحاق منه سنة أربع وأربعين ومائة قبل أن يختلط بسنة ". الثقات، محمد بن حبان البستي، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1395 هـ / 1975 م، (360/6).

نوح: 26 – 27]، فكيف له أن يعلم أنه إذا تركهم ولم يعاقبهم، أنهم لن يلدوا إلا فاجرا كفارا؟

وقد أجاب ابن كثير وغيره من المفسرين عن هذا التساؤل بأن قوله: ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَفَّارًا ﴾، أنه الطَّيِّبُ قال ذلك " لِخَبْرَتِهِ بِهِمْ، وَمُكْتَبِهِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا " ¹، فأرجعوا السبب إلى طول مكثه فيهم وخبرة دعوته معهم، بينما أرجع بعض العلماء السبب إلى علمه بذلك عن طريق الوحي كما قاله ابن الجوزي وغيره من المفسرين.

قال ابن الجوزي: " قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَفَّارًا ﴾، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ نُوحًا أَنَّهُمْ لَا يَلِدُونَ مُؤْمِنًا، فَلِذَلِكَ عَلِمَ الْفَاكِرَ الْخَارِجَ عَنِ الطَّاعَةِ " ².

ولكن الذي تميل إليه النفس هو الجمع بين القولين، لأن الآية تحتلها معا، والأمر كما هو مقرر عند العلماء أنه إذا أمكن الجمع بين قولين أو أكثر في تفسير آية تحتل ذلك، فالمصير إلى الجمع أولى، وهذا ما ذهب إليه الشنقيطي في قوله: " ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَفَّارًا ﴾، وَمَا دَعَا نُوحٌ عَلَى قَوْمِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ أَحَدٌ غَيْرَ الْقَلِيلِ الَّذِي آمَنَ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ " ³، وقال أيضا: " وَأَمَّا إِخْبَارُهُ عَمَّنْ سَيُولَدُ: بِأَنَّهُ لَنْ يُولَدَ لَهُمْ إِلَّا فَاكِرٌ كَفَّارٌ، فَهُوَ مِنْ مَفْهُومِ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ آفَاقًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فَسِوَاءَ فِي الْحَاضِرِ أَوْ الْمُسْتَقْبَلِ. وَكَذَلِكَ بِدَلِيلِ الْإِسْتِقْرَاءِ، وَهُوَ دَلِيلٌ مُعْتَبَرٌ شَرْعًا وَعَقْلًا، وَهُوَ أَنَّهُ مَكَّتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ " ⁴.

وبعد هذه الدراسة تبين تحديد الإطار الزمني الذي دعا فيه نوح عليه السلام على قومه، وذلك أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى ما يصلح حالهم

¹ - تفسير ابن كثير، (237/8).

² - زاد المسير، ابن الجوزي، (345/4).

³ - أضواء البيان، الشنقيطي، (477/7).

⁴ - المصدر نفسه.

في الدنيا والآخرة، وهو في دعوته ناصح، حريص على إيصال الخير لهم، غير مقصر في تبليغ رسالة ربه، ولكن القوم قابلوه بالصد والإعراض، والضلال والإضلال، وتوصلوا إلى التربص به وبمن آمن معه، وحين أحس ببأسهم، دعا ربه ﴿ **أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ** ﴾ [الْقَمَرِ: 10].

صورت لنا نصوص الآيات هذا المشهد بدقة عجيبة، يحتاج فيها المتلقي إلى الروية وإمعان النظر حتى يتسنى له فهمها، وتنجلي أمام عينيه صورة الأحداث وهي تتحرك وفق التعابير التي تبرزها، ذلك أن تصوير حال نوح عليه السلام وهو يتجه إلى ربه ليطلب منه النصر على القوم المشركين قد عبر عنه بتعبيرين:

- أحدهما كان بصيغة النداء في قوله تعالى: ﴿ **وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ** ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: 76]، وقوله: ﴿ **وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ** ﴾ [الصَّافَّاتِ: 75].
- والآخر كان بصيغة الدعاء في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ** ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 26]، وقوله: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُون** ﴾ (117) **فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشُّعَرَاءِ: 117 - 118]. وقوله: ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ** ﴾ [الْقَمَرِ: 10]، وقوله: ﴿ **وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنْ الْكَافِرِينَ دِيَّارًا** ﴾ (26) **إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلْدُوا إِلَّا فَاجْرًا كَفَّارًا** ﴾ [نُوحٍ: 26 - 27].

اتفق جمع من المفسرين على أن النداء في قوله ﴿ **إِذْ نَادَى** ﴾، وقوله: ﴿ **وَلَقَدْ نَادَانَا** ﴾، هو ذاته الدعاء في قوله ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ** ﴾، ففسروا النداء بالدعاء، ولم يعطوا تفسيراً لسر هذا التنوع في تغيير صيغة التعبير وهي تفرق بين الحالين، ولا شك أن العرب تعرف جيداً الفرق الجلي بين النداء والدعاء، ولقد ورد التعبير بهما كل في موضعه لينقل لنا حالاً مقصودة بذاتها، ويصور لنا ما لا يستطيع غيره تصويره.

الفرق بين النداء والدعاء:

تعرف العرب النداء بأنه هو " الدعاء برفع الصوت، يقولون: أُنَادِيكَ وَلَا أُنَاجِيكَ "1، " والدعاء للقريب، والنداء للبعيد، ولذلك قال الأعرابي²: (أَقْرَبُ رَبُّنَا فَنُاجِيهِ، أَمْ بَعِيدٌ فَنُادِيهِ) "3. ويصفون صوت الرجل فيقولون: " رَجُلٌ نَدِيٌّ الصَّوْتِ بَعِيدُهُ، وَالْإِنْدَاءُ: بَعْدُ مَدَى الصَّوْتِ، وَنَدَى الصَّوْتِ: بَعْدُ مَذْهَبِهِ، وَالنِّدَاءُ (مَمْدُودٌ): الدُّعَاءُ بِأَرْفَعِ الصَّوْتِ، وَقَدْ نَادَيْتُهُ نِدَاءً، وَفُلَانٌ أُنْدَى صَوْتًا مِنْ فُلَانٍ، أَي: أَبْعَدُ مَذْهَبًا وَأَرْفَعُ صَوْتًا "4، وقد وصف رسول الله ﷺ بلالا في حديث الأذان المشهور بأنه: « **أُنْدَى صَوْتًا** »⁵، أي: " أَرْفَعُ وَأَعْلَى، وَقِيلَ: أَحْسَنُ وَأَعْدَبُ، وَقِيلَ: أَبْعَدُ، وَهُوَ أَفْعَلٌ مِنَ النَّدَى - بِفَتْحِ النُّونِ وَبِالْقَصْرِ - وَهُوَ بِمَعْنَى الْغَايَةِ، مِثْلُ الْمَدَى، وَالنَّدَى: أَيْضًا بَعْدُ ذَهَابِ الصَّوْتِ "6. يتبين من هذا أن العرب تفرق في كلامها بين الدعاء والنداء، وأن الفرق يعود إلى رفع نسبة الصوت وخفضه، وأن النداء: " هُوَ رَفَعِ الصَّوْتِ بِمَا لَهُ مَعْنَى، وَالْعَرَبِيُّ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: نَادِ مَعِيَ لِيَكُونَ ذَلِكَ أُنْدَى لِصَوْتِنَا، أَي: أَبْعَدَ لَهُ، وَالدُّعَاءُ يَكُونُ بِرَفْعِ الصَّوْتِ وَخَفْضِهِ، يُقَالُ دَعَوْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَدَعَوْتُ اللَّهَ فِي نَفْسِي، وَلَا يُقَالُ: نَادَيْتُهُ فِي نَفْسِي "7.

ومن خلال التركيز على المعنى في رفع الصوت فرقت العرب بين النداء والصيحاح أيضا، فقالوا: " أَنَّ الصِّيَاحَ رَفَعِ الصَّوْتِ بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ، وَرَبِمَا قِيلَ لِلنِّدَاءِ: صِيَاحٌ، فَأَمَّا الصِّيَاحُ فَلَا يُقَالُ لَهُ نِدَاءٌ إِلَّا إِذَا كَانَ لَهُ مَعْنَى "8.

1- المحيط في اللغة، صاحب أبو القاسم إسماعيل ابن عباد، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1414هـ / 1994م، (364/9).

2- قال المناوي: " أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو الشيخ في تفسيرهم، والدارقطني في المؤلف والمختلف ". انظر: الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: أحمد مجتبى، دار العاصمة، الرياض، السعودية، (224/1). وهو حديث ضعيف جدا، انظر تخريجه في حاشية تفسير الطبري لأحمد شاکر، (480/3).

3- كتاب الكلبيات، أبو البقاء الكفومي، ص (720).

4- لسان العرب، ابن منظور، مادة (ندى).

5- حديث صحيح، رواه أبو داود وغيره، حديث رقم (4779).

6- شرح سنن أبي داود، بدر الدين العيني، تحقيق: أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1420 هـ / 1999 م، (424/2).

7- الفروق اللغوية، الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة التاسعة، سنة الطبع: 1991م، الفرق بين النداء والدعاء، (ص: 534).

8- الفروق، المصدر نفسه، الفرق بين الصيحاء والنداء، (ص: 325).

لقد خاطب الله عز وجل العرب بلسانها، وأنزل كتابه بلسان عربي مبين، فكان لزاما على من أراد تدبره والتمعن في معانيه أن يلزم طريقة العرب في استعمالاتها للكلام، ولقد جاء الاستعمال في نصوص الآيات في موطنه متنوعا لغرض مقصود، والذي يظهر – والله أعلم – من استعمال التعبير بالنداء في موضع، والنداء في موضع آخر، أن لفظ (نادى) قد أضاف شيئا جديدا على معنى النداء، وكأن الآية جاءت لتبين الحال النفسية التي كان عليها نبي الله نوح عليه السلام حال دعائه، ذلك أن رفع الصوت بالنداء له سببان ظاهران، الأول: إيصال الخطاب إلى المنادى، وهذا يمتنع مع الله عز وجل فهو السميع القريب، الذي يسمع السر وأخفى. والآخر: التعبير عن الحال النفسية التي يكون عليها المنادي حال ندائه.

وردت نصوص كثيرة في كتاب الله عز وجل، تنقل لنا مناداتة أنبياء الله عز وجل له، وهم في حالات نفسية ظاهرة، ومثال ذلك:

قوله تعالى في نداء أيوب عليه السلام: ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [الأنبياء: 83]، وقوله: ﴿ **وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ** ﴾ [ص: 75].

وقوله تعالى في نداء زكرياء عليه السلام: ﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا** ﴾ [مريم: 2-3]، ﴿ **وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ** ﴾ [الأنبياء: 89].

وقوله تعالى في نداء يونس عليه السلام: ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ** ﴾ [القلم: 48]. ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (87) [الأنبياء: 87].

ولا شك أن كل هذه النصوص قد ورد فيها لفظ (النداء) ليس لقصد وصف رفع الصوت، فأنبياء الله عز وجل أعلم بربهم أنه يسمع السر وأخفى، وإنما لتبيين الحال النفسية التي كان عليها الداعي، ألم تر إلى الحال النفسية من الضر التي كان عليها نبي الله أيوب عليه السلام، فصورت الآية حاله بأن قد (نادى)، لتبينه وهو في أعماق ضر نفسي وجسدي أحاط به من كل جانب، ومثله نبي الله يونس عليه السلام حين

كان في أعماق ضر من نوع آخر في الظلمات فنادى: ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾، وأما زكرياء عليه السلام حين تحرك في نفسه حب الولد فنادى هو أيضا في حال نفسية يعلمها القاضي والداني ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾، والعجيب في نداء زكرياء عليه السلام أن وصفه في سورة مريم بالنداء الخفي، وهذا وصف دقيق جدا، قصده ليبين أن النداء في حقيقته إنما يستعمل برفع الصوت، ولكنه سلب منه هذه الصفة فقال: ﴿ نِدَاءٌ خَفِيًّا ﴾، ليبين قوة إلحاحه في طلب الولد، ولكنه نداء بينه وبين ربه لا يطلع عليه سواه، لذلك كان خفيا، وكل لفظ جاء على ما يناسب حال صاحبه، والله أعلم.

وأما نداء نوح عليه السلام فقد كان في وجه قوم كفروا واستكبروا وجأهروا بالعصيان، فقابلهم بنداؤه لربه أمام أعينهم، ليعلموا أن الذي عصوه وأشركوا به هو من سيتولى أمرهم، وينزل بهم العذاب الذي يستعجلون، ونادى نوح عليه السلام ربه ليسمع المشركون دعاءه، ويروا حاله، ويعلموا أن المعبود الحق هو من سيتولى أمر أوليائه بالنصر، ويتولى أمر أعدائه بالقهر، وإنه لنعم المجيب، " وَرَفَعُ الصَّوْتِ أَمَامَهُمْ بِالدُّعَاءِ مُشْعِرًا بِأَلْفُورَةٍ وَالْجَلَادَةِ، وَإِخْفَاءِ الصَّوْتِ مُشْعِرًا بِالضَّعْفِ وَالْإِنْكَسَارِ، وَعُمْدَةَ الدُّعَاءِ الْإِنْكَسَارَ وَالتَّبْرِيَّ عَنِ حَوْلِ النَّفْسِ وَقُوَّتِهَا، وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحْسَانِهِ " ¹.

نادى نوح ربه أمام القوم ومن حضر، وتضرع بينه وبين ربه، داع له، ذليلا بين يديه، في حال خشوع وخضوع وتعبد وتذلل، رافعا أكف الضراعة منكسرا، طالبا من الله النصر والفتح فقال: ﴿ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشُّعْرَاءُ: 117 - 118]، وقال: ﴿ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 26]، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [الْقَمَرِ: 10]. وقال: ﴿ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نُوحِ: 26].

تنقل لنا نصوص الآيات ثلاث صيغ من دعاء نوح عليه السلام:

• الأولى قوله: ﴿ فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

¹ - تفسير الرازي، (519/21).

- والثانية قوله: ﴿ **انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ** ﴾، ﴿ **أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ** ﴾.
- والثالثة قوله: ﴿ **لَا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا** ﴾.

لا شك أن هذه الصيغ مختلفة فيما بينها من حيث المبنى والمعنى، ولكن القصد منها واحد، ومع ذلك فهي تدل على اختلاف الحيز الزماني الذي وقعت فيه، والذي يظهر – والله أعلم – أن قوله: ﴿ **فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾، كان أولاً، لأنه يعبر عن أول الاصطدام بينه وبينهم، فالفتح " كَمَا حَقَّقَهُ الرَّاعِبُ: إِزَالَةُ الْإِغْلَاقِ وَالْإِشْكَالِ، وَهُوَ ضَرْبَانِ: أَحَدُهُمَا: مَا يُدْرِكُ بِالْبَصَرِ كَفَتْحِ الْعَيْنِ وَالْقَفْلِ وَالْمُعْلَقِ وَالْمَتَاعِ مِنْ صُنْدُوقٍ وَغِرَارَةٍ وَخُرْجٍ وَغَلْبَةٍ، وَالثَّانِي: هُوَ مَا يُدْرِكُ بِالْبَصِيرَةِ كَفَتْحِ أَبْوَابِ الرِّزْقِ، وَالْمُعْلَقِ مِنْ مَسَائِلِ الْعِلْمِ، وَالْمُبْهَمِ مِنْ قَضَايَا الْحُكْمِ، وَالنَّصْرِ فِي وَقَائِعِ الْحَرْبِ "1.

وقوله (افتح) فيه دلالة على انغلاق طريق الدعوة وانسدادهما بينه وبين قومه، خاصة وأنه حاول إيجاد المنفذ الذي ينفذ من خلاله ليصل إليهم، ولكنهم سدوا كل الطرق، وأوصدوا كل الأبواب دونه حتى لا يصل إلى إقناعهم، ولما استنفذ معهم كل الوسائل توجه أخيراً في طلب الفتح من الله الفتح العظيم عز وجل، ويفهم من قوله: ﴿ **فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا** ﴾ أي: " **فَأَحْكَمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ حُكْمًا مِنْ عِنْدِكَ تَهْلِكُ بِهِ الْمُبْطَلُ، وَتَنْتَقِمُ بِهِ مِمَّنْ كَفَرَ بِكَ وَجَدَدَ تَوْحِيدَكَ، وَكَذَّبَ رَسُولَكَ** "2.

وأما طلب النصر من الله عز وجل في قوله: ﴿ **انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ** ﴾، و﴿ **أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ** ﴾، ففيه تصوير لحال من المساجلة والمواجهة، وأن المقام يستدعي طلب النصر حين يشعر المحق بأن خصمه قد تأمر وتمالاً عليه، فلا بد له من معين يعينه، وناصر ينصره، لذلك توجه إلى العظيم القهار والعزيز الجبار، فسأله بعزه الذي لا يرام، وبملكه الذي لا يضام، أن ينصره على القوم الكافرين، والنصر هو: " **تَغْلِيْبُ الْمُعْتَدِي عَلَيْهِ عَلَى الْمُعْتَدِي، فَقَدْ سَأَلَ نُوحٌ نَصْرًا مُجْمَلًا كَمَا حُكِيَ هُنَا، وَأَعْلَمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا رَجَاءَ فِي إِيْمَانِ قَوْمِهِ إِلَّا مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ هُودٍ، فَلَا رَجَاءَ فِي أَنْ يَكُونَ نَصْرُهُ بِرُجُوعِهِمْ إِلَى طَاعَتِهِ وَتَصَدِيقِهِ وَاتِّبَاعِ مِلَّتِهِ** "3.

1- تفسير المنار، رشيد رضا، (9/9).

2- تفسير الطبري، (603/17).

3- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (37/18).

وحيث تيقن نبي الله نوح عليه السلام من عدم رجوع قومه إلى الحق، واستيأس منهم، طلب من الله عز وجل نصرا خاصا، يستأصل شأفتهم، ويقتلع به جذور الكفر وفروعه، فقال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجْرًا كَفَّارًا ﴾.

بعد الدعاء تكون الإجابة، وبعد الكرب يأتي الفرج، وبعد العسر يأتي اليسر، وبعد القهر يأتي النصر، فدعوة ألف سنة إلا خمسين عاما عنوان لصبر لا يدرك حقيقته إلا من كابده، بساعاته، ولحظاته، فضلا عن أيامه، وشهوره، وسنواته، بل وقرونه ...

وجاء الفتح وقربت النهاية، وقال الله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [الأعراف: 64]، وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ [يونس: 73]، وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [الأنبياء: 76]، وقال تعالى: ﴿ فَانجيناؤه ومن معه ﴾ [الشعراء: 119]، وقال تعالى: ﴿ فَانجيناؤه وأصحاب السفينة ﴾ [العنكبوت: 15]، وقال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [الصافات: 76].

الْفَصْلُ الْخَامِسُ

قِصَّةُ نَبِيِّ

اللَّهِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الْجُزْءُ الثَّانِي

أَفْصَلُ الْخَامِسُ

قِصَّةُ تَيْبِ آلِهِ نُوحٍ عليه السلام
الْجُزْءُ الثَّانِي

الْمُشَاهِدَةُ التَّفْصِيلِيَّةُ لِقِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الْجُزْءُ الثَّانِي

4 - الْمَشْهَدُ الْأَوَّلُ

اسْتِجَابَةُ الدُّعَاءِ وَبِدَايَةُ النِّهَايَةِ

1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 64].

2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ ﴾ [يُونُسَ: 73].

3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعِ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) ﴾ [هُودٍ: 36 - 39].

4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَدَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 26 - 29].

5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ [الشُّعْرَاءِ: 117 - 119].

6 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الْعَنْكَبُوتِ: 14 - 15].

7 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [الْقَمَرِ: 13].

8 – ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الْحَاقَّةِ].

استجاب الله عز وجل لدعوة نبيه عليه السلام، وتغيرت أحداث القصة، وانتقلت من مرحلة الدعوة بالحسنى إلى مرحلة الانتقام من القوم المكذبين، ونزل الروح الأمين بأمر من رب العالمين يأمر نوحا عليه السلام بصنع سفينة النجاة، والتهيب للحظة الفارقة.

المِفْصَلُ الْأَوَّلُ: صُنْعُ السَّفِينَةِ

في هذا المفصل من مفاصل هذا المشهد من القصة تصور نصوص الآيات الأحداث على وتيرة خاصة، فهي تبين أن الوسيلة المستعملة في نجات المؤمنين سماها الله عز وجل باسمين (السَّفِينَةَ) و(الْفُلْكَ)، ووصفها بوصفين (ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)، و(الْجَارِيَةِ)، قال الله تعالى:

1 – ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ [الْأَعْرَافِ].

2 – ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هُودٍ].

3 – ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ].

4 – ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ [الشُّعْرَاءِ].

5 – ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ [الْعَنْكَبُوتِ].

6 – ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [الْقَمَرِ].

7 – ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الْحَاقَّةِ].

لم يرد في نصوص الآيات التي سردت لنا هذه القصة ذكر الفضاء المكاني الذي دارت فيه الأحداث، ولم يروى لنا فيها نص صحيح عن المعصوم ﷺ، ولا

عن أصحابه رضي الله عنهم، وكذلك من تبعهم، إلا نسا واحدا رواه ابن أبي حاتم في تفسيره عن قتادة، قوله: " أَنْ نُوحًا بُعِثَ مِنَ الْجَزِيرَةِ " ¹.

ومع إهمال ذكر المكان وعدم تحديده في الآيات إلا أننا نستطيع الجزم بأن الأحداث وقعت في بر بعيد عن البحر، والدليل على ذلك ما سيرد من آيات في الطوفان الذي التقى فيه ماء الأرض بماء السماء، ولم يرد ذكر للبحر ولا ماءه، لا تصريحاً ولا تلميحاً، إذ أن العادة سارت بين الناس أن الغرق والإغراق كثيراً ما يكون بطغيان ماء البحر على اليابسة والبر.

كانت كل أحداث هذا المشهد تتحرك في فضاء مكاني مفتوح، في برية كان فيها نوح عليه السلام مع من آمن معه من قومه، يسير وفق ما أوحى إليه ربه في صناعة شيء لأول مرة يراه الناس على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هُود: 37].

وكان عليه السلام يتحرك وفق ما يوحى إليه، لا يرفع شيئاً ولا يضعه في مكانه إلا بأمر منه سبحانه، فقوله: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾، أي: " اعْمَلِ السَّفِينَةَ لِتَرْكَبَهَا أَنْتَ وَمَنْ آمَنَ مَعَكَ. ﴾ [بِأَعْيُنِنَا]، أي: بِمَرَأَى مِنَّا وَحَيْثُ نَرَاكَ. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: بِحِفْظِنَا إِيَّاكَ حِفْظَ مَنْ يَرَاكَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: بِحِرَاسَتِنَا؛ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ ²، فتكفل الله بحفظ نبيه والذين آمنوا معه من كيد الكافرين، فأمرهم بتجهيز السفينة علانية أمام كل من يرى ويسمع، ولا يأبه بمن حوله، فإنه بحفظ الله يعمل، وبأمر الله يصنع.

أهمل النص القرآني ذكر الفضاءات الزمانية والمكانية التي تسير في مجالها أحداث القصة، وقد ورد في تحديد زمان صنع السفينة كثير من الأقوال المختلفة، وكل قول هو ضرب من الاحتمال مُعَرَّى عن أي دليل يستند عليه، فتحديد مدة صنع السفينة أمر متستر بالغيب لا يكشف إلا بنص الوحي، وما دام نص الوحي غائباً فالأمر يبقى على أصله، ووجب فهمه على طبيعته التي يعرفها الناس،

¹ - تفسير ابن أبي حاتم الرازي، (1504/5)، وسنده ضعيف، فيه مسلمة بن علي الخشني متروك، وشيخه سعيد بن بشير ضعيف.

² - تفسير القرطبي، (30/9).

فالصناعة عمل يزاوله الصانع بحسب معرفته بالشيء المصنوع، فلا بد له فيه من علم، وقدرة، لكي يتمه على الوجه المطلوب، ولا بد له من فضاء مكاني يزاوّل فيه صنعته، ويختلف استغراق الوقت في الصنائع من صانع إلى آخر، ويرجع السبب في ذلك لعدة أمور، منها توفر الوسائل، والأدوات لدى الصانع، حتى تسهل أمامهم عملية الصنع، ومنها خبرة الصانع، وطول تجربته في عمله الذي يمارسه، مع علمه وإحاطته بما سيعمل.

يفتقر نبي الله نوح عليه السلام إلى كل ما سبقت الإشارة إليه، فلم يُعرف عنه ولا عن غيره من البشر قبله صنعة بناء السفن، ولا علم له بما تخفيه حركة المياه، وتعاملها مع ما يسطو على ظهرها، ولا شيء صغير ولا كبير عن ذلك، إلا ما كان يتلقاه من تعاليم الوحي المنزل من السماء.

أمضى نبي الله نوح عليه السلام زمنا مؤقتا في صناعة الفلك، فبدأ صنعها بعد تأكد كفر قومه، وأنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، وانتهى منها قبيل ظهور العلامة وأمارة بداية الطوفان، قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 27].

سمى الله عز وجل وسيلة النجاة من الطوفان (الْفُلْكَ) في معظم النصوص الواردة، وسماها مرة (السَّفِينَةَ)، ومرة (الْجَارِيَةَ) في قوله: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَعَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: 11]، ووصفها مرة أخرى بوصف يبين حقيقة مواد صنعها فقال: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرِ ﴾ [الْقَمَرِ: 13].

يدل هذا التنوع في استعمال التعابير على معنى مراد ومقصود، ولم أجد – في ما بين يدي – من المفسرين من كشف سر التنوع في استعمال كل لفظ في مكانه الذي وضع فيه، إلا أن الرازي قد أشار إلى ذلك فذكر الفرق بين استعمال لفظ (السَّفِينَةَ)، و(الْفُلْكَ)، و(الْجَارِيَةَ)، قال: " عَلَى أَنَّ السَّفِينَةَ أَيْضًا (فَعِيلَةٌ) مِنَ السَّفْنِ وَهُوَ النَّحْتُ، وَهِيَ (فَعِيلَةٌ) بِمَعْنَى (فَاعِلَةٌ) عِنْدَ ابْنِ دُرَيْدٍ، أَيْ تَسْفُنُ الْمَاءَ، أَوْ (فَعِيلَةٌ)، بِمَعْنَى: (مَفْعُولَةٌ) عِنْدَ غَيْرِهِ، بِمَعْنَى مَنحُوتَةٌ،

فَالْجَارِيَّةُ وَالسَّفِينَةُ جَارِيَتَانِ عَلَى الْفُلِّكَ، وَفِيهِ لَطِيفَةٌ لَفْظِيَّةٌ: وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاتِّخَاذِ السَّفِينَةِ، قَالَ: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هُود: 37]، فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ قَالَ لَهَا: (الْفُلْكَ)، لِأَنَّهَا بَعْدُ لَمْ تَكُنْ جَرَتْ، ثُمَّ سَمَّاها بَعْدَ مَا عَمَلَهَا سَفِينَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ [العنكبوت: 15]، وَسَمَّاها جَارِيَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الْحَاقَّة: 11]، وَقَدْ عَرَفْنَا أَمْرَ الْفُلِّكَ وَجَرِيَّهَا، وَصَارَتْ كَالْمُسَمَّاءِ بِهَا فَ (الْفُلْكَ) قَبْلَ الْكُلِّ، ثُمَّ السَّفِينَةُ، ثُمَّ الْجَارِيَةُ¹.

وقد يؤيد بعضُ نصوص القرآن التي ورد فيها ذكر (الْفُلِّكَ) ما ذهب إليه الرازي، ذلك أن الله تعالى ذكر لفظ (الْفُلِّكَ) في كثير من الآيات وأسند إليها فعل الجريان، وكأنه بذكرها مجردة من الفعل يقصد به حالها الأولى قبل جريانها، ولكن إذا أراد أن يصفها في حال حركتها في الماء أسند إليها فعل الجري، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ [البقرة: 164]، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ [الحج: 65]، وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [يونس: 22]، وقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ [إبراهيم: 32]، وقوله: ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكَ بِأَمْرِهِ ﴾ [الرؤم: 46]، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾ [القمان: 31]، وقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ [الجاثية: 12]، وغيرها من الآيات.

عرفنا مما سبق أن لفظ الفلك استعمل في موضعه الذي ينقل لنا صورة السفينة حال بناءها، وهي ساكنة مستقرة في موضعها، وعمل نوح عليه السلام ومن معه في صناعتها وفق ما وضع له من تصاميم، فلا يخطئها قيد أنملة، لأن الأمر خطير، والكرب عظيم، والإتقان مطلوب، والسفينة ستخوض غمار طوفان يأتي على كل شيء، فلا جرم أن تكون الصناعة متقنة، والعمل دقيق، والخطأ منعدم.

¹ - تفسير الرازي، (353/29).

حاصل الكلام أن الله عز وجل كلف نبيه ﷺ بصناعة السفينة التي ستكون وسيلة النجاة من طوفان سيغرق الأرض ومن عليها إلا ما شاء الله، وتكفل الله بحفظ نبيه من كيد أعدائه، وإرشاده إلى صناعة شيء لم يسبقه إليه بشر.

أمر الله عز وجل نوحا ﷺ بأن لا يخاطبه في الذين ظلموا، فإنه مغرقهم لا محالة، لأن الله يعلم من حاله ﷺ بأنه قد يلين، وتأخذه بهم الرحمة والرأفة والشفقة، فيطلب لهم العفو والصفح والمغفرة، فهو الشفوق بقومه، الحريص على إيمانهم وجاتهم، من أجل ذلك نهاه ربه، فقال: ﴿ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [هُود: 37]، أي: " لا تُرَاجِعْنِي فِي أَمْرِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ طَلَبِ الرَّحْمَةِ بِهِمْ وَدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، ﴿ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾، أَي: حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَقَضَى عَلَيْهِمُ الْقَضَاءَ الْحَتْمَ بِالْإِعْرَاقِ، فَلَا تَأْخُذْكَ بِهِمْ رَأْفَةٌ وَلَا إِشْفَاقٌ "1، وكان هذا القول " تَوَطُّنَةً لِنَهْيِهِ عَنِ مُخَاطَبَتِهِ فِي شَأْنِ ابْنِهِ الْكَافِرِ قَبْلَ أَنْ يَخْطُرَ بِبَالِ نُوحٍ ﷺ سُؤَالَ نَجَاتِهِ، حَتَّى يَكُونَ الرَّدُّ عَلَيْهِ حِينَ السُّؤَالِ الْأَطْفَ "2.

صورت لنا آية سورة هود جانبا من جوانب الحياة البائسة التي كان عليها حال الكافرين من قومه، وأنهم على الكفر والجحود باقون، قال تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ [هُود: 38 - 39].

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾: الفعل (يَصْنَعُ)، يحمل معنى استمرار عملية الصنع، وأنه لم ينتهي منها بعد، وقد اختلفت أقوال المفسرين في تحديد مدة صناعة السفينة، وكيفية صنعها، وشكلها وطولها وعرضها وارتفاعها، ولم يرد حديث يسند إلى النبي ﷺ يبين ذلك، إلا ما رواه الطبري وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: لَوْ رَحِمَ اللَّهُ أَحَدًا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَانَ نُوحٌ مَكَتَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا

¹ - تفسير المنار، رشيد رضا (62/12).

² - التحرير والتنوير، ابن عاشور (256/11).

يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ حَتَّى كَانَ آخِرُ زَمَانِهِ غَرَسَ شَجَرَةً، فَعَظُمَتْ وَذَهَبَتْ كُلُّ مَذْهَبٍ، ثُمَّ قَطَعَهَا، ثُمَّ جَعَلَ يَعْمَلُ سَفِينَةً، وَيَمْرُونَ فَيَسْأَلُونَهُ، فَيَقُولُ: أَعْمَلُهَا سَفِينَةً، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُونَ: تَعْمَلُ سَفِينَةً فِي الْبَرِّ فَكَيْفَ تَجْرِي؟ فَيَقُولُ: سَوْفَ تَعْلَمُونَ. فَلَمَّا فَرَعُ مِنْهَا وَفَارَ التَّنُّورُ وَكَثُرَ الْمَاءُ فِي السِّكِّ خَشِيَتْ أُمَّ صَبِيٍّ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ تُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا، فَخَرَجَتْ إِلَى الْجَبَلِ حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثَهُ؛ فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ خَرَجَتْ حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثِي الْجَبَلِ؛ فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ خَرَجَتْ حَتَّى اسْتَوَتْ عَلَى الْجَبَلِ؛ فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ رَقَبَتَهَا رَفَعْتُهُ بَيْنَ يَدَيْهَا حَتَّى ذَهَبَ بِهَا الْمَاءُ، فَلَوْ رَحِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ¹.

وهذا حديث ضعيف، كما قال الذهبي في تعليقه على مستدرک الحاكم بأن "إِسْنَادُهُ مُظْلَمٌ، وَمُوسَى لَيْسَ بِذَلِكَ"²، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة³. وهذا الاختلاف في أقوال المفسرين يصب في مصب واحد، وهو محاولة إعطائهم وصفا لشكل السفينة من خارجها وداخلها، ولكن لا أحد منهم له مستند صحيح يستند عليه في مذهبه الذي اختاره، ولكن الذي يهمننا في هذه الدراسة هو محاولة الوصول إلى صيغة من البيان تقرب لنا - بالقدر المستطاع - أحداث القصة وتفصيلها من خلال الكلام المعجز في نصوص الآيات بكلماتها وألفاظها، تلك الكلمات والألفاظ التي ما وضعت في مكانها إلا لتؤدي وظيفتها التامة والمعجزة، فتتشكل من خلالها المشاهد، وتتحرك وفقها الأحداث أمام أعين من يراها، وكأنه يعاينها حال حدوثها، ووقت وقوعها.

أعطانا النص القرآني المادة الأولية المعتمدة في صناعة السفينة، حين أخبرنا الله عز وجل عنها بقوله: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [الْقَمَرِ: 13]، فعلمنا أن المادة المستعملة في صناعتها كانت ألواحاً من خشب، وطبيعة الخشب طوافه على سطح الماء، وهذا وصف اتفق عليه المفسرون، بينما اختلفوا

¹ - تفسير الطبري، (349/12).

² - المستدرک، أبو عبد الله الحاكم، حديث رقم (3310).

³ - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، ناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1412هـ / 1992م، حديث رقم (5985).

في معنى (الدُّسْرُ)، قال الشوكاني: " قَالَ الرَّجَّاجُ: هِيَ الْمَسَامِيرُ الَّتِي تُشَدُّ بِهَا الْأَلْوَاحُ، وَاحِدُهَا: دِسَارٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ أُدْخِلَ فِي شَيْءٍ يَشُدُّهُ فَهُوَ الدُّسْرُ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ، وَمَحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَغَيْرُهُمْ. وَقَالَ الْحَسَنُ، وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ، وَعِكْرِمَةُ: الدُّسْرُ: ظَهْرُ السَّفِينَةِ الَّتِي يَضْرِبُهَا الْمَوْجُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَدْسُرُ الْمَاءَ، أَي: تَدْفَعُهُ، وَالدُّسْرُ: الدَّفْعُ. وَقَالَ اللَّيْثُ: الدِّسَارُ: خِيْطٌ تُشَدُّ بِهِ أَلْوَاخُ السَّفِينَةِ. قَالَ فِي الصِّحَاحِ: الدِّسَارُ، وَاحِدُ الدُّسْرِ: وَهِيَ خِيُوطٌ تُشَدُّ بِهَا أَلْوَاخُ السَّفِينَةِ "1، ومهما اختلفت هذه الأقوال في أماكنها الجمع بينها جميعا لأن المعنى يحتملها ولا تعارض بينها.

صنعت السفينة من ألواح خشبية مشدودة بمسامير في أماكنها تشدها بإحكام، وتشدها خيوط وألياف في أمكنتها الأخرى، وكل دسار يقوم بدوره في مكانه، والسفينة مغطاة بسقف يقيهم ماء السماء وتلاطم الأمواج، كما يفهم من الآيات، وهذا سيتبين عند الكلام على الفرق بين قوله: (اسلك فيها)، وقوله: (احمل فيها)، وأن الله قد كلفه بحمل كل زوجين اثنين مما خلق، وهذا يقتضي أن تكون السفينة مقسمة بحسب أصناف المخلوقات والبشر.

﴿ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾، وفي أثناء قيامه بعمله كان يتعرض لسخرية الملا من قومه، ومعنى الآية " وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ كِبَرَاءِ قَوْمِهِ ﴿ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾، يَقُولُ: هَزُّنُوا مِنْ نُوحٍ "2، وقد حاول المفسرون إعطاء بعض الأسباب التي من أجلها سخرُوا منه، فقالوا: " أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: يَا نُوحُ كُنْتَ تَدْعِي رَسُولَةَ اللَّهِ تَعَالَى فَصِرْتَ بَعْدَ ذَلِكَ نَجَّارًا. وَثَانِيهَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لَهُ: لَوْ كُنْتَ صَادِقًا فِي دَعْوَاكَ لَكَانَ إِلَهَكَ يُغْنِيكَ عَنِ هَذَا الْعَمَلِ الشَّقَاكِ. وَثَالِثُهَا: أَنَّهُمْ مَا رَأَوْا السَّفِينَةَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَمَا عَرَفُوا كَيْفِيَّةَ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا، وَكَانُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ وَيَسْخَرُونَ. وَرَابِعُهَا: أَنَّ تِلْكَ السَّفِينَةَ كَانَتْ كَبِيرَةً وَهُوَ كَانَ يَصْنَعُهَا فِي مَوْضِعٍ بَعِيدٍ عَنِ الْمَاءِ جَدًّا وَكَانُوا يَقُولُونَ: لَيْسَ هَاهُنَا مَاءٌ، وَلَا يُمَكِّنُكَ نَقْلُهَا

1- فتح القدير، الشوكاني، (199/4).

2- تفسير الطبري، (393/12).

إِلَى الْأَنْهَارِ الْعَظِيمَةِ وَإِلَى الْبِحَارِ، فَكَانُوا يَعُدُّونَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ السَّفَهِ وَالْجُنُونِ. وَخَامِسُهَا: أَنَّهُ لَمَّا طَالَتْ مُدَّتُهُ مَعَ الْقَوْمِ، وَكَانَ يُنذِرُهُمْ بِالْعَرَقِ، وَمَا شَاهَدُوا مِنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى خَبْرًا وَلَا أَثْرًا، غَلَبَ عَلَى ظُنُونِهِمْ كَوْنُهُ كَاذِبًا فِي ذَلِكَ الْمَقَالِ، فَلَمَّا اشْتَغَلَ بِعَمَلِ السَّقِينَةِ لَا جَرَمَ سَخِرُوا مِنْهُ، وَكُلُّ هَذِهِ الْوُجُوهُ مُحْتَمَلَةٌ¹.

﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ □ ، وفي هذا الرد منه قوة يقين ورباطة جأش، وقد أجاب بضمير الجماعة ليشعر من معه بأن قضيته هي قضية كل مؤمن آمن معه وصدق بما جاء به، وأن الله قد تكفل بحماية ونجاة جميع من آمن بالله وصدق رسوله، وقد كانت " سُخْرِيَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْكَافِرِينَ مِنْ سَفَهٍ عَقُولِهِمْ وَجَهْلِهِمْ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ، فَالسُّخْرِيَّتَانِ مُقْتَرِنَتَانِ فِي الزَّمَنِ، وَبِذَلِكَ يَتَّضِحُ وَجْهُ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾، فَهُوَ تَشْبِيهُ فِي السَّبَبِ الْبَاعِثِ عَلَى السُّخْرِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَ السَّبَبَيْنِ بَوْنٌ².

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾، يؤكد نوح عليه السلام أمام الجميع أن الموعد قد اقترب، وعذاب الخزي في الدنيا آت لا محالة، ومعنى يخزيه: " يَفْضَحُهُ، أَوْ يَهْلِكُهُ، أَوْ يَذِّلُّهُ، وَهُوَ الْعَرَقُ"³.

﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾، والعذاب المقيم " عَذَابٌ دَائِمٌ ثَابِتٌ، لَا يَزُولُ عَنْهُمْ، وَلَا يَنْتَقِلُ أَبَدًا"⁴، وهذا ما وقع للقوم حقا كما قال تعالى: ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ [نوح: 25].

الْمِفْصَلُ الثَّانِي: بِدَايَةِ النَّهْيَةِ

بين الله عز وجل لنبيه عليه السلام علامات يعرف بها بداية نهاية القوم الظالمين، فإذا جاء الوعد الحق ووقع ما كانوا منه يهزؤون، فعليه أن يسير وفق ما أخبره به وأوحاه إليه، قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ

¹ - تفسير الرازي، (345/17).

² - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (257/11).

³ - البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (151/6).

⁴ - تفسير الطبري، (406/8).

مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِفُونَ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿ [الْمُؤْمِنُونَ: 27 - 28].

عَلَامَةُ بَدَايَةِ النِّهَايَةِ

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾، أخبر الله عز وجل نبيه عن طريق الوحي أن علامة بداية الطوفان أن يأتي أمر الله، فإذا جاء الأمر منه، وهو " طَلَبُ الْفِعْلِ بِالْقَوْلِ عَلَى سَبِيلِ الْأِسْتِعْلَاءِ " ¹، وسماه أمرا " عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ وَالتَّفْخِيمِ " ²، فمن ورائه أمر جلل سيغير وجه الكون، فستؤمر السماء وأبوابها، والأرض وعيونها، وتجري الأشياء كما قدر لها.

﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾، جعل الله عز وجل العلامة فوران التنور، " وَالْفُورَانُ ضَرْبٌ مِنَ الْحَرَكَةِ وَالْإِرْتِفَاعِ الْقَوِيّ، يُقَالُ فِي الْمَاءِ إِذَا نَبَعَ وَجَرَى، وَإِذَا غَلَا وَارْتَفَعَ، قَالَ فِي الْأَسَاسِ: فَارَتِ الْقِدْرُ، وَفَارَتِ فُورَاتُهَا، وَعَيْنٌ فُورَةٌ فِي أَرْضٍ خَوَارَةٌ، وَفَارَ الْمَاءُ مِنَ الْعَيْنِ. وَمِنَ الْمَجَازِ: فَارَ الْغَضَبُ، وَأَخَافُ أَنْ تَفُورَ عَلَيَّ، وَقَالَ ذَلِكَ فِي فُورَةِ الْغَضَبِ " ³.

وقد اختلفت تأويلات المفسرين حول كلمة (التَّنُّورُ)، وتعددت أقوالهم، والأشهر منها والأقرب إلى سياق الأحداث قولان رواهما ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال في الأول: (التَّنُّورُ) هو: " وَجْهُ الْأَرْضِ. قَالَ: قِيلَ لَهُ: إِذَا رَأَيْتَ الْمَاءَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَارَكَبْ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ. قَالَ: وَالْعَرَبُ تُسَمِّي وَجْهَ الْأَرْضِ: تَنْوَرَ الْأَرْضُ " ⁴. وقال في الآخر: " هُوَ التَّنُّورُ الَّذِي يُخْتَبَرُ فِيهِ " ⁵.

¹ - تفسير الرازي، (272/23).

² - المصدر نفسه.

³ - تفسير المنار، رشيد رضا، (63/12).

⁴ - تفسير الطبري، (401/12).

⁵ - المصدر نفسه، (404/12).

وروى عن ابن عباس رضي الله عنه: " إِذَا رَأَيْتَ تَنْوَرَ أَهْلَكَ يَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ فَإِنَّهُ هَلَاكٌ قَوْمِكَ " ¹.

والمقام يقتضي حمل معنى (التَّنْوِيرُ) على ما تعرفه العرب في كلامها واستعمالاتها له، فقد عرفت العرب التنور على أنه الكانون الذي يختبز فيه، قال الزبيدي: " (التَّنْوِيرُ) : نَوْعٌ مِنَ الْكَوَانِينِ، وَفِي الصِّحَاحِ: التَّنْوِيرُ: (الْكَاوِنُونَ) الَّذِي (يُخْبِزُ فِيهِ)، يُقَالُ: هُوَ فِي جَمِيعِ اللَّغَاتِ كَذَلِكَ، وَقَالَ اللَّيْثُ: (التَّنْوِيرُ) عَمَّتْ بِكُلِّ لِسَانٍ. قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ: وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأِسْمَ فِي الْأَصْلِ أَعْجَمِيٌّ، فَعَرَّبَتْهَا الْعَرَبُ، فَصَارَ عَرَبِيًّا عَلَى بِنَاءِ فَعُولٍ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ أَصْلَ بِنَائِهِ تَنَرَ، قَالَ: وَلَا نَعْرِفُهُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ؛ لِأَنَّهُ مُهْمَلٌ، وَهُوَ نَظِيرُ مَا دَخَلَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِنْ كَلَامِ الْعَجَمِ، مِثْلُ الدِّيْبَاجِ، وَالْدَيْنَارِ، وَالسُّنْدُسِ، وَالْإِسْتَبْرَقِ، وَمَا أَشْبَهَهَا، وَلَمَّا تَكَلَّمْتُ بِهَا الْعَرَبُ صَارَتْ عَرَبِيَّةً " ².

يزيد في ترجيح هذا المعنى على غيره من المعاني ما ثبت من استعمال النبي ﷺ له في كلامه، وتعامله به مع أصحابه بنفس المعنى الذي يحمله اللفظ، وما دامت العرب - وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ - قد استعملت هذا اللفظ بمعناه السابق ذكره وجب حمل الكلام عليه، وعدم صرفه إلى غيره، إلا إذا ثبت عنه ﷺ ما يخالفه. فقد ثبت عنه أنه قال في حديث الرويا: « فَأَنْطَلَقْنَا إِلَى نَقَبٍ مِثْلِ التَّنْوِيرِ، أَعْلَاهُ ضَيْقٌ، وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا » ³، وقال في حديث الخندق: « قُلْ لَهَا: لَا تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ، وَلَا الْخُبْزَ مِنَ التَّنْوِيرِ، حَتَّى آتِي » ⁴، وقال: « إِذَا الرَّجُلُ دَعَا زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنْوِيرِ » ⁵، وأما في قول أصحابه فثبت قول كعب بن مالك رضي الله عنه في حديث توبته حين راسله ملك غسان، قال كعب رضي الله عنه: " فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنْوِيرَ،

¹ - المصدر نفسه.

² - تاج العروس، مرتضى الزبيدي، مادة (تنر).

³ - حديث صحيح، رواه البخاري، حديث رقم (1386).

⁴ - حديث صحيح، رواه البخاري، حديث رقم (4101).

⁵ - حديث صحيح، رواه النسائي في السنن الكبرى، حديث رقم (8922)، والترمذي في سننه، حديث رقم (1160).

فَسَجَرْتُهُ بِهَا¹، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: " كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ، فَمَرَّ بِقَوْمٍ، فَقَالَ: مَنْ الْقَوْمُ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ، وَامْرَأَةٌ تَحْصِبُ تَنْوَرَهَا، وَمَعَهَا ابْنٌ لَهَا، فَأِذَا ارْتَفَعَ وَهَجَ التَّنُّورُ تَنَحَّتْ بِهِ²."

قال الحافظ ابن حجر: " (التَّنُّورُ) يَفْتَحُ الْأُمْتِنَاءَ وَتَشْدِيدِ النَّوْنِ الْمَضْمُومَةِ، مَا تُوَقِّدُ فِيهِ النَّارُ لِلْخُبْزِ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ فِي الْأَكْثَرِ يَكُونُ حُفِيرَةً فِي الْأَرْضِ، وَرَبَّمَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ³. وهذه استعمالات اللفظ عند العرب تبين المعنى المقصود منه، فيحمل الكلام عليها، ويفهم على فهمهم.

لقد كانت العلامة الدالة على اقتراب الأجل هو فوران الماء من التنور الذي يراه نوح ﷺ، وقد أمره ربه عز وجل حين يرى ذلك أن يفعل عدة أشياء، قد ذكرت في نص آيات سورة المؤمنون، قال تعالى: ﴿ فَأِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْأَلْكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ (27) فَأِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 27 - 29].

أولاً: قوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلْكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾، ورد الأمر لنوح ﷺ في هذا النص بصيغة (اسألك)، بينما جاء في سورة هود بصيغة (احمِل)، قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾، وهذا التنوع في الاستعمال جعل علماء المتشابهة يوردون ذلك في دراساتهم، ويحاولون إعطاء سبب له، قال الغرناطي: " لِسَائِلِ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ ﴾، وَفِي السُّورَةِ الثَّانِيَةِ: ﴿ فَاسْأَلْكَ ﴾، وَالْقِصَّةُ وَاحِدَةٌ، فَهَلْ ذَلِكَ بِمُقْتَضٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ

¹ - حديث صحيح، رواه البخاري، حديث رقم (4418).

² - حديث صحيح، رواه ابن ماجه، حديث رقم (4297). سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان.

³ - فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (528/1).

الْمَوْضُوعَيْنِ بِمَا وَقَعَ فِيهِ ؟ ¹. وقد حاول تفسير هذا التنوع في الاستعمال، فأرجع السبب إلى ورودها في سورة هود إلى طول الآيات في سياق القصة، فقال: " فَوَجَّهَ وَرُودَهَا فِي سُورَةِ هُودٍ مُنَاسِبَتُهَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، مِنْ حَيْثُ مَا أَقْتَرْنَا بِهَا مِنْ لَفْظٍ: ﴿ قُلْنَا ﴾، فَطَالَ الْكَلَامُ لَفْظًا مَعَ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنْ سِعَةِ الْمَحَامِلِ، وَإِنْ لَمْ يَرِدْ جَمِيعُهَا هُنَا، لَكِنْ نَاسَبَ مَجْمُوعُ هَذِهِ الْعِبَارَةِ مَا وَرَدَ فِي سُورَةِ هُودٍ مِنْ اسْتِيفَاءِ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَطُولِ الْكَلَامِ بِذَلِكَ " ²، وأما ورودها في سورة المؤمنون فناسب الإيجاز في القصة، قال: " وَأَمَّا آيَةُ الْمُؤْمِنُونَ فِي قِصَّةِ نُوحٍ فِيهَا إِيجَازٌ وَإِجْمَالٌ، أَلَا تَرَى أَنَّهَا فِي كَلِمَتِهَا وَعَدَدِ حُرُوفِهَا - أَعْنِي آيَةَ هُودٍ - عَلَى الضَّعْفِ، أَوْ أَطْوَلَ مِمَّا فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ، فَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ لَفْظٌ ﴿ اسئَلُكَ ﴾، لِإِيجَازِهِ مِنْ حَيْثُ مَعْنَاهُ " ³.

وهذا الذي ذهب إليه الغرناطي لم يبرز شيئا جديدا في تأويله لتنوع الاستعمال في التعبير، وقد أبعث السياق القصصي الذي له دور مهم في تجلية الأمر، وإعطاء الألفاظ حقاها في مواضعها التي سيقت لأجلها، فسياق سورة المؤمنون كان فيه الأمر (اسئَلُكَ) قبل وقوع الحدث، بينما سياق القصة في سورة هود كان الأمر (احمِل) عند الحدث وأثناء وقوعه، وهذا ما وُفق إليه ابن عاشور في تفسيره إذ جعل سبب الاختلاف في التعبير يرجع إلى أن " آيَةَ سُورَةِ هُودٍ حَكَتْ مَا خَاطَبَهُ اللَّهُ بِهِ عِنْدَ حُدُوثِ الطُّوفَانِ، وَذَلِكَ وَقْتُ ضَيْقٍ، فَأَمَرَ أَنْ يَحْمَلَ فِي السَّفِينَةِ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ إِبْقَاءَهُمْ، فَأَسْنَدَ الْحَمْلَ إِلَى نُوحٍ تَمَثِيلًا لِلْإِسْرَاعِ بِإِرْكَابِ مَا عَيْنَ لَهُ فِي السَّفِينَةِ، حَتَّى كَانَتْ حَالُهُ فِي إِدْخَالِهِ إِيَّاهُمْ حَالٌ مَنْ يَحْمَلُ شَيْئًا لِيَضَعَهُ فِي مَوْضِعٍ، وَآيَةُ هَذِهِ السُّورَةِ حَكَتْ مَا خَاطَبَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ قَبْلِ حُدُوثِ الطُّوفَانِ إِنْبَاءً بِمَا يَفْعَلُهُ عِنْدَ حُدُوثِ الطُّوفَانِ، فَأَمَرَهُ بِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يُدْخَلُ فِي السَّفِينَةِ مَنْ عَيْنَ اللَّهُ إِدْخَالَهُمْ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّفَنُّنِ فِي حِكَايَةِ الْقِصَّةِ " ⁴.

¹ - ملك التاويل، الغرناطي، (654/2 - 656).

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه.

⁴ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (38/18).

والمعنى في لفظة (اسئلك) أي: " أَدْخَلَ فِيهَا وَاجْعَلْ فِيهَا، يُقَالُ: سَأَلْتُهُ فِي كَذَا، وَاسْأَلْتُهُ فِيهِ، إِذَا أَدْخَلْتُهُ " ¹، ومما يصوره اللفظان من تنوع المعنى عند استعمالهما هو تشكل صورة الفعل قبل وقوعه حين أوحى إليه صنع السفينة، وبعد صنعها حينما يكمل بناءها، فلما كانت مجرد فكرة لم يزاول تطبيقها خاطبه بقوله: (اسئلك)، لكي تكون له فكرة مسبقة في ذهنه عن الشيء الذي هو بصدده صنعها، وكأنه يريد منه تصور مخطط للسفينة قبل بداية صنعها، فلا بد أن تكون لهذه السفينة مداخل ومسالك تسهل عليه عملية الحمل فيما بعد، فإذا انطلق في صنعها فسيجعلها على التصميم الذي علمه مسبقاً حينما جعل فيها تلك المسالك، وحينما اكتمل بناء السفينة وقد تبينت مسالكها على التفصيل ما بقي عليه إلا أن يحمل فيها ما أمر بحمله، فناسب المقام أن يخاطبه بالفعل (احمَل) حتى يتم المقصود.

وقوله: ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾، فقد رويت فيها قراءتان، " قَرَأَ حَفْصٌ كَلِمَةَ (كُلِّ) هُنَا بِالتَّنْوِينِ، وَجُمُهورُ الْقُرَّاءِ بِالإِضَافَةِ لِمَا بَعْدَهَا، أَي: حَتَّى إِذَا جَاءَ مَوْعِدُ أَمْرِنَا قُلْنَا لِنُوحٍ حِينَئِذٍ: (احمَلْ فِيهَا) أَي فِي الْفُلِّ - وَهُوَ السَّفِينَةُ - مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى. وَالتَّفْذِيرُ عَلَى قِرَاءَةِ حَفْصٍ: احمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ أَوْ الْحَيَوَانَ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، ذَكَرًا وَأُنْثَى، لِأَجْلِ أَنْ تَبْقَى بَعْدَ عَرَقِ سَائِرِ الْأَحْيَاءِ، فَتَتَنَاسَلَ، وَيَبْقَى نَوْعُهَا عَلَى الْأَرْضِ " ².

وقوله: ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾، أي: " وَاحْمَلْ فِيهَا أَهْلَكَ، وَهُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ وَقَرَابَتِهِ ﴾ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾، مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ، فَكَانَ مِنْهُمْ ابْنُهُ (يَامُ) الَّذِي أَنْعَزَلَ وَحْدَهُ، وَامْرَأَةُ نُوحٍ وَكَانَتْ كَافِرَةً بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ " ³. وهذا الذي رجحه ابن كثير وقد اختلف المفسرون فيه كثيراً.

ثانياً: ﴿ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ ﴾، وقد مر ذكرها.

¹ - تفسير القرطبي، (119/12).

² - تفسير المنار، رشيد رضا، (64/12).

³ - تفسير ابن كثير، (321/4).

ثالثاً: ﴿ فَأِذَا اسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾. والمعنى " إِذَا اعْتَدَلَتْ فِي السَّفِينَةِ أَنْتَ وَمَعَكَ مِمَّنْ حَمَلْتَهُ مَعَكَ مِنْ أَهْلِكَ، رَاكِبًا فِيهَا عَالِيًا فَوْقَهَا؛ ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ يَعْنِي مِنَ الْمُشْرِكِينَ " ¹.

رابعاً: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾، وقد وردت في قوله تعالى: (منزلاً) قراءتان، الأولى: (مُنْزَلًا) بالضم، والأخرى: (مَنْزِلًا) بفتح الميم وكسر الزاي، " قَرَأَ أَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ (مَنْزِلًا) بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِ الزَّيِّ، أَي يُرِيدُ مَوْضِعَ النُّزُولِ، قِيلَ: هُوَ السَّفِينَةُ بَعْدَ الرُّكُوبِ، وَقِيلَ: هُوَ الْأَرْضُ بَعْدَ النُّزُولِ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ فِي السَّفِينَةِ، وَيَحْتَمِلُ بَعْدَ الْخُرُوجِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (مَنْزِلًا) بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِ الزَّيِّ، أَيِ انْزَالًا، فَأَلْبِرَكَةُ فِي السَّفِينَةِ النَّجَاةُ، وَفِي النُّزُولِ بَعْدَ الْخُرُوجِ كَثْرَةُ النَّسْلِ مِنْ أَوْلَادِهِ الثَّلَاثَةِ " ²، ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾، أي: " وَأَنْتَ خَيْرٌ مَنْ أَنْزَلَ عِبَادَهُ الْمَنَازِلَ " ³.

5 - الْمَشْتَهَدُ النَّابِي:

تَجَاهُ الْمُؤْمِنِينَ وَهَلَاكُ الْمَكْذِبِينَ

1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 64].

2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [يُونُسَ: 73].

3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ

¹ - تفسير الطبري، (37/17).

² - معالم التنزيل، البغوي، (416/5).

³ - تفسير الطبري، (37/17).

تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجِ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنْتَعِبُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ [هُودٍ: 40 - 49].

4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَعْرِفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء: 76 - 77].

5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَاذًا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [المؤمنون: 26 - 30].

6 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكَ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾ [الشعراء: 119 - 120].

7 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الْعَنْكَبُوتُ: 14 - 15].

8 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴾ [الصَّافَّاتِ: 75 - 82].

9 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وُدُسِرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [الْقَمَرِ: 10 - 15].

10 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التَّحْرِيمِ: 10].

11 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ [سُورَةُ نُوحٍ: 25].

أقام الله الحجة على قوم نوح عليهم السلام، ونفدت كل الوسائل والطرق في معالجتهم، وصبر عليهم نبي الله عليه السلام صبرا عظيما، حتى حقت عليهم كلمة العذاب ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْتَلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [الْقَصَصِ: 59]، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم لمصلحتهم في الدنيا والآخرة، ولكن القوم عتوا عن أمر ربهم، واستكبروا في الأرض بغير الحق حتى آتاهم ما يوعدون، ولقد أُنذِرهم بطش ربهم وعذابه، ولكنهم قوم يجهلون، بلغهم رسالة ربه، وأقام الأدلة والحجج الشاهدة على طمس أبصارهم وبصائرهم، ولكنهم قوم عمون.

المِفْصَلُ الْأَوَّلُ: رُكُوبُ السَّفِينَةِ

1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (40) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ [هُود: 40 - 41].

2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (28) وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿ [الْمُؤْمِنُونَ: 26 - 29].

أنهى نبي الله ﷺ صنع السفينة، وأتم بناءها، وبقي يترقب، وينتظر الأمر من ربه، ولم يبتئس، ولم يبال بالقوم الظالمين، بل كان على يقين من وعد ربه، وأن ربه لا يخلف الميعاد، قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾، فجاءت (حَتَّى) في هذا الموضع لتكون غاية لقوله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ [هود: 38]، أي: " يَصْنَعُهُ إِلَى زَمَنِ مَجِيءِ أَمْرِنَا، فَ(إِذَا) ظَرَفَ مُضَمَّنٌ مَعْنَى الشَّرْطِ، وَلِذَلِكَ جِيءَ لَهُ بِجَوَابٍ، وَهُوَ جُمْلَةٌ ﴿ قُلْنَا احْمِلْ ﴾، وَجَعَلَ الشَّرْطُ وَجَوَابَهُ غَايَةً بِاعْتِبَارِ مَا فِي حَرْفِ الشَّرْطِ مِنْ مَعْنَى الزَّمَانِ وَإِضَافَتِهِ إِلَى جُمْلَةِ الشَّرْطِ، فَحَصَلَ مَعْنَى الْغَايَةِ عِنْدَ حُصُولِ مَضْمُونِ جُمْلَةِ الْجَزَاءِ "1.

شكلت لنا نصوص الآيات صورة سردية مفصلة للحدث قبل وقوعه، وكان التنوع في استعمال كل لفظ في موضعه قد أعطى تشكيلا سرديا دقيقا، حيث لو بدلنا لفظا مكان لفظ ما كان ليعطي التصوير الذي أعطاه الأول، فاستعمال النص اللفظي (اسئلك) و(احمل) في موضعهما من القصة قد جاء على أدق ما يكون، فقوله: ﴿ فَاسئلك فيها ﴾، قد تبين أنه كان قبل مجيء الأمر، فقد أوحى إليه من قبل ونبأه بما سيكون في المستقبل، فكان الخطاب موجها إلى إعطائه صورة الشيء قبل حدوثه، لأنه كان بصدد بناء السفينة، فلا بد أن يكون لها صورة في ذهنه،

¹ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (258/11).

فذلك استعمال لفظ (اسئلك)، والفعل (سلك) يستعمل في " المكان والطريق، يسئلكهما سلكاً بالفتح، وسئوكاً كقعود¹، وقولك: " سلكت الشيء في الشيء فأسئلك، أي: أدخلته فيه فدخل²، وتقول: " سلك يده في الجيب والسقاء ونحوهما، وأسئكها: أدخلها فيه³، " والمسئك الطريق⁴، من هذا نفهم أن استعمال لفظ (اسئلك) جاء ليعطي نبي الله ﷺ تصوراً للفلك التي سببها بمسالكها التي سيدخل فيها من أنواع تلك المخلوقات التي أمر بأخذها معه، فلا بد أن يتصور مسالكها التي سيجعلها لها في السفينة، لذلك ناسب استعمال هذا اللفظ في هذا الموضع بالذات.

وأما استعمال لفظ (احمِل)، فهو مرهون بوقت حدوث الأمر الرباني، فحينما جاء أمر الله وتحققت علامة البداية ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾، نقل لنا النص القرآني خطاب الرب تبارك وتعالى المباشر لنوح ﷺ، بأن (احمِل)، واستعمل جملة ﴿ قُلْنَا ﴾ لتدل على وقوع خطاب جديد لنوح ﷺ، وهو خطاب اللحظة التي هو بصدد معالجتها، فاستعمل لفظ (احمِل) بعدما بنيت السفينة على الوجه المطلوب وتبينت مسالكها التي سيدخل فيها من كل زوجين اثنين ومن آمن معه إلا من حق القول عليهم، وكل جاء على ما يناسب، والله أعلم.

وجاء الأمر الرباني من خالق الكون ومالكة، والمتصرف فيه بمشيئته، وأذن الخلق لأمر الرب تبارك وتعالى، والكل أتوه مذعنين، ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾، الذي جعله الله علامة يعرف بها نوح ﷺ دنو أجل القوم الظالمين، فيعجل ومن معه بركوب السفينة، ونبغ الماء من التنور يدل على أن عيون الماء في الأرض قد أذنت لربها فيما أمر به، وفار بالماء كما تفور القدر، وبدأت اللحظات الحاسمة.

قال له ربه: ﴿ احمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ اركبوا فيها بسم الله مجراها

¹ - تاج العروس، مرتضى الزبيدي، مادة (سلك).

² - لسان العرب، ابن منظور، مادة (سلك).

³ - تاج العروس، المصدر نفسه.

⁴ - لسان العرب، المصدر نفسه.

وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿﴾ [هُود: 40 - 41]، فاستجاب نوح لأمر ربه وبدأ بحمل من أمر بحمله، وفي هذا الموقف إهمال من النص القرآني في تبين أنواع ما حمل في السفينة من مخلوقات أمر بحملها، وكذلك جنس تلك المخلوقات، لأنه على غير العادة حمل ما لم يذلل من الحيوانات كالسباع والنمور والذئاب والضباع وغيرها من المفترسات، ومثله ما ضخم منها كالفيلة وفرس النهر وغيرها، إلا أن يكون لها أمر من الله فتنقاد له وتدعن، وما ذلك على الله بعزيز، ويمكننا أن نتجاوز في الأمر فنرخي العنان للخيال فنرى صورة أخرى ممكنة للمشهد، وأن نبي الله ﷺ قد منحه الله من القدرة ما يكون قد سيطر به عليها فجمعها جميعا في مكان واحد، ووضع كل صنف منها في مكانه الذي يسهل عليه من بعد حمله منه في الوقت المحدد حين يجيء أمر الله.

أمر الله نبيه ﷺ أن يحمل معه أهله إلا من سبق عليه القول منهم، وأن يحمل من آمن بالله واتبع رسوله، فقال: **﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾**، وقد اختلفت أقوال المفسرين كثيرا في تحديد المعنيين بالقول في الآية، سواء في معرفة من ركب أو من استثنى منهم، وكل قائل يحصي عددا لا يعرف من أين جيء به، وقد نقل ابن جرير في تفسيره تلك الأقوال، ورد عليها بقوله: " وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ كَمَا قَالَ اللَّهُ: **﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾**، يَصِفُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا، وَلَمْ يُحَدِّدْ عَدَدَهُمْ بِمُقَدَّارٍ وَلَا خَبَرَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَحِيحًا، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَجَاوَزَ فِي ذَلِكَ حَدَّ اللَّهِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِمَبْلَغِ عَدَدِ ذَلِكَ حَدٌّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَوْ أَثَرٍ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ " ¹.

ويعرف في اللغة أن " أَهْلَ بَيْتِ الرَّجُلِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ: نِسَاؤُهُ وَأَوْلَادُهُ وَأَزْوَاجُهُمْ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُمْ كَقَارِهِمْ إِنْ كَانَ فِيهِمْ كُفَّارٌ، لِأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ: **﴿ وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الدِّينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ ﴾**، وَإِلَّا كَانَ الْمُسْتَثْنَى وَلَدَهُ الَّذِي سَتُدَكَّرُ قِصَّتُهُ قَرِيبًا، **﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾** مَعَكَ مِنْ قَوْمِكَ، **﴿ وَمَا**

¹ - تفسير الطبري، (412/12).

أَمَّن مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَبَيِّنْ لَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَلَا رَسُولُهُ عَدَدَهُمْ، فَكُلُّ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِيهِمْ مَرْدُودٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ "1.

وقد خالف بعض المفسرين صريح هذا النص حين فسر قوله تعالى: ﴿ فَانجيناَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ [الشُّعْرَاءِ: 119]، فقال: " وَالْمَشْحُونُ: الْمَمْلُوءُ، يُقَالُ: شَحَنَهَا عَلَيْهِمْ خَيْلًا وَرِجَالًا، فَذَلِكَ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ نَجَّوْا مَعَهُ كَانَ فِيهِمْ كَثْرَةٌ، وَأَنَّ الْفُلَّكَ امْتَلَأَ بِهِمْ وَبِمَا صَحِبَهُمْ "2. ولم أجد من المفسرين من قال بهذا القول إلا الفخر الرازي، وفيه مخالفة صريحة وواضحة لنص الآية، وهو بخلاف ما ذهب إليه جمع كبير من المفسرين.

والمشحون كما قال أهل التفسير: " هُوَ الْمَمْلُوءُ بِالْأَمْتَعَةِ وَالْأَزْوَاجِ الَّتِي حَمَلَ فِيهِ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ "3.

ومما اختلف فيه أيضا دخول امرأة نوح عليها السلام في الاستثناء من عموم قوله تعالى: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾، والراجح - والله أعلم - أنها كانت من المغرقين كما قال ابن كثير في رده على من قال أنها كانت معه في السفينة، قال: " وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ، بَلِ الظَّاهِرُ أَنَّهَا هَلَكَتْ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ عَلَى دِينِ قَوْمِهَا، فَأَصَابَهَا مَا أَصَابَهُمْ، كَمَا أَصَابَ امْرَأَةَ لُوطٍ مَا أَصَابَ قَوْمِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ "4.

قد بين الله عز وجل حقيقة هذه المرأة، وأنها كانت كافرة على دين قومها، وقد خانت نبي الله خيانة دين فمالأت قومها عليه، فعاقبها الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التَّحْرِيمِ: 10]، فلما تبين كفرها حكمنا عليها بالهلاك في الطوفان مع الهالكين، لأن الله قضى أن لا ينجو في السفينة إلا من آمن، ولم يرد بين أيدينا

1- تفسير المنار، رشيد رضا، (64/12).

2- تفسير الرازي، (521/24 - 522).

3- تفسير ابن كثير، (152/6).

4- تفسير ابن كثير، (322/4).

نص يبين أنها آمنت أولاً فنجت معه في السفينة، ثم كفرت من بعد نجاتها فقبل لها ادخلي النار مع الداخلين.

نقلنا لنا الآيات صورة الأحداث وهي تتحرك في فضاء رهيب، فهذا نبي من أنبياء الله عز وجل يطيع ربه في ما أمره به، وهو يعايش اللحظة التي وعده ربه إياه، سيرى هلاك قومه بعينه، ولا شك أنه يستحضر كل لحظة مرت به حين كان يبذل وسعه في دعوة قومه حتى يؤمنوا فلا يصيبهم العذاب العظيم، وهم في صدود وعناد واستكبار، فقد جاءهم وقت القهر والانكسار.

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، ذهب المفسرون إلى أن قوله (اركبوا) خطاب لمن أمر بحمله معه في السفينة¹، ولكن سياق الآية يبين أن المقصود بالخطاب هم الذين يعقلون عنه قوله، أي أن قوله (اركبوا) قاله للذين آمنوا معه، وليس لكل من أمر بحمله، فالذين أمر بحملهم فهم ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾، وهؤلاء لا يقال لهم (اركبوا)، إنما يحملون حملاً، ولكن الذين يقال لهم (اركبوا) هم ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾، وقال: ﴿ اركبوا ﴾، فالركوب: " اَلْعُلُوُّ عَلَى ظَهْرِ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ رُكُوبُ الدَّابَّةِ، وَرُكُوبُ السَّفِينَةِ، وَرُكُوبُ الْبَحْرِ، وَكُلُّ شَيْءٍ عَلَا شَيْئًا، فَقَدْ رَكِبَهُ، وَيُقَالُ: رَكِبَهُ الدَّيْنُ. قَالَ اللَّيْثُ: وَتُسَمَّى الْعَرَبُ مَنْ يَرْكَبُ السَّفِينَةَ: رُكَّابَ السَّفِينَةِ، وَأَمَّا الرُّكْبَانُ، وَالْأَرْكُوبُ، وَالرَّكْبُ: فَرُكَّابُ الدَّوَابِّ "2، وقد عدي الفعل " (اركبوا) (في) لِتَضْمِينِهِ مَعْنَى صَيَّرُوا فِيهَا، أَوْ مَعْنَى ادْخُلُوا فِيهَا "3.

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، أخبر الله عز وجل أنبياءه أنه لا يتحرك شيء في كونه إلا بعد إذنه سبحانه، لذلك علمهم ذكر اسمه على كل شيء، وقد افتتح الله عز وجل سور كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ بذكر اسمه، وقد جاء في كتاب سليمان عليه السلام الذي بعثه إلى ملكة سبأ أنه افتتحه بذكر اسمه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ

¹ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (260/11).

² - تفسير اللباب، ابن عادل، (2855/1).

³ - البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (155/6).

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿ [النَّمْل: 30 – 31]،
ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: « كَلُّ أَمْرِ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ فَهُوَ أَقْطَعُ »¹، وقد علمنا رسولنا ﷺ أن نسمي الله عز وجل في أحوال
كثيرة ليس هذا مقام بسطها.

والمقصود من الكلام أن تقديم (بِسْمِ اللَّهِ) في بداية الأعمال هو سنة سنة سنها
الله عز وجل لخلقه، من لدن آدم ﷺ إلى أن يرفع الله العلم من الأرض، ليبارك
لهم في أعمالهم، ويحفظ به عليهم حياتهم، و(بِسْمِ اللَّهِ) هي شبه جملة متعلقة
بفعل محذوف يقدر حسب المقام، فإذا قدمتها بين يدي قراءتك، فالمعنى المقصود
هو (بسم الله) أقرأ، وإذا قدمتها بين يدي دخولك فالمعنى (بسم الله) أدخل،
وهكذا يقدر الفعل المحذوف بحسب كل مقام.

وقد تعددت الروايات في قراءة هذه الآية ﴿ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾، ولكل
رواية معنى يختلف عن المعنى الوارد في الرواية الأخرى، ونحن نستعرضها
ليس من باب التوسع في ذكر وجوه القراءة، وإنما لتعلقها بمقصد البحث، فكل
معنى وارد فيها يخدم تشكيل صورة الأحداث في المشهد من جهة معينة،
وسنكتفي بتبيين اختلاف المعاني ملخصاً من خلال ما ذكره ابن جرير في
تفسيره².

1 - ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾، وهي قراءة عَامَّةٌ قُرَاءَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
وَالْبَصْرَةِ وَبَعْضِ الْكُوفِيِّينَ بِضَمِّ الْمِيمِ فِي الْحَرْفَيْنِ كِلَيْهِمَا، وَلَهَا مَعْنَانِ: أَحَدُهُمَا
بِمَعْنَى: (بِسْمِ اللَّهِ إِجْرَاؤُهَا وَإِرْسَاؤُهَا)، وَالْآخَرُ بِمَعْنَى: (بِسْمِ اللَّهِ عِنْدَ إِجْرَائِهَا
وَإِرْسَائِهَا)، أَوْ وَقْتُ إِجْرَائِهَا وَإِرْسَائِهَا.

2 - ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾، وَهِيَ قِرَاءَةٌ عَامَّةٌ قُرَاءَ الْكُوفِيِّينَ، بِفَتْحِ
الْمِيمِ مِنْ مَجْرَاهَا، وَضَمِّهَا مِنْ مُرْسَاهَا، وَهِيَ الْقِرَاءَةُ الَّتِي اخْتَارَهَا ابْنُ جَرِيرٍ،

¹ - حديث اختلف العلماء في تصحيحه، انظر: البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح
الكبير، سراج الدين أبو حفص ابن الملقن، تحقق: مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال،
دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1425هـ / 2004م،
(530/7).

² - تفسير الطبري، (413/12 - 415).

وَهِيَ بِمَعْنَى: بِسْمِ اللَّهِ حِينَ تَجْرِي وَحِينَ تَرْسِي. وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿مَجْرَاهَا﴾: مَسِيرَهَا، ﴿وَمُرْسَاهَا﴾: وَقْفَهَا، مِنْ وَقَفَهَا اللَّهُ وَأَرْسَاهَا.

3 - ﴿بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا﴾، وَهِيَ قِرَاءَةٌ رُوِيَتْ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعَطَارِدِيِّ، أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ ذَلِكَ بِضَمِّ الْمِيمِ فِيهِمَا، وَيُصَيِّرُهُمَا نَعْتًا لِلَّهِ، لِأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ (بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِي الْفُلِّكُ وَمُرْسِيهَا)، فَالْمُجْرِي نَعْتٌ لِاسْمِ اللَّهِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وهذا قول نوح عليه السلام يعلم به الذين آمنوا معه أن الله عز وجل "لَوَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ لِعِبَادِهِ، حَيْثُ لَمْ يَهْلِكْهُمْ جَمِيعَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَتَقْصِيرِهِمْ، وَإِنَّمَا يَهْلِكُ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ وَحَدَّهُمْ، رَحِيمٌ بِهِمْ بِمَا سَخَّرَ لَهُمْ هَذِهِ السَّفِينَةَ لِنَجَاةِ بَقِيَّةِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَ مِنْ هَذَا الطُّوفَانِ الَّذِي اقْتَضَتْهُ مَشِيئَتُهُ"¹.

حمل نوح في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، ثم ركب فيها هو ومن آمن معه من قومه ومن أهل بيته، وحين استوى عليها هو ومن معه، قال كما قال ربه: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: 28].

وفي هذا النص مبحث خاص حول حروف الجر المستعملة في ركوب السفينة، قال في هذه الآية ﴿عَلَى الْفُلِّ﴾، وقال في سورة القمر ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وُدُسْرٍ﴾، بينما تغير حرف الجر المستعمل في سورتي الأعراف ويونس، فقال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾، وقال في سورة الشعراء: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾، وقال في سورة الحاقة: ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾.

ذهب بعض أهل العلم إلى أنهما بمعنى واحد، يفيدان معنى العلو، قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ﴾ "مَجَازُهُ إِذَا عَلَوْتَ عَلَى السَّفِينَةِ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، أَي: عَلَا، وَقَالَ

¹ - تفسير المنار، رشيد رضا، (65/12).

آخِرُونَ: حَتَّى إِذَا كُنْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ فِي الْفُلِّ، لَأَنَّ (فِي) وَ (عَلَى) وَاحِدٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿ **وَأَصْلِبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ** ﴾، أَي: عَلَى جُدُوعِ النَّخْلِ "1. وذهب بعضهم إلى أن فعل ﴿ **ارْكَبُوا** ﴾ قد عدي " بـ (فِي) جَرِيًّا عَلَى الْفَصِيحِ، فَإِنَّهُ يُقَالُ: رَكِبَ الدَّابَّةَ إِذَا عَلَاهَا. وَأَمَّا رُكُوبُ الْفُلِّ فَيَعْدَى بـ (فِي)، لِأَنَّ إِطْلَاقَ الرُّكُوبِ عَلَيْهِ مَجَازٌ، وَإِنَّمَا هُوَ جَلُوسٌ وَاسْتِقْرَارٌ، فَلَا يُقَالُ: رَكِبَ السَّفِينَةَ، فَأَرَادُوا التَّفْرِقَةَ بَيْنَ الرُّكُوبِ الْحَقِيقِيِّ وَالرُّكُوبِ الْمُشَابِهِ لَهُ، وَهِيَ تَفْرِقَةٌ حَسَنَةٌ "2.

بينما جاء استعمال حرف الجر الآخر (على) " لِلإِسْتِعْلَاءِ الْمَجَازِيِّ، وَهُوَ الَّتَمَكُّنُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **إِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ** ﴾، وَإِلَّا فَإِنَّ اسْتِقْرَارَهُ فِي السَّفِينَةِ كَانَتْ فِي جَوْفِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ** ﴾ [الْحَاقَّةُ: 11]، ﴿ **قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ** ﴾ [هُودٍ: 40] "3.

ومما يمكن إضافته في هذا السياق، قولنا أن استعمال حرف الجر (على) الذي يدل على العلو، في قوله تعالى: ﴿ **إِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ** ﴾، إنما استعمل في موضعه ليحدد لنا مكان نوح ﷺ ومن معه من المؤمنين في السفينة، إذ يفهم من هذا أن السفينة بنيت وقسمت طوابق بعضها فوق بعض، وكان هو ﷺ ومن معه من المؤمنين في أعلاها، لذلك جاء الخطاب لهم ليميزهم عن غيرهم من سائر المخلوقات التي كانت دونهم في طبقات السفينة، فناسب أن يأتي التعبير عن هذه الحال من العلو بقوله تعالى: ﴿ **إِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ** ﴾، ولا تدخل بقية المخلوقات في المعية لأن قوله: ﴿ **فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾، يقصد به نفسه ومن آمن معه.

الْمِفْصَلُ الثَّانِي: الطُّوقَانُ

¹ - مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فواد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1381هـ، (57/2).

² - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (261/11).

³ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (178/27).

- 1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 64].
- 2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴾ [يُونُسَ: 73].
- 3 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمْتِعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هُودٍ: 25 - 49].
- 4 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوْءٍ فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: 76 - 77].
- 5 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾ [الشُّعَرَاءِ: 120].
- 6 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 14].
- 7 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ﴾ [الصَّافَّاتِ: 82].
- 8 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرَ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ [الْقَمَرِ: 11 - 14].
- 9 – ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الْحَاقَّةِ: 11].

10 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ [نوح: 25].

استوى نوح عليه السلام ومن معه من أهل بيته وأتباعه من المؤمنين على السفينة، وقد حمل فيها من كل زوجين اثنين، وَأَتَمَرَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ بِأَمْرِ رَبِّهِمَا، واقترب الوعد الحق، وسمى الله عذابه الذي أرسله عليهم (الطُّوفَانُ)، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [الْعَنْكَبُوتِ: 14]، وقوله: (فَأَخَذَهُمْ)، " أَخَذُ الشَّيْءِ يُطْلَقُ عَلَى حَوْزِهِ وَتَحْصِيلِهِ بِالتَّأْوِيلِ وَالْمَلِكِ، أَوْ الْإِسْتِيلَاءِ وَالْقَهْرِ، وَقَدْ يُسْنَدُ هَذَا إِلَى الْأَسْبَابِ غَيْرِ الْفَاعِلَةِ الْمُرِيدَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ [البقرة: 206]، ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ [الْعَنْكَبُوتِ: 14]، ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ [النحل: 113]، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ [الحجر: 73] "1.

عرفت العرب الطوفان أنه " الْمَاءُ الَّذِي يَغْشَى كُلَّ مَكَانٍ، وَقِيلَ: الْمَطَرُ الَّذِي يُغْرِقُ مِنْ كَثْرَتِهِ، وَقِيلَ: الطُّوفَانُ: الْمَوْتُ الْعَظِيمُ، وَقِيلَ: الطُّوفَانُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا كَانَ كَثِيرًا مُطِيفًا بِالْجَمَاعَةِ كُلِّهَا، كَالغَرَقِ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى الْمُدُنِ الْكَثِيرَةِ، وَالْقَتْلِ الدَّرِيعِ، وَالْمَوْتِ الْجَارِفِ، وَبِذَلِكَ كُلِّهِ فَسَّرَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [الْعَنْكَبُوتِ: 14] "2.

جاء تصوير بداية هذا المشهد المرعب في سورة القمر، كما قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر: 11 - 12]، " وَإِنَّهُ لَوْصَفٌ وَجِيزٌ فِي أَعْلَى مَرَاقِي الْبَلَاغَةِ وَالتَّائِيرِ، مَا أَفْطَحَ هَذَا الْمَنْظَرَ ! مَا أَشَدَّ هَوْلَهُ ! مَا أَعْظَمَ رَوْعَتَهُ ! مَا يَنْهَمِرُ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ أَنْهَمَارًا، وَأَرْضٌ تَنْفَجِرُ عُيُونًا حَوَّارَةً، فَتَفِيضُ مَدْرَارًا، مَا تَجَّاجُ يَصِيرُ بَحْرًا ذَا أَمْوَاجٍ، خَفِيَتْ مِنْ تَحْتِهِ الْأَرْضُ بِجِبَالِهَا، وَخَفِيَتْ مِنْ فَوْقِهِ السَّمَاءُ بِشَمْسِهَا وَكَوَاكِبِهَا "3.

¹ - تفسير المنار، رشيد رضا، (345/7).

² - المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، مادة (ط و ف).

³ - تفسير المنار، رشيد رضا، (67/12).

لم يتعرض كثير من المفسرين إلى التفصيل في ذكر معنى قوله تعالى: **﴿ أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾**، وجعلوا ذلك مما يتعارفه الناس فيما بينهم، ففهموا أن المعنى المراد من ذلك هو إنزال الماء من السحب كما هي العادة المعروفة والمألوفة، وما ذُكِرَ الأبواب إلا من باب المجاز، قال أبو حيان الأندلسي: " **﴿ أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾**: هَذَا عِنْدَ الْجُمْهُورِ مَجَازٌ وَتَشْبِيهٌ، لِأَنَّ الْمَطَرَ كَثْرَهُ كَأَنَّهُ نَازِلٌ مِنْ أَبْوَابٍ، كَمَا تَقُولُ: فَتَحَتْ أَبْوَابَ الْقُرْبِ، وَجَرَتْ مَزَارِيبُ السَّمَاءِ " ¹. بينما التعبير في النص قد جاء مخالفا لم ألفه الناس من الخطاب القرآني، فكل الآيات المتحدثة عن المطر العادي المألوف تذكر إنزاله من السماء وحدها دون ذكر أبوابها، وقد وردت آيات القرآن متفقة في ذكر ذلك، كما قال تعالى: **﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾** [البقرة: 22]، وغيرها من الآيات، ولكن إذا ذُكِرَتِ النصوص أبواب السماء فهي تقصد أبوابها على الحقيقة، كما قال تعالى: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾** [الأعراف: 40].

أكدت الأحاديث النبوية أن للسماء أبوابا موجودة على الحقيقة، وقد جاءت النصوص تثبت ذلك، فورد في تفسير الآية السابقة حديث رواه البراء بن عازب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، وهو حديث صحيح مشهور، يبين حالة ما بعد قبض روح الإنسان الكافر، وفيه قوله ﷺ: **« فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بَنُ فُلَانٍ بِأَفْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿ لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ »** ².

¹ - البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (133/8).

² - حديث صحيح، رواه أحمد في المسند، حديث رقم (18733)، وقال محققه: إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح -

وفي رواية النسائي في ذات السياق، وقد ذكر روح المؤمن حين تقبض، فقال ﷺ: **« فَإِذَا قُبِضَتْ نَفْسُهُ، جُعِلَتْ فِي حَرِيرَةٍ بِيضَاءَ، فَيَنْطَلِقُ بِهَا إِلَى بَابِ السَّمَاءِ »**¹.

وروى مسلم في صحيحه قوله ﷺ: **« عَجِبْتُ لَهَا فَتَحَتْ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ »**².

فهذه نصوص صحيحة صريحة تبين أن للسماء أبوابا تستفتح، ويؤذن لمن شاء الله له بدخولها، ثم تغلق دونه، فلا ينبغي أن تؤول وتصرف عن حقيقة معناها إلا بثبوت دليل صحيح يصرفها عن ذلك.

نقل ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: " قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: **« فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مِنْهَا »** □ : كَثِيرٌ، لَمْ تُمَطَّرِ السَّمَاءُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَا بَعْدَهُ، وَلَا مِنَ السَّحَابِ؛ فَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِالْمَاءِ مِنْ غَيْرِ سَحَابٍ ذَلِكَ الْيَوْمِ "³. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سئل عن المجرى فقال: " هُوَ شَرْجُ السَّمَاءِ، وَمِنْهَا فَتَحَتْ السَّمَاءُ بِمَاءٍ مِنْهُمْ "⁴ 5.

تبيين من خلال ما سبق أن الماء المنزل عليهم من السماء غير ماء المطر المعهود، بل هو ماء خاص تنزل بعدما فتحت أبواب السماء، وفي الآية تصوير عجيب لقوة الماء المنزل وكثرته، فقله تعالى: **« فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مِنْهُمْ »** " جَعَلَ الْمَاءَ كَأَنَّهُ آلَةٌ يُفْتَحُ بِهَا، كَمَا تَقُولُ: فَتَحْتُ الْبَابَ بِالْمِفْتَاحِ، وَكَأَنَّ الْمَاءَ جَاءَ وَفَتَحَ الْبَابَ، فَجَعَلَ الْمَقْصُودَ وَهُوَ الْمَاءُ مُقَدِّمًا فِي الْوُجُودِ عَلَى فَتْحِ

¹ - حديث صحيح، ، رواه النسائي في المجتبى من السنن، حديث رقم (1833)، المجتبى من السنن، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، سورية، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1406 هـ / 1986م -

² - حديث صحيح، ، رواه مسلم، حديث رقم (1386) -

³ - تفسير ابن كثير، (476/7).

⁴ - رواه البخاري في كتاب الأدب المفرد بسند صحيح: " عَنْ أَبِي الطَّفَيْلِ: سَأَلَ ابْنُ الْكَوَّاءِ عَلِيًّا عَنِ الْمَجْرَى، قَالَ: هُوَ شَرْجُ السَّمَاءِ، وَمِنْهَا فَتَحَتْ السَّمَاءُ بِمَاءٍ مِنْهُمْ "، الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: 1409 هـ

/ 1989م ، حديث رقم (766) .

⁵ - تفسير القرطبي، (132/17).

الْبَابِ الْمُعْتَق "1، وزاد في كثرته وقوته قوله ﴿بِمَاءٍ مِنْهُمْ﴾، أي: " مُنْصَبِّ أَنْصَابًا شَدِيدًا، وَالْهَمْرُ: الصَّبُّ بِكَثْرَةٍ، يُقَالُ: هَمَرَ الْمَاءُ، وَالْدَّمْعُ يَهْمُرُ هَمْرًا، وَهَمُورًا: إِذَا كَثُرَ "2، وهذا التصوير الدقيق العجيب للماء كأنه آلة تفتح أبواب السماء قد بينه قول علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم حينما فسرا قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الْحَاقَّةِ: 11]، فروى الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: " لَمْ تَنْزِلْ قَطْرَةٌ مِنْ مَاءٍ إِلَّا بِكَيْلٍ عَلَى يَدَيْ مَلَكٍ؛ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ نُوحٍ أُذِنَ لِلْمَاءِ دُونَ الْخُرَّانِ، فَطَغَى الْمَاءُ عَلَى الْجِبَالِ فَخَرَجَ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الْحَاقَّةِ: 11] "3.

قال ابن عباس رضي الله عنهما:4 " مَا أَرْسَلَ اللَّهُ مِنْ رِيحٍ قَطُّ إِلَّا بِمِكْيَالٍ، وَلَا أَنْزَلَ قَطْرَةً قَطُّ إِلَّا بِمِثْقَالٍ، إِلَّا يَوْمَ نُوحٍ وَيَوْمَ عَادٍ، فَإِنَّ الْمَاءَ يَوْمَ نُوحٍ طَغَى عَلَى خُرَّانِهِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الْحَاقَّةِ: 11] "5.

حمل بعض المفسرين لفظ (الطغيان) على تجاوز الحد، ومعنى ذلك أن الماء " تَجَاوَزَ حَدَّهُ فِي الِازْتِفَاعِ وَالْعُلُوقِ، وَذَلِكَ فِي زَمَنِ نُوحٍ لَمَّا أَصَرَ قَوْمُهُ عَلَى الْكُفْرِ وَكَدْبُوهُ "6، ولا تعارض بين المعنيين لكلمة (طغى) والجمع بين القولين أولى من ترجيح أحدهما على الآخر.

وفي ماء الأرض قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾، وهذا تعبير معجز، تنقل فيه الألفاظ والتراكيب صورة رهيبة لمشهد الأرض وهي تتفجر بالماء عيوناً

1- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (133/8).

2- فتح القدير، الشوكاني، (89/7).

3- تفسير الطبري، (210/23).

4- تفسير الطبري، (210/23).

5- ينظر تخريج الأثرين السابقين في: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، جمال الدين الزيلعي، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1414هـ، (83/4).

6- فتح القدير، الشوكاني، (291/7).

في كل أرجائها، فقد " جُعِلَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا كَأَنَّهَا عُيُونٌ تَتَفَجَّرُ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ: (وَفَجَّرْنَا عُيُونَ الْأَرْضِ) " ¹.

تتشكل صورة المشهد المرعب، في انهيار ماء السماء على غير عادة مألوفة، ولا شك أن القوم الكافرين يتقونه بما أوتوا من وسائل ليتمنعوا بها، وإذا بالأرض تتفجر أمام أعينهم في كل مكان حتى في بيوتهم، تهدم الجدران، وتهدم البيوت، وتأخذ بأبصارهم، وهم يتبعون انفجارها هنا وهناك، والتقى **﴿ الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾**، وقد " أُرِيدَ بِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: مِيَاهُ السَّمَاءِ وَمِيَاهُ الْأَرْضِ، فَخَرَجَ بِلَفْظِ الْوَاحِدِ وَمَعْنَاهُ الْجَمْعُ. وَقِيلَ: التَّقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ أَمْرًا قَدْ قَضَاهُ اللَّهُ فِي النَّوْحِ الْمَحْفُوظِ " ².

وأمام أعين الناس ممن كان يزعم أنه يرى، غَمَرَ الْمَاءُ وَجْهَ الْأَرْضِ وَطَغَى عَلَيْهَا، وصورة القوم على هذه الحال لا تخفى على من يستطيع تصورها، مياه تجرف كل شيء، وقوتها تدمر كل ما يقف أمامها، هلع وفزع ورعب وهرب، ولكن أين المفر ؟ جاء الموت، وأحيط بهم من كل جانب، والجميع يرى موت الجميع، فتخرج أرواحهم أمام أعينهم، يعذبون بقطع أنفاسهم، ويذوقون الموت أشكالا وألوانا قبل أن يقضى عليهم، فو الله إنه كما قال الله عز وجل: **﴿ وَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾** [الصَّافَّاتِ: 76]، والكرْب: " الْحُزْنُ الشَّدِيدُ وَالْغَمُّ. وَوَصَفَهُ بِ(الْعَظِيمِ) لِإِفَادَةِ أَنَّهُ عَظِيمٌ فِي نَوْعِهِ، فَهُوَ غَمٌّ عَلَى غَمِّ. وَالْمَعْنَى بِهِ الطُّوفَانُ، وَهُوَ كَرْبٌ عَظِيمٌ عَلَى الَّذِينَ وَقَعُوا فِيهِ، فَإِنجَاءُ نُوحٍ مِنْهُ هُوَ سَلَامَتُهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِ كَمَا عَلِمَتْ، لِأَنَّهُ هَوَلَ فِي الْمُنْظَرِ، وَخَوْفٌ فِي الْعَاقِبَةِ، وَالْوُقُوعُ فِيهِ مُوقِنٌ بِالْهَلَاكِ. وَلَا يَزَالُ الْخَوْفُ بِهِ حَتَّى يَغْمُرَهُ الْمَاءُ، ثُمَّ لَا يَزَالُ فِي الْآلَمِ مِنْ ضَيْقِ النَّفْسِ، وَرَعْدَةِ الْقَرِّ، وَالْخَوْفِ، وَتَحْقِيقِ الْهَلَاكِ حَتَّى يَغْرَقَ فِي الْمَاءِ " ³.

وفي الجانب الآخر حياة المستضعفين في أمان وسلام، تكفل الله لهم بها، وأحاطهم برعايته التي وعدهم إياها، وعلى سفينة النجاة نجاة القوم الصالحين،

¹ - البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (59/10).

² - تفسير الطبري، (122/22).

³ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (47/23).

ولما طغى الماء حملهم سبحانه في الجارية، وجعلها آية وتذكرة لمن يأتي من بعدهم.

وراحت السفينة بعد أن غمرتها المياه تشق طريقها التي قدرها الله لها، تحمل حياة البشر وما شاء الله من خلقه، تحفظها الرعاية الربانية، وتحيط بها القدرة الإلهية ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الْقَمَرِ: 14]، ونبي الله ﷺ يرى القوم غرقى، لا نجاة لأحد منهم أبداً، وكأنه يبحث بينهم عن تخلف من أهله، والسفينة ﴿ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هُود: 42 - 43].

﴿ تَجْرِي بِهِمْ ﴾، وصف الله عز وجل حركة السفينة بالفعل المضارع (تَجْرِي) الدال على حدوث تجدد جرياتها وحركتها بين الأمواج، وقد أسند الفعل لها، وهي في حقيقتها لا تتحرك إلا بأمره سبحانه، وسمى الله عز وجل الفلك بـ(الْجَارِيَّة)، و(الْجَرِي) كما قال " الرَّاعِبُ: الْمَرُّ السَّرِيعُ، وَأَصْلُهُ مَرُّ الْمَاءِ، وَمَا يَجْرِي جَرِيَهُ " ¹، وقال ابن فارس: " الْجِيمُ وَالرَّاءُ وَالْيَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَنْسِيَاخُ الشَّيْءِ " ².

والفلك تجري في البحر تبعا لحركة الرياح، كما قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [يُونُسَ: 22]، فترتبط حركة السفينة بحالة الرياح، وقد وصف هذا النص حركة الأمواج وهيجانها وربطها بقوة الرياح وهبوبها، فقال: ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾.

¹ - تاج العروس، مرتضى الزبيدي، مادة (جري)، (343/37 - 344).

² - معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (جري) .

لما أخبرنا الله عز وجل خبر نوح عليه السلام حين نادى ابنه صور لنا حال السفينة وهي بين أمواج كالجبال، فقال: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾، وهذا تصوير بديع دقيق " لِحَالِهَا فِي جَرِيهَا بِهِمْ كَأَنَّهَا حَاضِرَةٌ أَمَامَ الْقَارِيءِ أَوْ السَّمَاعِ، أَي تَجْرِي فِي أَتْنَاءِ مَوْجٍ يُشْبِهُ الْجِبَالَ فِي عُلُوِّهِ وَارْتِفَاعِهِ وَامْتِدَادِهِ، وَهُوَ مَا يَخْدُثُ فِي ظَاهِرِ الْبَحْرِ عِنْدَ اضْطِرَابِهِ مِنَ التَّمَوُّجِ وَالْإِرْتِفَاعِ بِفِعْلِ الرِّيَّاحِ، وَاحِدُهُ مَوْجَةٌ وَجَمْعُهُ أَمْوَجٌ، وَأَصْلُ الْمَوْجِ الْإِضْطِرَابُ وَمِنْهُ: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [الْكَهْفِ: 99] " ¹.

وقد يرجع سبب ارتفاع الأمواج في الطوفان " لِذَفْعِ دَفَقَاتِ الْمَاءِ الْوَارِدَةِ مِنَ السُّيُولِ، وَالْتِقَاءِ الْأُودِيَةِ الْمَاءِ السَّابِقِ لَهَا، فَإِنَّ حَادِثَ الطُّوفَانِ مَا كَانَ إِلَّا عَنِ مِثْلِ زَلَزَلٍ تَفَجَّرَتْ بِهَا مِيَاهُ الْأَرْضِ، وَأَمْطَارٌ جَمَّةٌ تَلْتَقِي سِيُولَهَا مَعَ مِيَاهِ الْغُيُونِ فَتَخْتَلِطُ، وَتَجْتَمِعُ وَتَصُبُّ فِي الْمَاءِ الَّذِي كَانَ قَبْلَهَا، حَتَّى عَمَّ الْمَاءُ جَمِيعَ الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ اللَّهُ إِغْرَاقَ أَهْلِهَا " ²، والظاهر من هذه الحال اجتماع السببين معا، هبوب الرياح العاصفة من جهة، وارتطام ماء الأرض بماء السماء من جهة أخرى.

ذهب بعض المفسرين إلى القول بأن نداء نوح عليه السلام لابنه كان قبل جريان السفينة، والسبب في ذلك يرجع إلى أن جملة ﴿ وَنَادَى ﴾ عطف " عَلَى أَعْلَقِ الْجَمَلِ بِهَا اتِّصَالًا وَهِيَ ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا ﴾ [هُود: 41] ... إِذْ يَتَعَدَّرُ إِيقَافُهَا بَعْدَ جَرِيهَا، لِأَنَّ الرَّاكِبِينَ كُلَّهُمْ كَانُوا مُسْتَقَرِّينَ فِي جَوْفِ السَّفِينَةِ " ³، وهذا التأويل يردده نص الآية صريحا، إذ نص الآية قد بيّن انقطاع الحوار لما حال الموج بينهما.

¹ - تفسير المنار، رشيد رضا، (65/12).

² - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (262/11).

³ - المصدر نفسه، (262/11).

﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ ﴾، تنقل لنا هذه الآية صورة مشهد عظيم، يبين حالة نبي الله نوح عليه السلام وهو في موقف عصيب يرى فيه غرق ابنه أمام عينيه ولا يستطيع أن يقدم له شيئاً. تبدو تفاصيل هذا المشهد غامضة مبهمة لم تتضح بعد، ووضوح رؤيتها مرهون بالكشف عن وجه الصورة البصرية للكلمة المعبرة عنها في تحديد مكان الابن الذي ﴿ كَانَ فِي مَعْرَلٍ ﴾، ومحاولة التقرب من كشف وجه حقيقة المعنى المصور لهذا المنظر منوط بمعرفة وجه دلالة الاستعمال في لفظة (مَعْرَلٍ)، ولقد أعطى المفسرون وجوه المعاني المحتملة التي يدور حولها مفهوم هذه الكلمة في السياق الواردة فيه، ولكن تلك المعاني لم تدفع عنها غموض المشهد وعدم اتضاح رؤيته، وسأستعرض أقوالهم وأحاول تبیین موطن الغموض فيها، ثم أحاول في الختام إعطاء رؤية للموقف تتناسب مع هول الأحداث، وتكشف الغموض السائد فيها.

جعل العلماء جملة " ﴿ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ ﴾ حَالاً مِنْ (ابْنَهُ) " ¹. وقالوا أن " الْمَعْرَلُ: مَفْعَلٌ، مِنْ عَزَلَهُ عَنْهُ إِذَا نَحَاهُ وَأَبْعَدَهُ " ²، وأطلقوا اسم المعزل على المكان والزمان، قال ابن عادل: " الْمَعْرَلُ - بِكَسْرِ الزَّيِّ - اسْمٌ مَكَانِ الْعَزْلَةِ، وَكَذَلِكَ اسْمُ الزَّمَانِ أَيْضًا " ³، وجعلوا " أَصْلُهُ: مِنَ الْعَزْلِ، وَهُوَ التَّنْحِيَةُ وَالْإِبْعَادُ، تَقُولُ: كُنْتُ بِمَعْرَلٍ عَنْ كَذَا، أَي: بِمَوْضِعٍ قَدْ عَزَلْتَهُ مِنْهُ " ⁴ واعتمد الرازي على المعنى اللغوي للفظه فقال: " اعْلَمْ أَنَّ الْمَعْرَلَ فِي اللُّغَةِ مَعْنَاهُ: مَوْضِعٌ مُنْقَطِعٌ عَنْ غَيْرِهِ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْعَزْلِ، وَهُوَ التَّنْحِيَةُ وَالْإِبْعَادُ. تَقُولُ: كُنْتُ بِمَعْرَلٍ عَنْ كَذَا، أَي: بِمَوْضِعٍ قَدْ عَزَلْتَهُ مِنْهُ " ⁵.

¹ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (263/11).

² - الكشاف، الزمخشري، (396/2).

³ - اللباب، ابن عادل، (2857/1).

⁴ - المصدر نفسه، (2857/1).

⁵ - تفسير الرازي، (351/17).

واتفق الجميع على أن معنى كلمة (مَعَزَلٍ) يدور حول الإبعاد والتنحية، فيفهم منها أن الابن قد تنحى وابتعد، لكن المعنى لا يتضح إلا إذا علم عن أي شيء تنحى وابتعد، وأين موضعه وهو منعزل ؟

ولم يتبين ذلك صريحا في نص الآية مما جعل العلماء يختلفون في تأويلها، وقد ذكر الفخر الرازي ثلاثة وجوه ذكرها العلماء يحتملها اللفظ: " الْأَوَّلُ: أَنَّهُ كَانَ فِي مَعَزَلٍ مِنَ السَّفِينَةِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ الْجَبَلَ يَمْنَعُهُ مِنَ الْغَرَقِ. الثَّانِي: أَنَّهُ كَانَ فِي مَعَزَلٍ عَنِ أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ وَقَوْمِهِ. الثَّلَاثُ: أَنَّهُ كَانَ فِي مَعَزَلٍ مِنَ الْكُفَّارِ كَأَنَّهُ انْفَرَدَ عَنْهُمْ فَظَنَّ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ لِأَنَّهُ أَحَبَّ مُفَارَقَتَهُمْ "1.

وزاد الأندلسي معنى آخر، فقال: " وَ (فِي مَعَزَلٍ)، أَي: فِي مَكَانٍ عَزَلَ فِيهِ نَفْسَهُ عَنِ أَبِيهِ وَعَنِ مَرْكَبِ الْمُؤْمِنِينَ. وَقِيلَ: فِي مَعَزَلٍ عَنِ دِينِ أَبِيهِ "2.

ورجح ابن عاشور معنى انعزاله عن المؤمنين وبين سبب ذلك فقال: " أَي: فِي مَعَزَلٍ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، إِمَّا لِأَنَّهُ كَانَ لَمْ يُؤْمِنْ بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ يُصَدِّقْ بِوُفُوعِ الطُّوفَانِ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ ارْتَدَّ فَأَنْكَرَ وَوُفُوعِ الطُّوفَانِ، فَكَفَرَ بِذَلِكَ لِتَكْذِيبِهِ الرَّسُولَ "3.

هذا ما اجتمعت عليه أقوال المفسرين في تأويل هذه اللفظة، وكله يصب في مصب واحد، مع أنه لم يوضح صورة المشهد الذي جاءت الآية لتوضحه، لأن النص القرآني نقل لنا الحدث بكل وضوح، وأراد أن يطلع القارئ والمتلقي على حقيقة الأحداث كما هي في الواقع الذي حصلت فيه، وعلى القارئ أن يتطلع إلى ما وراء اللفظ ليكتشف الصورة المتشكلة التي سردتها نصوص الآيات، وإذا أردنا تشكيل المشهد وتحريك أحداثه وفق تأويلات المفسرين لم نستطع بناءه ضمن سياق القصة الذي بني فيه هذا المشهد بالذات، فالنص القرآني ورد بعبارات دقيقة أراد من خلالها وضع الأحداث أمام أعين المتلقين وكأنهم يشاهدونها أثناء حدوثها، وكل لفظ قد وضع في محله ليؤدي الوظيفة الدقيقة التي جاء لخدمها.

¹ - تفسير الرازي، (351/17).

² - البحر المحیط، أبو حیان الأندلسي، (158/6).

³ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (263/11).

كل التأويلات لم تستطع أن تجيب بدقة عن سؤال محوري هو الذي يكشف وجه الحقيقة، والسؤال هو: أين كان ابن نوح عليه السلام بالتدقيق؟ والإجابة عن هذا السؤال هي الحلقة المفقودة التي بها يكتمل تشكيل المشهد، وتتضح معالمه، وتزيل الغموض عن تفاصيله.

يفرض علينا سياق القصة وتسلسل أحداثها أن نرجح معنى **﴿ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ ﴾**، أي: أنه قد انعزل بنفسه عن السفينة ومن فيها، لأن الآية جاءت لتبين مشهد المحاورة التي كانت بينه وبين أبيه، ويأبى سياق الأحداث أن يكون مكان عزلته برية الأرض، لأن الماء قد غمر وجه الأرض جميعا حين ذاك، وكانت الأمواج كالجبال تتلاعب بالسفينة ولم تبق على وجه الأرض منعزلا يصلح أن يتخذ ليحتمي به، ثم إن مخاطبة الأب لابنه يقتضي قربهما من بعضهما، حتى يتسنى لأحدهما سماع الآخر، والقرب يقتضي أن يتشاركا مكانا واحدا يُمَكِّنُهُمَا من مخاطبة بعضهما، مع الأخذ بعين الاعتبار فهم معنى النداء الذي استعمل في قوله: **﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾**، فارتفاع صوته بالمناداة يدل على ما كان يحول دون بلوغ صوته لابنه.

وأما قول نوح لابنه **﴿ ارْكَبْ مَعَنَا ﴾** فهو طلب فعل يقدر متلقيه القيام به، ولم يكن نوح عليه السلام ليطلب من ابنه الركوب إلا إذا علم منه إمكانية القيام به، وهذا يدل على أنه لو كان في بر من الأرض ما استطاع أن يركب في سفينة تتلاعب بها أمواج كالجبال، وأنى له ذلك؟

وأما قول الابن لأبيه: **﴿ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾**، فكيف سيحقق له ذلك وقد طغا الماء على الأرض فانقطعت السبل، وتلاطمت الأمواج فكانت كالجبال؟ فلا يتسنى له القيام بذلك إلا عن طريق وسيلة يستطيع من خلالها السير على وجه الماء.

ومن خلال هذا التحليل أنا أميل – والله أعلم بمراده – إلى أن المعنى المراد من قوله **﴿ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ ﴾**: أن ابن نوح عليه السلام كان في خضم الأحداث منعزلا عن سفينة النجاة، يتحرك على وسيلة تَنَقَّلُ يستطيع من خلالها محادثة أبيه

ومحاورته، كما يمكنه إجابة والده حين دعاه للركوب معه، أو أن يأوي إلى جبل يعصمه من الماء، ولا يتحقق له هذا إلا إذا كان على مركب من جنس التي كان عليها والده، والذي جعلني أرجح هذا القول هو أنها الإمكانية الوحيدة التي بها يكتمل المشهد دون أن ينقص أو أن يتناقض.

بعد ترجيح معنى **﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾** على أنه كان في وسيلة تنقل مصنوعة من ألواح ودرس، قد يرد علينا إشكال من أين له أن يصنع ذلك؟ ونحن نعلم أنه لم يسبق نوحاً أحد في صناعة هذه الأشياء؟

والجواب عن هذا الإشكال يتضح حينما نعلم أن هذا الابن كان مع والده لم يجاهره بالكفر كما سنبينه فيما بعد، وهو يعلم في قرارة نفسه صدق والده، ويزداد تأكده من ذلك حينما يرى إصراره على صناعة شيء لم يعهده الناس من قبل، فلما رأى ذلك من والده تيقن أن الطوفان الذي أخبرهم به نبي الله لا سبيل إلى النجاة منه إلا بمثل هذا المركب الذي انكب والده عليه يصنعه دون تراخ منه ولا هواده، فكان هذا سبب رئيس يدفعه إلى اتخاذ وسيلة نجاة تشبه الوسيلة التي أمر والده بصنعها، يستعملها في وقت احتياجه لها، والظاهر أن صناعته لها كانت قاصرة عن تحقيق المطلوب لأنه لا علم له بهذه الصنعة إلا تقليد والده، ولم يكن والده على اطلاع بما يصنع، فلما جاء أمر الله اتخذها مركباً وحاول أن ينجو بها من عذاب الله، ولكن الله قضى أن لا نجاة إلا لمن آمن واتبع سبيل الحق وصدق المرسلين.

وبعد هذه المحاولة في تبين معنى قوله تعالى: **﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾**، وقفت على قول نقله ابن كثير في تفسيره، يقول: " وَقِيلَ: إِنَّهُ اتَّخَذَ لَهُ مَرْكَبًا مِنْ زُجَاجٍ، وَهَذَا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهِ " ¹.

وإن كان من أخبار بني إسرائيل فهو أقرب لواقع الأحداث، إلا أن قولهم (من زجاج) فهو بعيد كل البعد عن الحقيقة، إذ يردُّ عليه الكثير من الاحتمالات التي تضعفه وتسقط حجية القول به.

¹ - تفسير ابن كثير، (323/4).

﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾: وهذا نداء الأب لابنه، والنداء يكون بصوت مرتفع مسموع، واللفظ يدل على سماع النداء من المنادى، ولا يكون السماع واضحا إلا إذا قرب موضع المنادي من المنادى، لا سيما وأن للأمواج التي كانت تتلاعب بالسفينة صخب يحول دون وضوح الأصوات، ولا يمكن حدوث المحاورة بين الأب وابنه في وسط تلك الأمواج إلا إذا كان الابن قريبا من أبيه على مركب يمكنه من التجاوب معه، وهذا ما بينته سابقا.

اختلف العلماء في تحديد هوية شخص هذا الابن، فمنهم من قال اسمه (يام)¹، ومنهم من قال اسمه (كنعان)²، وعلى كل حال لم يثبت حديث صحيح عن رسول الله ﷺ في تحديد أسماء أبناء نوح عليه السلام، إلا ما روي بأسانيد ضعيفة لا تثبت عنه ﷺ، ومن ذلك قوله عليه السلام: « **وَلَدُ نُوحٍ ثَلَاثَةٌ: سَامٌ، وَيَافِثٌ، وَحَامٌ** »³، وفي رواية، قال: « **وَلَدُ نُوحٍ ثَلَاثَةٌ: سَامٌ، وَحَامٌ، وَيَافِثٌ أَبُو الرُّومِ** »⁴، وفي رواية أخرى، قال: « **سَامٌ أَبُو الْعَرَبِ، وَيَافِثٌ أَبُو الرُّومِ، وَحَامٌ أَبُو الْحَبَشِ** »⁵، وقد ضعف العلماء أسانيد الروايات التي جاء فيها ذكر أسماء أبناء نوح عليه السلام، مع شهرتها وانتشارها بين العلماء والمؤرخين. والله أعلم.

ثم إن بعض العلماء خالف ظاهر نص الآية، وزعم أن الابن لم يكن ابن نوح على الحقيقة وراح يتأول الآية، وأشكل عليه الأمر من جهة قوله عز وجل: ﴿ **قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** ﴾ [هُود: 46]، فعن قتادة، قال: " كُنْتُ عِنْدَ الْحَسَنِ، فَقَالَ: ﴿ **وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ** ﴾، لَعَمْرُ اللَّهِ مَا هُوَ ابْنُهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ يَقُولُ: ﴿ **وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ** ﴾، وَتَقُولُ: لَيْسَ بِابْنِهِ ؟ قَالَ: أَفَرَأَيْتَ قَوْلَهُ:

¹ - ينظر: تفسير القرطبي، (38/9)، والبحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (157/6)، وغيرهما.
² - ينظر: تفسير القرطبي، (38/9)، ومعالم التنزيل، البغوي، (240/3)، وفتح القدير، الشوكاني، (447/3)، وغيرهم.
³ - رواه الطبراني، المعجم الكبير، حديث رقم (6730)، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون. وقال الألباني: (ضعيف)، ينظر حديث رقم (6131) في ضعيف الجامع -
⁴ - رواه الحاكم، المستدرک، حديث رقم (4006)، قال الألباني: (ضعيف)، ينظر تخريج الحديث في: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، حديث رقم (3683).
⁵ - رواه أحمد، المسند، حديث رقم (20126)، وقال محققه: إسناده ضعيف، وقال الألباني: (ضعيف)، ينظر حديث رقم (6132) في ضعيف الجامع -

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾، قَالَ: قُلْتُ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ الَّذِينَ وَعَدْتِكَ أَنْ أُنْجِيَهُمْ مَعَكَ، وَلَا يَخْتَلِفُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّهُ ابْنُهُ. قَالَ: إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَكْذِبُونَ "1، ودون الدخول في تفاصيل الخلاف، لأنه لا طائل من وراءه، فالآية صريحة في الرد على مثل هذه الأقوال، فإن الله أثبت في نص الآية أنه ابنه، فقال: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾، وقال: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا ﴾، وقال: ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾، وكان رد الله على نوح عليه السلام أن قال له: ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾، ولم يقل: (إنه ليس ابنك)، وكفى بهذا دليلاً.

روى ابن جرير " عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، أَنَّهُ جَاءَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكَ ابْنَ نُوحٍ: ابْنُهُ؟ فَسَبَّحَ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يُحَدِّثُ اللَّهُ مُحَمَّداً: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾، وَتَقُولُ لَيْسَ مِنْهُ، وَلَكِنْ خَالَفَهُ فِي الْعَمَلِ، فَلَيْسَ مِنْهُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنَ "2، و" عَنْ عِكْرِمَةَ: فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّهُ ابْنُهُ، قَالَ اللَّهُ: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ "3.

ونادى نوح ابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾، مناداة نوح عليه السلام لابنه جاءت بلفظ: ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾، وهي " تَصْغِيرُ (ابْنِ) مُضَافًا إِلَى (يَاءِ) الْمُتَكَلِّمِ. وَتَصْغِيرُهُ هُنَا تَصْغِيرُ شَفَقَةٍ بِحَيْثُ يُجْعَلُ كَالصَّغِيرِ فِي كَوْنِهِ مَحَلَّ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ "4، وكيف يطلب نبي الله عليه السلام من كافر الركوب في السفينة وقد وجب عليه بنص الوحي أن لا يحمل معه فيها إلا من آمن؟

والجواب عن هذا الإشكال من وجوه: " الْأَوَّلُ: أَنَّهُ كَانَ يُنَافِقُ أَبَاهُ؛ فَظَنَّ نُوحٌ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ؛ فَلِذَلِكَ نَادَاهُ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمَا أَحَبَّ نَجَاتَهُ. الثَّانِي: أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَافِرٌ، لَكِنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَمَّا شَاهَدَ الْغَرَقَ، وَالْأَهْوَالَ الْعَظِيمَةَ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ الْإِيمَانَ، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾، كَالدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّهُ طَالِبٌ مِنْهُ الْإِيمَانَ، وَتَأَكَّدَ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾، أَي:

1- تفسير الطبري، (427/12).

2- تفسير الطبري، (431/12).

3- المصدر نفسه.

4- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (263/11).

تَابِعَهُمْ فِي الْكُفْرِ، وَارْكَبَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ. الثَّالِثُ: أَنَّ شَفَقَةَ الْأَبْوَةِ لِعَلَّهَا حَمَلَتْهُ عَلَى ذَلِكَ النَّدَاءِ، وَالَّذِي تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هُود: 40] كَانَ كَالْمُجْمَلِ، فَلَعَلَّهُ جَوَّزَ إِلَّا يَكُونُ هُوَ دَاخِلًا فِيهِ¹.

هذه ثلاثة وجوه محتملة، أقربها إلى الحق القول الأول، أما الثاني فبعيد جدا، لأن نوحا عليه السلام هو أول المصدقين بالرسالة التي بُعث بها من رب العالمين، وقد أوحى الله إليه من قبل أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن من قبل، فكيف يطمع في إيمان ابنه وربه قد حكم بين عبادته، وأخبره استحالة وقوع ذلك من أي أحد.

وأما الثالث فهو بعيد أيضا لأن نبي الله عليه السلام من أولي العزم من الرسل، يُنَزَّرُ عن أن تغلبه عاطفة الأبوة فيقع فيما نهاه الله عنه، فرسل الله هم أسبق الناس إلى طاعة الله عز وجل، فلو علم كفره ما كان ليدعوه إلى الركوب، ويخالف أمر ربه، وهذا مما ينزه عنه رسل الله تعالى.

ويبقى الوجه الأول راجحا على غيره من الأقوال، لأنه الأقرب إلى الواقع، ولا مجال للطعن فيه.

طلب نوح عليه السلام من ابنه (الركوب معه) في السفينة، وهو طلب فعل ممكن وقوعه، ولا يتحقق فعل الركوب من الابن إلا إذا كان متمكنا من فعله، وإلا كان الطلب من محض لغو الحديث، هذا الذي جعلنا نرجح أن يكون الابن قد اتخذ مركبا يطفو على الماء حتى يستطيع من خلاله محادثة أبيه، وتطبيق أمره بالركوب معه، وقد استبعدنا أن يكون الابن في بر من الأرض لاستحالة تحقيق ذلك على أرض الواقع، فلا يستطيع القارئ للنص تصور إمكانية الركوب من الابن في سفينة الأب وهو على غير الحال التي بينا، وكذلك نستبعد وجوده في معزل من جبل لم يطغى الماء عليه بعد، لأن مجرد دنو السفينة من الجبل يجعلها في مهب الرياح، فتتكسر على صخورها قبل أن تصل إليه.

¹ - تفسير الرازي، (350/17 - 351)، وينظر: اللباب، ابن عادل، (2857/1).

وقال نوح لابنه: ﴿ وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾، طلب نوح عليه السلام من ابنه الركوب معه، ونهاه أن يكون مع الكافرين، وظاهر القول يشعر بوجود فارق بين قوله: ﴿ وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾، وبين لو أنه قال له: (ولا تكن من الكافرين). فقوله (مَعَ) لا يثبت جزمه بكفر ابنه، لأن معنى (مَعَ) كما قال العلماء هي: " ظَرْفُ مَكَانٍ، أَوْ ظَرْفُ زَمَانٍ، يَدُلُّ عَلَى اجْتِمَاعِ وَالتَّقَاءِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، أَوْ زَمَانٍ وَاحِدٍ، وَإِرَادَةُ الْمَكَانِ أَوْ الزَّمَانِ تَوْضِيحُهُ الْقَرَأْنُ "1، فهذا الظرف لا يثبت الاشتراك في الصفة بينهما، ولكنه يثبت الاجتماع والالتقاء، على خلاف (مِنْ) التي لو استعملت في هذا الموضع لدلت على التبويض، ومثال ذلك، قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الرُّوم: 31]، فقوله (من الكافرين) يثبت له الكفر مثلهم، لأنه جعله مشتركا معهم في صفة الكفر إذ يعتبر واحدا منهم، لذلك كان عدم ظهور كفر الابن جعل الأمر يلتبس على نبي الله عليه السلام، فكان يرجو ركوبه معه، وما كان ليعصي أمر ربه حين قال له: ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [هُود: 37].

يقابل هذا الابن العاق شفقة الأب الحنون الحريص على مصلحته ببرودة وجفاء، ويرد خيري الدنيا والآخرة بغباء يطرحه في الشقاء أبد الآبدين، فقال: ﴿ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ [هُود: 43].

وهذا القول فيه دلالة قاطعة على كفر هذا الولد الشقي، الذي تمرد على والده الذي كان في غاية الحرص على نجاته، ولكن الضلال قد طمس بصيرته وأغض عينيه عن رؤية الحق، بل حتى عن رؤية نجاته، والأمر واضح قد انجلى أمام عينيه، ولكن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، والموفق والمعصوم من وفقه وعصمه الله تعالى.

عبر النص القرآني عن رفض الابن لطلب والده بقوله: ﴿ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ ﴾، قال المفسرون ومعناه: " سَأَصِيرُ إِلَى جَبَلٍ أَتَحَصَّنُ بِهِ مِنَ الْمَاءِ، فَيَمْنَعُنِي

1- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، جمال الدين عبد الله الأنصاري، دراسة وتحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، [باب الإضافة، ذكر (مع) وحالاتها].

مِنْهُ أَنْ يُعْرِقَنِي "1، ولكن طريق سرد القصة في النص تجعلنا نتصور أحداثها ووقائعها وهي تتحرك أمامنا وكأننا نشاهدها عياناً، فقوله تعالى: ﴿ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ ﴾، يدل على أنه أراد أن يتخذ من الجبل (ماوى) له، أي مكانا يعود إليه، تقول العرب: " أَوَيْتُ مَنْزِلِي، وَإِلَى مَنْزِلِي، أَوِيَا، وَإِوِيَا، وَأَوَيْتُ، وَتَأَوَيْتُ، وَانْتَوَيْتُ، كُلُّهُ: عُدْتُ "2، والماوى: " مَكَانٌ كُلِّ شَيْءٍ يَأْوِي إِلَيْهِ لَيْلاً أَوْ نَهَاراً "3، ويدل الفعل على اتخاذ المكان مسكناً ينزله الإنسان، فتقول: " أَوَيْتُ مَنْزِلِي، وَإِلَيْهِ، أَوِيًّا بِالضَّمِّ، وَيُكْسَرُ، وَأَوَيْتُ تَأْوِيَةً، وَتَأَوَيْتُ، وَانْتَوَيْتُ، وَانْتَوَيْتُ: نَزَلْتُهُ بِنَفْسِي وَسَكَنْتُهُ "4.

أما الاستعمال القرآني لهذا الفعل (آوى) كثيراً ما يضيفي دلالة تزيد على أصل معناه، بل هي من مستلزماته، " فَإِنَّ الْإِيوَاءَ يُسْتَعْمَلُ فِي مَقَامِ الْإِنْقَادِ وَالتَّجَنُّبِ مِنَ الْهَمِّ وَالْكَرْبِ وَالْمَصَائِبِ وَالْمَخَافِ "5، ومثاله قوله تعالى: ﴿ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ﴾ [الأنفال: 26]، وقوله: ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف: 69]، وقوله: ﴿ وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: 50]، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ [الضحى: 6].

يرجعنا استعمال لفظ (سَاوِي) إلى ما قبل أحداث الطوفان، فإنه يدل على مكان يستعمل للسكن والإيواء يعود إليه الإنسان في وقت معين، ليحتمي به من المكروه والمصائب، وكان هذا الابن قد أخذ بالاحتياط فاتخذ له ماوى في جبل معلوم عنده يعود إليه حال احتياجه له، وطريقة رجوعه إلى هذا الماوى كان قد أعد لها عدتها، حيث قلد صنع والده حين اتخذ لنفسه مركبا يمكنه من النجاة،

1- تفسير الطبري، (417/12).

2- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، (باب الثلاثي اللفيف) (الهمزة والياء والواو)، ولسان العرب، ابن منظور، مادة (أوا).

3- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (أوي).

4- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، 1426هـ/ 2005م، فصل الهمزة.

5- تفسير المنار، رشيد رضا، (36/6).

يستطيع من خلاله الوصول إلى مبتغاه وتحقيق النجاة بعيدا عن السفينة ومن فيها.

اعتمد هذا الابن على نفسه وأخذ بكل وسيلة يستطيع من خلالها النجاة، وأراد أن يعتصم بالجبل ظنا منه أن الماء لن يبلغه، فقال: **﴿ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾**، والمعنى: " فَيَمْنَعُنِي مِنْهُ أَنْ يُغْرِقَنِي. وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: **﴿ يَعْصِمُنِي ﴾** يَمْنَعُنِي، مِثْلُ عِصَامِ الْقَرْبَةِ الَّذِي يُشَدُّ بِهِ رَأْسُهَا، فَيَمْنَعُ الْمَاءَ أَنْ يَسِيلَ مِنْهَا "1، ولم تكن المياه قد بلغت الجبال بعد، لذلك طمع الابن في ما رآته عينه، وأراد أن يأوي إلى ذاك الجبل ليعتصم به من الماء، ولم يعلم المسكين أن المعصوم من عصمه الله. المشهد في قمة تصوير اللفظ القرآني له يخلف في نفس المستمع ألما عميقا، حين يساير المتلقي أحداث قصة هذا النبي الرحيم مع قومه، وهم يقابلونه بكل أنواع الأذى، ثم يبرأ منهم بعد طول صبر وعناء، وهو في هذه اللحظة بالذات أمام موقف تحبس دونه الأنفاس، وتتقطع فيه الأفئدة، موقف والد يرى الخطر يحدق بقلبه وهو عاجز لا يستطيع دفعه عنه.

عَرَقَ الْإِبْنَ أَمَامَ عَيْنِي وَالِدِهِ

قال نوح عليه السلام لابنه بعد أن أخبره بما ينوي فعله: **﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾**، لا يشك أحد في الحال النفسية التي كان عليها نبي الله عليه السلام وهو يرى ابنه يرمي بنفسه إلى تهلكة لا يعلم شدة محتنها إلا الله عز وجل، فكل أب شقوق يكون في مثل هذا الموقف إلا وتتمنى أن يقدم كل ما في وسعه لينقذ ابنه، ولكن الأنبياء عليهم السلام هم أشد الناس طاعة لله عز وجل، وأقرب الخلق منه سبحانه، لذلك أراد من ابنه أن يعلم أن حقيقة النجاة هي في الاعتصام بالله وحده، والتبرؤ من كل الأسباب، فقال عليه السلام: **﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾**، أي: " لا مَانِعَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ

1- تفسير الطبري، (417/12).

اللَّهِ الَّذِي قَدْ نَزَلَ بِالْخَلْقِ مِنَ الْغَرَقِ، وَالْهَلَاكِ إِلَّا مَنْ رَحِمْنَا، فَأَنْقَذْنَا مِنْهُ، فَإِنَّهُ الَّذِي يَمْنَعُ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ وَيَعْصِمُ "1.

مهما أعاد الإنسان قراءة هذه القصة، وهو يعلم مصير الابن فيها، فإنه يبقى دائما متلهفا إلى معرفة نهايتها وكأنه لا يعلمها، وهذا سر من أسرار الإعجاز في القرآن، يأخذ بالذات فتبقى متطلعة إلى معرفة ما سيحصل بعد هذا الحوار وهي تعلم ذلك، وكأن الإنسان يقرأها لأول مرة، وهذا سر أودعه الله عز وجل في قصص كتابه الكريم.

وقال نوح عليه السلام: ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾، والذات متطلعة إلى ما سيرد به الابن، والقارئ متشوق إلى معرفة رده، ولكن النص ينقل لك صورة وكأنه يأخذك في رحلة يشق بك صدر الزمان لتري بعينك كيف حال الموج بين الأب والابن، وعنصر المفاجأة في الآية يقطع الأنفاس، ويجمد الحواس، ومن دقة الوصف وقوة نقل الحدث كأنك تخشى أن تبطل بماء الموج الذي ضرب مركب الابن فأغرقه.

قال تعالى: ﴿ وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾، نقلت لنا الآية في هذه المرة صورة الأحداث وهي تتحرك، فبينت كيف ارتفع الموج الذي كان كالجبال، وحجز الأب والابن عن رؤية بعضهما البعض، " وَكُلُّ مَا حَجَزَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَقَدْ حَالَ بَيْنَهُمَا حَوْلًا، وَاسْمُ ذَلِكَ الشَّيْءِ الْحَوْلُ "2، ولكن نوحا عليه السلام كان تحت الرعاية الربانية، يحفظه ربه بحفظه في سفينة تتلاعب بها أمواج كالجبال، وكان الابن في غمرات الموج، يحيط به من كل جانب، يتجرع مرارة الموت بخروج أنفاسه غرقا، وأهمل النص القرآني ذكر من غرق من القوم الكافرين، وأشار إلى مصيرهم حين بين مصير هذا الابن الشقي الكافر، فقال: ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾، واستعمل حرف الجر (مِنْ) ليثبت اشتراكه في صفة الكفر أولا، ثم اشتراكه في مصير الغرق مع القوم الكافرين.

1- تفسير الطبري، (417/12).

2- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، (مقلوب ح و ل).

حين يتم هذا المشهد وكان عجلة الأحداث تتوقف، ويتوقف معها تفكير الإنسان، ويتعطل تصويره، وكان الماء غمر عقله فكان من المغرقين، وهو لا يدري في أي اتجاه ستسير باقي أحداث القصة، لأن حقيقة الصراع بين الخير والشر قد انتهت، وظهر أمر الله عز وجل، و﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الْإِسْرَاءِ: 81]، و﴿ نَقَذَفَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: 18]، و﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سَبَأٍ: 49]، ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الشُّورَى: 24]، وهكذا صورت الآيات نهاية القوم المشركين، بعد دعوة ومعاناة ألف سنة إلا خمسين عاما، في حرص تام من نبي الله ﷺ في تبليغه رسالة ربه، ولكنهم قوم يجهلون، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، وحققت عليهم كلمة العذاب في الدنيا، فذاقوا وبال الكرب العظيم، وينتظرهم في الآخرة عذاب يوم أليم.

جاء ذكر غرق قوم نوح ﷺ في العديد من المواطن في السور التي ذكرت فيها القصة، واختلفت فيها التعبيرات بحسب سياقاتها في النصوص، مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 64]، وقد ورد وصفهم بالعمى في قوله تعالى أيضا: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾، وهذا ما يجعلنا نسترجع قولهم بادئ الأمر، حين قابلوا دعوته ﷺ بالرد بناء على ما ادعوه من صحة رؤيتهم حين حكموا عليه بالضلال المبين، قال الغرناطي: " قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾، وَذَلِكَ مُقَابِلٌ بِهِ قَوْلُهُمْ لِنُوحٍ ﷺ: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾، فَقِيلَ لَهُمْ: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَمُونَ)، فَأَنَّى لَكُمْ بِالتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالَةِ " ¹.

وأما ما ورد مجملا في قصته في سورة يونس ﷺ فقد عبر عنه النص القرآني بقوله: ﴿ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [يُونُسَ: 73]، جاء بهذا اللفظ " لِيَجْرِيَ مَعَ آيَةِ الْأَعْرَافِ فِيمَا وَرَدَ فِيهَا مِنَ التَّعْرِيفِ بِإِنذَارِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ

¹ - ملاك التأويل، الغرناطي، (532).

لِيُنذِرَكُمْ ﴿، فَوَقَعَ هُنَا التَّعْرِيفُ بِإِنذَارِهِمْ، ثُمَّ وَرَدَ فِي يُونُسَ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾، فَحَصَلَ التَّعْرِيفُ فِي الْآيَتَيْنِ بِإِنذَارِهِمْ، وَعَاقِبَةُ مَنْ أُنذِرَ فَلَمْ يَرْجِعْ عَنْ غِيِّهِ ¹﴾.

وختمت قصتهم في آخر السور التي ذكرت قصتهم حسب ترتيب المصحف الشريف بقوله تعالى: ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ [نوح: 25]. فجمع الله لهم الكرب العظيم في الدنيا بالغرق، وعذاب النار في الآخرة بالحرق.

الْمِفْصَلُ الثَّلَاثُ: الْحَيَاةُ الْجَدِيدَةُ

- 1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَاَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 64].
- 2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَاَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ [يُونُسَ: 73].

3 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمِّمْ سَمَّتِعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هُودٍ: 40 - 49].

- 4 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَاَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: 76 - 77].

¹ - المصدر نفسه.

- 5 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 29].
- 6 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ [الشُّعْرَاءِ: 119].
- 7 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: 15].
- 8 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ﴾ [الصَّافَاتِ: 76 – 81].
- 9 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [الْقَمَرِ: 15].
- قبل الدخول في تفاصيل نجات السفينة وأحداث الحياة الجديدة، تجدر بنا الإشارة إلى المتشابهات الواردة في العديد من النصوص، على الرغم من أنها تحكي حادثة واحدة، مما جعل علماء المتشابه اللفظي يسلطون عليها ضوء البحث محاولين كشف بعض أسرارها.
- تساءل الإسكافي والغرناطي¹ والكرماني² عن قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ ﴾ [الأعراف: 64]، وعن قوله في سورة يونس: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافًا ﴾ [يونس: 73]، فقال الإسكافي: " لِلْسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ فَيَقُولَ: لِمَ اخْتَصَّتْ الْآيَةُ الْأُولَى بِقَوْلِهِ: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾، وَالثَّانِيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ وَزَادَ فِيهَا: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافًا ﴾"³.
- كان القصد من طرح السؤال وعرض الإشكال هو تبيين وجه الفرق بين قوله: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾، وقوله: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾، ثم تحليل ذكر الاسم الموصول في قوله

¹ - ينظر: ملاك التأويل، الغرناطي، (532/1).

² - ينظر: أسرار التكرار في القرآن، الكرماني، (ص: 82 – 84).

³ - درة التنزيل، الإسكافي، (ص: 112 – 113).

﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾، والاسم الموصول في قوله ﴿ وَمَنْ مَعَهُ ﴾، ثم في الأخير ذكر زيادة: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾، كما ورد في سورة يونس.

أرجع الإسكافي سبب ورود قوله تعالى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾، إلى أن قوله: " (أَنْجَيْنَا) أَصْلٌ فِي هَذَا الْبَابِ، لِأَنَّ (أَفْعَلْتُ) فِي بَابِ النَّقْلِ أَصْلٌ لِرِ (فَعَلْتُ) وَهُوَ أَكْثَرُ، تَقُولُ: نَجَا، وَأَنْجَيْتُهُ، كَمَا تَقُولُ: ذَهَبَ وَأَذْهَبْتُهُ، وَدَخَلَ وَأَدْخَلْتُهُ. فَأَمَّا فَعَلْتُهُ فَمِنَ الْقَلَّةِ، بِحَيْثُ يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ، نَحْوَ فَرَعَ وَفَرَعْتُهُ، وَخَافَ وَخَوَّفْتُهُ ¹."

بناء على هذه القاعدة أرجع استعمال كل لفظ في محله وبين أن الآية الأولى " جَاءَتْ عَلَى الْأَصْلِ الْأَكْثَرِ، وَلِهَذَا أَكْثَرَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ جَاءَ عَلَى (أَنْجَيْنَاهُ)، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ [الأعراف: 72]، وكَقَوْلِهِ: ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء: 65]، وكَقَوْلِهِ: ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ [العنكبوت: 24]. وَلَيْسَتْ (الْجِيمُ) الْمَزِيدَةُ الْمَشْدَدَةُ فِي (نَجِينَاهُ) لِلْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ الْمُعَاقِبَةُ لِلْهَمْزَةِ، بِدَلَالَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي ذِي النُّونِ: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ [الأنبياء: 88]، وَلَا كَثْرَةٌ هُنَاكَ ²."

وقد اتفق الكرمانى مع الإسكافي في ما ذهب إليه، بأن ورود الفعلين في محليهما كان مناسباً لمقام الكثرة، وقد انسجم ذكر كل فعل مع ما يناسبه من الاسم الموصول، فقال: " لِأَنَّ (أَنْجَيْنَا)، وَ(نَجِينَا) لِلتَّعَدِي، لَكِنَّ التَّشْدِيدَ يَدُلُّ عَلَى الْكَثْرَةِ وَالْمُبَالَغَةِ، فَكَانَ فِي يُونُسَ: ﴿ وَمَنْ مَعَهُ ﴾، وَلَفْظُ (مَنْ) يَقَعُ عَلَى كَثْرَةِ مِمَّا يَقَعُ عَلَيْهِ (الَّذِينَ)، لِأَنَّ (مَنْ) يَصْلُحُ لِلوَاحِدِ وَالتَّثْنِيَّةِ وَالْجَمْعِ، وَالْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ، بِخِلَافِ (الَّذِينَ) فَإِنَّهُ لِيَجْمَعَ الْمُذَكَّرَ فَحَسَبَ، فَكَانَ التَّشْدِيدُ مَعَ (مَنْ) أَلْيَقَ ³."

أما الغرناطي فقد اعتمد في ما ذهب إليه على أصل الاستعمال اللغوي وما يتفرع منه، فقال: " إِنَّ سُورَةَ الْأَعْرَافِ وَرَدَ فِيهَا قَوْلُهُ: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾، كَلٌّ مِنْهُمَا عَلَى الْأَصْلِ فِي نَقْلِ الْفِعْلِ، وَفِي الْمَوْصُولِ، فَقِيلَ: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾، وَقِيلَ:

¹ - درة التنزيل، المصدر السابق، (ص: 112 - 113).

² - المصدر نفسه.

³ - أسرار التكرار في القرآن، الكرمانى، (ص: 82 - 84).

﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾، وَوَرَدَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ يُونُسَ عَلَى مَا هُوَ ثَانٍ عَنِ الْأَصْلِ فِي النُّقْلِ، وَفِي الْمَوْصُولِ رَغِيًّا لِلتَّرْتِيبِ، وَلَا يُمَكِّنُ الْعَكْسُ عَلَى هَذَا¹.

إضافة على ما سبق أراد الغرناطي أن يبرز وجهها من وجوه إعجاز الآي القرآني وما يعطيه جمال التناسب والتناسق بين الحروف المستعملة في التعبير عن الحال، فقال: " ثُمَّ انْجَرَّ مَعَ ذَلِكَ رَغِيٌّ تَنَاسُبِ التَّقَارُنِ لَمَّا وَرَدَ فِي الْأُولَى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾، بِزِيَادَةِ هَمْزَةِ النُّقْلِ الْمُثْبِتِ لَهَا صُورَةَ الْأَلْفِ فِي الْخَطِّ، وَنُطْقِ يَخْصُهَا بِحَرَكَةِ الْهَمْزَةِ، فَطَالَتْ الْكَلِمَةُ بِالْأَلْفِ خَطًّا، وَبِالنُّطْقِ بِحَرَكَةِ الْهَمْزَةِ لَفْظًا، نَاسِبًا الْمَوْصُولَ الَّذِي هُوَ (الَّذِينَ) بِزِيَادَةِ حُرُوفِهِ عَلَى حُرُوفِ (مَنْ)، وَلَمَّا قِيلَ فِي الثَّانِيَةِ: ﴿ فَانْجَيْنَاهُ ﴾، فَجِيءَ بِمَا هُوَ أَخْصَرُ فِي الْخَطِّ، نَاسِبًا مِنَ الْمَوْصُولَاتِ (مَنْ)، الْمَفْرَدِ فِي مَعْنَى (الَّذِي)، وَهُوَ أَخْصَرُ².

وأما ما ذكر من وصف الذين نجوا من المؤمنين في سورة يونس، فأخبرنا الله عنهم بأنه جعلهم ﴿ خَلَائِفَ ﴾، وهذا وصف لم يرد في النصوص الأخرى، فأرجع الغرناطي سبب ذلك إلى أن " هذا مِثَالٌ تَفْصِيلِيٌّ فِي طَائِفَةِ مَعْنِيَةِ مَنْ الْمَجْمَلِ الْوَارِدِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾، وَقَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوَّلُ أُمَّةٍ أَهْلَكْتَ بِتَكْذِيبِهَا، ثُمَّ خَلَفَهَا غَيْرُهَا، فَذَكَرَ مِنَ الْمَتَقَدِّمِ مُجْمَلًا أَوَّلَ وَقَعِ مِنْهُ، وَأَنَّهَمْ جُعِلُوا خَلَائِفَ كَمَا جَرَى فِيمَنْ بَعْدَهُمْ³.

مع وجاهة ما ذهب إليه الغرناطي إلا أنه لم يبرز وجه ورودها في هذا السياق وسر ارتباطها بنص الآية.

وأما الإسكافي فقد حاول تبیین وجه ورودها في النص قبل ذكر غرق القوم الظالمين، مع ما فيها من زيادة خبر عن أحوال الذين نجوا من الغرق، فقال: " فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَانَ الْأَغْرَاقُ قَبْلَ أَنْ جُعِلُوا خَلَائِفَ، فَكَيْفَ قُدِّمَ عَلَيْهِ؟ قُلْنَا: جَوَزَ أَنْ

¹ - ملك التاويل، الغرناطي، (532/1).

² - المصدر نفسه.

³ - ملك التاويل، الغرناطي، (532/1).

يَكُونُ مَعْنَى ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾، وَإِنَّمَا قُدِّمَ لِأَنَّهُ مِنْ صِفَةِ الَّذِينَ أَنْجَاهُمْ، فَلَمَّا أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِذَلِكَ ضَمَّ إِلَيْهِ الْخَبَرَ الثَّانِي، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾، أَي: حَكَمْنَا لَهُمْ بِذَلِكَ، ثُمَّ كَانَ الْإِعْرَاقُ بَعْدَهُ، عَلَى أَنَّ (الْوَاوَ) لَا تَرْتِيبَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْمَذْكُورُ بَعْدَهَا مُقَدِّمًا عَلَى مَا قَبْلَهَا ¹.

الْمِفْصَلُ الرَّابِعُ: تَجَاهُ الْمُؤْمِنِينَ

1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هُود: 44 – 49].

2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 29].

3 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ لَهُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصَّافَّاتِ: 76 – 77].

انتهت حياة الشرك من على وجه الأرض وأسدل الستار عليها لحظة طغيان الماء، وقطع دابر الذين كفروا والحمد لله رب العالمين، وتبدأ رحلة حياة جديدة، مع قلة من المؤمنين نجوا مع نبي الله نوح عليه السلام في سفينة تتلاعب بها أمواج كالجبال، ترعاهم عين الله التي لا تنام، وفي أثناء ذلك ينزل الأمر الرباني من فوق سبع سموات لينهي أعظم بلاء عرفه البشر آنذاك، قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا

¹ - درة التنزيل، الإسكافي، (ص: 112 – 113).

أَرْضُ ابْلِعي مَاءِكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى
الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ [هُود: 44].

لم يتحدد في نص الآية ذكر الفضاء الزماني الذي دارت فيه أحداث الطوفان، ولم يبين النص زمن بدايته، ولا نهايته، ولا مدة دوامه، وقد روى الطبري في تفسيره حديثاً يبين فيه النبي ﷺ وقت ركوب السفينة، ويوم رسوها، ومدة مكثها في البحر، قال: " عَنْ عَبْدِ الْغُفُورِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبِ رَكِبَ نُوحٌ السَّفِينَةَ، فَصَامَ هُوَ وَجَمِيعٌ مِنْ مَعَهُ، وَجَرَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، فَأَنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الْمُحَرَّمِ، فَأَرْسَتِ السَّفِينَةُ عَلَى الْجُودِيِّ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَصَامَ نُوحٌ وَأَمَرَ جَمِيعٌ مِنْ مَعَهُ مِنَ الْوَحْشِ وَالذَّوَابِّ فَصَامُوا شُكْرًا لِلَّهِ " ¹. وهذا حديث موضوع، ضعفه العلماء ², وذكره في كتب الأحاديث الموضوعية، فلا تصح نسبته إلى النبي ﷺ.

وروى أحمد حديثاً آخر في فضل صيام يوم عاشوراء، وأنه يوم استوت فيه السفينة على الجودي، قال: " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأُنَاسٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَذَمُّوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: مَا هَذَا مِنَ الصَّوْمِ؟ قَالُوا: هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي نَجَّى اللَّهُ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْغَرَقِ، وَغَرِقَ فِيهِ فِرْعَوْنُ، وَهَذَا يَوْمٌ اسْتَوَتْ فِيهِ السَّفِينَةُ عَلَى الْجُودِيِّ، فَصَامَ نُوحٌ وَمُوسَى شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « وَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى، وَأَحَقُّ بِصَوْمِ هَذَا الْيَوْمِ، فَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِالصَّوْمِ » ³, وهذا أيضاً مما ضعفه نقاد الحديث.

¹ - تفسير الطبري، (419/12).

² - قال الحافظ ابن حجر: " وهذا مقلوب، وفيه انقطاع، والصواب: رواية عبد الغفور عن أبيه سعيد، هذا من حيث السند، وإلا فرجاله ما بين ضعيف ومجهول ". ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1412 هـ، (250/5).

³ - المسند، أحمد بن حنبل، حديث رقم (8702)، قال الهيثمي: " رواه أحمد، وفيه حبيب بن عبد الله الأزدي لم يرو عنه غير ابنه " (239/3)، وقال الألباني: " وفي إسناده حبيب بن عبد الله الأزدي، قال الحافظ في (التقريب): مجهول " السلسلة الضعيفة، ذكره في تخريج حديث رقم (1499).

فلم يثبت شيء عن النبي ﷺ في تحديد الفضاءات الزمانية التي كانت تتحرك فيها أحداث القصة، ومعظم ما رواه المفسرون في كتبهم عن الصحابة والتابعين في تحديد ذلك هو من نسج الإسرائيليات التي لا تفيد البحث في شيء. توصلنا أحداث القصة إلى مفرق مهم، ذلك أن المتلقي يشعر عند قراءته للآية بتحول كبير وعجيب في طريقة سرد أحداثها، فبعد عيشه مع تلك الأحداث التي كانت بين الأب وابنه، والحوار الذي كان بينهما، وطريقة التخاطب بين البشر، وكيف انتهى الحدث، وانقطع الكلام، وأرخى الستار على المشهد بطغيان الماء على كل شيء، ينقلنا النص القرآني بعدها إلى عالم آخر، وتخاطب لم يألفه البشر فيما بينهم، فيحكي النص خطاب الرب عز وجل مع مخلوقاته بأسلوب تخر له العقول ساجدة، تسبح بحمد ربها وتقدهه.

قال ابن رشيقي: " لَمَّا أَرَادَتْ قُرَيْشٌ مُعَارَضَةَ الْقُرْآنِ، عَكَفَ فَصَحَاوُهُمُ الَّذِينَ تَعَاظُوا ذَلِكَ عَلَى لُبَابِ الْبَرِّ، وَسَلَفِ الْخَمْرِ، وَلُحُومِ الضَّانِ، وَالْخُلُوةِ، إِلَى أَنْ بَلَّغُوا مَجْهُودَهُمْ، فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضِ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلنُّفُومِ الظَّالِمِينَ ﴾، يَنسُوا مِمَّا طَمَعُوا فِيهِ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ مَخْلُوقٍ ¹."

وبقي إعجاز الآية يبهر العقول مع مر العصور، " وَرَوِي أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ هَذِهِ الْآيَةَ فَقَالَ: هَذَا كَلَامُ الْقَادِرِينَ. وَعَارَضَ ابْنُ الْمَقْفَعِ الْقُرْآنَ ²، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ أَمْسَكَ عَنِ الْمُعَارَضَةِ، وَقَالَ: هَذَا كَلَامٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ ³."

وخضع العلماء لبلاغة النص وقوة التعبير فيه، وانقاد الفصحاء، وسلموا زمام الأمر لبيان النص المعجز، قال السكاكي: " وَإِذْ قَدْ وَقَفْتُ عَلَى الْبَلَاغَةِ،

¹ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيقي القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، سنة الطبع: 1401هـ / 1981م، (ص: 69).

² - قال الماوردي: " حكى أن ابن المقفع طلب أن يعارض القرآن، فنظم كلاماً، وجعله مفصلاً، وسماه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرأ في مكتب: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضِ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلنُّفُومِ الظَّالِمِينَ ﴾ فرجع، ومحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض أبداً، وما هو من كلام البشر، وكان فصيح أهل عصره " (31/1).

³ - البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (160/6).

وَعَثَرْتُ عَلَى أَفْصَاحَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَاللَّفْظِيَّةِ، فَأَنَا أَذْكَرُ عَلَى سَبِيلِ الْأَنْمُودَجِ آيَةً أَكْشِفُ لَكَ فِيهَا عَنْ وُجُوهِ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَتَيْنِ، مَا عَسَى يَسْتُرُهَا عَنْكَ، ثُمَّ إِنَّ سَاعِدَكَ الدُّوقُ أَذْرَكَتَ مِنْهَا مَا قَدْ أَذْرَكَ مَنْ تُحْدُوا بِهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ عَلَتْ كَلِمَتُهُ: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، وَالنَّظْرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ أَرْبَعِ جِهَاتٍ: مِنْ جِهَةِ عِلْمِ الْبَيَانِ، وَمِنْ جِهَةِ عِلْمِ الْمَعَانِي، وَهُمَا مَرْجِعَا الْبَلَاغَةِ، وَمِنْ جِهَةِ الْأَفْصَاحَةِ، وَمِنْ جِهَةِ اللَّفْظِيَّةِ ¹.

واشتغل كثير من أهل العلم على هذا النص وحاولوا استخراج مكنوناته، وعلى تنوع مشاربهم وتخصصاتهم فقد عكفوا على دراسة ما فيه من وجوه البلاغة، وأسرار الفصاحة، والبيان المعجز، قال ابن أبي الأصبع المصري: " وَمَا رَأَيْتُ فِي جَمِيعِ مَا اسْتَقْرَيْتُ مِنَ الْأَكْلَامِ الْمُنْتَوِرِ، وَالشَّعْرِ الْمَوْزُونِ، كَأَيَّةِ كَرِيمَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، اسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا إِحْدَى وَعِشْرِينَ ضَرْبًا مِنَ الْمَحَاسِنِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ².

وقال ابن سنان الخفاجي: " وَمَا زَالَ النَّاسُ يُفْرِدُونَ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ يَعْجَبُونَ مِنْهَا فِي الْبَلَاغَةِ وَحُسْنِ التَّلَايفِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ³.

أول شيء يلفت انتباه القارئ في الآية هو الفعل المبني للمفعول (قِيلَ)، وقد تعارف عليه الناس بأنه الفعل الذي لم يسم فاعله، وكما ابتدأت به الآية بقوله: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ﴾، فإنها قد ختمت به أيضا، في قوله: ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا ﴾، وقد

¹ - مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، حققه وقدم له وفهرسه: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م، (ص: 527).

² - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الكويت، سنة النشر: 1383هـ / 1963م، (ص: 89).

³ - سر الفصاحة، الأمير أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1402هـ / 1982م، (ص: 224).

جاءت الأخبار في الآية على صيغة هذا الفعل " لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْجَلَالِ وَالْكَبْرِيَاءِ، وَأَنَّ تِلْكَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِفِعْلِ فَاعِلٍ قَادِرٍ، وَتَكْوِينِ مُكَوِّنٍ قَاهِرٍ، وَأَنَّ فَاعِلَهَا فَاعِلٌ وَاحِدٌ لَا يُشَارِكُ فِي أَفْعَالِهِ، فَلَا يَذْهَبُ الْوَهْمُ إِلَى أَنْ يَقُولَ غَيْرُهُ: ﴿ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾، وَلَا أَنْ يَقْضِيَ ذَلِكَ الْأَمْرَ الْهَائِلَ غَيْرُهُ، وَلَا أَنْ تَسْتَوِيَ السَّفِينَةُ عَلَى مَتْنِ الْجُودِيِّ وَتَسْتَقِرَّ عَلَيْهِ إِلَّا بِتَسْوِيَّتِهِ وَإِقْرَارِهِ "1.

قال الرازي في قوله تعالى: (وَقِيلَ) " هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْجَلَالِ وَالْعُلُوِّ وَالْعِظَمَةِ، بِحَيْثُ أَنَّهُ مَتَى قِيلَ: (قِيلَ) لَمْ يَنْصَرَفِ الْعَقْلُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَمْ يَتَوَجَّهْ الْفِكْرُ إِلَّا إِلَى أَنْ ذَلِكَ الْقَائِلَ هُوَ هُوَ، وَهَذَا تَبْيِيهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ عَلَى أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي الْعُقُولِ أَنَّهُ لَا حَاكِمَ فِي الْعَالَمِينَ، وَلَا مُتَصَرِّفَ فِي الْعَالَمِ الْغُلُوبِيِّ وَالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ إِلَّا هُوَ "2.

وخطابه سبحانه لهذه المخلوقات العظيمة، وامتثالها لأمره، يبعث في النفس الرهبة والخشية والإجلال، " فَإِنَّ الْحِسَّ يَدُلُّ عَلَى عِظَمَةِ هَذِهِ الْأَجْسَامِ وَشِدَّتِهَا وَقُوَّتِهَا، فَإِذَا شَعَرَ الْعَقْلُ بِوُجُودِ مَوْجُودٍ قَاهِرٍ لِهَذِهِ الْأَجْسَامِ، مُسْتَوْجِبٍ عَلَيْهَا، مُتَصَرِّفٍ فِيهَا كَيْفَ شَاءَ وَأَرَادَ، صَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لَوْقُوفِ الْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى كَمَالِ جَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَعُلُوِّ قَهْرِهِ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ "3.

ومما يسحر العقل ويذهب بالنفس كل مذهب هو حسن الاتساق والترتيب، والترابط المذهل بين الجمل الواردة في نص الآية، وأن واقع الأحداث يستلزم الإتيان بها على ذلك النسق، لا يتقدم شيء منها شيئاً، إذ قد وقع كل لفظ موضعه لا يبرحه، لأن منطق الحدث يتطلب ذلك، " فَأَنْتَ تَرَى إِتْيَانَ هَذِهِ الْجَمَلِ مَعْطُوفًا بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ بِ(وَ) النَّسْقِ عَلَى التَّرْتِيبِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْبَلَاغَةُ، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ بَدَأَ بِالْأَهَمِّ، إِذْ كَانَ الْمُرَادُ إِطْلَاقَ أَهْلِ السَّفِينَةِ مِنْ سَجْنِهَا، وَلَا يَتَهَيَّأُ ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْحِسَارِ الْمَاءِ عَنِ الْأَرْضِ، فَلِذَلِكَ بَدَأَ بِالْأَرْضِ، فَأَمَرَهَا بِالْإِبْتِلَاعِ، ثُمَّ عَلَّمَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْأَرْضَ إِذَا ابْتَلَعَتْ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ وَلَمْ تُقَطِّعْ مَادَّةَ الْمَاءِ تَأْذَى بِذَلِكَ أَهْلُ

1- الكشاف، الزمخشري، (398/2).

2- تفسير الرازي، (353/17).

3- تفسير الرازي، المصدر السابق.

السَّفِينَةَ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْهَا، وَرُبَّمَا كَانَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مُخْلِفاً لِمَا تَبَتَّلَهُ الْأَرْضُ، فَلَا يَحْصُلُ الْأَنْحِسَارُ، فَأَمَرَ سُبْحَانَهُ السَّمَاءَ بِالْإِقْلَاعِ بَعْدَ أَمْرِهِ الْأَرْضَ بِالِابْتِلَاعِ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِغَيْضِ الْمَاءِ عِنْدَ مَا ذَهَبَ مَا عَلَى الْأَرْضِ، وَانْقَطَعَتْ مَادَّةُ السَّمَاءِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ثَالِثَ الْجُمْلَتَيْنِ الْمُتَقَدِّمَتَيْنِ¹.

هذه ثلاثة جمل يرتبط بعضها ببعض، وتترتب في سلم ترتيبي دقيق، بني على منطق الحدث الذي يبني بعضه على بعض، ثم بين سبحانه بعد ذلك أن الأمر قد قضي، ولا راد لقضاء الله عز وجل، فقال: **(وَفُضِيَ الْأَمْرُ)**، " أَي: هَلَاكَ مَنْ قُدِّرَ هَلَاكُهُ، وَنَجَا مَنْ فَضِيَتْ نَجَاتُهُ، وَهَذَا كُنْهُ الْآيَةِ، وَحَقِيقَةُ الْمُعْجَزَةِ، وَلَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ مَعْلُومَةً لِأَهْلِ السَّفِينَةِ، وَلَا يُمْكِنُ عِلْمُهُمْ بِهَا إِلَّا بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْهَا، وَخُرُوجُهُمْ مِنْهَا مَوْفُوفٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ، فَذَلِكَ افْتَضَتْ الْبَلَاغَةَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ رَابِعَةَ الْجُمْلِ²".

وأما استواء السفينة على الجودي في قوله تعالى: **(وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)**، فقد دلت الآية على أن " استَفْرَارَهَا عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي اسْتَقَرَّتْ فِيهِ اسْتَفْرَارًا لَا حَرَكَةَ مَعَهُ، لِيَتَبَقَى أَثَارُهَا آيَةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَ أَهْلِهَا، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَ مَا ذَكَرْنَا، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: **(وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)**، هَذَا دُعَاءٌ أَوْجِبَهُ الْأَحْتِرَاسُ مِمَّنْ يَظُنُّ أَنَّ الْهَلَاكَ رُبَّمَا شَمِلَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ، فَدَعَا سُبْحَانَهُ عَلَى الْهَالِكِينَ، وَوَصَفَهُمْ بِالظُّلْمِ احْتِرَاسًا مِنْ هَذَا الْإِحْتِمَالِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ بَعْدَ كُلِّ مَا تَقَدَّمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ³".

بعد ذكر بعض وجوه البيان المعجز في نص الآية، وكيف تلقاه علماء البلاغة، ننتقل إلى دراسة تفسيرها لنكمل ما تبقى من أحداث القصة، فإن تبين المعاني اللغوية للألفاظ المستعملة في التعبير تصور لنا تشكيلا متكاملًا لمشهد ما بعد الطوفان.

¹ - تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر، ابن أبي الأصبع المصري، (ص: 137).

² - تحرير التحرير، المصدر السابق، (ص: 137).

³ - المصدر نفسه.

قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ ﴾، قد تقدم الكلام عن ترتيب هذه الأوامر في الآية، وفي هذه الجملة قضية مهمة قد ينبني عليها تصوير جديد لحياة ما بعد الطوفان، فقولته تعالى: ﴿ ابْلَعِي مَاءَكَ ﴾، بمعنى: " أَي تَشْرَبِي، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: بَلَعَ فُلَانٌ كَذَا يَبْلَعُهُ، أَوْ بَلَعَهُ يَبْلَعُهُ إِذَا إِزْدَرَدَهُ "1، والبلع: " إِزْدَرَادُ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ بِسُرْعَةٍ "2، " وَقَالَ اللَّيْثُ: يُقَالُ: بَلَعَ الْمَاءَ بَلْعًا إِذَا شَرِبَهُ. قَالَ: وَابْتِلَاغُ الطَّعَامِ: أَلَّا يَمْضُغَهُ "3، يشترط في التعبير عن بلع للطعام عدم مضغه، للترقية بين هذا اللفظ وغيره من ألفاظ الأكل لما بينهم من فارق في الوقت، لذلك يستعمل لفظ (البلع) للدلالة على سرعة سريان الشيء ليصل إلى المكان الذي سيستقر فيه، واستعمل هذا اللفظ في نص الآية لقصد تبيين سرعة زوال الماء من على وجه الأرض.

وأما قوله: ﴿ مَاءَكَ ﴾، ففيه معنيان، إما: الماء " كُلُّهُ الَّذِي عَلَيْكَ، أَوِ الَّذِي تَفْجَرُ مِنْ بَاطِنِكَ، إِنْ صَحَّ أَنْ مَاءَ السَّمَاءِ صَارَ بَحْرًا "4، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الله عز وجل أمر " مَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ بِالْإِفْلَاحِ، فَلَمْ تَمْتَصَّ الْأَرْضُ مِنْهُ فُطْرَةً، وَأَمَرَ الْأَرْضَ بِابْتِلَاعِ مَا خَرَجَ مِنْهَا فَقَطُّ. وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾، وَقِيلَ: مَيَّرَ اللَّهُ بَيْنَ الْمَاءَيْنِ، فَمَا كَانَ مِنْ مَاءِ الْأَرْضِ أَمْرَهَا فَبَلَعَتْهُ، وَصَارَ مَاءَ السَّمَاءِ بَحَارًا "5.

وهذا القول قد يكون له وجهها إذا تأملنا أن كميات الماء الهائلة التي انهمرت من السماء، وما تفجر من الأرض، أنها كميات تكفي لإغراق القوم وتزيد، ألم تر أن الله عز وجل وصف الأمواج بأنها كالجبال، مما يجعل الإنسان يتساءل: هل كل هذا الماء كان لإغراق أمة معدودة من الناس؟

وكان الله عز وجل أراد من ورائها أمرا آخر كما أشار إليه بعض المفسرين، وهو تكوين مياه البحار على وجه الأرض، ومما يزيد في قوة هذا الرأي هو أن

1- تفسير الطبري، (419/12).

2- تفسير المنار، رشيد رضا، (67/12).

3- تهذيب اللغة، الأزهرى، مادة (بلع).

4- تفسير المنار، رشيد رضا، (67/12).

5- تفسير القرطبي، (41/9).

البشرية لم تكن تعرف ماهية السفن، ولا تعرف كيفية صنعها إلا بعد صنع نوح عليه السلام لها، وذلك ما توارثه الناس عنه فيما بعد، وهذا مما اتفق عليه أهل التفسير والتأريخ، فكيف بهم لا يعرفون ذلك والبحار أمامهم فلا يتخذون لها هذه الوسائل من أجل الإبحار؟

إضافة إلى ما سبق ذكره لم يرد فيما وصلنا من النصوص الصحيحة الصريحة التي تبين بداية الخلق أنها قد ذكرت خلق البحار على الأرض مع عظمتها، وقد وعظ نوح عليه السلام قومه، وأرشدهم إلى التدبر في خلق الله عز وجل ولم يذكر البحار، كما جاء في سورة نوح.

ومع هذا فلا يوجد برهان من نص صريح، ولا استنتاج من عقل صحيح، فيستطيع الإنسان الجزم بهذا القول وترجيحه على القول الآخر.

يخاطب الله عز وجل السماء ويأمرها أمراً آخر غير الأمر الذي أمر به الأرض، فقال لها: ﴿ **وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي** ﴾، وقد ذهب كثير من العلماء إلى تأويل هذه الآية، وصرّفوا الأوامر التي فيها عن ظاهرها، وقالوا: إن الله خاطب الأرض والسماء خطاب من يعقل خطاباً مجازياً، والحق الذي عليه المحققون من العلماء أن هذه الأوامر تبقى على ظاهرها كما جاءت في نصوص القرآن الكريم، حتى يردّ الدليل الذي يصرّفها عن ذلك.

وقوله: ﴿ **وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي** ﴾، أي: " أَقْلِعِي عَنِ الْمَطَرِ: أَمْسِكِي " ¹. وبمعنى آخر " أَي: كَفِّي عَنِ الْإِمْطَارِ، فَاْمْتَثِلِ الْأَمْرُ فِي الْحَالِ " ².

وللسماء في هذه الآية معنيان: " إِمَّا السَّمَاءَ الْمُظَلَّةَ، وَإِمَّا السُّحْبَ " ³، وسبق وأن رجحنا أن المقصود بها السماء المظلة التي فتحت أبوابها بماء منهمر، و" (الْإِفْلَاحُ) عَنِ الشَّيْءِ تَرْكُهُ، وَالْمَعْنَى: أَقْلِعِي عَنِ الْإِمْطَارِ " ⁴،

¹ - تفسير الطبري، (419/12).

² - تفسير المنار، رشيد رضا، (67/12).

³ - المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، (427/3).

⁴ - المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، (427/3).

ويقال: " أَقْلَعُ الرَّجُلُ عَنْ عَمَلِهِ إِذَا كَفَّ عَنْهُ، وَأَقْلَعَتِ السَّمَاءُ بَعْدَ مَا مَطَرَتْ إِذَا أَمْسَكَتْ " ¹.

ثم يصف الله عز وجل حال الماء على وجه الأرض بقوله: ﴿ وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾، ومعناه: " نَقَصَ وَنَضَبَ، يُقَالُ: غَاضَ الْمَاءُ يَغِيضُ غَيْضًا إِذَا نَقَصَ، وَغَاضَهُ اللَّهُ أَيَّ أَنْقَصَهُ " ²، وأكثر ما يستعمل هذا الفعل (يغيض) " فِيمَا هُوَ بِمَعْنَى جُفُوفٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ [الرَّعْدِ: 8] " ³، وجاء الفعل على نسق الأفعال السابقة له مبنيًا للمفعول، والفاعل الحقيقي هو الأرض بعدما أمرها الله بابتلاعه، أي: أن الماء " ذَهَبَتْ بِهِ الْأَرْضُ وَنَشَقَّتُهُ " ⁴، وهذا يدل على الامتثال الفوري للأمر الرباني من السماء والأرض، فجاء الوصف موجزا، أي أن السماء قد امتثلت أمر ربها فأقلعت وأمسكت ماءها، وأن الأرض أطاعت ربها وابتلعت ماءها. و﴿ وَقَضِيَ الْأَمْرُ ﴾، والمراد بذلك: " أَنَّ الَّذِي قَضَى بِهِ وَقَدَّرَهُ فِي الْأَزَلِ قَضَاءٌ جَزْمًا حَتْمًا، فَقَدْ وَقَعَ تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى فَهُوَ وَقَعَ فِي وَقْتِهِ، وَأَنَّهُ لَا دَافِعَ لِقَضَائِهِ، وَلَا مَانِعَ مِنْ نَفَادِ حُكْمِهِ فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ " ⁵.

ثم وصف الله عز وجل حال السفينة بأنها ﴿ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾، و" اسْتَوَتْ: أُرْسَتْ عَلَى الْجُودِيِّ، وَهُوَ جَبَلٌ فِيمَا ذُكِرَ بِنَاحِيَةِ الْمَوْصِلِ أَوْ الْجَزِيرَةِ " ⁶. وقيل أن الاستواء: " الْأَسْتَقْرَارُ. وَالْجُودِيُّ: اسْمُ جَبَلٍ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَأَرْمِينِيَا، يُقَالُ لَهُ الْيَوْمَ أَرَارَاطُ. وَحِكْمَةُ إِرْسَانِهَا عَلَى جَبَلٍ أَنَّ جَانِبَ الْجَبَلِ أَمْكُنٌ لِاسْتِقْرَارِ السَّفِينَةِ عِنْدَ نَزُولِ الرَّاكِبِينَ لِأَنَّهَا تَخْفُفُ عِنْدَ مَا يَنْزِلُ مُعْظَمُهُمْ، فَإِذَا مَالَتْ اسْتَنْدَتْ إِلَى جَانِبِ الْجَبَلِ " ⁷.

¹ - تفسير الرازي، (353/17).

² - معالم التنزيل، البيهقي، (179/4).

³ - المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، (427/3).

⁴ - تفسير الطبري، (419/12).

⁵ - تفسير الرازي، (353/17).

⁶ - تفسير الطبري، (419/12).

⁷ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (265/11).

اتفق المفسرون على أن استواء السفينة هو استقرارها على جبل اسمه الجودي، وقد جاءت ألفاظ الآية في غاية من الدقة وهي تصور كيفية استقرار السفينة على الجبل، ذلك أن الله عز وجل وصف الماء بقوله: ﴿ وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾، بعد ما أمر الأرض فابتلعت، والسماء فأقلعت، وسكنت حركة الأمواج، وبقيت السفينة على الماء، بدأ مستوى المياه بالنقصان والنضوب شيئاً فشيئاً، مما مكن السفينة فيما بعد على نزولها مع نزول مستوى المياه، حتى لمست ألوأحها أرضية الجبل حين نزل مستوى المياه إلى الحد المطلوب فاستقرت عليه، ولم يكن للفظ آخر أن يؤدي صورة هذا العمل الدقيق، الذي سبين كيف سيحافظ على ألوأح السفينة من الانكسار والاصطدام بصلاية صخر الجبل مثل عمل الفعل (غيض)، الذي صور حالة تناقص الماء وهبوط مستواه حتى أرسى بالسفينة على الجبل بكل رفق.

﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، جعل العلماء القائل في لفظ (قِيلَ) يحتمل معنيين، أن يكون القائل هو الله عز وجل، والآخر أن يكون القائل هو نبي الله نوح عليه السلام، ورجح الشوكاني أن يكون " الْقَائِلُ: هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، لِيُنَاسِبَ صَدْرَ الْآيَةِ. وَقِيلَ: هُوَ نُوحٌ وَأَصْحَابُهُ. وَالْمَعْنَى: وَقِيلَ هَلَاكًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَهُوَ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِدَعَاءِ السُّوءِ، وَوَصَفَهُمْ بِالظُّلْمِ لِإِشْعَارِ بَأَنَّهُ عِلَّةُ الْهَلَاكِ، وَلِلْإِيمَاءِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [المؤمنون: 27] "1. وقال ابن أبي الأصبغ: " فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَحْبَرَ بِهَلَاكِ مَنْ هَلَكَ بِالطُّوفَانِ، أَعَقَبَهُ بِالْإِعْيَادِ عَلَى الْهَالِكِينَ، وَوَصَفَهُمْ بِالظُّلْمِ لِيُعْلَمَ أَنَّ جَمِيعَهُمْ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْعَذَابِ، احْتِرَاسًا مِنْ ضَعِيفِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ الْهَلَاكَ رُبَّمَا شَمَلَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ، فَلَمَّا دَعَا عَلَى الْهَالِكِينَ وَوَصَفَهُمْ بِالظُّلْمِ عُلِمَ اسْتِحْقَاقُهُمْ لَمَّا نَزَلَ بِهِمْ، وَحَلَّ بِسَاحَتِهِمْ، وَظَهَرَ مِنْ ذَلِكَ صِدْقُ وَعْدِهِ لِنَبِيِّهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَعْلَمْنَا أَنَّهُ قَدْ أَنْجَرَهُ وَعَدَهُ الَّذِي قَالَ فِيهِ: ﴿ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ ﴾ [المؤمنون: 27] "2.

1- فتح القدير، الشوكاني، (450/3).

2- تحرير التخبير، ابن أبي الأصبغ المصري، (ص: 43).

وقوله: ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أي: " هَلَاكًا لَهُمْ، يُقَالُ: بُعِدًا بُعْدًا، وَبُعْدًا، إِذَا أَبْعَدَ بُعْدًا بُعِيدًا، بِحَيْثُ لَا يُرْجَى عَوْدُهُ، ثُمَّ اسْتَعِيرَ لِلْهَلَاكِ، وَخُصَّ بِدُعَاءِ السُّوءِ ¹ .

بعدما تبينت نهاية القوم الظالمين، وظهرت معالم الحياة الجديدة، التي ستنتقل في أفق الدنيا من ذرية من نجا في السفينة مع نبي الله ﷺ، وبقي شيء من الغيب تعلق به قلب هذا النبي ﷺ، فلم يستطع تجاوزه، وكتمان أمره عليه، فلا شك أن الصورة لم تغادر ذهنه لحظة واحدة، وبقيت نصب عينيه، أينما يقرب نظره لا تغادره، ولا يستطيع صرفها عنه، وأنى له ذلك؟ وكيف له أن ينسى صورة ابنه وهو يكابد الموت غرقا، وهو لم يتبين أمره بعد؟

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هُود: 45]. الغاية من النداء إسماع المنادى، وهذا يتعدر حصوله في هذا المقام لأن المنادى هو السميع العليم، يسمع السر وأخفى، وهو عليم بذات الصدور سبحانه، لذلك ذهبنا إلى أن النداء يعكس حالة من الألم والتوجع، تخرج في آهات تشق صدر الفضاء حتى وإن كانت في غيابات السر الأعمق، وكذلك كانت حالة الألم التي مر بها نبي الله ﷺ، فطيلة مكثه في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وهو يدعوهم، وينذرهم، ويخاف عليهم وقوع العذاب الأليم، فهو قد رأى ابنه مع الغرقى، ويعلم أن الله لم يغرق إلا من استحق ذاك العذاب، ومع ذلك توجه إلى ربه بنداؤه ودعائه، لأنه يعلم أن رحمة ربه وسعت كل شيء، وأنه أرحم الراحمين، ولا يحدث منه شيء إلا لحكمة، وهو أحكم الحاكمين، ولم تكن الأوامر الربانية قد وردت تنهاه أن يسأل ذلك من ربه إلا بعد ما بيّن له، حاله كحال نبي الله إبراهيم ﷺ حين استغفر لأبيه مع علمه بشركه، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114].

¹ - تفسير البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار الفكر، بيروت، (237/3).

ومثلهما كان حال نبينا ﷺ حين أراد الاستغفار لعمه أبي طالب، مع علمه بموته على الشرك، فقال: « **أَمَّا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحَ عَنكَ** ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ [التَّوْبَةِ: 113] ¹.

والقصد من هذا أن نوحا ﷺ قد أدرك أن ابنه كان من الغرقى، لأن الله عز وجل قد أوحى إليه من قبل أن لا نجاة إلا لمن حمل في الفلك، وابنه لم يكن كذلك، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا النداء كان قبل الغرق، وهو بعيد جدا، لا يستقيم مع سياق القصة وأحداثها، فالسياق يقتضي أن النداء كان بعد استواء السفينة على الجودي، " **وَالنِّدَاءُ هُنَا نِدَاءٌ دُعَاءٍ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: وَدَعَا نُوحٌ رَبَّهُ، لِأَنَّ الدُّعَاءَ يَصْدُرُ بِالنِّدَاءِ غَالِبًا، وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْجَلَالَةِ بِوَصْفِ الرَّبِّ مُضَافًا إِلَىٰ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَشْرِيفٌ لِنُوحٍ، وَإِيْمَاءٌ إِلَىٰ رَأْفَةِ اللَّهِ بِهِ، وَأَنَّ نَهْيَهُ الْوَارِدَ بَعْدَهُ نَهْيٌ عِتَابٍ، وَجُمْلَةٌ: ﴿ **فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي** ﴾ بَيَانٌ لِلنِّدَاءِ** " ².

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي** ﴾، قد تقدم الحديث عنه، وقد بينا أنه ابنه من صلبه ﷺ، والقول بغير هذا باطل لا يستقيم، نقلا بصريح اللفظ في الآيات، وعقلا بالاستدلال المنطقي السليم، وقوله هذا " **خَيْرٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْأَعْتَادِ وَالتَّمْهِيدِ، لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسْأَلَ سُؤَالَ لَا يَدْرِي قَبُولَهُ، وَلَكِنَّهُ افْتَحَمَهُ، لِأَنَّ الْمَسْئُولَ لَهُ مِنْ أَهْلِهِ، فَلَهُ عُدْرُ الشَّفَقَةِ عَلَيْهِ، وَتَأْكِيدُ الْخَيْرِ بِ(إِنَّ) لِلاَهْتِمَامِ بِهِ، وَكَذَلِكَ جُمْلَةٌ: ﴿ **وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ** ﴾، خَيْرٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي لَازِمِ الْفَائِدَةِ، وَهُوَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَالْمُرَادُ بِالْوَعْدِ مَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ** ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 37]، إِذْ أَفَادَ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِهِ قَدْ سَبَقَ مِنَ اللَّهِ تَقْدِيرًا بِأَنَّهُ لَا يَرْكَبُ السَّفِينَةَ** " ³.

سار نبي الله نوح ﷺ في هذا النداء مع ربه سير الأبرار المخلصين، وبلغ ذروة الأدب الذي رباه عليه ربه سبحانه وتعالى، فلم يجاوز حدوده، ولم يعتدي

¹ - حديث صحيح، رواه البخاري، حديث رقم (1360)، ورواه مسلم واللفظ له، حديث رقم (141).

² - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (269/11).

³ - المصدر نفسه، (269/11).

في دعاءه معه، فختمه بقوله: **﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾**، " أي: أَحَقُّ مِنْ كُلِّ مَنْ يُتَصَوَّرُ مِنْهُمْ الْحُكْمُ، وَأَحْسَنُهُمْ وَخَيْرُهُمْ حُكْمًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: **﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾** [الأنعام: 50]، وَقَالَ: **﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾** [الأعراف: 87]، وَذَلِكَ أَنَّ حُكْمَهُ تَعَالَى لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، لِأَنَّهُ يَصْدُرُ عَنْ كَمَالِ الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ، فَلَا يَعْزِضُ لَهُ الْخَطَأُ وَلَا الْمَحَابَاةُ، وَلَا الْحَيْفُ وَالظُّلْمُ، وَحُكْمُهُ تَعَالَى يُطْلَقُ عَلَى مَا يُشْرَعُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَعَلَى مَا يُنْفِذُهُ فِي عِبَادِهِ مِنْ جَزَاءٍ عَلَى الْأَعْمَالِ¹.

صورت لنا بعد ذلك الآيات مشهدا من المشاهد التي تجسد حقيقة الدعوة إلى الله وأولوياتها، فبينت كيف تسقط كل العلائق، ولا تسمو إلا علاقة الإنسان بربه عز وجل، وذلك حين رد الله عز وجل على دعاء عبده ونبيه نوح عليه السلام، فقال: **﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلَنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾** [هود: 46]، قال الفخر الرازي: " هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِبْرَةَ بِقَرَابَةِ الدِّينِ لَا بِقَرَابَةِ النَّسَبِ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ كَانَتْ قَرَابَةُ النَّسَبِ حَاصِلَةً مِنْ أَقْوَى أَلْوَجُوهٍ، وَلَكِنْ لَمَّا انْتَفَتَّ قَرَابَةُ الدِّينِ لَا جَرَمَ نَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَبْلَغِ الْأَلْفَاظِ وَهُوَ قَوْلُهُ: **﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾**"².

وبعدما تبين أنه ابنه من صلبه لا بد من حمل قوله: **﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾** " عَلَى أَحَدٍ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ دِينِكَ. وَالثَّانِي: الْمُرَادُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ الدِّينِ وَعَدَّتْكَ أَنْ أَنْجِيَهُمْ مَعَكَ، وَالْقَوْلَانِ مُتَقَارِبَانِ"³.

وأما قوله تعالى: **﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾**، فقد وردت فيها قراءتان، ولكل قراءة معنى يؤثر على بنية الأحداث في القصة، وسأختصر وجوه الخلاف بين المفسرين في ذلك، دون الدخول في بعض التفاصيل التي ليس هذا البحث محلها. القراءة الأولى: **﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾**، وهي رواية صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رواها أهل السنن والمسانيد، عن " أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ

¹ - تفسير المنار، رشيد رضا، (70/12).

² - تفسير الرازي، (357/18).

³ - المصدر نفسه.

يَقْرَأُ: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٍ ﴾¹، وفي رواية: " عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أُمَّ سَلَمَةَ: كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٍ ﴾؟ فَقَالَتْ: قَرَأَهَا: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٍ ﴾"². قال المباركفوري: " قَالَ الْخَازِنُ: قَرَأَ الْكِسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ (عَمَلٌ) بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِ اللَّامِ، وَ (غَيْرٌ) بِفَتْحِ الرَّاءِ، عَلَى عَوْدِ ضَمِيرِ الْفِعْلِ عَلَى الْإِبْنِ"³، وقال الأندلسي: " وَهِيَ قِرَاءَةٌ: عَلِيٍّ، وَأَنْسِ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَائِشَةَ، وَرَوْتَهَا عَائِشَةُ وَأُمُّ سَلَمَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ"⁴، وأضاف القرطبي⁵: عُرْوَةَ، وَعِكْرَمَةَ، وَأَبُو عُبَيْدٍ.
ومعنى هذه القراءة: " إِنَّهُ عَمَلٌ الشَّرِيكَ وَالْكَفَرُ وَالتَّكْذِيبُ، وَكُلُّ هَذَا غَيْرٌ صَالِحٌ"⁶.

القراءة الأخرى: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٍ ﴾، وقد " قَرَأَ الْبَاقُونَ مِنَ الْقُرَّاءِ (عَمَلٌ) بِفَتْحِ الْمِيمِ وَرَفْعِ اللَّامِ مَعَ التَّنْوِينِ، وَ (غَيْرٌ) بِضَمِّ الرَّاءِ"⁷.
وقد ذهب أهل العلم إلى أن الضمير في قوله (إِنَّهُ) له وجهان: الأول: أنه عائد إلى السؤال، ومعناه: " أَنْ هَذَا السُّؤَالَ عَمَلٌ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾: غَيْرُ صَالِحٍ، لِأَنَّ طَلَبَ نَجَاةِ الْكَافِرِ بَعْدَ أَنْ سَبَقَ الْحُكْمَ الْجَزْمَ بِأَنَّهُ لَا يُنْجِي أَحَدًا مِنْهُمْ سُؤَالَ بَاطِلٍ"⁸، وبهذا قال أهل الحديث.
قال المباركفوري: " وَمَعْنَاهُ أَنَّ سُؤَالَكَ إِيَّايَ أَنْ أَنْجِيَهُ مِنَ الْعَرَقِ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٍ، لِأَنَّ طَلَبَ نَجَاةِ الْكَافِرِ بَعْدَمَا حُكِمَ عَلَيْهِ بِالْهَلَاكِ بَعِيدٌ"⁹.

¹ - حديث صحيح، رواه أحمد، حديث رقم (26561)، وأبو داود، حديث رقم (3984)، والترمذي، حديث رقم (2931)، ينظر تخريج الحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ناصر الدين الألباني، حديث رقم (2809).

² - حديث صحيح، رواه أبو داود، حديث رقم (3985).

³ - تحفة الأحوذى، المباركفوري، (202/8).

⁴ - البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (162/6).

⁵ - ينظر: تفسير القرطبي، (46/9).

⁶ - تحفة الأحوذى، المصدر نفسه.

⁷ - المصدر نفسه.

⁸ - تفسير الرازي، (375/18).

⁹ - تحفة الأحوذى، المباركفوري، (202/8).

والوجه الثاني: أن يكون الضمير عائدا على ابن نوح عليه السلام، " وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فِيهِ وَصْفُهُ بِكَوْنِهِ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ وَجُودًا: الْأَوَّلُ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَثُرَ عَمَلُهُ وَإِحْسَانُهُ يُقَالُ لَهُ: إِنَّهُ عِلْمٌ وَكَرَمٌ وَجُودٌ، فَكَذَا هَاهُنَا لَمَّا كَثُرَ إِفْدَامُ ابْنِ نُوحٍ عَلَى الْأَعْمَالِ الْبَاطِلَةِ حَكَمَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ عَمَلٌ بَاطِلٌ. الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ ذُو عَمَلٍ بَاطِلٍ، فَحَدَفَ الْمُضَافَ لِذَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ. الثَّلَاثُ: قَالَ بَعْضُهُمْ مَعْنَى قَوْلِهِ: **﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾**، أَي: إِنَّهُ وَلَدُ زَنَا، وَهَذَا الْقَوْلُ بَاطِلٌ قَطْعًا " ¹.

قال الزمخشري " فَإِنْ قُلْتُمْ: فَهَلَّا قِيلَ: إِنَّهُ عَمَلٌ فَاسِدٌ؟ قُلْتُمْ: لَمَّا نَفَاهُ عَنْ أَهْلِهِ، نَفَى عَنْهُ صِفَتَهُمْ بِكَلِمَةِ النَّفْيِ الَّتِي يَسْتَبْقِي مَعَهَا لَفْظُ الْمَنْفِيِّ، وَادَّنَ بِذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْجَى مَنْ أَنْجَى مِنْ أَهْلِهِ لِصَلَاحِهِمْ، لَا لِأَنَّهُمْ أَهْلُكَ وَأَقَارِبُكَ. وَإِنَّ هَذَا لَمَّا انْتَفَى عَنْهُ الصَّلَاحُ لَمْ تَنْفَعُهُ أُبُوتُكَ، كَقَوْلِهِ: **﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾** " ².

هكذا جاءت الألفاظ في النص مركبة تركيباً معجزاً، كل لفظ في المحل الذي استعمل فيه يؤدي وظائفه التي وضع من أجلها، لا يستطيع أحد من البشر كائناً من كان أن يبدل أو يغير، أو يقدم أو يؤخر، أو يزيد أو ينقص، **﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾** [النساء: 82].

تكمل الآية ذكر العتاب الرباني لنبي الله عليه السلام، وهذا مقام عظيم يرسخ مبادئ الاعتقاد الصحيح لبناء الأمة المسلمة التي تراعي إقامة العلاقات والأواصر بين أفرادها على مبدأ الولاء والبراء.

قال الله تعالى لنبيه: **﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾**، ومعنى هذا أني " إِذَا وَعَدْتُكَ، فَأَعْلَمُ يَقِينًا؛ أَنَّهُ لَا خُلْفَ فِي الْوَعْدِ، فَإِذَا رَأَيْتَ وَلَدَكَ لَمْ يُحْمَلْ، فَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَقِفَ، وَتَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ بِحَقِّ وَاجِبٍ عِنْدَ اللَّهِ " ³.

¹ - تفسير الرازي، (375/18).

² - الكشاف، الزمخشري، (399/2).

³ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن المشهور بتفسير الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر: 1418هـ / 1997م، (228/2).

نهى الله عز وجل عباده عن السؤال عن أفعاله، فقال: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: 23]، وأنبياء الله عليهم السلام هم أولى الناس بطاعة ربهم في ذلك، لذلك جاء نهى الله عز وجل نبيه نوحا ﷺ " أَنْ يُسْأَلَهُ عَنْ أَسْبَابِ أَعْمَالِهِ الَّتِي قَدْ طَوَى عِلْمَهَا عَنْهُ، وَعَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ. يَقُولُ لَهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنِّي يَا نُوحٌ قَدْ أَخْبَرْتُكَ عَنْ سُؤَالِكَ سَبَبَ إِهْلَاكِ ابْنِكَ الَّذِي أَهْلَكْتَهُ، فَلَا تَسْأَلْنِ بَعْدَهَا عَمَّا قَدْ طَوَيْتَ عِلْمَهُ عَنْكَ مِنْ أَسْبَابِ أَعْمَالِي، وَلَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ فِي مَسْأَلَتِكَ إِيَّايَ عَنْ ذَلِكَ " ¹.

ولكن نبي الله ﷺ " حَمَلْتُهُ شَفَقَةً الْأَبْوَةِ، وَسَجِيَّةَ الْبَشَرِ عَلَى التَّعَرُّضِ لِنَفَحَاتِ الرَّحْمَةِ، وَعَلَى هَذَا الْقَدْرِ وَقَعَ عِتَابُهُ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ بِتَلَطُّفٍ وَتَرْفِيعٍ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾، أَي: لَا تَطْلُبْ مِنِّي أَمْرًا لَا تَعْلَمُ الْمَصْلَحَةَ فِيهِ عِلْمَ يَقِينٍ، وَنَحَا إِلَى هَذَا أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ، وَهَذَا وَالْأَوَّلُ فِي الْمَعْنَى وَاحِدٌ ².

ومما يلفت الانتباه في الآية قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ ﴾، ولم يرد في نداء نوح ﷺ سؤاله لربه صريحا، بل جاء على سبيل النداء، ووجه الجواب عن هذا عند العلماء أنه " قَدْ تَضَمَّنَ دُعَاؤُهُ مَعْنَى السُّؤَالِ وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ، لِأَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْعِدَ بِنَجَاتِ أَهْلِهِ فِي وَفْتِ مُشَارَفَةِ الْعَرَقِ فَقَدْ اسْتَنْجَزَ " ³.

لما علم نوح ﷺ من ربه أن السؤال الذي سألته لم يكن ينبغي له أن يسأله، رجع إلى ربه منيبا إليه، فحكى الله ذلك عنه في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: 47].

ومعنى الاستعاذة في هذا المقام ﴿ أَعُوذُ بِكَ ﴾: أَي " أَسْتَجِيرُ بِكَ أَنْ أَتَكَلَّفَ مَسْأَلَتَكَ ﴿ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾، مِمَّا قَدْ اسْتَأْثَرْتَ بِعِلْمِهِ، وَطَوَيْتَ عِلْمَهُ عَنْ

¹ - تفسير الطبري، (436/12).

² - الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي، (228/2).

³ - البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (189/5).

خَلَقَكَ، فَأَغْفِرْ لِي زَلَّتِي فِي مَسْأَلَتِي إِيَّاكَ مَا سَأَلْتُكَ فِي ابْنِي، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَغْفِرْهَا لِي وَتَرْحَمَنِي فَتَنْقِذْنِي مِنْ غَضَبِكَ ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾، يَقُولُ: مِنَ الَّذِينَ غَبَّوْا أَنْفُسَهُمْ حُظُوظَهَا وَهَلَكُوا¹،

ونص الآية يصور كمال الأدب الذي كان عليه أنبياء الله عليهم السلام، وتنقل دقة فهمهم للمعاني النفسية العميقة للأخلاق والسلوك، فبدأ نبي الله قوله بطلب " الْمَغْفِرَةَ ابْتِدَاءً، لِأَنَّ التَّخْلِيَةَ مُقَدِّمَةٌ عَلَى التَّخْلِيَةِ، ثُمَّ أَعَقَبَهَا بِطَلْبِ الرَّحْمَةِ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ بِمَحَلِّ الرِّضَى مِنَ اللَّهِ كَانَ أَهْلًا لِلرَّحْمَةِ² .

وقد تشعبت السبل أمام المفسرين، فاختلفوا في تحديد حقيقة ما سأل نوح ربه، فحين وقعوا في تفسير أنه سأل نجاته من الغرق، لم يهتدوا إلى تبين أي وقت وقع منه ذلك، " فَأَعْتَرَضَتْهُمْ سُبُلٌ وَعَرَّةٌ مَتَنَائِيَّةٌ، وَلَقُوا عَنَاءً فِي الْأَتِّصَالِ بَيْنَهَا، وَالْآيَةِ بِمَعْزِلِ عَنَّا³ .

ولعل ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن سؤاله كان يخص نجاته من العذاب الأليم يوم القيامة قد تأكد في هذا المقام، فكان هو المخرج من كل تلك الخلافات⁴ .

نتج عن هذا العتاب الرباني للنبي نوح عليه السلام سوء فهم وتقدير من بعض من ينتسب إلى العلم، فراح يقدح في مقام الأنبياء عليهم السلام، وأراد أن يضعهم في مرتبة كباقي مراتب البشر من حيث وقوعهم في الخطأ والزلل، وحاشاهم فقد نزههم الله عز وجل عن ذلك، وما وقع من نوح عليه السلام، فقد كانت العبرة فيه أن ما سأله لابنه " لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً لِلَّهِ تَعَالَى خَالَفَ فِيهَا أَمْرَهُ أَوْ نَهْيَهُ، وَإِنَّمَا كَانَتْ خَطَأً فِي اجْتِهَادِ رَأْيٍ بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ، وَإِنَّمَا عَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى ذَنْبًا لَهُ لِأَنَّهَا كَانَتْ دُونَ مَقَامِ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ بِمَنْزِلَتِهِ مِنْ رَبِّهِ، هَبَطَتْ بِضَعْفِهِ الْبَشَرِيِّ وَمَا عُرْسَ فِي الْفُطْرَةِ مِنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِالْأَوْلَادِ إِلَى اتِّبَاعِ الظَّنِّ، وَمِثْلُ هَذَا الْجِتِهَادِ لَمْ يُعْصَمْ مِنْهُ الْأَنْبِيَاءُ

¹ - تفسير الطبري، (437/12).

² - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (272/11).

³ - المصدر نفسه.

⁴ - ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (163/6)، وغيره.

فَيَقْعُونَ فِيهِ أَحْيَانًا، لِيَشْعُرُوا بِحَاجَتِهِمْ إِلَى تَأْدِيبِ رَبِّهِمْ وَتَكْمِيلِهِ إِيَّاهُمْ أَنَا بَعْدَ أَنْ،
بِمَا يَصْعَدُونَ بِهِ فِي مَعَارِجِ الْعِرْفَانِ¹.

بِدَايَةُ مَا بَعْدَ النَّهَايَةِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هُود: 48].

ذهب بعض أهل العلم إلى أن الطوفان لم يعم كل الأرض وإنما خص به قوم نوح عليه السلام والأرض التي كانوا عليها، ولا شك أن هذا القول مرجوح لا دليل عليه، ولا يقتضيه سياق القصة ولا الآيات التي ذكرته، بل إن كل النصوص قد جاءت تذكر عموم الأرض، كقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ ﴾ [هُود: 44]، وقوله تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر: 12]، وقوله سبحانه فيمن غرق: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ [الشعراء: 120]، وهذه النصوص تبين أن الطوفان قد عم كل الأرض، ولم يرد بين أيدينا من الأدلة ما يخصها، بالإضافة إلى أن الله عز وجل أمر نبيه أن يحمل معه في الفلك من كل زوجين اثنين لاستمرار حياة ما بعد الطوفان، وفي هذا دليل على أن كل حياة قد انعدمت على وجه الأرض حين عمها الماء فأغرق كل شيء.

بعدما استقرت السفينة على الجودي، وبعد دعاء نوح ربه قائلا: ﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: 29]، قال له ربه: ﴿ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

حاول كثير من المفسرين تحديد الأزمنة التي تحركت فيها أحداث القصة، سواء مدة مكث السفينة في الماء، أو مدة رسوها على الجودي، أو كيفية تيقنه عليه السلام بجفاف الماء على سطح الأرض، إلى غير ذلك من الفضاءات الزمنية التي تستغرق وقتا معينا ومحددا تجري فيه الأحداث، وقد كان لكل مفسر رأيه ومذهبه، مع أن نصوص الوحي لم تبين ذلك، بل قد أهملته على عادة أسلوب القص في

¹ - تفسير المنار، رشيد رضا، (72/12 - 73).

النص القرآني، وقد كان معتمد تلك الآراء ما روي في كتب بني إسرائيل مما توارثوه منها، بعد ما اختلط فيها المحرف بالصحيح، فلا يعول على شيء منه. بدأت الآية بالفعل المبني للمفعول بنفس طريقة النصوص السابقة، فقال تعالى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ ﴾، وذهب أهل العلم إلى أن اللفظ يحتمل معنيين: " أَيْ: قَالَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: اهْبِطْ مِنَ السَّفِينَةِ إِلَى الْأَرْضِ، أَوْ مِنَ الْجَبَلِ إِلَى الْأَرْضِ، فَقَدْ ابْتَلَعَتِ الْمَاءَ وَجَفَّتْ " ¹، لكن نص الآية يبين أن باقي الأفعال قد أسندت إلى الله عز وجل، فلا يمكن إسنادها إلى الملائكة لاستحالة قيامهم بذلك، فهي ليست من اختصاصهم، كقوله تعالى: ﴿ وَأُمَّمٌ سَنَمَتَهُمْ ﴾، وقوله: ﴿ يَمَسُّهُمْ مِنْ أَعْدَابِ أَلِيمٍ ﴾، فإذا تقرر هذا علمنا أن الفاعل الذي لم يسم في قوله: ﴿ قِيلَ ﴾ هو الله القادر على فعل ذلك سبحانه.

وأما قوله تعالى: ﴿ اهْبِطْ ﴾، فقد اتفق المفسرون على أن معناها معروف، والمقصد منها معلوم، وقال أصحاب المعاجم، أن معنى " هَبَطَ هُبُوطًا: نَزَلَ " ²، و" هَبَطَ يَهْبِطُ، وَيَهْبُطُ هُبُوطًا: نَزَلَ " ³، و" هَبَطَ أَرْضَ كَذَا: نَزَلَهَا " ⁴. ولا شك أن التعبير بهذا الفعل ﴿ اهْبِطْ ﴾، له موقعه من تصوير بقية الحدث من القصة، ودوره في أداء وظيفة نقل المشهد بدقة معجزة، ذلك أن دعاء نوح عليه السلام كان بلفظ مغاير لهذا اللفظ، وذلك ما جاء في قوله: ﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا ﴾ [المؤمنون: 29].

تفرق العرب في كلامها بين النزول والهبوط، فالنزول عندهم: " الْحُلُولُ، وَقَدْ نَزَلَهُمْ، وَنَزَلَ عَلَيْهِمْ، وَنَزَلَ بِهِمْ، يَنْزِلُ نَزُولًا " ⁵، و(الْمُنْزَلُ): " بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِ الزَّايِ: الْإِنْزَالُ، تَقُولُ: (أَنْزَلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا)، وَالْمَنْزَلُ: بِفَتْحِ الْمِيمِ وَالزَّايِ: النَّزُولُ، وَهُوَ الْحُلُولُ، تَقُولُ: نَزَلَ يَنْزِلُ، نَزُولًا، وَمَنْزَلًا وَأَنْزَلَهُ غَيْرُهُ،

¹ - تفسير القرطبي، (89/9).

² - لسان العرب، ابن منظور، مادة (هبط).

³ - القاموس المحيط، الفيروزآبادي، (فصل الهاء).

⁴ - المخصص، ابن سيده، (312/3).

⁵ - لسان العرب، ابن منظور، مادة (نزل).

وَاسْتَنْزَلَهُ بِمَعْنَى " 1, و " نَزَّلَهُمْ، وَبِهِمْ، وَعَلَيْهِمْ، يَنْزِلُ نَزُولًا وَمُنْزَلًا: حَلَّ " 2, و " الْمُنْزِلُ: مَوْضِعُ النُّزُولِ " 3.

لم يرد في استعمال العرب أنهم شرحوا النزول بالهبوط، لأن معنى النزول أوسع، على خلاف العكس، وقد يرد من معاني النزول الهبوط، كما قالوا: " نَزَلَ مِنْ عُلُوِّ إِلَى سَفْلٍ، يَنْزِلُ نَزُولًا " 4, وقالوا: " النُّزُولُ، بِالضَّمِّ: الْخُلُوعُ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ انْحِطَاطٌ مِنْ عُلُوِّ " 5.

وفي كتاب الله عز وجل بيان لما قصدناه في هذه الجزئية، فنجد التعبير القرآني يفرق في الاستعمال بين اللفظين، وكل لفظ له معناه المقصود في الموضع الذي ورد فيه، فجاء التعبير بـ (النزول) في كثير من الآيات، وبصيغ مختلفة، ودار استعماله في الغالب على ثلاثة محال يقع عليها المنزّل، وهي كالاتي:

- 1 – إنزال الكتاب: وهو كثير في كتاب الله عز وجل، وقد ورد بصيغ مختلفة، ومثاله قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 2].
- 2 – إنزال الملائكة: كقوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [النَّحْلِ: 2].
- 3 – إنزال الماء من السماء: كقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ [الْبَقَرَةِ: 164].

ومما يلاحظ على الآيات التي ورد فيها ذكر النزول بصيغته المختلفة أن المحل الذي جعل فيه المنزّل قد حُدِّدَ، فيكون المنزّل فيه حالاً، فمحل آيات الكتاب الصدور، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [الْعَنْكَبُوتِ: 49]، ومحل نزول الملائكة على من يشاء من عباده، ومحل إنزال

¹ - مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، طبعة جديدة، سنة الطبع: 1415هـ / 1995م، (باب النون)، مادة (نزل).

² - القاموس المحيط، الفيروزآبادي، (فصل النون).

³ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، (باب النون مع الزاي وما يثلثهما)، (600/2).

⁴ - المصدر نفسه.

⁵ - تاج العروس، مرتضى الزبيدي، مادة (نزل).

الماء ليحيي به بلدة ميتا، أو يسلكه ينابيع في الأرض، أو يجعله أودية تسيل بقدرها.

أما ما ورد في معنى الهبوط، فهو عام لم تحدد فيه جهة بعينها، كقوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿ اهِبُوا مِصْرًا ﴾ [البقرة: 61]، فلم يحدد لهم المكان بالضبط، ومثله قوله تعالى لآدم عليه السلام وزوجه وإبليس: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: 61]، فلم يحدد لهم مكانا بعينه، ولو كان ليحدد لآدم وزوجه مكانا خاصا لاستعمل لفظ النزول، لأنه أخص في تحديد الجهة.

ومن خلال هذا يتبين أن معنى الأمر بالهبوط في الآية أن يتخذ مكانا محددًا من الأرض يستقر فيه هو وقومه، يكون مباركا من عند الله عز وجل، وذكر الهبوط في هذا الموضع يدل على أن السفينة رست على الجبل المذكور، فقيل له اهبط منها أولا، ثم من الجبل ثانيا، فيستقيم التعبير في هذا المقام بالهبوط، ولا يستقيم التعبير بالنزول، لأن النزول استقرار في النهاية، بينما الهبوط هو طريق عبور إلى اتخاذ المنزل، فما كان له أن يتخذ الجبل منزلا بعد هبوطه من السفينة، فاقتضى سياق سرد القصة وتشكل مشهدها أن يحقق في مدلول الكلمة، ووجب تفسيرها حسب سياق المشهد.

وأما قوله تعالى: ﴿ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، فهذا كان: " عِنْدَ نَزُولِهِ مِنَ السَّفِينَةِ مَعَ أَصْحَابِهِ لِلإِنْتِشَارِ فِي الْأَرْضِ، وَ (السَّلَامُ) هُنَا: السَّلَامَةُ وَالْأَمْنُ وَنَحْوُهُ، وَ (الْبَرَكَاتُ): الْخَيْرُ وَالنُّمُو فِي كُلِّ الْجِهَاتِ، وَهَذِهِ الْعِدَّةُ تَعُمُّ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْفَرَزْدِيُّ؛ وَقَوْلُهُ ﴿ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾، أَي: مِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ مَعَكَ وَمِنْ نَسْلِهِمْ، فَ (مِنْ) - عَلَى هَذَا - هِيَ لِإِبْتِدَاءِ الْعَايَةِ، أَي مِنْ هَوْلَاءِ تَكُونُ هَذِهِ الْأُمَمُ، وَ (مَنْ) مَوْصُولَةٌ، وَصَلَتْهَا (مَعَكَ) وَمَا يَتَقَدَّرُ مَعَهَا نَحْوَ قَوْلِكَ: مِمَّنْ

اسْتَقَرَّ مَعَكَ وَنَحْوِهِ، ثُمَّ قَطَعَ قَوْلُهُ: ﴿ وَامَّمْ ﴾ عَلَى وَجْهِ الْإِبْتِدَاءِ إِذْ كَانَ أَمْرُهُمْ مَقْطُوعًا مِنَ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ لِأَنَّ هُمْ الْكُفَّارُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ¹.

وأما قوله تعالى: ﴿ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، أي: " وَثُمَّ أُمَّمَّ آخِرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ سَنُمَتِّعُهُمْ فِي الدُّنْيَا بِأَرْزَاقِهَا وَبِرَكَاتِهَا دُونَ السَّلَامِ الرَّبَّانِيِّ، الْمَمْنُوحِ مِنَ الْأَلْطَافِ الرَّحْمَانِيِّ، لِسَلِيمِي الْفِطْرَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ أَوْلِيكَ سَيُغْوِيهِمُ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ، وَيُرِيَن لَّهُمُ الشَّرِيكَ بِرَبِّهِمْ، وَالظُّلْمَ وَالْبَغْيَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ لَا يُحَافِظُونَ عَلَى السَّلَامِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مَنْ قَبْلَهُمْ، بَلْ يَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ لِيَتَفَرَّقَهُمْ وَاخْتِلَافِهِمْ فِي هِدَايَةِ الدِّينِ، الَّتِي نَبَعَتْ بِهَا الْمُرْسَلِينَ، كَمَا وَقَعَ لَكَ مَعَ قَوْمِكَ الْأَوَّلِينَ².

بعدما قص الله علينا نجاته نبيه ﷺ من الكرب العظيم، أخبرنا أنه جعله ومن معه في الفلك من يعمر الأرض من بعد ما أهلك الظالمين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس: 73]. ومعنى الآية: " وَجَعَلْنَا الَّذِينَ نَجَّيْنَا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ بَعْدَ أَنْ أَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا³، وقال في الآية الأخرى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: 77].

روى الترمذي في سننه، عن " سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾، قَالَ: « حَامٌ، وَسَامٌ، وَيَافِثٌ⁴، وهذا حديث ضعيف قد تكلم العلماء في إسناده⁵.

اتفق أهل العلم على أن الله تعالى جعل " ذُرِّيَّةَ نُوحٍ هُمُ الَّذِينَ بَقُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ مَهْلِكِ قَوْمِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ مِنْ بَعْدِ مَهْلِكِ قَوْمِ نُوحٍ إِلَى الْيَوْمِ إِنَّمَا هُمْ ذُرِّيَّةَ نُوحٍ، فَالْعَجَمُ وَالْعَرَبُ وَأَوْلَادُ سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَالتُّرْكُ وَالصَّقَالِبَةُ وَالْخَزَرُّ

¹ - المحرر الوجيز، ابن عطية، (432/3).

² - تفسير المنار، رشيد رضا، (74/12).

³ - تفسير الطبري، (236/12).

⁴ - رواه الترمذي، حديث رقم (3230).

⁵ - ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الألباني، حديث رقم (3683).

أَوْلَادُ يَافِثِ بْنِ نُوحٍ، وَالسُّودَانُ أَوْلَادُ حَامِ بْنِ نُوحٍ، وَبِذَلِكَ جَاءَتِ الْآثَارُ، وَقَالَتِ الْعُلَمَاءُ "1.

وحكى العلماء أن هناك فرقة زعمت دون دليل أن " الله تَعَالَى أَبَقَى ذُرِّيَّةَ نُوحٍ، وَمَدَّ نَسْلَهُ، وَبَارَكَ فِي ضَنْضِيهِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ بِأَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ انْحَصَرُوا إِلَى نَسْلِهِ، بَلْ فِي الْأَمَمِ مَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ، وَالْأَوَّلُ أَشْهَرُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ، وَقَالُوا (نُوحٌ) هُوَ آدَمُ الْأَصْغَرُ "2.

وقد يحتج بقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 3]، على أنه كانت من غيره ذرية أخرى، فهذا قول يخالف النص فيجب حمله عليه كما قال العلماء، ف﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، أي: ذرية أبنائه³.

بعدما نجا المؤمنون من الغرق والطوفان والكراب العظيم، أبقى الله عز وجل سفينة نجاتهم علامة دالة على عظم الحدث، وعبرة لمن أراد أن يعتبر، وآية للعالمين، قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 15]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: 15].

روى البخاري في صحيحه، قال: " قَالَ قَتَادَةُ: أَبَقَى اللَّهُ سَفِينَةَ نُوحٍ حَتَّى أَدْرَكَهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ "4، وروى ابن جرير عن قتادة، قال: " أَبْقَاهَا اللَّهُ بِبَاقِرْدَى مِنْ أَرْضِ الْجَزِيرَةِ، عِبْرَةٌ وَآيَةٌ، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ نَظْرًا، وَكَمْ مِنْ سَفِينَةٍ كَانَتْ بَعْدَهَا قَدْ صَارَتْ رَمَادًا "5.

لقد كان بقاء آثار هذه السفينة بأمر من الله عز وجل لتحفظ ويبقى أثرها في الناس، وتكون لهم آية تتوارث الأمم خبرها، أمة بعد أمة، تذكرهم بمصير مكذبي الرسل، وتبقى حجة عليهم قائمة يرونها رأي العين، حتى " شَهِدَهَا صَدْرُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَلَمْ تَضْمَحَلَّ حَتَّى رَأَاهَا نَاسٌ مِنْ جَمِيعِ الْأَمَمِ بَعْدَ نُوحٍ، فَتَوَاتَرَ خَبَرُهَا بِالْمُشَاهَدَةِ، تَأْيِيدًا لِتَوَاتُرِ الطُّوفَانِ بِالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ. وَقَدْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ أَنَّهَا اسْتَقَرَّتْ

1- تفسير الطبري، (560/19).

2- المحرر الوجيز، ابن عطية، (418/5).

3- ينظر: تفسير الطبري، (445/14)، وتفسير عبد الرزاق بن همام الصنعاني، (290/2)، وغيرهما.

4- رواه البخاري، باب ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

5- تفسير الطبري، (128/22).

عَلَى جَبَلِ الْجُودِيِّ، فَمِنْهُ نَزَلَ نُوحٌ وَمَنْ مَعَهُ، وَبَقِيَتِ السَّفِينَةُ هُنَالِكَ، لَا يَنَالُهَا أَحَدٌ، وَذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ حِفْظِهَا عَنِ الْأَضْمَحَالِ. وَاسْتَفَاضَ الْخَبْرُ بِأَنَّ الْجُودِيَّ جُبَيْلٌ قُرْبَ قَرْيَةٍ تُسَمَّى (بَاقِرْدَى) بِكَسْرِ الْقَافِ وَسُكُونِ الرَّاءِ وَدَالٍ مَفْتُوحَةٍ مَقْصُورًا، مِنْ جَزِيرَةِ ابْنِ عَمَرَ، قُرْبَ الْمُوصِلِ، شَرَقِيَّ دِجْلَةَ¹.

وهذا الذي بيناه في أن المقصود بالآية هو السفينة لا غير، قد خالفه بعض أهل العلم فنحى فيه منحى آخر، وأراد أن يبين معنى لفظ (آيَةٌ) بأنها إغراق المكذبين من قوم نوح عليه السلام، وهذا تأويل بعيد، لأن اللفظ لا يتحمله، فعود الضمير في الفعلين ﴿ تَرَكْنَاهَا ﴾، و﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾، يعود حتما على ما ذكر قبلهما وهو السفينة.

وقد وردت نصوص أخرى في كتاب الله عز وجل قد صرّح فيها أن إغراق المكذبين ونجاة المؤمنين هو في ذاته آية للمعتبرين، قال الله تعالى: ﴿ وَقَوْمٌ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِنَاسٍ آيَةً ﴾ [الفرقان: 37]، وقال أيضا: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ (120) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 119 - 120].

ومن متشابه اللفظ في هذين النصين الكريمين، أنه قال مرة: ﴿ تَرَكْنَاهَا ﴾، وقال في الأخرى: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾، وقد أجاب المفسرون عن ذلك، بأن " لَفْظُ التَّرِكِ يَدُلُّ عَلَى الْجَعْلِ وَالْفَرَاعِ بِالْأَيَّامِ، فَكَأَنَّهَا هُنَا مَذْكُورَةٌ بِالتَّفْصِيلِ، حَيْثُ بَيَّنَّ الْأَمْطَارَ مِنَ السَّمَاءِ، وَتَفْجِيرَ الْأَرْضِ، وَذَكَرَ السَّفِينَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿ ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر: 13]، وَذَكَرَ جَزِيرَتَهَا، فَقَالَ: ﴿ تَرَكْنَاهَا ﴾، إِشَارَةً إِلَى تَمَامِ الْفِعْلِ الْمَقْدُورِ، وَقَالَ هُنَاكَ: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ إِشَارَةً إِلَى بَعْضِ ذَلِكَ"².

وبهذه الألفاظ في النص القرآني ينتهي ذكر قصة هذا النبي الكريم عليه السلام، وهو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض، وهو آدم الأصغر، أبو البشر بعد نبي الله

¹ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (179/27).

² - تفسير الرازي، (298/29 - 299).

آدم عليه السلام، ولم ترد نصوص أخرى من القرآن تبين حياة ما بعد الطوفان، ولم يذكر في سنة النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء إلا ما جاء في بعض وصيته عليه السلام.

إِسْدَالُ السِّتَارِ: مَوْتُ نَبِيِّ اللَّهِ نُوحٍ عليه السلام

يسدل ستار نهاية هذه القصة بموت نبي الله ورسوله نوح عليه السلام بعد رحلة دعوة طويلة طويلة، قضاها هذا النبي الكريم في مكابدة وعناء مع قوم ظالمين. روى أحمد في مسنده، عن عبد الله بن عمرو، قال: " كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، عَلَيْهِ جُبَّةٌ سِيحَانٍ، مَزْرُورَةٌ بِالْدِيْبَاكِ، فَقَالَ: « أَلَا إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا قَدْ وَضَعَ كُلَّ فَارِسٍ ابْنِ فَارِسٍ، قَالَ: يُرِيدُ أَنْ يَضَعَ كُلَّ فَارِسٍ ابْنِ فَارِسٍ، وَيَرْفَعَ كُلَّ رَاعٍ ابْنِ رَاعٍ ».

قَالَ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِمَجَامِعِ جُبَّتِهِ، وَقَالَ: « أَلَا أَرَى عَلَيْكَ لِبَاسَ مَنْ لَا يَعْقِلُ ». ثُمَّ قَالَ: « إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا صلى الله عليه وسلم لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ: أَمْرُكَ بِائْتِنَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ، أَمْرُكَ بِإِلَهِ الْإِلَهِ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وَضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوَضِعَتْ لِإِلَهِ الْإِلَهِ فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ لِإِلَهِ الْإِلَهِ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً، قَصَمْتُهُنَّ لِإِلَهِ الْإِلَهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةٌ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ ».

قَالَ: قُلْتُ، أَوْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذَا الشِّرْكَ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الْكِبْرُ؟ قَالَ: الْكِبْرُ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا نَعْلَانِ حَسَنَتَانِ، لَهُمَا شِرَاكَانِ حَسَنَانِ؟ قَالَ: « لَا ». قَالَ: هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا حُلَّةٌ يَلْبَسُهَا؟ قَالَ: « لَا ». قَالَ: الْكِبْرُ هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا دَابَّةٌ يَرْكَبُهَا؟ قَالَ: « لَا ». قَالَ: أَفَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا أَصْحَابٌ يَجْلِسُونَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: « لَا ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا الْكِبْرُ؟ قَالَ: « سَفَهُ الْحَقِّ، وَغَمَصُ النَّاسِ »¹.

¹ - حديث صحيح، رواه أحمد، المسند، حديث رقم (6583)، والبخاري في كتاب الأدب المفرد، حديث رقم (548).

الْفَصْلُ السَّادِسُ

كَلَامُ عُلَمَاءِ الْمُتَشَابِهِ

الْلَّفْظِيِّ عَلَى قِصَّةِ

نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

أَلْفُ صُلِّ السَّادِسُ

كَلَامُ عُلَمَاءِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ
عَلَى قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

مُحْمَلُ الْقِصَّةِ:

1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 59 – 64].

2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَامْرَأَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [يُونُسَ: 71 – 73].

3 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدَائِهِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْلِزْ مَكْمُومَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمَنْ الظَّالِمِينَ (31) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلَا

يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35) وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَاوِي إِلَى جِبَلٍ يَغْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ هُودٍ: 25 - 48 ﴾.

4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَعْرِفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء: 76 - 77].

5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي

بِمَا كَذَّبُونَ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿ [المؤمنون: 23 - 30].

6 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (110) قَالُوا أَنْوْمُنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ (111) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَنْ لِمَ تَنْتَهِي يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾ [الشعراء: 105 - 120].

7 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: 14 - 15].

8 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴾ [الصافات: 75 - 82].

9 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ

الْمُشَاهِدُ التَّفْصِيلِيَّةُ لِقِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

1 - الْمَشْهَدُ الْأَوَّلُ

رِسَالَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِدَايَةُ الدَّعْوَةِ

- 1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59].
- 2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هُود: 25 - 26].
- 3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: 23].
- 4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء: 105 - 110].
- 5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ [نوح: 1 - 2].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

** قال الإسكافي في سورة الأعراف (دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَعُرَّةُ التَّأْوِيلِ):

الآية السادسة منها (108 - 109) :

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف: 59]، وَقَالَ فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ [هُود: 25]، وَفِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ [المؤمنون: 23].

لِلسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ حَذْفِ (الْوَاوِ) مِنْ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَالْإِتْيَانِ بِهَا فِي سُورَتَيْ هُودٍ وَالْمُؤْمِنِينَ ؟

وَالْجَوَابُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ إِلَىٰ أَنْ اتَّصَلَتْ بِهِ فِي وَصْفِ مَا اخْتَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنْ أَعْدَاتِ خَلْقِهِ وَبَدَائِعِ فِعْلِهِ مِنْ حَيْثُ قَالَ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف: 54]، إِلَىٰ ذِكْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالرِّيَّاحِ وَالْأَمْطَارِ وَالنَّبَاتِ، وَالسَّهْلِ مِنَ الْأَرْضِ وَالطَّيِّبِ وَالْحَزْنَ مِنْهَا وَالصَّدِّ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا ذِكْرُ بَعْثَةِ نَبِيِّ وَمُخَالَفَةٍ مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ عَدُوٍّ، فَصَارَ كَالْأَجْنَبِيِّ مِنَ الْأَوَّلِ فَلَمْ يَعْظِفْ عَلَيْهِ، وَاسْتَوْفَىٰ ابْتِدَاءً كَلَامًا لِيُذَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ فِي حُكْمِ الْمُنْقَطِعِ مِنَ الْأَوَّلِ.

وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ هُودٍ، لِأَنَّ أَوَّلَهَا افْتَتِحَ إِلَىٰ أَنْ انْتَهَىٰ إِلَىٰ قِصَّةِ نُوحٍ بِمَا هُوَ اِحْتِجَاجٌ عَلَىٰ الْكُفَّارِ بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي أَظْهَرَهَا عَلَىٰ أَيْدِي أَنْبِيَائِهِ وَالسِّنِّيَّةِ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَتَوَعَّدَ لَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَذَكَرَ قِصَّةَ مَنْ قَصَصَ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ جَدَّ بِآيَاتِهِمْ أَمَّهُمْ، فَعُطِفَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَىٰ مَا قَبْلَهَا إِذْ كَانَتْ مِثْلَهَا، أَلَّا تَرَىٰ أَنَّ أَوَّلَ السُّورَةِ: ﴿ الرِّبَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هود: 1 – 2]، وَبَعْدَ الْعَشْرِ مِنْهَا: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ [هود: 12 – 13]، ثُمَّ وَصَفَ حَالَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَأَخْبَتَ إِلَىٰ رَبِّهِ، وَحَالَ مَنْ افْتَرَىٰ عَلَىٰ رَبِّهِ، وَحَصَلَ عَلَىٰ خُسْرَانِ نَفْسِهِ، وَشَبَّهَهُمَا بِحَالَ مَنْ انطوى عَلَىٰ ذِكْرِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [هود: 24]، فَأَقْتَضَىٰ تَشَابُهُ الْقِصَّتَيْنِ عَطْفَ الثَّانِيَةِ عَلَىٰ الْأُولَىٰ.

وَأَمَّا فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْهَا: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ [المؤمنون: 12]، ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ [المؤمنون: 17]، ثُمَّ انْقَطَعَتْ الْآيَةُ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون: 22]، فَكَانَ مَا تَقَدَّمَ فِي هَذَا الْمَكَانِ مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ الْآيَةَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، إِلَّا أَنَّهُ بَايَنُهُ بِأَنَّ كَانَ فِيهِ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾، ثُمَّ انْقَطَعَتْ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22) ﴾، وَالْفُلْكِ الَّتِي يُحْمَلُ عَلَيْهَا مِمَّا اتَّخَذَهُ نُوحٍ ﷺ، فَدَخَلَتْ (وَآؤ)

الْعَطْفِ فِي قِصَّةِ نُوحٍ عليه السلام لِلْفَظَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ، وَهَمَا: (وَلَقَدْ) فِي رُؤُوسِ الْآيَتَيْنِ، وَالْمَعْنَى الْمُفْتَضَى مِنْ ذِكْرِ الْفُلْكِ الَّذِي نَجَّى اللَّهُ عَلَيْهِ مَنْ جَعَلَهُ أَصْلَ الْخَلْقِ وَبَدَأَ هَذَا النَّسْلَ.

*** قال ابن جماعة في سورة الأعراف (كَشَفَ الْمَعَانِي) (1 / 177 -

: (178)

مَسْأَلَةٌ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ بِغَيْرِ (وَآوِ)، وَفِي هُودٍ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ ؟

جَوَابُهُ:

أَنَّ هُنَا لَمْ يَتَقَدَّمْهُ دَعْوَى نُبُوَّةٍ وَرَدُّ قَوْمٍ مُدْعَى ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَهُوَ كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ، وَفِي هُودٍ وَالْمُؤْمِنِينَ: تَقَدَّمَ مَا يُشْعِرُ بِذَلِكَ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾ الْآيَةَ، فَحَسُنَ الْعَطْفُ عَلَيْهِ بِـ (الْوَآوِ)، وَتَسْلِيَّةٍ لِلنَّبِيِّ عليه السلام، وَتَحْوِيلًا لِقَوْمِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ الْآيَاتِ. وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ: فَلِتَقَدَّمَ ذِكْرُ نِعْمِهِ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ بِحَمْلِهِمْ عَلَى الْفُلْكِ الَّذِي كَانَ سَبَبًا لَوْجُودِهِمْ وَنَسْلِهِمْ، فَعَطِفَتْ عَلَيْهِ بِالْوَآوِ، وَبِقَوْلِهِ: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22) ﴾ فَلِأَنَّهُ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾، فَنَاسَبَ الْعَطْفُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ الْآيَةَ.

*** قال الكرمانى في سورة الأعراف (أَسْرَارُ التَّكْرَارِ فِي الْقُرْآنِ) (1 / 82):

قَوْلُهُ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ [الأعراف: 59]، فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِغَيْرِ (وَآوِ)، وَفِي [هُودٍ: 25]، وَ[الْمُؤْمِنُونَ: 23]، ﴿ وَلَقَدْ ﴾ بِـ (الْوَآوِ)، وَلِأَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ذِكْرُ رَسُولٍ، فَيَكُونُ هَذَا عَطْفًا عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ اسْتِنَافٌ كَلَامٍ، وَفِي هُودٍ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الرَّسُولِ مَرَّاتٍ، وَفِي الْمُؤْمِنُونَ تَقَدَّمَ ذِكْرُ نُوحٍ ضِمْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 12]، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ صَنَعَ الْفُلْكَ، فَعَطِفَ فِي السُّورَتَيْنِ بِـ (الْوَآوِ).

قَوْلُهُ: قَوْلُهُ: ﴿ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ ﴾ [الأعراف: 59]، بِـ (الْفَاءِ) فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَكَذَلِكَ فِي الْمُؤْمِنُونَ فِي قِصَّةِ نُوحٍ: ﴿ فَقَالَ ﴾، وَفِي هُودٍ فِي قِصَّةِ نُوحٍ: ﴿ إِنِّي لَكُمْ ﴾، بِغَيْرِ (قَالَ)، وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ فِي قِصَّةِ عَادٍ بِغَيْرِ (فَاءِ)، لِأَنَّ إِثْبَاتَ (الْفَاءِ) هُوَ الْأَصْلُ، وَتَقْدِيرُهُ: (أَرْسَلْنَا نُوحًا فَجَاءَ فَقَالَ)، فَكَانَ فِي هَذِهِ

السُّورَةِ وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَى مَا يُوجِبُهُ اللَّفْظُ، وَأَمَّا فِي هُودٍ، فَالْتَقْدِيرُ: (فَقَالَ إِنِّي) فَأَضْمَرَ (قَالَ) وَأَضْمَرَ مَعَهُ (الْفَاءُ)، وَهَذَا كَمَا قُلْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 106]، أَي: (فَيُقَالُ لَهُمْ أَكْفَرْتُمْ) فَأَضْمَرَ (الْفَاءُ) وَالْقَوْلَ مَعًا. وَأَمَّا قِصَّةُ عَادٍ فَالْتَقْدِيرُ: (وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا فَقَالَ) فَأَضْمَرَ (أَرْسَلْنَا)، وَأَضْمَرَ (الْفَاءُ) لِأَنَّ دَاعِيَ (الْفَاءِ) (أَرْسَلْنَا).

*** قال الإسكافي في سورة الأعراف (دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَغُرَّةُ التَّأْوِيلِ):

الآية السابعة منها (109 – 110)

قَوْلُهُ تَعَالَى مُتَّصِلًا بِقَوْلِهِ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59]، وَقَالَ فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هُودٍ: 25 – 26]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 23].

لِلسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ:

عَنْ إِخْتِلَافِ الْمَحْكِيَّاتِ كَقَوْلِهِ بَعْدَ: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) ﴾، وَقَالَ فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾، وَفِي الْمُؤْمِنِينَ: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ؟

والجواب أن يقال :

إِنَّ لِلنَّبِيِّاءِ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَقَامَاتٍ مَعَ أُمَّهَتِهِمْ، يُكْرَرُ فِيهَا الْإِعْدَارُ وَالْإِنْدَارُ، وَيُرْجَعُ فِيهَا عَوْدًا عَلَىٰ بَدءِ، أَلْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَلَا يَكُونُ دُعَاؤُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَرَفُضِ عِبَادَةِ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي مَوْقِفٍ وَاحِدٍ، بِلَفْظٍ وَاحِدٍ، لَا يَتَّعَيَّرُ عَنْ حَالِهِ، مِثْلَ أَلْوَاعِظِ يَفْتَنُ فِي مَقَالِهِ، وَالْجَاهِدِ الْمُنْكَرِ تَخْتَلِفُ أَجْوِبَتُهُ فِي مَوَاقِفِهِ، جَاءَتْ الْمَحْكِيَّاتُ عَلَىٰ إِخْتِلَافِهَا لَمْ يُطَالَبْ، وَقَدْ اخْتَلَفَتْ فِي الْأَصْلِ بِاتِّفَاقِهَا، لِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ مَرَّةً بِاللَّفْظِ الَّذِي حَكَى، وَمَرَّةً أُخْرَىٰ بِلَفْظٍ آخَرَ فِي مَعْنَاهُ كَمَا ذَكَرَ.

وَكَذَلِكَ الْجَوَابُ يَرِدُ مِنْ أَقْوَامٍ يَكْتُرُ عَدْدُهُمْ وَيَخْتَلِفُ كَلَامُهُمْ وَمَقْصِدُهُمْ، وَصِدْقُ الْخَبَرِ يَتَنَاوَلُ الشَّيْءَ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ، فَلَا وَجْهَ إِذَا لِلْإِعْتِرَاضِ عَلَىٰ هَذَا وَنَحْوِهِ.

*** قال الغرناطي في سورة الأعراف (مَلَاكُ التَّأْوِيلِ):

الآية السابعة (510 — 517):

قَوْلُهُ جَلَّ وَتَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59]، وَفِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: 25 — 26]، وَفِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: 23].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ سِتُّ سُؤَالَاتٍ:

السُّؤَالُ الْأَوَّلُ:

قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ عَيْرٌ مُنْسُوقٌ بِـ (وَاوِ) الْعَطْفِ، وَفِي السُّورَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ بِـ (وَاوِ) الْعَطْفِ.

وَالثَّانِي:

اِخْتِلَافُ مَقَالِهِ الظن لَهُمْ.

وَالثَّلَاثُ:

وَجْهُ اِخْتِصَاصِ الْوَاقِعِ فِي كُلِّ سُورَةٍ مِنَ الثَّلَاثِ مِنْ مَقَالِهِ بِتِلْكَ السُّورِ.

وَالرَّابِعُ:

وَجْهُ اِخْتِلَافِ مَا حَوَّفَهُمْ بِهِ وَأَنْذَرَهُمْ، إِثْرَ أَمْرِهِمْ بِالْعِبَادَةِ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ.

وَالْخَامِسُ:

وَجْهُ نِدَائِهِمْ لَهُمْ فِي السُّورَتَيْنِ، وَسُقُوطِ ذَلِكَ فِي سُورَةِ هُودٍ.

وَالسَّادِسُ:

وَجْهُ افْتِتَاحِ أَمْرِهِمْ بِالْعِبَادَةِ فِي السُّورَتَيْنِ، وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ هُودٍ قَبْلَ أَمْرِهِ

إِيَّاهُمْ: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [هود: 25]، فَهَذِهِ سِتُّ سُؤَالَاتٍ.

الجَوَابُ عَنِ الْأَوَّلِ:

أَنَّ آيَةَ الْأَعْرَافِ لَمْ يَتَقَدَّمْهَا ذِكْرُ إِرْسَالِ، وَلَا أَمْرٌ بِدُعَاءِ الْخُلُقِ، وَلَا جُمْلَةٌ يُنَاسِبُهَا عَطْفُ إِرْسَالِ الرَّسْلِ إِلَى الْأَمَمِ، وَدُعَاءِ الْخُلُقِ إِلَى الْإِيمَانِ، إِنَّمَا تَقَدَّمَ قَبْلَهَا ذِكْرُ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ، ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** ﴾ [الأعراف: 54]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ **لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ** ﴾ [الأعراف: 58]، ثُمَّ ابْتَدَأَتْ قِصَصُ الرَّسْلِ مَعَ أُمَّمِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ** ﴾ وَتَتَابَعَتْ قِصَصُهُمْ.

أَمَّا آيَةُ هُودٍ فَقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَهَا ذِكْرُ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِذَلِكَ افْتَتَحَتْ السُّورَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ **كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** ﴾ [هود: 1 - 2]، ثُمَّ اسْتَمَرَ ذِكْرُ دُعَائِهِمْ، وَتَحْذِيرِهِمْ مِنَ التَّوَلَّى، وَمَا يَعْقُبُهُ إِنْ وَقَعَ مِنْهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَ تَحْدِيهِ ﷺ إِيَّاهُمْ بِالْقُرْآنِ، وَطَلَبِهِمْ بِمَعَارِضَتِهِ، وَالْإِتْيَانِ بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ فِي الْبَلَاغَةِ، وَعَلَى النَّظْمِ، وَإِنْ كَانَ مَا يَأْتُونَ بِهِ مُفْتَرَى لِيَكُونَ أَسْهَلَ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَعْدِلْ بِالْأَيِّ عَنِ هَذَا الْغَرَضِ، وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ إِلَى ذِكْرِ إِرْسَالِ نُوحٍ ﷺ، فَوَرَدَتْ الْآيَةُ بِذَلِكَ مُنْسُوقةً عَلَى مَا تَقَدَّمَهَا بِـ (وَ) الْعَطْفِ عَلَى أْتَمِّ مُنَاسِبَةٍ.

وَأَمَّا آيَةُ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ فَقَدْ وَرَدَ قَبْلَهَا مَا يُنَاسِبُ عَطْفَهَا عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً** ﴾ [المؤمنون: 12 - 14]، وَبَعْدَهَا: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ** ﴾ [الآيات]، فَذَكَرَهُمْ بِإِيجَادِهِمْ، وَانْتِقَالِهِمْ مُتَقَلِّبِينَ فِي أَطْوَارٍ، مُكْتَنِفِينَ بِتَوَالِي إِنْعَامِهِ، مُنْسُوقةً بَعْضُ ذَلِكَ عَلَى بَعْضٍ، مُفْتَتِحَةً الْمَطَالِعَ بِمَا يَتَأْتَى بِهِ الْقَسَمُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى، تَحْكِيمًا وَإِظْهَارًا لِلظَّاهِرِ مِنْ اِكْتِنَافِ إِنْعَامِهِ وَإِحْسَانِهِ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ مَا أَنْعَمَ بِهِ مِنْ إِرْسَالِ الرَّسْلِ، فَذَكَرَ أَوْلَهُمْ إِرْسَالَ إِلَى الْخُلُقِ لِيُنَاسِبَ مَا بَدَؤُوا بِهِ مِنَ النِّعَمِ الْأَوَّلِيَّةِ، فَقَالَ: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ** ﴾، وَكُلُّ مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، نَعَمٌ مُنَاسِبَةٌ، وَالْآءُ مُتَوَالِيَةٌ، وَلِهَذَا لَمْ يَذْكَرْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ذِكْرَ عَذَابٍ إِلَّا بِالْإِيمَاءِ الْوَجِيزِ، وَخُصَّتْ بِقَوْلِهِ عَقِبَ الْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ: ﴿ **أَفَلَا تَتَّقُونَ** ﴾ [المؤمنون: 23]، فَذَكَرَهُمْ بِالتَّقْوَى الْمُجَرَّدةِ، لِنَجَاتِهِمْ وَتَخْلُصِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيِلْءِ ذِكْرِ الْعَذَابِ وَالْإِفْصَاحِ بِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ التَّذْكِيرِ بِإِحْسَانِهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنْعَامِهِ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هُنَا.

وَالْجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ الثَّانِي:

أَنَّ دُعَاءَ الرُّسُلِ أَمَّهُمْ مِمَّا يَتَكَرَّرُ وَيَتَوَالَى فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَمَحَالٍ مُتَبَايِنَةٍ، فَمَرَّةٌ يُرْعَبُونَ، وَمَرَّةٌ يُخَوَّفُونَ وَيُنذِرُونَ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ حَالِ حَالٍ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. فَاخْتِلَافُ الْمَحْكِيِّ مِنْ مَقَالِهِمْ، إِنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ، وَمَا يُنَاسِبُ كُلَّ وَقْتٍ وَفَتْ، وَمَا يَجْرِي فِيهِ وَيُشَاهَدُ مِنْ أَقْوَالِ الْمَدْعُوعِينَ وَأَحْوَالِهِمْ، وَكُلُّ الْمَحْكِيِّ مِنْ مَعْنَى مَقَالَاتِهِمْ لَا إِشْكَالَ فِيهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، كَانَ يَدْعُوا قِبَالَ الْعَرَبِ إِذَا وَقَدُوا عَلَى مَكَّةَ، وَيَقِفُ عَلَى كُلِّ قَبِيلَةٍ قَبِيلَةٍ، فَيُكَلِّمُهُمْ، وَيُسْمِعُهُمُ الْقُرْآنَ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ بِمَا يُنَاسِبُ أَحْوَالَهُمْ وَمَقَالَهُمْ، أَلَا تَرَى قَوْلَهُ ﷺ لِقَبِيلَةٍ كَانَتْ تُعْرِفُ بِنَبِيِّ عَبْدِ اللَّهِ: " يَا بَنِي عَبْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ اسْمَ أَبِيكُمْ "، فَكَانَ يَفْتَتِحُ دُعَاءَ كُلِّ طَائِفَةٍ بِمِثْلِ هَذَا، فَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، فَلَا سُّؤَالَ فِي الْمَحْكِيِّ مِنْ قَوْلِ نُوحٍ ﷺ لِقَوْمِهِ وَاخْتِلَافِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا السُّؤَالُ فِي اخْتِصَاصِ كُلِّ سُورَةٍ بِالْوَاقِعِ فِيهَا مِنْ حِكَايَةِ كَلَامِهِ ﷺ، إِذْ لَا يَذْكَرُ فِي كُلِّ سُورَةٍ إِلَّا مَا يُنَاسِبُ، وَهُوَ السُّؤَالُ الثَّلَاثُ.

وَالْجَوَابُ عَنْهُ:

أَنَّهُ لَمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْيَوْمِ الْآخِرِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ، مِنْ أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى ابْتِدَاءِ قِصَّةِ نُوحٍ، وَقَدْ تَضَمَّنَ مَا ذَكَرَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَا يُعْظَمُ أَمْرَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 8]، وَقَوْلِهِ: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 38]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 39]، وَقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 40]، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 44]، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تَلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 47]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 49]، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 50]، وَقَوْلِهِ: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 53]. فَلَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ أَهْوَالِ هَذَا الْيَوْمِ مَا لَمْ يَتَقَدَّمَ فِي السُّورَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ، نَاسَبَهُ مِنْ مَقَالَاتِ نُوحٍ لِقَوْمِهِ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 59]، وَنَاسَبَ قَوْلَهُ: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 59] قَوْلَ الْمُتَحَنِّينِ: ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ [الْأَعْرَافِ: 53]. وَأَمَّا افْتِتَاحُ الْآيَةِ بِأَمْرِهِمْ بِالْعِبَادَةِ فَبَيِّنٌ،

وَأَمَّا آيَةُ هُودٍ فَأَفْتَتَاحُ دُعَاءِ نُوحٍ قَوْمَهُ فِيهَا بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [هُود: 25], يُنَاسِبُ قَوْلَ نَبِيِّنَا ﷺ لِلْعَرَبِ فِي إِخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هُود: 2], وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ [هُود: 12], وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴾ [هُود: 26], فَمُنَاسِبٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا ﷺ لِقَوْمِهِ مِمَّنْ خَاطَبَهُ وَشَافَهُهُ: ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هُود: 3], وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ [هُود: 8], وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلَنَّا لَهُ مَوْعِدَهُ ﴾ [هُود: 17], فَتَكَرَّرَ ذِكْرُ الْعَذَابِ يُنَاسِبُهُ مَا خُتِمَتْ بِهِ آيَةُ دُعَاءِ نُوحٍ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هُود: 17]. وَأَمَّا آيَةُ الْمُؤْمِنِينَ، فَالْجَوَابُ عَنْهَا مَا تَقَدَّمَ مُنْجَرًّا فِي الْجَوَابِ عَنِ السُّؤَالِ الْأَوَّلِ، وَتَحَصَّلَ مِنْ أَنَّهُ حُكِيَ مِنْ مَقَالَاتِهِ ﷺ فِي كُلِّ سُورَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ مَا يَجْرِي مَعَ مَا اتَّصَلَ بِهِ، وَيُنَاسِبُهُ حَسَبًا تَبَيَّنَ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُنَاسِبِ وَرُودُ مَا فِي سُورَةٍ مِنْهَا مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْأُخْرَى. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

وَالْجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ الرَّابِعِ:

قَدْ انْجَرَّ فِيمَا تَقَدَّمَ.

وَعَنِ الْخَامِسِ:

أَنَّ نِدَاءَهُمْ فِي السُّورَتَيْنِ لَا كَلَامَ فِيهِ لِجَرَيَانِهِ عَلَى مَا يَنْبَغِي، فَإِنَّمَا يُسْأَلُ عَنْ سَفُوطِ ذَلِكَ فِي سُورَةِ هُودٍ؟

وَوَجْهُهُ، أَنَّ ذَلِكَ جَارٍ مَعَ مَا افْتُتِحَتْ بِهِ السُّورَةُ مِنْ قَوْلِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا ﷺ: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [هُود: 2], فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ يُفْرِدُوهُ بِهَا، وَلَمْ يُنَادِهِمْ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِيَلَاءِمَ مَطْلَعِ السُّورَةِ، إِذْ لَمْ يَجْرُ ذِكْرُهُ ﷺ مَنْطُوقًا بِهِ، فَيَنْزِلَ عَلَيْهِ نِدَاؤُهُمْ، بَلْ قِيلَ لَهُ: ﴿ الرِّيبُ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هُود: 1], ثُمَّ اتَّبَعَ هَذَا بِأَمْرِهِمْ، مُبْتَدِئًا بِحَرْفِ الْعِبَارَةِ وَالتَّفْسِيرِ، وَهُوَ أَنَّ الْحَرْفَ الْوَاقِعَ بَعْدَ مَا يُنْبِئُ، وَيَحْصُلُ مِنْهُ مَعْنَى الْقَوْلِ، وَلَيْسَ بِصَرِيحِ قَوْلٍ وَلَا مُرَادِفٍ، إِلَّا أَنَّهُ يُفْهَمُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْطَلِقَ الْأَمْلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا ﴾ [ص: 6], (فَرَأَى) الْوَاقِعَةَ حَرْفٌ

عِبَارَةٌ وَتَفْسِيرٍ، الْمَقْدَرَةُ بِـ (أَيُّ)، إِنَّمَا تَأْتِي بَعْدَ مَا يُفْهَمُ الْقَوْلُ، فَكَمَا يَقَعُ بَعْدَهَا مَا يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيرِ الْقَوْلِ وَلَيْسَ بِقَوْلٍ، كَذَلِكَ يَقَعُ بَعْدَ مَا لَا يَلْتَنِمُ مَعَهُ ذِكْرُ الْقَوْلِ، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ مَعْنِيًّا عَنْهُ، وَمِنْهُ مَطْلَعُ هَذِهِ السُّورَةِ، بَعْدَ التَّنْبِيهِ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، فَقِيلَ: ﴿ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [هُود: 1 - 2]، كَمَا قِيلَ فِي آيَةِ ص: ﴿ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا ﴾ [ص: 6]، فَلَيْسَ مَوْضِعُ صَرِيحِ الْقَوْلِ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ الْحِكَايَةُ، وَرَدَّ دُونَ صَرِيحِ قَوْلٍ، ثُمَّ وَرَدَتْ قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى هَذَا الْمَنْهَجِ لِلْمُنَاسَبَةِ، ثُمَّ جِيءَ بِقِصَّةِ هُودٍ وَصَالِحٍ بَعْدَ هَذَا، مُفْتَتِحِينَ بِالْقَوْلِ عَلَى مَا يَجِبُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ السَّادِسِ:

أَنَّ افْتِتَاحَ أَمْرِهِمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ فِي سُورَتِي الْأَعْرَافِ وَالْمُؤْمِنُونَ لَا سُؤَالَ فِيهِ، لِأَنَّ أَوَّلَ مَا يُطَلَّبُ بِهِ الْخَلْقُ، وَإِنَّمَا يُسْأَلُ عَنِ افْتِتَاحِ مُكَالَمَتِهِمْ فِي سُورَةِ هُودٍ بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [هُود: 25]؟
وَوَجْهَ ذَلِكَ، مُطَابَقَتُهُ لِمَا افْتِتَحَتْ بِهِ السُّورَةُ مِنْ قَوْلِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَمْرِ رَبِّهِ، مُخَاطَبًا بِكَلَامِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هُود: 2].

2 - الْمَشْهَدُ الثَّانِي

مَجَالِسُ الدَّعْوَةِ وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ

- 1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: 60 - 63].
- 2 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: 71 - 72].
- 3 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّاْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلِ بَلْ

نَظَنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُنزِلُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَأَنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ [هُود: 27 - 34].

4 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (25) ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 24 - 25].

5 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا أَنْوَمِنَ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ (111) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَنْ لِمَ تَنْتَهِي يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشُّعْرَاءِ: 111 - 116].

6 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كَبِيرًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نُوح: 22 - 23].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

**** قال الإسكافي في سورة الأعراف (دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَعُرَّةُ التَّأْوِيلِ):**

الآية التاسعة منها (111 - 112) :

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 62]، وَقَالَ فِي قِصَّةِ هُودٍ: ﴿ أَبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) ﴾.

لِلسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ:

عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾.
وَمَا الَّذِي افْتَضَى الْأِسْمَ فِي الْآخِرِ وَالْفِعْلَ فِي الْأَوَّلِ، وَهَلْ كَانَ يَصِحُّ أَحَدُهُمَا مَكَانَ
صَاحِبِهِ؟

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا أَنْ يُقَالَ:

إِنَّ الْمَعْنَى كَلَامُ نُو ﷺ □ مَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَمَعْنَى كَلَامٍ هُوْدٍ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ
تَعَالَى حَاكِيًا عَنْهُ، وَلَيْسَ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: إِذَا كَانَ الْقَوْلَانِ صَحِيحَيْنِ فِي مَوْضِعِهِمَا فَهَلَّا
قَالَ أَحَدُهُمَا قَوْلَ آخَرَ؟

وَالْوَجْهُ الثَّانِي أَنْ يُقَالَ:

إِنَّ قَوْلَ نُوحٍ ﷺ جَوَابٌ مَنْ ضَلَّ، لِأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾
[الأعراف: 60]، وَهُوَ ﷺ قِيلَ لَهُ: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف: 66].

وَ(الضَّلَالُ) مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ، تَقُولُ: (ضَلَّ)، فَهُوَ (ضَالٌّ)، وَ(السَّفَاهَةُ) مِنْ
صِفَاتِ النَّفْسِ، وَهِيَ ضِدُّ الْحِلْمِ، وَهُوَ مَعْنَى ثَابِتٍ يُوَلِّدُ الْخِفَّةَ وَالْعَجَلَةَ الْمَذْمُومَتَيْنِ،
وَالْحِلْمُ مَعْنَى ثَابِتٍ يُوَلِّدُ الْأَنَاءَةَ الْمَحْمُودَةَ، فَكَانَ جَوَابٌ مَنْ عِيبَ بِفِعْلِ مَذْمُومٍ نَفِيَهُ بِفِعْلِ
مَحْمُودٍ، لَا بَلَّ بِأَفْعَالٍ تَنْفِي مَا ادَّعَوْهُ عَلَيْهِ، وَهِيَ أَنْ قَالَ: (لَسْتُ ضَالًّا، وَلَكِنِّي رَسُولٌ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أُوَدِّي إِلَيْكُمْ مَا تَحَمَلْتُمْ مِنْ أَوْامِرِهِ، وَأَدْعُوكُمْ بِإِخْلَاصٍ إِلَى إِصْلَاحِ
أَمْرِكُمْ، وَأَعْلَمُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)، فَنَفَى الضَّلَالَ بِهَذِهِ الْأَفْعَالِ.
وَهُوَ ﷺ لَمَّا رَمِيَ بِالسَّفَاهَةِ وَهِيَ مِنَ الْخِصَالِ الْمَذْمُومَةِ الثَّابِتَةِ، وَلَيْسَتْ مِنَ
الْأَفْعَالِ الَّتِي يَنْتَقِلُ الْإِنْسَانُ عَنْهَا إِلَى أُضْدَادِهَا فِي الزَّمَنِ الْقَصِيرِ مَرَارًا كَثِيرَةً، فَكَانَ
نَفِيَهَا بِصِفَاتٍ ثَابِتَةٍ تُبْطِلُهَا أَوْلَى، كَمَا كَانَ نَفِيُّ الْفِعْلِ الْمَذْمُومِ بِالْفِعْلِ الْمَحْمُودِ أَوْلَى.

فَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾، أَي: أَنَا ثَابِتٌ لَكُمْ عَلَى النَّصِيحِ ثِقَةً فِي النَّفْسِ،
لَا أَنْتَقِلُ مِنَ النَّصِيحِ إِلَى الْغَيْثِ، وَلَا أَتَبَدَّلُ خِيَانَةً بِالْأَمَانَةِ، وَكَانَ جَوَابٌ كُلِّ مِنَ الْكَلَامَيْنِ
مَا لَاقَ بِهِ وَاقْتَضَاهُ.

*** قال الغرناطي في سورة الأعراف (مَلَأَ التَّأْوِيلِ):

الآية التاسعة من سورة الأعراف (526 – 529):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَبْلِغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 62]، وَفِي قِصَّةِ هُودٍ: ﴿ أَبْلِغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 62].

فِيهِمَا سُؤَالَانِ:

قَوْلُهُ: ﴿ وَأَنْصَحْ لَكُمْ ﴾، وَفِي الْأُخْرَى: ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾.

وَالثَّانِي: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ النَّبِيِّينَ الْكَرِيمِينَ يَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مَا لَا يَعْلَمُهُ قَوْمُهُ، فَهَلْ فِي قِصَّةِ نُوحٍ مَا يَحْمِلُهُ عَلَى قَوْلِهِ لِقَوْمِهِ: ﴿ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، مَا لَيْسَ فِي قِصَّةِ هُودٍ؟

وَالْجَوَابُ عَنْهُمَا مَعًا:

أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ عليه السلام لَمَّا رَمَوْهُ بِالضَّلَالِ وَأَكْدُوا ذَلِكَ، وَزَعَمُوا اسْتِحْكَامَهُ بِالْوَصْفِ فِي قَوْلِهِمْ لَهُ عليه السلام: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾، فَزَعَمُوا أَنَّ ضَلَالَهُ غَيْرُ خَافٍ، وَهُوَ الدَّهَابُ عَنِ طَرِيقِ الصَّوَابِ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا عَنِ عَدَمِ الْعِلْمِ بِمَا فِيهِ رِشَادُ الضَّالِّ، وَاسْتِقَامَةُ حَالِهِ، نَفَى عليه السلام كُلَّ ذَلِكَ عَنِ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾، ثُمَّ اتَّبَعَ بِأَوْصَافٍ عَلَيْهِ تَنَاقُضُ قَوْلَهُمْ وَتَدْفَعُهُ، وَتَشْهَدُ لِلْمُتَّصِفِ بِهَا بِبِرَاعَتِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَتَرُدُّ ذَلِكَ الْوَصْفَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ الْأَهْلُونَ لَمَّا رَمَوْهُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، وَلَا يُرْسِلُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْأَمَّاكَ لِلْكُلِّ، الْعَلِيمُ بِهِمْ إِلَّا مَنْ جَعَلَهُ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الْمُهْتَدِينَ الْعَالَمِينَ بِنِصَابِ الرِّسَالَةِ وَمَا يَلْزَمُ مُتَحَمِّلَهَا، ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمْ نُصْحَهُ وَاسْتِمْرَارَهُ فِي إِبْلَاحِهِمْ وَنُصْحِهِمْ، فَقَالَ: ﴿ أَبْلِغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ ﴾، ثُمَّ اتَّبَعَ تَعْرِيفَهُمْ بِجَهْلِهِمْ بِمَا عِنْدَهُ مِنْ رَبِّهِ وَيَعْلَمُهُ هُوَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، وَإِنَّمَا قَالَ ﴿ وَأَنْصَحْ ﴾، ﴿ وَأَعْلَمْ ﴾، لِيَعْلَمَ بِتَمَادِيهِ عَلَى النُّصْحِ لَهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَلَا يَهْتَدُونَ، وَبِإِمْدَادِهِ بِزِيَادَةِ عُلُومِهِ بِالْوَحْيِ، وَهُمْ عَنِ ذَلِكَ فِي أَشْنَعِ ضَلَالٍ وَأَبْعَدِهِ، فَجَمَعَ عليه السلام فِيمَا خَاطَبَهُمْ بِهِ رَدَّ مَقَالِهِمْ، وَرَمِيَهُمْ بِأَكْثَرِ مِمَّا رَمَوْهُ بِهِ، وَرَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِالْطَّفِ رَدِّ وَأَبِينِهِ، لِمَنْ وَفَّقَ وَنَزَّ عليه السلام عِبَارَتَهُ الْمُخْلِصَةَ لِذَلِكَ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ عَنْ شَيْعِ عِبَارَتِهِمْ وَقُبْحِ مُوَاجَهَتِهِمْ.

وَأَمَّا جَوَابُ هُودٍ عليه السلام فَإِنَّ قَوْمَهُ لَمَّا قَالُوا: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾، فَرَمَوْهُ بِخَفَّةِ الْحِلْمِ، وَقِلَّةِ الثَّبَاتِ، وَكَثْرَةِ الطَّيْشِ، نَفَى عليه السلام ذَلِكَ عَنِ نَفْسِهِ، فَقَالَ: ﴿ لَيْسَ بِي

سَفَاهَةٌ ﴿، فَرَدَّ قَوْلَهُمْ، ثُمَّ عَرَّفَهُمْ بِرِسَالَتِهِ، وَقَدَّمَ مَا يَنْبَغِي لِلرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ، ثُمَّ اتَّبَعَ بِجَلِيلِ أَدَاءِ أَمَانَةِ الرِّسَالَةِ مِنَ التَّبْلِيغِ وَالتَّمَادِي عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿ **أَبْلِغْكُمْ** ﴾، فَجَاءَ بِالْفِعْلِ الْمُشْعِرِ بِالتَّكْرُرِ وَالتَّسْتَمْرَارِ، قِيَامًا بِإِبْلَاحِ رِسَالَتِهِ، وَحِفْظًا لِأَمَانَتِهَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿ **وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ** ﴾، فَعَرَّفَهُمْ بِصِفَتَيْنِ جَلِيلَتَيْنِ قَدْ اِكْتَنَفَتْهُ الْعِصْمَةُ فِيهِمَا، وَمَنْ كَانَتْ صِفَتَاهُ اللَّازِمَتَانِ لَهُ النَّصْحُ وَالأَمَانَةُ، فَقَدْ تَنَزَّهَ قَدْرُهُ عَنِ الطَّيْشِ، وَعَدِمَ الْحِلْمَ، ﴿ **أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾، وَإِنَّمَا أَتَى فِي إِخْبَارِهِمْ بِنُصْحِهِ وَأَمَانَتِهِ بِالإِسْمِ، فَقَالَ: ﴿ **نَاصِحٌ أَمِينٌ** ﴾، وَلَمْ يَقُلْ (أَنْصَحُ) - فَيَأْتِي بِالْفِعْلِ - لِيَحْصُلَ مِنْهُ أَنْ ذَلِكَ الوَصْفُ الْجَلِيلُ لِأَزْمٍ لَهُ غَيْرُ مُفَارِقٍ، وَلَمْ يَكُنِ الْفِعْلُ لِيُعْطِيَ ذَلِكَ، فَجَاءَ بِالإِسْمِ، وَجَعَلَهُ الْخَبَرَ عَنْ ضَمِيرِهِ الَّذِي هُوَ (أَنَا)، فَهَذَا مَقْصُودٌ ثَابِتٌ الوَصْفِ وَلِزُومِهِ، مِثْلُ الوَارِدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** ﴾، فَأَخْبَرَ عَنْ قَوْلِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿ **آمَنَّا** ﴾، بِالْفِعْلِ الْمَاضِي، وَلَيْسَ مِنْ وَضْعِهِ إِعْطَاءُ الدَّوَامِ فِي الأَكْثَرِ، إِذْ قَدْ يَقُولُ: (فَعَلْتُ) مِنْ أَوْقَعِ الْفِعْلَ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ لِإِخْوَانِهِمْ وَشَيَاطِينِهِمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿ **إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴾، فَجَاءُوا بِالإِسْمِ إِعْلَامًا بِصِفَتِهِمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا مُسْتَمِرُّونَ، فَكَذَا هَذَا الإِخْبَارُ الوَاقِعُ هُنَا فِي هَذَا الْمَقْصُودِ مِنَ التَّمَادِي وَالتَّسْتَمْرَارِ، حِينَ قَالَ هُوَ ﷺ: ﴿ **وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ** ﴾، فَجَاءَ الإِسْمُ فَانْتَفَى مَا رَمَوْهُ بِهِ مِنَ السَّفَاهَةِ جُمْلَةً، وَقَابَلَ ﷺ مَقَالَهُمُ الشَّنِيعَ بِخَبَرِهِ الصَّادِقِ عَنْ نَفْسِهِ، فَرَدَّ مَقَالَهُمْ، وَلَمْ يَكُنِ الْفِعْلُ يُحْرِزُ هَذَا الْقَصْدَ كَمَا أَحْرَزَ قَوْلُ نُوحٍ ﷺ: ﴿ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾، الإِخْبَارَ عَنْ نَفْيِ مَا رَمَوْهُ بِهِ جُمْلَةً، فَجَاءَ كُلُّ عَلَى مَا يَجِبُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمِمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، أَنَّ نُوحًا وَهُودًا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إِنَّمَا دَعَا إِلَى الْعِبَادَةِ قَوْمًا كُفَرًا، وَقَدْ وَرَدَ فِي قِصَّةِ نُوحٍ ﷺ: ﴿ **قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ** ﴾، وَفِي قِصَّةِ هُودٍ ﷺ: ﴿ **فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ** ﴾، فَوَسَّمُوا بِالْكَفْرِ بِخِلَافِ قَوْمِ نُوحٍ ﷺ؟

وَوَجْهُ ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - الإِكْتِفَاءُ بِمَا وَقَعَ فِي دُعَاءِ نُوحٍ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾، وَخَوْفِهِ مِنْ تَعْدِيْبِهِمْ إِنَّمَا كَانَ لِكُفْرِهِمْ، وَلَمْ يَقَعْ ذَلِكَ

فِي دُعَاءِ هُودٍ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾، لَيْسَ فِيهَا يُعْطِيهِ مِنَ التَّخْوِيفِ فِي قُوَّةٍ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، إِذْ قَدْ يُؤَمَّرُ بِالتَّقْوَى الْمُؤْمِنُ، وَيُقَالُ لِلْعَاصِي بِصَغِيرَةٍ (أَفَلَا تَتَّقِي)، فَلَمَّا كَانَ فِي دُعَاءِ نُوحٍ مَا يُشِيرُ إِلَى الْكُفْرِ وَيَذَلُّ عَلَيْهِ، افْتَضَى الْإِيحَازَ الْإِكْتِفَاءَ بِذَلِكَ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا، أَنَّ قِصَّةَ صَالِحٍ وَقِصَّةَ شُعَيْبٍ الْوَارِدُ فِيهِمَا الدُّعَاءُ إِلَى الْإِيمَانِ عَلَى هَذَا الْمَنْهَجِ لَمَّا لَمْ يَقَعْ فِي دُعَاءِ هَذَيْنِ النَّبِيِّينَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَا وَقَعَ فِي دُعَاءِ نُوحٍ ﷺ مِمَّا يُنْبِئُ بِالْكَفْرِ، وَرَدَّ فِي حِكَايَةِ مَقَالَةِ قَوْمِهِمَا مَا يَحْصُلُ مِنْهُ ذَلِكَ الْمَقْصُودُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾، وَذَلِكَ جَارٍ مِنَ الْوَاقِعِ فِي قِصَّةِ هُودٍ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ، لِأَنَّ اسْتِكْبَارَهُمْ عَنْ إِجَابَتِهِ وَالْإِيمَانَ بِهِ كُفْرٌ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

*** قال ابن جماعة في سورة الأعراف (كَشَفُ الْمَعَانِي) (ص: 177 –

: 179):

مَسْأَلَةٌ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أبلغُكم رسالاتِ ربِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ ﴾. وَقَالَ فِي قِصَّةِ هُودٍ: ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (68) ؟

جَوَابُهُ: أَنَّ (الضَّلَالَ) فِعْلٌ يَتَحَدَّدُ بِتَرْكِ الصَّوَابِ إِلَى ضِدِّهِ، وَيُمْكِنُ تَرْكُهُ فِي الْحَالِ، فَقَابِلُهُ بِفِعْلِ يَنَاسِبُهُ فِي الْمَعْنَى، فَقَالَ: ﴿ وَأُنصَحُ ﴾. وَ(السَّفَاهَةُ) صِفَةٌ لَازِمَةٌ لِصَاحِبِهَا، فَقَابِلُهَا بِصِفَةٍ فِي الْمَعْنَى، فَقَالَ: ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾.

*** قال الكرمانى في سورة الأعراف (أسرار التكرار في القرآن) (ص: 82 –

: 84):

قَوْلُهُ: ﴿ أبلغُكم رسالاتِ ربِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف: 62]، فِي قِصَّةِ نُوحٍ، وَقَالَ فِي قِصَّةِ هُودٍ: ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: 68]، لِأَنَّ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ أبلغُكم ﴾، بِلَفْظِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَعَطَفَ عَلَيْهِ: ﴿ أَنْصَحُ لَكُمْ ﴾، كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ لَقَدْ أبلغُكم رسالاتِ ربِّي وَنصحتُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف: 79]، فَعَطَفَ الْمَاضِي، لَكِنْ فِي قِصَّةِ هُودٍ قَابِلَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ عَلَى قَوْلِهِمْ لَهُ: ﴿ وَإِنَّا لَنظنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الأعراف: 66]، لِيُقَابِلَ الْأِسْمَ بِالْأِسْمِ.

قَوْلُهُ: ﴿ أبلغُكم ﴾ [الأعراف: 62]، فِي قِصَّةِ نُوحٍ وَهُودٍ بِلَفْظِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَفِي قِصَّةِ صَالِحٍ وَشُعَيْبٍ: ﴿ أبلغُكم ﴾ [الأعراف: 79 و 93]، بِلَفْظِ الْمَاضِي، لِأَنَّ فِي قِصَّةِ

نُوحٍ وَهُودٍ وَقَعَ فِي ابْتِدَاءِ الرِّسَالَةِ، وَفِي قِصَّةِ صَالِحٍ وَشُعَيْبٍ وَقَعَ فِي آخِرِ الرِّسَالَةِ وَدُنُوِّ الْعَذَابِ، أَلَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ: **﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾** فِي الْقِصَّتَيْنِ.

قَوْلُهُ: **﴿ رِسَالَاتٍ رَبِّي ﴾**، فِي جَمِيعِ الْقِصَصِ إِلَّا فِي قِصَّةِ صَالِحٍ، فَإِنَّ فِيهَا: **﴿ رِسَالَةً ﴾** [الأعراف: 79]، عَلَى الْوَاحِدَةِ، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ حَكَى عَنْهُمْ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالتَّقْوَى أَشْيَاءَ أَمَرُوا قَوْمَهُمْ بِهَا، إِلَّا فِي قِصَّةِ صَالِحٍ، فَإِنَّ فِيهَا ذِكْرَ النَّاقَةِ، فَصَارَ كَأَنَّهَا رِسَالَةٌ وَاحِدَةٌ، وَقَوْلُهُ: **﴿ بَرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾** [الأعراف: 144]، مُخْتَلَفٌ فِيهَا.

قَوْلُهُ: **﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾** [هُود: 28]، وَبَعْدَهُ: **﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾** [هُود: 63]، وَبَعْدَهُمَا: **﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾** [هُود: 88]، لِأَنَّ (عِنْدَهُ) وَإِنْ كَانَ ظَرْفًا فَهُوَ اسْمٌ، فَذَكَرَ الْأُولَى بِالصَّرِيحِ، وَالثَّانِيَةَ وَالثَّلَاثَةَ بِالْكَنْيَاةِ، لِتَقْدِيمِ ذِكْرِهِ، فَلَمَّا كُنِيَ عَنْهُ قَدَمَهُ، لِأَنَّ الْكَنْيَاةَ يَتَقَدَّمُ عَلَيْهَا الظَّاهِرُ، نَحْوُ: ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا، فَإِنْ كُنَيْتَ عَنْ عَمْرٍو قَدَمَتَهُ، نَحْوُ: عَمْرُو ضَرَبَ زَيْدًا، وَكَذَلِكَ: زَيْدٌ أَعْطَانِي دِرْهَمًا مِنْ مَالِهِ، فَإِنْ كُنَيْتَ عَنْ الْمَالِ قُلْتَ: الْمَالُ زَيْدٌ أَعْطَانِي مِنْهُ دِرْهَمًا.

قَالَ الْخَطِيبُ: لَمَّا وَقَعَ: **﴿ آتَانِي رَحْمَةً ﴾** [هُود: 28]، فِي جَوَابِ كَلَامٍ فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَفْعَالٍ، كُلُّهَا مُتَعَدِّ إِلَى مَفْعُولَيْنِ لَيْسَ بَيْنَهُمَا حَائِلٌ بِجَارٍ وَمَجْرُورٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ: **﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا ﴾** [هُود: 27]، **﴿ وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ ﴾** [هُود: 27]، **﴿ بَلْ نَنْظُنُّكَ كَاذِبِينَ ﴾** [هُود: 27]، أَجْرَى الْجَوَابِ مَجْرَاهُ، فَجَمَعَ بَيْنَ الْمَفْعُولَيْنِ مِنْ غَيْرِ حَائِلٍ. وَأَمَّا الثَّانِي فَقَدْ وَقَعَ فِي جَوَابِ كَلَامٍ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمَا بِجَارٍ وَمَجْرُورٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ: **﴿ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا ﴾** [هُود: 62]، لِأَنَّ خَبَرَ (كَانَ) بِمَنْزِلَةِ الْمَفْعُولِ، كَذَلِكَ حِيلَ فِي الْجَوَابِ بَيْنَ الْمَفْعُولَيْنِ بِالْجَارِ وَالْمَجْرُورِ.

قَوْلُهُ: **﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾** [هُود: 29]، فِي قِصَّةِ نُوحٍ، وَفِي غَيْرِهَا: **﴿ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي ﴾** [هُود: 51]، لِأَنَّ فِي قِصَّةِ نُوحٍ وَقَعَ بَعْدَهَا: **﴿ خَزَائِنُ ﴾** [هُود: 31]، وَلَفْظُ الْمَالِ بِالْخَزَائِنِ أَلْيَقُ.

قَوْلُهُ: **﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِيَّيَ مَلِكٌ ﴾** [هُود: 31]، وَفِي الْأَنْعَامِ: **﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِيَّيَ مَلِكٌ ﴾** [الأنعام: 50]، لِأَنَّ فِي الْأَنْعَامِ آخِرُ الْكَلَامِ فِيهِ جَاءَ بِالْخِطَابِ وَخَتَمَ بِهِ، وَلَيْسَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ آخِرُ الْكَلَامِ، بَلْ آخِرُهُ: **﴿ تَزِدِّي أَعْيُنُكُمْ ﴾** [هُود: 31]، فَبَدَأَ بِالْخِطَابِ وَخَتَمَ بِهِ فِي السُّورَتَيْنِ.

مَجَالِسُ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

1 – قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 60].

2 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هُود: 27].

3 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (24) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 24 – 25].

4 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ﴾ [الشُّعْرَاءِ: 111].

5 – وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: 22].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

*** قال الإسكافي في سورة الأعراف (دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَغُرَّةُ التَّأْوِيلِ):

الآية الثامنة منها (7 – 8) :

مُتَّصِلَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) ﴾ [الْأَعْرَافِ: 60 – 61]، وَقَالَ فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا ﴾ [هُود: 27]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 24].

لِلسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ، فَيَقُولَ:

لِأَيِّ مَعْنَى خَلَّتْ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ مِنْ (الْفَاءِ)، وَقَدْ جَاءَ مِثْلُهَا فِي السُّورَتَيْنِ بِـ (الْفَاءِ)، وَهُوَ: (فَقَالَ) ؟

وَالْجَوَابُ:

أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْمَوْضِعَيْنِ اللَّذَيْنِ دَخَلْتُهُمَا (الْفَاءُ) مَا بَعْدَهُمَا مِمَّا افْتَضَاهُ كَلَامُ النَّبِيِّ مِمَّا رَأَاهُ الْكُفَّارُ جَوَابًا لَهُ، فَكَانَ بِنَاءُ الْجَوَابِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ يُوجِبُ دُخُولَ (الْفَاءِ).
وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْآيَةُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، لِأَنَّهُمْ فِي جَوَابِهِمْ صَارُوا كَالْمُبْتَدئينَ لَهُ بِالْخِطَابِ، غَيْرَ سَالِكِينَ طَرِيقَ الْجَوَابِ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 60-61]، فَكَانَ كَلَامُهُمْ لَهُ كَالْكَلَامِ الَّذِي يَبْتَدئُ بِهِ الْإِنْسَانُ صَاحِبَهُ، فَلِذَلِكَ جَاءَ بِغَيْرِ (فَاءٍ)، مُخَالِفًا طَرِيقَةَ مَا الْكَلَامُ بَعْدَهُ مَبْنِيٌّ بِبِنَاءِ الْجَوَابِ.

وَمِمَّا أُخْرِجَ مِنَ الْأُجُوبَةِ مَخْرَجَ الْإِبْتِدَاءِ بِالْكَلَامِ وَإِنْ كَانَ فِي ضَمْنِهِ الْجَوَابُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32) ﴾ [الْعَنْكَبُوتِ: 31-32]. فَلَمَّ يَأْتِ بِـ (الْفَاءِ) فِي اللَّفْظَتَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَ مَا بَعْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَالْجَوَابِ لِمَا قَبْلَهُ.

وَمِمَّا يُوكِّدُ صِحَّةَ هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيمَا كَانَ مِنْ جَوَابِ عَادٍ لِهُودٍ: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) ﴾ [الْأَعْرَافِ " 65-66]، وَلَمْ يَقُلْ: (فَقَالَ الْمَلَأُ)، لِأَنَّ مَا بَعْدَ (قَالَ) هُنَا مَسْئُوكٌ بِهِ طَرِيقَ الْإِبْتِدَاءِ بِالْخِطَابِ، إِذْ رُمِيَ بِالسَّفَاهَةِ كَمَا رُمِيَ نُوحٌ بِالضَّلَالَةِ، فَلَمَّ تَدَخَّلَ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا (الْفَاءُ) الَّتِي تَجْعَلُ الثَّانِيَّ مُتَعَلِّقًا بِالْأَوَّلِ تَعَلُّقَ الْجَوَابِ بِالْإِبْتِدَاءِ.

*** قال الغرناطي في سورة الأعراف (مَلَأَ التَّأْوِيلِ):

الآية الثامنة (517 – 525) :

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) ﴾ [الْأَعْرَافِ: 60 – 61]، وَقَالَ فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا ﴾ [هُودٍ: 27]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 24].

قُلْتُ: هَذِهِ أَجُوبَةٌ فِي مَقَامَاتٍ شَتَّى وَأَحْوَالٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَلَا سُؤَالَ فِي اخْتِلَافِهَا، وَإِنَّمَا السُّؤَالُ عَن وَجْهِ الْوَاقِعِ فِي كُلِّ سُورَةٍ، إِذْ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمُنَاسَبَةٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ هَذَا فِي الْآيَةِ قَبْلُهَا، فَيَسْأَلُ عَن ذَلِكَ؟ وَعَن ثُبُوتِ (الْفَاءِ) فِي قَوْلِهِ: (فَقَالَ) فِي سُورَةِ هُودٍ، وَسُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ، وَسُقُوطِهَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ؟ وَعَن وَصْفِ الْمَلَائِكَةِ بِالْكَفْرِ فِي السُّورَتَيْنِ، وَسُقُوطِ هَذَا الْوَصْفِ مِنْ آيَةِ الْأَعْرَافِ؟ فَهَذِهِ ثَلَاثَةٌ أَسْئَلُهُ.

وَالْجَوَابُ عَنِ الْأَوَّلِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -:

أَنْ تَقُولَ: أَنْ تَخْصِيصَ الْوَاقِعِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَوَابًا لَهُ عِنْدَ دُعَائِهِمْ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، مُنَاسِبًا لِمَا تَقَدَّمَ فِيهَا مِنْ قَوْلِ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ حِينَ تَتَوَقَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ [الْأَعْرَافِ: 37]، وَقَوْلِ أَخْرَاهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ عِنْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ، وَتَدَارِكِهِمْ فِيهَا جَمِيعًا: ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ [الْأَعْرَافِ: 38]، فَصَارَ هَذَا مَأْلُوفًا مِنْ كَلَامِهِمْ، وَجَوَابًا مُتَكَرِّرًا مِنْهُمْ، ثُمَّ قَدْ جَرَى عَلَى هَذَا إِخْبَارُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ عِنْدَ تَمَنِّيهِمُ الشُّفْعَاءَ، أَوْ الرَّدِّ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا غَيْرَ عَمَلِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الْأَعْرَافِ: 53]، وَلَمْ يَتَقَدَّمَ فِي السُّورَتَيْنِ بَعْدُ مِثْلَ هَذَا، فَنَاسِبٌ هَذَا مَا تَقَدَّمَ.

وَأَمَّا فِي سُورَةِ هُودٍ، مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ الْمَذْكُورِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَدْرِ السُّورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَن كُفَّارِ قُرَيْشٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ مُعَانِدِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَنخَفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَنخَفُونَ نَبَأَهُمْ ﴾ [هُودٍ: 5]. فَاعْلَمْ سُبْحَانَهُ بِطُغْيَانِهِمْ، وَتَمَرُّدِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ، فَنَاسِبٌ هَذَا قَوْلُ الْمُتَمَرِّدِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَارِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هُودٍ: 27].

وَأَمَّا الْوَارِدُ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ، فَإِنَّهُ تَقَدَّمَ فِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 12 - 13]، فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ تَطَوُّرَ الْإِنْسَانِ فِي تَقَلُّبَاتِهِ، وَأَحْوَالِ تَشْهَدُ بِحَالِهِ الْحَضِيضِيَّةِ، وَمَهَانَتِهِ الْأَوَّلِيَّةِ، إِلَى أَنْ تَلْحَقَهُ الْعِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ، وَالْإِخْتِصَاصُ الْإِصْطِفَائِيُّ، فَيَعَزُّ بِإِعْزَازِ مُوجِدِهِ، وَيَخْتَصُّ بِإِخْتِصَاصِ التَّقْرِيبِ وَالتَّشْرِيفِ، فَتَتَفَاوَتْ

أَقْدَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمِنْهُمْ اللَّاحِقُ بِأَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ، وَأَسْنَى الْحَالَاتِ، وَمِنْهُمْ الْبَاقِي فِي حَضِيضِيَّتِهِ مِنْ غَيْرِ تَرَقٍّ لِمَا فَوْقَهَا مِنَ الْإِنْتِقَالَاتِ، وَلَمَّا لَمْ يَتَلَمَّحِ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ جَلِيلَ مَزِيَّةِ التَّشْرِيفِ، وَمَا مُنَحَهُ هَذَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ مِنْ عَلِيٍّ قَدْرِهِ الْأَمْنِيفِ، وَظَنُّوا التَّسَاوِيَّ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالَةِ الْأَوْلِيَّةِ، قَالُوا يُخَاطَبُونَ أَتْبَاعَهُمْ، وَجَوَابًا لِنَبِيِّهِمْ ﷺ: **﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾** [الْمُؤْمِنُونَ: 24].
وَتَأَمَّلْ مَقَالَ الْمَلَأِ هُنَا، وَمُنَاسَبَتِهِ لِمَا قَدَّمَ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، تَجَدُّهُ أَنْسَبَ شَيْءٍ، وَلَمْ يَكُنْ مَقَالَهُمْ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ هَذِهِ لِيُنَاسِبَ غَيْرَ مَا وَقَعَ فِيهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ الثَّانِي:

أَنَّ الْوَاقِعَ فِي سُورَةِ هُودٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ جَوَابِ قَوْمِ نُوحٍ: **﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾** [هُودٍ: 27]، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِمْ، كَلَامٌ لَا يَسْتَقِلُّ مَبْتَدَأً بِهِ، بَلْ يَسْتَدْعِي مَا يُبْنَى عَلَيْهِ، إِذْ لَا يَفْتَتِحُ أَحَدٌ أَحَدًا مُبْتَدَأً بِمِثْلِ هَذَا، وَإِنَّمَا يُتَكَلَّمُ بِهِذَا جَوَابًا، وَلَمَّا قَالَ لَهُمْ نُوحٌ ﷺ: **﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾** [هُودٍ: 51]، إِلَى مَا عَرَّفَهُمْ بِهِ مِمَّا حَصَلَ مِنْهُ الْإِعْلَامُ بِمَقَامِهِ النَّبَوِيِّ، جَاوَبُوهُ بَعْدًا عَنْ تَعَرُّفِ صِدْقِهِ، وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ بِقَوْلِهِمْ: **﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾**، أَي: لَوْ كُنْتَ كَمَا تَزْعُمُ لَكُنْتَ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ، وَلَمْ تَكُنْ مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ، وَقَدْ أَفْصَحُوا بِهِذَا فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ، وَتَكَرَّرَ هَذَا الْمُرْتَكَبُ مِنْ غَيْرِهِمْ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ، فَلِبِنَاءِ هَذَا الْكَلَامِ عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَتَمَحُّضِ الْجَوَابِيَّةِ فِيهِ، وَرَدَ بِ(الْفَاءِ) الْمُقْتَضِيَّةِ السَّبَبِيَّةِ، وَالْمَبْنِيَّةِ لِلْجَوَابِيَّةِ، وَمِثْلُ هَذَا مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ هُوَ وَالْوَارِدُ مِنْ جَوَابِهِمْ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ: **﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾** [الْمُؤْمِنُونَ: 24]، ثُمَّ قَالُوا: **﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾** [الْمُؤْمِنُونَ: 24]، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنْ مَقَالِهِمْ فِي هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ بِ(الْفَاءِ) لِرَبْطِ الْجَوَابِيَّةِ وَوُضُوحِ السَّبَبِيَّةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: **﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾** [الْأَعْرَافِ: 60]، فَإِنَّ هَذَا وَإِنْ تَضَمَّنَ الْجَوَابِيَّةَ، فَإِنَّهُ كَلَامٌ يَسْتَأْنِفُ وَيَبْتَدَأُ بِمِثْلِهِ، وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى مَا يُبْنَى عَلَيْهِ، فَنَاسَبَ ذَلِكَ وَرُودُهُ بِغَيْرِ (الْفَاءِ)، وَحَصَلَتْ الْجَوَابِيَّةُ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، مَعَ رَعْيِ مَا يُنَاسِبُ فِي النَّظْمِ. وَنَظِيرُ هَذَا فِي وَرُودِهِ بِغَيْرِ (الْفَاءِ)، لَمَّا

ذَكَرَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ هُودٍ عليه السلام: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ الأعراف : 66، فَتَأَمَّلْ جَوَابَهُمْ هُنَا، لَمَّا كَانَ الْوَارِدُ فِي قِصَّةِ نُوحٍ عليه السلام فِي أَنَّهُ يُبْنَدُ بِمِثْلِهِ، وَلَا يَفْتَعِرُ إِلَى مَا يُبْنَى عَلَيْهِ كَيْفَ وَرَدَ بِغَيْرِ (أَفَاءٍ)، فَهَذَا يَزِيدُكَ وَضُوحًا فِيمَا قَدَّمْنَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ.

وَالْجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ الثَّلَاثِ:

وَيُنَزَّلُ عَلَى تَمْهِيدٍ، هُوَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ رُسُلَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِالرِّفْقِ فِي دُعَاءِ الْخَلْقِ، وَحَضِّهِمْ عَلَى التَّلَطُّفِ بِهِمْ، وَالصَّبْرِ عَلَى آذَانِهِمْ، فَقَالَ: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: 125]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ [المزمل: 10]، وَقَالَ: ﴿ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ ﴾ [الغاشية: 23]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَدَعُ آذَانَهُمْ ﴾ [الأحزاب: 48]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [الشورى: 48]، وَقَالَ: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: 159]، وَهَذَا كَثِيرٌ، وَقَالَ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: 43 - 44]، وَعَلَى هَذَا جَرَى دُعَاءُ الرُّسُلِ أُمَّمَهُمْ فِي إِخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ، وَتَأَمَّلْ مَا يَحْمِلُ مِنَ التَّلَطُّفِ وَالرِّفْقِ بِالْعِبَادِ قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 22]، وَعَلَى هَذَا الْمُنْهَجِ جَرَى مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ مِنْ دُعَاءِ الرُّسُلِ أُمَّمَهُمْ: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [الآيات، نوح: 10]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [نوح: 20].

ثُمَّ اخْتَلَفَ جَوَابُ الْأُمَّمِ، فَمِنْ مُسْرِعٍ فِي الْإِجَابَةِ بِهِدَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ مُبْطِئٍ، وَمِنْ مُصَمِّمٍ عَلَى ضَلَالِهِ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ [الأنعام: 35]، ثُمَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ مَقَامَاتٌ وَمَقَالَاتٌ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْمَوْطِنِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ يُنَاسِبُهُ، فَجَرَى اخْتِلَافٌ مَا وَرَدَ جَوَابًا بِنِسْبَةِ مَا وَقَعَ الْجَوَابُ عَلَيْهِ، مَعَ إِحْرَازِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَا أَمَرُوا بِهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالتَّلَطُّفِ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِمْ، مُتَوَقِّفِينَ فِيمَا وَرَاءَ هَذَا عَلَى مَا يَرِدُ مِنْهُ تَعَالَى، كَمَا قِيلَ لِنُوحٍ عليه السلام: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾

[الأنعام: 35], فَقَطَعَ عليه السلام رَجَاءَهُ مِنْهُمْ، وَفَهِمَ مِنْ رَبِّهِ تَعَالَى جَوَازَ دُعَائِهِ عَلَيْهِمْ، وَاسْتَشْعَرَ انتِقَامَهُ مِنْهُمْ فَقَالَ: **﴿ رَبِّ لَا تَذُرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾** [نوح: 26], وَذَلِكَ بَعْدَ مُبَالَغَتِهِمْ فِي الْبُغْدِ عَنِ الْإِسْتِجَابَةِ، وَقَوْلِهِمْ: **﴿ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَانَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتِ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾** [هود: 32], قَالَ تَعَالَى فِيمَنْ سَلَكَ مَسَلَكَهُمْ فِي التَّكْذِيبِ: **﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾** [الزخرف: 55], وَقَالَ تَعَالَى: **﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾** [الآية، يونس: 110].

فَأَقُولُ بِنَاءً عَلَى مَا تَمَهَّدَ، أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي سُورَتِي هُودٍ وَالْمُؤْمِنُونَ إِسَاءَةً فِي جَوَابِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ، وَإِطَالَةً فِي الْأَمْرِ تَكْبِيبًا حِينَ قَالُوا فِي سُورَةِ هُودٍ: **﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾** [هود: 27], فَجَمَعُوا فِي هَذِهِ الْإِطَالَةِ تَوَهُّمَهُمْ مَسَاوَاتِهِ عليه السلام، فِيمَا رَأَى الْبَادِي مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَالصُّورَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، إِلَى اسْتِزْدَالِ اتِّبَاعِهِ، كَمَا قَالُوا فِي الْمَوْضِعِ الْآخِرِ: **﴿ أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ﴾** [الشعراء: 111], وَإِلَى التَّعَامِي عَنِ فَضْلِهِ عليه السلام عَلَيْهِمْ، وَظَنِّهِمْ كَذِبَهُ، وَقَدْ نَزَّهَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَجْمُوعَ هَذَا اسْتَطَلَعْتَ مِنْهُ مَكْنُونَ كُفْرِهِمْ، وَمِثْلُ هَذَا مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ قَوْلُهُمْ فِي آيَةِ الْمُؤْمِنُونَ: **﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾** [المؤمنون: 24], إِلَى قَوْلِهِمْ: **﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتِرَبِّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾** [المؤمنون: 25], فَلِإِسَاءَتِهِمْ فِيمَا ذَكَرَ مِنَ الْوَارِدِ عَنْهُمْ فِي الْمَوْضِعَيْنِ وَصَفُوا بِالْكَفْرِ، فَقَالَ تَعَالَى: **﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾** [المؤمنون: 24], فَوَصَفَهُمْ بِالْكَفْرِ فِي السُّورَتَيْنِ.

وَأَمَّا آيَةُ الْأَعْرَافِ فَقَوْلُهُمْ فِيهَا: **﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾** [الأعراف: 60], لَيْسَ كَجَوَابِهِمْ فِي السُّورَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ، لَا مِنْ جِهَةِ الطُّولِ، وَلَا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى، لِأَنَّ لَفْظَ الضَّلَالِ لَيْسَ بِنَصٍّ فِي الضَّلَالِ عَنِ الدِّينِ، لِأَنَّهُ يُقَالُ: ضَلَّ، بِمَعْنَى: تَحَيَّرَ، وَجَارَ عَنِ دِينٍ أَوْ طَرِيقٍ، وَيَتَسَّعُ فِي إِطْلَاقِ لَفْظِ الضَّلَالِ عَلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْنَا، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ هُنَا فِي تَفْسِيرِ الضَّلَالِ: (إِنَّهُ الدَّهَابُ عَنِ طَرِيقِ الصَّوَابِ وَالْحَقِّ)، وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا هُنَا الضَّلَالِ الَّذِي هُوَ الْكَفْرُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَقَعُ إِذَا تَقَدَّمَتْهُ قَرِينَةٌ عَلَى أَعْظَمِ مِنَ الْكَفْرِ، وَأَمَّا هُنَا فَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي الْوَارِدِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ مِنَ الْإِطَالَةِ فِي الْعِبَارَةِ، وَالْإِبْلَاحِ فِيمَا قَصَدُوهُ مِنَ الْمَعْنَى، مِثْلُ مَا فِي

السُّورَتَيْنِ نَاسِبَهُ الْإِيْجَازُ، وَإِنَّ لَمْ يُوصَفُوا هُنَا بِالْكَفْرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف: 60]. وَمِمَّا يَشْهَدُ أَنَّ قَوْمَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا بَلَّغُوا فِي إِسَاءَةِ جَوَابِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف: 66]، وَأَرَادُوا فِي قِلَّةِ عِلْمِ، وَخِفَةِ حِلْمِ، قَالَهُ الْعَزَنُوي، وَقَالَ غَيْرُهُ: (فِي خِفَةِ حِلْمِ، وَسَخَافَةِ عَقْلِ)، فَلَمَّا أَسَاءُوا فِي مَقَالِهِمْ هَذَا عَبَّرَ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف: 66]، فَوَصَفُوا بِالْكَفْرِ مُنَاسِبَةً لِقَوْلِهِمْ، وَلَمَّا لَمْ يَقَعْ فِي جَوَابِ قَوْمِ صَالِحٍ مُوَاجَهَةٌ نَبِيِّهِمْ بِمِثْلِ هَذَا، بَلَّ عَدَلُوا إِلَى مُخَاطَبَةِ ضَعْفَائِهِمْ، بِقَوْلِهِمْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ: ﴿ اتَّعَلَّمُونَ أَنْ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الأعراف: 75]، فَلَمَّا لَمْ يُوَاجَهُوا نَبِيِّهِمْ بِمَا وَاجَهُ قَوْمَ هُودٍ، عَبَّرَ عَنْ هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف: 75].

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ وَصَفُوا بِمَا يُفْهَمُ كُفْرَهُمْ وَهُوَ الْإِسْتِكْبَارُ، قُلْتُ: فُوبِلَ بِهَذَا وَصَفَ مُخَاطَبِيهِمْ بِالِاسْتِضْعَافِ، وَلَيْسَ كَالِإِفْصَاحِ بِالْكَفْرِ، فَوَضَحَ مَا بَسَطْنَاهُ أَوْلَا، وَجَرَى كُلُّ مَنْ دَلَّكَ عَلَى مَا يُنَاسِبُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

*** قال ابن جماعة في سورة الأعراف (كشف المعاني) (ص: 178 –

: (179)

مَسْأَلَةٌ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ فِي نُوحٍ، وَقَالَ بَعْدَهُ فِي قِصَّةِ هُودٍ: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ ؟
جَوَابُهُ: أَنَّ نُوحًا لَمْ يُؤْمِنْ أَحَدٌ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ، وَهُودٌ آمَنَ بَعْضُ أَشْرَافِ قَوْمِهِ، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾.

*** قال الكرمانى في سورة هود (أسرار التكرار في القرآن) (ص: 106 –

: (107)

قَوْلُهُ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [هُود: 25]، بِ(أَلْفَاءِ)، وَبَعْدَهُ: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ [هُود: 27]، بِ(أَلْفَاءِ)، وَهُوَ الْقِيَاسُ وَقَدْ سَبَقَ.
قلت (سمير): أظنه أخطأ، لأن الآية: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ وَلَمْ تَرِدْ بِ(أَلْفَاءِ) كَمَا ذَكَرَ ...

قَوْلُهُ: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ ﴾ [الأعراف: 66], بِغَيْرِ (فَاءِ) فِي قِصَّةِ نُوحٍ وَهُودٍ فِي هَذِهِ السُّورَةِ, وَفِي سُورَةِ هُودٍ وَالْمُؤْمِنُونَ: **﴿ فَقَالَ ﴾** بِـ (أَلْفَاءِ), لِأَنَّ مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ فِي السُّورَتَيْنِ لَا يَلِيقُ بِالْجَوَابِ, وَهُوَ قَوْلُهُمْ لِنُوحٍ: **﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾** [الأعراف: 60], وَقَوْلُهُمْ لِهُودٍ: **﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾** [الأعراف: 66], بِخِلَافِ السُّورَتَيْنِ, فَإِنَّهُمَا أَجَابُوا فِيهِمَا بِمَا زَعَمُوا أَنَّهُ جَوَابٌ.

3 - الْمَشْهَدُ الثَّلَاثُ

دُعَاءُ نُوحٍ عليه السلام عَلَى الْمَكْدِيِّينَ مِنْ قَوْمِهِ

- 1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾** [الأنبياء: 76 - 77]
 - 2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴾** [المؤمنون: 26]
 - 3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾** [الشعراء: 117 - 118].
 - 4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلْنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾** [الصافات: 75].
 - 5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾** [القمر: 10].
 - 6 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾** [نوح: 26 - 27].
- حين استيأس منهم لجأ إلى ربه فطلب منه النصر عليهم، فنقلت لنا الآيات دعاء نوح عليه السلام على قومه، حين قال:

- **﴿ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴾** [المؤمنون: 26].
- **﴿ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾** [الشعراء: 117 - 118].
- **﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾** [القمر: 10].
- **﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾** [نوح: 26 - 27].

4 - الْمَشْنَهْدُ الرَّابِعُ

اسْتِجَابَةُ الدُّعَاءِ وَوَيْدَاتِهِ النَّهَائِيَّةِ

1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ [الأعراف: 64].

2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ [يونس: 73].

3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) ﴾ [هود: 36 - 39].

4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ فَاسْتُلْكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: 26 - 29].

5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ [الشعراء: 117 - 119].

6 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: 14 - 15].

7 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُوسِرٍ ﴾ [القمر: 13].

8 - ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة].

المِفْصَلُ الْأَوَّلُ: صُنْعُ السَّفِينَةِ:

- 1 - ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ ﴾ [الْأَعْرَافِ].
- 2 - ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلَّ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا ﴾ [هُودِ].
- 3 - ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ].
- 4 - ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ [الشُّعْرَاءِ].
- 5 - ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ [العنكبوت].
- 6 - ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر].
- 7 - ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة].

المِفْصَلُ الثَّانِي: بِدَايَةِ النَّهْيَةِ

عَلَامَةُ بِدَايَةِ النَّهْيَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ [هُود: 40].

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 27].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

*** قال الغرناطي في سورة هود (مَلَكَ التَّأْوِيلِ):

الآية الخامسة من سورة هود (654 – 656):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ [هُود: 40]. وَفِي سُورَةِ (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ):

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: 27].

لِلسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ:

عَنْ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ ﴾، وَفِي السُّورَةِ الثَّانِيَةِ: ﴿ فَاسْلُكْ ﴾، وَالْقِصَّةُ وَاحِدَةٌ، فَهَلْ ذَلِكَ بِمُقْتَضٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَوْضُوعَيْنِ بِمَا وَقَعَ فِيهِ؟ وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -:

أَنَّ لَفْظَ **« أَحْمِلْ »** أَوْسَعُ مَوَاقِعَ فِي اللُّغَةِ وَأَكْثَرُ تَصَرُّفًا فِي الْكَلَامِ، تَقُولُ: حَمَلْتُ الشَّيْءَ إِلَى فُلَانٍ، وَحَمَلْتُهُ عَلَى كَاهِلِي، وَحَمَلْتُ الْعِلْمَ عَنِ فُلَانٍ، وَحَمَلْتُ فُلَانًا الْأَمَانَةَ، وَحَمَلْتُهُ الْغَضَبَ عَلَى كَذَا، وَحَمَلْتُ الْفَارِسَ عَلَى صَاحِبِهِ، وَحَمَلْتُ الْمَرْأَةَ وَالشَّجَرَ، وَلَا تَقُولُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا (سَلِّكَ)، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمَحْصُورُ فِيهِ حَسْبَمَا تَعَاقَبَ (سَلِّكَ) وَ(حَمَل)، إِنْ لَمْ يَعْضُدْ فِي الْمَعْنَى مَا يَمْنَعُ.

وَأَمَّا (سَلِّكَ) فَإِنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: سَلَّكْتُ الشَّيْءَ فِي الشَّيْءِ، وَأَسَلَّكْتُهُ، أَيْ: أَدَخَلْتُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **« اسئلك يدك في جيبك »** [القصص: 32]، أَيْ: أَدَخِلْهَا، وَقَالَ تَعَالَى: **« مَا سَلَّكُم فِي سَقَرٍ »** [المدثر: 42]، أَيْ: مَا (أَدَخَلَكُم)، وَقَالَ تَعَالَى: **« وَمَنْ يُعْرِضْ عَنِ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسئَلْهُ عَذَابًا صَعَدًا »** [الجن: 17]، أَيْ: (نُدْخِلْهُ فِيهِ)، وَكُلُّ مَا يُخْرِجُ (سَلِّكَ) عَنِ هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الدُّخُولِ حَقِيقَةً وَمَجَازًا، فَفِيهَا مِنْ حَيْثُ مَنْعُهَا الْخُصُوصَ وَأَمَّا (حَمَل) فَفِيهَا اتِّسَاعٌ لَا يَكُونُ فِي (سَلِّكَ)، فَوَجْهُ وُرُودِهَا فِي سُورَةِ هُودٍ مُنَاسِبَتُهَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، مِنْ حَيْثُ مَا افْتَرَنَ بِهَا مِنْ لَفْظٍ: **« فُلْنَا »**، فَطَالَ الْكَلَامُ لَفْظًا مَعَ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنْ سِعَةِ الْمَحَامِلِ، وَإِنْ لَمْ يَرِدْ جَمِيعُهَا هُنَا، لَكِنْ نَاسَبَ مَجْمُوعُ هَذِهِ الْعِبَارَةِ مَا وَرَدَ فِي سُورَةِ هُودٍ مِنْ اسْتِيفَاءِ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَطُولِ الْكَلَامِ بِذَلِكَ.

وَأَمَّا آيَةُ الْمُؤْمِنُونَ فِي قِصَّةِ نُوحٍ فِيهَا إِيجَازٌ وَإِجْمَالٌ، أَلَا تَرَى أَنَّهَا فِي كَلِمَتِهَا وَعَدَدِ حُرُوفِهَا - أَعْنِي آيَةَ هُودٍ - عَلَى الضَّعْفِ، أَوْ أَطُولَ مِمَّا فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ، فَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ لَفْظُ **« اسئلك »** لِإِيجَازِهِ مِنْ حَيْثُ مَعْنَاهُ، وَعَرَّوهُ عَنِ افْتِرَانِ لَفْظٍ **« فُلْنَا »** أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا يُحَرِّزُ الطُّوْلَ، بِخِلَافِ مَا فِي سُورَةِ هُودٍ.

وَمِمَّا يُعَضِّدُ هَذَا الْمَقْصُودَ وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ: **« حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا »** [هود: 40]، وَفِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ: **« فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا »** [المؤمنون: 27]. فَتَأَمَّلْ تَنْظِيرَ (حَتَّى) وَهِيَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَحْرَافٍ بِ(فَاءِ) التَّعْقِيبِ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ فِي قَوْلِهِ: (فَإِذَا)، وَإِنَّمَا (الْفَاءُ) عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، فَنُوسِبَ بِ(الْفَاءِ) مَوْضِعُهَا الْمَبْنِيَّ عَلَى الْإِيجَازِ، وَبِ(حَتَّى) مَوْضِعُهَا الْمَبْنِيَّ عَلَى الْاسْتِيفَاءِ وَالطُّوْلِ، فَقَدْ وَضَحَ وَرُودُ كُلِّ مِنْ مَا فِي السُّورَتَيْنِ عَلَى مَا يَجِبُ وَيُنَاسِبُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

5 - الْمَشْهَدُ الْخَامِسُ:

تَجَاهُ الْمُؤْمِنِينَ وَهَلَاكُ الْمَكْذِبِينَ

- 1 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: 64].
- 2 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴾ [يونس: 73].
- 3 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمْتِعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعُغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: 40 - 49].
- 4 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوْءٍ فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء: 76 - 77].
- 5 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ

الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿ [المؤمنون: 26 - 30].

6 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾ [الشعراء: 119 - 120].

7 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: 14 - 15].

8 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴾ [الصافات: 75 - 82].

9 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فِدْعَا رَبِّهِ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وُدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: 10 - 15].

10 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحریم: 10].

11 - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ مِمَّا حَطَبْنَاهُمْ أُعْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ [سورة نوح: 25].

أقوال علماء المتشابه اللفظي:

*** قال الإسكافي في سورة الأعراف (دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَعُرَّةُ التَّأْوِيلِ):

الآية العاشرة منها (112 - 113) :

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64) ﴾, وَقَالَ فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ

فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُؤَدِّرِينَ (73) ﴿﴾.

لِلسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ فَيَقُولَ:

لِمَ اخْتَصَّتِ الْآيَةُ الْأُولَى بِقَوْلِهِ: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾، وَالثَّانِيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَجَنَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾، وَزَادَ فِيهَا: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾؟
وَالْجَوَابُ أَنْ يُقَالَ:

السُّورَتَانِ مَكْتَبَتَانِ جَمِيعًا، إِلَّا الْآيَةَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَقَوْلُهُ: ﴿ أَنْجَيْنَا ﴾ أَصْلٌ فِي هَذَا الْبَابِ، لِأَنَّ (أَفْعَلْتُ) فِي بَابِ النَّقْلِ أَصْلٌ لـ (فَعَلْتُ) وَهُوَ أَكْثَرُ، تَقُولُ: نَجَا، وَأَنْجَيْتُهُ، كَمَا تَقُولُ: ذَهَبَ، وَأَذْهَبْتُهُ، وَدَخَلَ، وَأَدْخَلْتُهُ.

فَأَمَّا (فَعَلْتُهُ) فَمِنْ الْقَلَّةِ، بِحَيْثُ يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ، نَحْوُ: فَرَعَ، وَفَرَعْتُهُ، وَخَافَ، وَخَوَّفْتُهُ، وَقَدْ يُجَاءُ مَعَهُ الْهَمْزَةُ، فَيُقَالُ: أَفْرَعْتُهُ، وَأَخَفْتُهُ، وَلَا يُجَاءُ مَعَ تَشْدِيدِ الْعَيْنِ الْهَمْزَةً، وَلَا تَقُولُ: ذَهَبْتُهُ، وَدَخَلْتُهُ فِي: أَذْهَبْتُهُ، وَأَدْخَلْتُهُ.

فَالْآيَةُ الْأُولَى جَاءَتْ عَلَى الْأَصْلِ الْأَكْثَرِ، وَلِهَذَا أَكْثَرَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ جَاءَ عَلَى (أَنْجَيْنَاهُ)، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ [الْأَعْرَافِ: 72]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشُّعْرَاءِ: 65]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ [الْعَنْكَبُوتِ: 24].

وَلَيْسَتْ الْجِيمُ الْمَزِيدَةُ الْمَشْدَدَةُ فِي (نَجَيْنَاهُ) لِلْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ الْمُعَاقِبَةُ لِلْهَمْزَةِ، بِدَلَالَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي ذِي النُّونِ: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: 88]، وَلَا كَثْرَةَ هُنَاكَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾، فَهُوَ الْأَصْلُ، وَ(مَنْ) تَجِيءُ بِمَعْنَاهَا، وَتَكُونَانِ مُشْتَرَكَتَيْنِ فِي مَعَانٍ، وَ(الَّذِينَ) خَالِصَةٌ لِلْخَبَرِ، مَخْصُوصَةٌ بِالصِّلَةِ، فَاسْتَعْمَلَ الْأَصْلُ فِي اللَّفْظَيْنِ، وَهُمَا: (أَنْجَيْنَا) وَ(الَّذِينَ). وَلَمَّا كَرَّرَ هَذَا الذِّكْرَ كَانَ الْعُدُولُ إِلَى اللَّفْظَيْنِ الْآخَرَيْنِ الَّذِينَ هُمَا مَعْنَاهُمَا، وَهُمَا: (نَجَيْنَا)، وَ(مِنْ) أَشْبَهُ بِطَرِيقَةِ الْفُصْحَاءِ وَعَادَةِ الْبُلْغَاءِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾، فِي الْآيَةِ الثَّانِيَّةِ، فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي الْخَبَرِ عَنِ أَحْوَالِ الَّذِينَ نَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ، فَصَارُوا خُلَفَاءَ لِلْهَالِكِينَ. وَقِيلَ: كَانُوا ثَمَانِينَ نَفْسًا، وَهَلَكَ سَائِرُ أَهْلِ الْأَرْضِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَانَ الْإِغْرَاقُ قَبْلَ أَنْ يُجْعَلُوا خَلَائِفَ، فَكَيْفَ قُدِّمَ عَلَيْهِ؟ قُلْنَا: جُوزَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾، وَإِنَّمَا قُدِّمَ لِأَنَّهُ مِنْ صِفَةِ الَّذِينَ أَنْجَاهُمْ، فَلَمَّا أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِذَلِكَ ضَمَّ إِلَيْهِ الْخَبَرَ الثَّانِي، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾، أَي: حَكَمْنَا لَهُمْ بِذَلِكَ، ثُمَّ كَانَ الْإِغْرَاقُ بَعْدَهُ، عَلَى أَنَّ (الْوَاوَ) لَا تَرْتِيبَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْمَذْكُورُ بَعْدَهَا مُقَدَّمًا عَلَى مَا قَبْلَهَا.

*** قال الغرناطي في سورة الأعراف (مَلَأَ التَّأْوِيلِ):

الآية العاشرة (529 – 532):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَانْتَبِهْ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64) ﴾، وَفِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَانْتَبِهْ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) ﴾.

فَفِيهِمَا أَرْبَعُ سُؤَالَاتٍ، يُذَكَّرُ كُلُّ سُؤَالٍ مِنْهَا مُتَّصِلًا بِهِ فِي جَوَابِهِ.

الْأَوَّلُ:

قَوْلُهُ: ﴿ فَانْتَبِهْ ﴾، وَفِي الثَّانِيَّةِ: ﴿ فَانْتَبِهْ ﴾، فَاخْتَلَفَ نَقْلُ الْفِعْلِ بِالْهَمْزَةِ فِي الْأُولَى، وَفِي الثَّانِيَّةِ بِالتَّضْعِيفِ.

وَفِي الْأُولَى: ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾، وَفِي الثَّانِيَّةِ: ﴿ وَمَنْ مَعَهُ ﴾، فَاخْتَلَفَ الْمَوْصُولُ

أَيْضًا.

وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَيْنِ السُّؤَالَيْنِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -:

أَنَّا قَدْ وَضَحْنَا فِي كِتَابِ الْبُرْهَانِ أَنَّ تَرْتِيبَ السُّورِ مُرَاعَى، وَتَرْتِيبَ الْآيِ فِي هَذَا الْحُكْمِ أَوْلَى وَأَبْيَنُ، وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا، فَاعْلَمْ أَيْضًا أَنَّ لَفْظَ (الَّذِي) وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهُ لِلْمُنْتَهَى وَالْمَجْمُوعِ أَصْلٌ فِي الْمَوْصُولَاتِ، إِذْ لَا يَخْرُجُ لَفْظُ (الَّذِي) عَنِ الْمَوْصُولِيَّةِ،

أَمَّا (مَنْ) فَإِنَّهَا تَخْرُجُ إِلَى الْإِسْتِفْهَامِ وَالشَّرْطِ وَغَيْرِهِمَا، وَالْأَصْلُ فِي النَّقْلِ أَيْضًا يَكُونُ بِالْهَمْزَةِ، وَأَمَّا النَّقْلُ بِالتَّضْعِيفِ وَ (الْبَاءِ)، وَغَيْرِهِمَا فَثَانٍ عَنِ الْأَصْلِ، وَمَنْ يَقُولُ بِالْقِيَاسِ فِي النَّقْلِ عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ، مِنْ أَنَّ الْمَقِيسَ فِيهِ النَّقْلُ مِنَ الْفِعْلِ إِنَّمَا هُوَ غَيْرُ الْمُتَعَدِّي، أَوْ الْمُتَعَدِّي إِلَى وَاحِدٍ مَعَ غَيْرِ الْمُتَعَدِّي إِلَى اثْنَيْنِ مَعَ الضَّرْبَيْنِ قَبْلَهُ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَخْفَشِ، فَكُلُّ هَؤُلَاءِ إِنَّمَا الْمَقِيسُ عِنْدَهُمْ مِمَّا يُنْقَلُ بِالْهَمْزَةِ، وَيَجْعَلُونَ النَّقْلَ بِالتَّضْعِيفِ وَغَيْرِهِ مَوْفُوفًا عَلَى السَّمْعِ.

فَإِذَا تَقَرَّرَ مَا ذَكَرْنَاهُ، فَنَقُولُ: إِنَّ سُورَةَ الْأَعْرَافِ وَرَدَ فِيهَا قَوْلُهُ: **﴿ فَانجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾**، كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى الْأَصْلِ فِي نَقْلِ الْفِعْلِ، وَفِي الْمَوْصُولِ، فَقِيلَ: **﴿ فَانجَيْنَاهُ ﴾**، وَقِيلَ: **﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾**، وَوَرَدَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ يُوسُفَ عَلَى مَا هُوَ ثَانٍ عَنِ الْأَصْلِ فِي النَّقْلِ، وَفِي الْمَوْصُولِ رَعِيًا لِلتَّرْتِيبِ، وَلَا يُمَكِّنُ الْعَكْسَ عَلَى هَذَا. ثُمَّ أَنْجَرَ مَعَ ذَلِكَ رَعِيًا تَنَاسُبِ التَّقَارُنِ لَمَّا وَرَدَ فِي الْأُولَى: **﴿ فَانجَيْنَاهُ ﴾**، بِزِيَادَةِ هَمْزَةِ النَّقْلِ الْمُثَبَّتِ لَهَا صُورَةُ الْأَلْفِ فِي الْخَطِّ، وَنُطِقَ بِحَرَكَةِ الْهَمْزَةِ، فَطَالَتِ الْكَلِمَةُ بِالْأَلْفِ خَطًّا، وَبِالنُّطْقِ بِحَرَكَةِ الْهَمْزَةِ لَفْظًا، نَاسِبًا الْمَوْصُولَ الَّذِي هُوَ (الَّذِينَ)، بِزِيَادَةِ حُرُوفِهِ عَلَى حُرُوفِ (مَنْ). وَلَمَّا قِيلَ فِي الثَّانِيَةِ: **﴿ فَانجَيْنَاهُ ﴾**، فَجِيءَ بِمَا هُوَ أَخْصَرُ فِي الْخَطِّ، نَاسِبًا مِنْ الْمَوْصُولَاتِ (مَنْ) الْمَفْرَدُ فِي مَعْنَى (الَّذِي)، وَهُوَ أَخْصَرُ.

السُّؤَالُ الثَّلَاثُ:

زِيَادَةُ: **﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾**، فِي سُورَةِ يُوسُفَ، وَذَلِكَ مِثَالٌ تَفْصِيلِيٌّ فِي طَائِفَةِ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الْمَجْمَلِ الْوَارِدِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾** إِلَى قَوْلِهِ: **﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾**، وَقَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ أُمَّةٍ أَهْلَكَتْ بِتَكْذِيبِهَا، ثُمَّ خَلَفَهَا غَيْرُهَا، فَذَكَرَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِ مُجْمَلًا أَوَّلَ وَاقِعٍ مِنْهُ، وَأَنَّهُمْ جُعِلُوا خَلَائِفَ كَمَا جَرَى فِيمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَالسُّؤَالُ الرَّابِعُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ** ﴾، وَذَلِكَ مُقَابِلٌ بِهِ قَوْلُهُمْ لِنُوحٍ عليه السلام: ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾، فَقِيلَ لَهُمْ: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَمُونَ)، فَأَنَّى لَكُمْ بِالتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي الْأَعْرَافِ: ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ** ﴾، فَلْيَجْرِي مَعَ آيَةِ الْأَعْرَافِ فِيمَا وَرَدَ فِيهَا مِنَ التَّعْرِيفِ بِإِنذَارِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿ **أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ** ﴾، فَوَقَعَ هُنَا التَّعْرِيفُ بِإِنذَارِهِمْ، ثُمَّ وَرَدَ فِي يُونُسَ بِقَوْلِهِ: ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ** ﴾، فَحَصَلَ التَّعْرِيفُ فِي الْآيَتَيْنِ بِإِنذَارِهِمْ، وَعَاقِبَةُ مَنْ أُنذِرَ فَلَمْ يَرْجِعْ عَنْ عَيْبِهِ.

*** قال الكرماني في سورة الأعراف (أسرار التكرار في القرآن) (ص: 82

– 84):

قَوْلُهُ: ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** ﴾ [الأعراف: 64]، وَفِي يُونُسَ: ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ** ﴾، لِأَنَّ (أَنْجَيْنَا) وَ(نَجَيْنَا) لِلتَّعْدِي، لَكِنَّ التَّشْدِيدَ يَدُلُّ عَلَى الْكثْرَةِ وَالْمُبَالَغَةِ، فَكَانَ فِي يُونُسَ: ﴿ **وَمَنْ مَعَهُ** ﴾، وَلَفْظُ (مَنْ) يَقَعُ عَلَى كَثْرَةٍ مِمَّا يَقَعُ عَلَيْهِ (الَّذِينَ)، لِأَنَّ (مَنْ) يَصْلُحُ لِلوَاحِدِ وَالتَّثْنِيَةِ وَالْجَمْعِ، وَالْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ، بِخِلَافِ (الَّذِينَ)، فَإِنَّهُ لِيَجْمَعَ الْمَذَكَّرَ فَحَسَبُ، فَكَانَ التَّشْدِيدُ مَعَ (مَنْ) أَلْيَقَ.

خَاتِمَةٌ

خَاتِمَةٌ:

وبعد هذه الرحلة مع كلام الله عز وجل، والعيش مع الحق في أحسن القصص، والرجوع من الزمان الغابر الذي صورته نصوص الوحي، فنقلتنا عبر آيات الذكر الحكيم إلى أولى مراحل تاريخ البشرية، نعود أدرجنا مرة أخرى لنسطر أهم النتائج التي أوصلنا البحث إليها، والتي يمكن أن نجملها في الآتي:

1 – إن تعدد النصوص الناقلة للقصة الواحدة في القرآن الكريم له أغراضه وأهدافه، ولعل من أهم هذه الأهداف نقل الأحداث والوقائع عبر أسلوب تنوع الألفاظ والتعبير المتكررة في النصوص، وأن هذا التكرار ما جاء في نص معين مخالفاً لنص آخر إلا بهدف تصوير المشهد من زاوية نظر مغايرة لزاوية نظر أخرى.

2 – لقد بذل العلماء جهداً عظيماً في حل مشكل المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، وتوجيه ذلك حسب السياق العام للسورة التي وردت فيها النصوص، إلا أن التعامل مع ذلك في نصوص القصص القرآني يتطلب دقة أكثر، ومعاملة خاصة، تستوجب إعطاء كل لفظ حقه من الدرس، والبحث فيه، ومقارنته مع مرادفاته حسب سياق الحدث في القصة نفسها، وعدم الاكتفاء بتبيين المراد منه في السياق المجمل في السورة التي ورد فيها.

3 – استعملت نصوص القصص القرآني لغة سردية دقيقة، أدت فيها الألفاظ والتراكيب مهمة نقل الحدث كما هو في الحقيقة الواقعة، لذلك يتوجب لزاماً على المتلقي أن يمر عبر طريق فهم اللفظ ليصل إلى تكوين صورة المشاهد المنقولة في النص، بشرط أن يتأسس هذا الفهم على ما تعرفه العرب في كلامها، وما بينته نصوص الوحي الأخرى الموضحة له.

4 – على الباحث أن يدرك أن الوصول إلى حقيقة تشكل الأحداث في القصة يبني على قاعدة اللفظ والتركيب في الآية، لأن التعبير القرآني إذا خالف بين استعمال الألفاظ في نصوص القصة الواحدة إنما يفعل ذلك بقصد ولقصد، فيتوجب على المتلقي أن يقف عند كل ذلك، ويعطيه حقه من البحث والدرس لكي يفهم مقصود التعبير في الآية، فإذا عُرف هذا علمنا أن استعمال المترادفات في نصوص

القصة الواحدة لم يكن من باب اختلاف التنوع, وإنما جاء ليؤدي وظيفة دقيقة مقصودة لذاتها.

5 – تتشكل المشاهد في النصوص القرآنية وفق قواعد التصوير المتعددة, فأحيانا تتشكل الأحداث بين عيني السامع فيراها تتحرك أمامه بكل وضوح, وكأن الحدث نقل عبر تقنية التصوير فتؤدي الألفاظ في ذلك مهمة كاميرات المسح الشامل, فتتشكل المشاهد والمواقف في ذهنه كاملة تامة وكأنه يراها من كل زوايا الرؤية الممكنة.

6 – إن من أهم ما توصل إليه البحث هو تحصيل منهجية تعامل جديد مع متشابهات القصص القرآني, فقد بذل العلماء وسعهم في محاولة الوصول إلى معرفة أسرار التكرار في القرآن الكريم, وقد كان منهجهم في ذلك مقتصرًا على تخريج المسائل, وفهم ما يتعلق بها, بناء على قراءة الآيات وفق السياقات العامة للسور التي وردت فيها, وكان اتفاهم على ذلك قد أعطى قوة وسدادًا لاختياراتهم وتخرجاتهم, وقد فتح الله عليهم في فهم ذلك, ووفقههم غاية التوفيق, إلا أن كثيرًا من المسائل المتعلقة بمتشابه القصص بقيت عالقة تحتاج إلى التدقيق والتمحيص بغية تخريجها على الوجه الذي يراد منها, وقد كان لتطبيق منهج قراءتها ضمن سياق أحداث القصة أثر واضح في توجيه ما تشابه منها, فيجب على الباحث إذا أراد حل ما أشكل لديه من متشابهات القصص أن ينطلق من قراءتها في سياق القصة نفسها, وذلك بالاعتماد على:

- فهم كل لفظ ورد في النص بالرجوع إلى معرفة المعنى المقصود منه, بالاعتماد على شرحه من كتاب الله إن وجد, أو من سنة النبي ﷺ, أو بالرجوع إلى أصل استعمال العرب له في كلامها, لأن الله عز وجل قد أنزل كتابه بلسانهم.
- محاولة تشكيل المشاهد التفصيلية في القصة, وإبراز دور كل لفظ في تصوير أحداثها, وتبيين طبيعة الوظيفة التي جاء من أجل تحقيقها في النص, ومكانته الخاصة في بناء المشهد, ومن هنا يجب مراعاة

الوظيفة التصويرية للألفاظ داخل حركية الأحداث في المشاهد, وعدم الجمود على معانيها المعجمية, والاكتفاء بدلالاتها السطحية.

- لا يمكن نجاح هذه المقاربة إلا بعد استجماع كل النصوص السردية للقصة الواحدة, مع التركيز على اتباع تسلسل الأحداث فيها, ومحاولة بناء فضاءاتها الزمانية والمكانية, ورسم معالم الشخصيات التي تتحرك في حيزها, ثم تتبع حركة الأحداث فيها بدقة, وبعد ذلك يقرأ اللفظ في السياق الذي ورد فيه, لتتكشف في الأخير أسرار ما تشابه منه.

7 - لا يزال مجال البحث مفتوحاً على فضاءات الإعجاز القرآني, وربما تكون هذه الدراسة - ونأمل ذلك - مفتاحاً إلى الولوج أكثر إلى أعماق المتشابهات اللفظية في القصة القرآنية, قصد استخراج كنوزها, والكشف عن أسرارها, نسأل الله العظيم, رب العرش الكريم أن ييسر لنا ذلك, وأن يرزقنا المعونة والسداد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فَهْرِسُ
الْمَصَادِرِ
وَالْمَرَاجِعِ

فَهْرَسُ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ

- 1 - الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: 1409هـ / 1989م.
- 2 - أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد جار الهط الزمخشري، دار الفكر، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1399هـ/1979م
- 3 - أسرار التكرار في القرآن، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1396هـ.
- 4 - الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة.
- 5 - الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1412هـ.
- 6 - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، عام النشر: 1415هـ / 1995م.
- 7 - تفسير البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- 8 - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، جمال الدين عبد الله الأنصاري، دراسة وتحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- 9 - البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1420هـ.
- 10 - البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1408هـ / 1988م.
- 11 - البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، سراج الدين أبو حفص ابن الملقن، تحقق: مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر

- بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1425هـ / 2004م.
- 12 - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1376هـ / 1957م.
- 13 - بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، حميد لحميداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: 2003م.
- 14 - تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1407هـ / 1987م.
- 15 - تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، اعتنى به ووضح حواشيه: عبد المنعم خليل إبراهيم وكريم سيد محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 2007م.
- 16 - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصعب المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الكويت، سنة النشر: 1383هـ / 1963م.
- 17 - التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1420هـ / 2000م.
- 18 - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، اعتنى به: يوسف الحاج أحمد، دار الفيحاء، دمشق، سوريا، وشركة ابن باديس للكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1432هـ / 2011م.
- 19 - تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، جمال الدين الزيلعي، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1414هـ.
- 20 - التشكيل السردى المصطلح والإجراء، محمد صابر عبيد، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، دمشق، سنة الطبع: 1431هـ / 2011م.
- 21 - تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر أبو عبد الله المروزي، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1406هـ.

- 22 - تفسير عبد الرزاق الصنعاني، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، دراسة وتحقيق: محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1419هـ.
- 23 - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، سنة الطبع: 1990م.
- 24 - تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1420هـ / 1999م.
- 25 - تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله والصحابة والتابعين المشهور بنفسير ابن أبي حاتم الرازي، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتب الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1417هـ / 1997م.
- 26 - تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، دار الرشيد، حلب، سورية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1406هـ.
- 27 - تهذيب وترتيب الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بقلم: محمد بن عمر بازمول، دار الاستقامة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1430هـ/2010م.
- 28 - تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 2001م.
- 29 - التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد، محمد بن إسحاق بن محمد أبو عبد الله ابن منده، تحقيق: علي بن محمد الفقيهي، نشر الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: (1405هـ - 1413هـ).
- 30 - التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دمشق، سورية، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1410هـ.
- 31 - الثقات، محمد بن حبان البستي، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1395هـ / 1975م.

- 32 - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1384هـ / 1964م.
- 33 - جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1420هـ / 2000م.
- 34 - الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1422هـ / 2001م.
- 35 - الجامع الصحيح المسند المختصر، المسمى صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار الشعب - القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1407هـ / 1987م.
- 36 - الجامع المختصر من السنن، المعروف بـ(سنن الترمذي)، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1995م.
- 37 - الجواهر الحسان في تفسير القرآن المشهور بتفسير الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر: 1418هـ / 1997م.
- 38 - درة التنزيل و غرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، اعتنى به: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1433هـ / 2012م.
- 39 - رسائل الرافعي، محمود أبو رية، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية.
- 40 - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1415هـ.
- 41 - زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1422هـ.

- 42 - الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1412هـ / 1992م.
- 43 - سر الفصاحة، الأمير أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1402هـ / 1982م.
- 44 - سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: (1995م - 2002م).
- 45 - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، ناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1412هـ / 1992م.
- 46 - سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان.
- 47 - سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة القزويني، تحقيق: بشار عواد، كتب حواشيه: محمود خليل، مكتبة أبي المعاطي، الطبعة الأولى، سنة النشر: 1418هـ / 1998م.
- 48 - سنن النسائي الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1411هـ / 1991م.
- 49 - سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: 1405هـ / 1985م.
- 50 - شرح سنن أبي داود، بدر الدين العيني، تحقيق: أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1420هـ / 1999م.
- 51 - شرح العقيدة الطحاوية، علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1414هـ.

- 52 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان, محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البُستي, ترتيب: علي بن بلبان علاء الدين الفارسي المنعوت بالأمير, مؤسسة الرسالة, بيروت, لبنان.
- 53 - الضعفاء والمتروكين, عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي, تحقيق: عبد الله القاضي, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, سنة الطبع: 1406هـ.
- 54 - علم السرد (مدخل إلى نظرية السرد), يان مانفريد, ترجمة: أماني أبو رحمة, دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع, دمشق, سورية, الطبعة الأولى, سنة الطبع: 1431هـ / 2011م.
- 55 - العمدة في محاسن الشعر وآدابه, ابن رشيق القيرواني, تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد, دار الجيل, بيروت, لبنان, الطبعة الخامسة, سنة الطبع: 1401هـ / 1981م.
- 56 - عمدة القاري شرح صحيح البخاري, بدر الدين العيني الحنفي, تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر, دار الكتب العلمية, بيروت لبنان, سنة الطبع: 1421هـ / 2001م.
- 57 - عون المعبود شرح سنن أبي داود, أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي, تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان, المكتبة السلفية, المدينة المنورة, السعودية, الطبعة الثانية, سنة الطبع: 1388هـ / 1968م.
- 58 - فتح الباري شرح صحيح البخاري, أحمد بن علي بن حجر العسقلاني, دار المعرفة, بيروت, سنة الطبع: 1379هـ.
- 59 - الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي, عبد الرؤوف المناوي, تحقيق: أحمد مجتبي, دار العاصمة, الرياض, السعودية.
- 60 - الفروق اللغوية, الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري, حقه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم, دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع, القاهرة, مصر, الطبعة التاسعة, سنة الطبع: 1991م.
- 61 - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير, محمد بن علي بن محمد الشوكاني, تحقيق: عبد الرزاق المهدي, دار الكتاب العربي, بيروت, لبنان, الطبعة الأولى, سنة الطبع: 1422هـ.
- 62 - في ظلال القرآن, سيد قطب, دار الشروق, القاهرة, مصر, الطبعة الخامسة والثلاثون, سنة الطبع: 1425هـ / 2005م.

- 63 - القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، 1426هـ / 2005م.
- 64 - الكامل في ضعفاء الرجال، أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1418هـ / 1997م.
- 65 - كتاب الزهد، أحمد بن حنبل الشيباني، محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1420هـ / 1999م.
- 66 - كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى.
- 67 - كتاب الكليات، أبو البقاء الكفومي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1419هـ / 1998م.
- 68 - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1407هـ.
- 69 - كشف المعاني في المتشابه من المثاني، بدر الدين ابن جماعة، تحقيق: عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى، عام النشر: 1410هـ / 1990م.
- 70 - لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1426هـ / 2005م.
- 71 - اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1419هـ / 1998م.
- 72 - مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فواد سزكين، مكتبة الخاتجي، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1381هـ.
- 73 - المجتبى من السنن، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، سورية، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1406هـ / 1986م.
- 74 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1412هـ / 1992م.

- 75 - مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس ابن تيمية الحراني، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: 1426هـ / 2005م.
- 76 - محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1418هـ.
- 77 - المحرر الوجيز في تفسير لكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1422هـ / 2008م.
- 78 - المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 2000م.
- 79 - المحيط في اللغة، الصاحب أبو القاسم إسماعيل ابن عباد، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1414هـ / 1994م.
- 80 - مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، طبعة جديدة، سنة الطبع: 1415هـ / 1995م.
- 81 - المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1417هـ / 1996م.
- 82 - مدخل إلى دراسة النص الأدبي المعاصر، سامي سليمان أحمد، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 2006م.
- 83 - المستدرک علی الصحیحین، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1411هـ / 1990م.
- 84 - مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1421هـ / 2001م.
- 85 - مسند البزار، (المطبوع باسم البحر الزخار)، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله وعادل بن سعد وصبري عبد

- الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر: 2009م.
- 86 - مسند أبي يعلى، أحمد بن علي أبو يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1404هـ / 1984م.
- 87 - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان
- 88 - المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار العاصمة، دار الغيث، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1419هـ.
- 89 - معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق: عمر بن محمود، دار ابن القيم، الدمام، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1410هـ / 1990م.
- 90 - معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الرابعة، سنة الطبع: 1417هـ / 1997م.
- 91 - معاني القرآن الكريم، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1409هـ.
- 92 - معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ضبطه وصححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 1408هـ/1988م.
- 93 - المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، مصر، سنة الطبع: 1415هـ.
- 94 - المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية.
- 95 - معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق، سورية، سنة الطبع: 1399هـ / 1979م.

- 96 - مفاتيح الغيب, فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, الطبعة الأولى, سنة الطبع: 1421هـ / 2000م.
- 97 - مفتاح العلوم, أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي, حققه وقدم له وفهرسه: عبد الحميد هندراوي, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, الطبعة الأولى, 1420هـ/2000م.
- 98 - المفردات في غريب القرآن, الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم, تحقيق: صفوان عدنان داودي, دار العلم, الدار الشامية, دمشق, سورية, بيروت, لبنان, سنة الطبع: 1412هـ.
- 99 - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل, أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي, تحقيق: سعيد الفلاح, دار الغرب الإسلامي, تونس, الطبعة الخامسة, سنة الطبع: 2013م.
- 100 - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج, أبو زكريا يحيى بن شرف النووي, دار إحياء التراث العربي, بيروت, لبنان, الطبعة الثانية, سنة الطبع: 1392هـ.
- 101 - الموافقات, إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي, تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان, دار ابن عفان, القاهرة, مصر, الطبعة الأولى, سنة الطبع: 1417هـ / 1997م.
- 102 - النكت والعيون, أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي, تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان.
- 103 - النهاية في غريب الحديث والأثر, أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري, تحقيق: طاهر أحمد الزاوي, ومحمود محمد الطناحي, المكتبة العلمية, بيروت, لبنان, سنة الطبع: 1399هـ / 1979م.

فَهْرِسُ
الْمَوْضُوعَاتِ

فهرسُ الموضوعات

مقدمة: (أ - ي)

المدخل

تأصيل المفاهيم
التشكيل والمتشابه

1 - التشكيل السردى

- 02 مفهوم التشكيل السردى
أولاً: (التشكيل)
03 أ - المعنى اللغوي
05 ب - المعنى الاصطلاحي
ثانياً: (السردى)
07 أ - المعنى اللغوي
09 ب - المعنى الاصطلاحي
09 ثالثاً: التشكيل السردى
التشكيل السردى ولغة التصوير
11 أولاً: تقنية تشكيل الصور المسطحة (صور ثنائية الأبعاد: 2D)
14 ثانياً: تشكيل الصور المجسدة (صور ثلاثية الأبعاد: 3D)
15 ثالثاً: تشكيل صور المشاهد المتحركة (تعدد جهات وزوايا التصوير)
19

2 - المتشابه اللفظي

- 26 مفهوم المتشابه اللفظي
28 المحكم والمتشابه
أولاً: المحكم
28 أ - المعنى اللغوي
28 ب - المعنى الاصطلاحي
ثانياً: المتشابه
30 أ - المعنى اللغوي
31 ب - المعنى الاصطلاحي

- 32 علم المتشابه في القصص القرآني
- 33 أنواع المتشابه اللفظي في القرآن الكريم
- 38 المتشابه اللفظي ونظرية السياق
- 40 المتشابه اللفظي ونظرية السرد

قصة نبي الله آدم عليه السلام

مُجَمَّلُ الْقِصَّةِ

الفصل الأول

قصة نبي الله آدم عليه السلام الجزء الأول

المشاهد التفصيلية:

- 50 **المشهد الأول: خلق آدم عليه السلام - خلق الإنسان -**
- 51 **المفصل الأول: مرحلة الخلق**
- 52 **المفصل الثاني: مرحلة التصوير والتسوية**
- 57 **المفصل الثالث: مرحلة نفخ الروح**
- 59 **الفضاء المكاني**
- 66 **الفضاء الزمني**
- 70 **المشهد الثاني: الأمر بسجود الملائكة وعصيان إبليس**
- 70 **المفصل الأول: لحظة تلقي الخبر**
- 74 **المفصل الثاني: لحظة وقوع السجود**
- 78 **المفصل الثالث: عصيان إبليس**

الفصل الثاني

قصة نبي الله آدم عليه السلام الجزء الثاني

المشاهد التفصيلية:

- 86 **المشهد الأول: الحوار بين الله عز وجل وإبليس المتمرد**
- 86 **المفصل الأول: كفر واستكبار**
- 90 **المفصل الثاني: طمع في الخلود**

- 92 الْمَفْصَلُ الثَّلَاثُ: سَفَاهَةُ التَّحَدِّي
- 94 الْمَفْصَلُ الرَّابِعُ: طَرْدٌ وَإِعَادٌ
- 95 الْمَشْهَدُ الثَّانِي: سَكْنَى الْجَنَّةِ وَقِصَّةُ الْهَبُوطِ إِلَى الْأَرْضِ
- 98 الْمَفْصَلُ الْأَوَّلُ: سَكْنَى الْجَنَّةِ وَالْأَكْلُ مِنْهَا
- 107 الْمَفْصَلُ الثَّانِي: وَسُوسَةُ إِبْلِيسَ لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
- 113 الْمَفْصَلُ الثَّلَاثُ: عَصِيَانُ أ □ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَوْبَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ
- 120 إِسْدَالُ السِّتَارِ: مَوْتُ نَبِيِّ اللَّهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الْفَصْلُ الثَّلَاثُ

كَلَامُ عُلَمَاءِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ عَلَى قِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

- 124 مُجْمَلُ الْقِصَّةِ: الْمَشَاهِدُ التَّفْصِيلِيَّةُ:
- 126 الْمَشْهَدُ الْأَوَّلُ: خَلْقُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - خَلْقُ الْإِنْسَانِ -
- 126 الْمَفْصَلُ الْأَوَّلُ: مَرَحَلَةُ الْخَلْقِ
- 127 أَقْوَالُ عُلَمَاءِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ
- 127 الْمَفْصَلُ الثَّانِي: مَرَحَلَةُ التَّصْوِيرِ وَالتَّسْوِيَةِ
- 128 أَقْوَالُ عُلَمَاءِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ
- 128 الْمَشْهَدُ الثَّانِي: الْأَمْرُ بِسُجُودِ الْمَلَائِكَةِ وَعَصِيَانُ إِبْلِيسَ
- 129 الْمَفْصَلُ الْأَوَّلُ: لِحْظَةُ تَلْقَى الْخَبَرَ
- 130 أَقْوَالُ عُلَمَاءِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ
- 130 الْمَفْصَلُ الثَّلَاثُ: عَصِيَانُ إِبْلِيسَ
- 131 أَقْوَالُ عُلَمَاءِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ
- 130 الْمَشْهَدُ الثَّلَاثُ: الْحَوَارُ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِبْلِيسَ الْمُتَمَرِّدِ
- 132 الْمَفْصَلُ الْأَوَّلُ: كُفْرٌ وَاسْتِكْبَارٌ
- 132 أَقْوَالُ عُلَمَاءِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ
- 138 الْمَفْصَلُ الثَّانِي: طَمَعٌ فِي الْخُلُودِ
- 138 أَقْوَالُ عُلَمَاءِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ
- 141 الْمَفْصَلُ الثَّلَاثُ: سَفَاهَةُ التَّحَدِّي
- 142 أَقْوَالُ عُلَمَاءِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ
- 146 الْمَفْصَلُ الرَّابِعُ: طَرْدٌ وَإِعَادٌ
- 146 أَقْوَالُ عُلَمَاءِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ
- 146 الْمَشْهَدُ الرَّابِعُ: سَكْنَى الْجَنَّةِ وَقِصَّةُ الْهَبُوطِ إِلَى الْأَرْضِ

- 147 المَفصلُ الأولُ: سَكَنَى الْجَنَّةَ وَالْأَكْلَ مِنْهَا
- 147 أقوالُ علماءِ المُتَشابِهِ اللفظيِّ
- 152 المَفصلُ الثالثُ: عَصِيَانُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَوْبَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ
- 153 أقوالُ علماءِ المُتَشابِهِ اللفظيِّ

قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ نُوحٍ عليه السلام

مُجَمَّلُ الْقِصَّةِ

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ نُوحٍ عليه السلام الجزء الأول

- 164 الأفضاءُ الزمانيُّ:
- 167 المَشْهَدُ الأولُ: رِسَالَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ □ وَبِدَايَةُ الدَّعْوَةِ
- 168 المَفصلُ الأولُ: الإِنْذَارُ بَيْنَ يَدَيِ الْعَذَابِ
- 176 المَفصلُ الثاني: الدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ
- 177 المَشْهَدُ الثاني: مَجَالِسُ الدَّعْوَةِ وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ
- 179 الحِوَارُ فِي قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ
- 180 مَجَالِسُ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ
- 184 المَفصلُ الأولُ: المَجْلِسُ الأولُ
- 188 المَفصلُ الثاني: المَجْلِسُ الثاني
- 203 المَفصلُ الثالثُ: المَجْلِسُ الثالثُ (الأخيرُ)
- 205 المَشْهَدُ الثالثُ: دُعَاءُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمُكْذِبِينَ مِنْ قَوْمِهِ

الْفَصْلُ الْخَامِسُ

قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الجزء الثاني

- 221 المَشْهَدُ الأولُ: اسْتِجَابَةُ الدُّعَاءِ وَبِدَايَةُ النِّهَايَةِ
- 222 المَفصلُ الأولُ: صُنْعُ السَّفِينَةِ
- 229 المَفصلُ الثاني: بَدَايَةُ النِّهَايَةِ
- 230 عِلَامَةُ بَدَايَةِ النِّهَايَةِ

- 235 **المشهدُ الثاني: نجاتُ المؤمنينَ وهلاكُ المكذِبينَ**
- 237 **المفصلُ الأول: رُكوبُ السفينةِ**
- 245 **المفصلُ الثاني: الطوفانُ**
- 263 **غرقُ الإبنِ أمامَ عيني والدِه**
- 266 **المفصلُ الثالث: الحياةُ الجديدةُ**
- 270 **المفصلُ الرابع: نجاتُ المؤمنينَ**
- 287 **بدايةُ ما بعدَ النهايةِ**
- 294 **إسدالُ الستارِ: موتُ نبيِّ الله نوحٍ عليه السلام**

الفصلُ السادسُ

كلامُ علماءِ المتشابهِ اللفظِيِّ على قصةِ نوحٍ عليه السلام

- 297 **مُجملُ القصةِ: المشاهدُ التفصيليَّةُ:**
- 301 **المشهدُ الأول: رسالةُ نوحٍ عليه السلامُ وبدايةُ الدعوةِ**
- 301 **أقوالُ علماءِ المتشابهِ اللفظِيِّ**
- 309 **المشهدُ الثاني: مجالسُ الدعوةِ وإقامةُ الحجةِ**
- 310 **أقوالُ علماءِ المتشابهِ اللفظِيِّ**
- 316 **مجالسُ دعوةِ نوحٍ عليه السلامُ**
- 316 **أقوالُ علماءِ المتشابهِ اللفظِيِّ**
- 324 **المشهدُ الرابع: استجابةُ الدعاءِ وبدايةُ النهايةِ**
- 325 **المفصلُ الثاني: بدايةُ النهايةِ**
- 325 **علامةُ بدايةِ النهايةِ**
- 325 **أقوالُ علماءِ المتشابهِ اللفظِيِّ**
- 326 **المشهدُ الخامس: نجاتُ المؤمنينَ وهلاكُ المكذِبينَ**
- 327 **أقوالُ علماءِ المتشابهِ اللفظِيِّ**
- 334 **خاتمةُ**
- 338 **فهرسُ المصادرِ والمراجعِ**
- 349 **فهرسُ الموضوعاتِ**

المُلخَص:

تهدف هذه الدراسة إلى كشف بعض أسرار المتشابه اللفظي في القصص القرآني، وذلك من خلال مقارنة نصوصها من جهة تسلسل الأحداث وفق سياقاتها السردية، معتمدة على ما تقدمها من تأويلات المفسرين والعلماء الذين اعتنوا بتوجيه ما تشابه منها، لتضيف إلى هذا النوع من التأويل والتفسير في علوم القرآن الكريم نوعاً آخر قد يعتبر جديداً في بابهِ، يحاول قراءة تلك المتشابهات وفق آليات وإجراءات التشكيل السردية، ليكشف سر تكرار القصة الواحدة في مواطنها المختلفة التي وردت فيها.

وعلى الرغم من أن الدراسة اقتصرَت على قصتين من قصص الأنبياء في القرآن الكريم إلا أنني فتحت بها باباً كان مغلقاً، تمكنت من خلاله على الاطلاع والكشف عن كثير من قضايا المتشابهات اللفظية، والوصول إلى معرفة أسرارها، وهذا ما يدفعني بقوة وإصرار إلى إكمال باقي القصص بنفس الطريقة وعلى نفس المنهج.

بلغت ألفاظ وتعابير متشابهات القصص القرآني قوة معجزة في تشكيل المشاهد، ونقل القراء إلى فضاءات الأحداث الواقعة في أزمانها الغابرة، مما يجعلهم بقراءتها كأنهم يرونها رأي العين، وهذا ما يجعل الباحث يتعامل مع نصوصها من زاوية وظيفة الألفاظ والتعابير ودورها في تشكيل المشاهد، وتصويرها حال ثبوتها أو حركية أحداثها، وهذا ما يجعل هذه الدراسة تختلف عن سابقتها من الدراسات والبحوث التي اعتنت ببحث جزئيات هذا العلم الجليل.

Summary

Summary:

This study aims to reveal some of the secrets of verbal similarities in the Qur'anic stories, by approaching its texts in terms of the sequence of events according to their narrative contexts, relying on the interpretations presented by the commentators and scholars who took care of directing the similar ones, to add to this type of interpretation in the sciences. The Holy Qur'an is another type which may be considered new in its own. It tries to read those similarities according to the mechanisms and procedures of narrative formation, to reveal the secret of repetition of the same story in its various locations in which it was mentioned.

Although the study was limited to two stories of the prophets in the Holy Qur'an, I was able to see and reveal many issues of verbal similarities, and access to knowledge of their secrets, and this is what prompts me with strength and determination to complete the rest of the stories with the same method.

The words and expressions of similar Qur'anic stories reached a miraculous power in shaping scenes and transferring readers to the spaces of events that occurred in their bygone times, which makes them read them as if they see them with the opinion of the eye. This is what makes the researcher deal with its texts from the angle of the function of words and expressions and their role in shaping scenes, and photographing them if they are proven with the dynamics of its events. This is what makes this study different from the previous ones and focused on examining the particles of this great science.

Keywords :

The Qur'anic stories; Formalization; Narration; Similarities; Stories; Quran.

Résumé

Résumé:

Cette étude tente de dévoiler les secrets de quelques énoncés semblables contenus dans le récit coranique, selon une approche basée sur la chronologie des événements dans leurs contextes narratifs, en tenant compte des différentes interprétations avancées par les savants intéressés par cette thématique, chose qui peut représenter une nouveauté et un plus dans ce genre de commentaire et d'interprétation au sein des sciences coraniques. Une nouveauté qui tente à son tour de lire ces énoncés semblables en se basant sur les mécanismes de la configuration narrative, tentant de dévoiler le secret de la répétition du même récit dans plusieurs endroits.

Cette étude s'est limitée uniquement à deux récits prophétiques, Et malgré cela, j'ai pu déverrouiller une porte qui était close, en découvrant et en dévoilant plusieurs types d'énoncés semblables, et en pénétrant à leurs secrets, ce qui me pousse à aller au bout des autres récits de la même façon et avec la même méthode.

Les mots et les récits des énoncés semblables ont représenté une force miraculeuse dans la configuration des scènes, et le transfert du lecteur aux espaces et aux temps lointains, qu'ont connu ces événements, chose qui rend celui-ci, très proche de ces derniers et le pousse à traiter ces textes d'un point de vue de la fonction des mots et expressions et de leur rôle dans la configuration des scènes lors de leur description en état mouvant ou éternel, et c'est exactement cela qui a démarqué cette étude des autres études qui ont traité de la même thématique.

Mots clés: configuration, énoncés semblables, récit coranique, interprétation.